

آثار ابن المقفع

عبد الله بن المقفع

١٠٦ - ١٤٢ هـ = ٧٢٤ - ٧٥٩ م

كَلْبِيلَةُ وَدَمْتَةُ

الأدب الكبير

الأدب الصغير

الدرّة اليتيمة

رسالة في الصحابة

الأثار الأخرى

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

يرطلب من: دار الكتب العلمية بيروت لبنان
ص: ١١/٩٤٤٤ تليكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

كَلِيلَةُ وَدِمْتَةَ

باب

مقدمة الكتاب

قَدَّمَهَا بَهْنُودُ بْنُ سَحَوَانَ وَيُعْرَفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ . ذَكَرَ فِيهَا السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمِلَ يَبْدُبَا الْفِيلَسُوفُ الْهِنْدِيُّ رَأْسُ الْبِرَاهِمَةِ^١ لِذَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ كَلِيلَةَ وَدِمْتَةَ وَجَعَلَهُ عَلَى أَلْسُنِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ ، صِيَانَةً لِفَرْضِهِ فِيهِ مِنَ الْعَوَامِّ ، وَضِيًّا^٢ بِمَا ضَمَّنَهُ عَنِ الطَّغَامِ^٣ ، وَتَنْزِيهَا لِلْحِكْمَةِ وَفُنُونِهَا وَمَحَاسِنِهَا وَعُيُونِهَا . إِذْ هِيَ لِلْفِيلَسُوفِ مَتَدُوْحَةٌ ، وَلِخَاطِرِهِ مَفْتُوحَةٌ ، وَلِمُحِبِّيهَا تَثْقِيفٌ ، وَلِطَالِبِيهَا تَشْرِيفٌ .

وَذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْفَذَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ بْنَ قُبَادَ بْنَ قَيْرُوزَ مَلِكُ الْفَرَسِ بَرْزَوِيَهُ رَأْسَ أَطْيَاءِ فَارِسَ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْتَةَ . وَمَا كَانَ مِنْ تَلَطُّفِ بَرْزَوِيَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْهِنْدِ حَتَّى حَضَرَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ لَهُ سِرًّا مِنْ خِزَانَةِ الْمَلِكِ لَيْلًا مَعَ مَا وَجَدَ مِنْ كُتُبِ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ . وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِي كَانَ مِنْ بَعَثِهِ بَرْزَوِيَهُ إِلَى مَمْلَكَةِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ نَقْلِ هَذَا الْكِتَابِ . وَذَكَرَ فِيهَا مَا يَلْزَمُ مُطَالَعَهُ مِنْ إِتْقَانِ قِرَائَتِهِ وَالْقِيَامِ بِدِرَاسَتِهِ وَالتَّنْظَرِ إِلَى بَاطِنِ كَلَامِهِ . وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَخْضُلْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْهُ .

وَذَكَرَ فِيهَا حُضُورَ بَرْزَوِيهِ وَقِرَاءَةَ الْكِتَابِ جَهْرًا . وَقَدْ ذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بَرْزَجُمِهْرُ بَابًا مُفْرَدًا يُسَمَّى بِابِ بَرْزَوِيهِ الطَّيِّبِ . وَذَكَرَ فِيهِ

-
- ١ البراهمة : عباد برهمة من آفة الهنود .
 ٢ ضيًّا : بجلا .
 ٣ الطغام : الارذال .
 ٤ عيونها : خيارها .
 ٥ مندوحة : سعة .
 ٦ تثقيف : تهذيب .

شأن برزويه من أول أمره وإن مولده إلى أن بلغ التأديب وأحب الحكمة
واعتر في أقسامها وجعله قبل باب الأسد والثور الذي هو أول الكتاب .

ذو القرنين وملك الهند

قال علي بن الشاه الفارسي : كان السبب الذي من أجله وضع يديا
الفيلسوف لبثليم ملك الهند كتاب كليلة ودمته أن الإسكندر ذا القرنين
الرومي لما فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب سار يريد ملوك
المشرق من الفرس وغيرهم .

فلم يزل يحارب من نازعه ويواقع^١ من واقعه ويسالم من وادعه^٢ من ملوك
الفرس وهم الطبقة الأولى حتى ظهر عليهم وقهر من نأواه وتغلب على من حاربه
فتفرقوا طرائق^٣ وتمزقوا حزائق^٤ . فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين فبدأ في طريقه
بملك الهند ليدعوه إلى طاعته والدخول في ملته وولايته .

وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس وقوة ومراس يقال
له فور . فلما بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب لمحاربه واستعد لمجاذبه
وضم إليه أطرافه وجدد في التآلب^٥ عليه وجمع له العدة في أسرع مدة ، من
الفيلة المعدة للحروب والسباع المضرة^٦ بالوثوب ، مع الحيل المسرجه
والسيوف القواطع والحراب اللوامع .

فلما قرب ذو القرنين من فور الهندي وبلغه ما قد أعد له من الحيل التي

- ٥ أطرافه : أطراف الرجل أبواه واخوته
- وإمامه وكل قريب محرم .
- ٦ التآلب : التجمع .
- ٧ المضرة : المودة .

- ١ يواقع : يحارب .
- ٢ وادعه : صالحه .
- ٣ طرائق : أي فرقاً .
- ٤ حزائق : قطعاً .

كَأَنَّهَا قَطَعُ اللَّيْلِ ، مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَقَالِمِ ،
تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ تَقْصِيرِ يَفْعُ بِهِ إِنْ عَجَّلَ الْمُبَارَزَةَ .

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلًا ذَا حَيْلٍ وَمَكَايِدَ مَعَ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَتَجْرِبَةٍ . فَرَأَى
إِعْمَالَ الْحِيَلِ وَالتَّمَهُّلِ . وَاحْتَفَرَ خَنْدَقًا عَلَى عَسْكَرِهِ وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لِاسْتِنْبَاطِ الْحِيَلِ
وَالْتَدْبِيرِ لِأَمْرِهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْإِيقَاعِ بِهِ . فَاسْتَدْعَى الْمُنْجِمِينَ
وَأَمَرَهُمْ بِالْإِخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُونُ لَهُ فِيهِ سَعَادَةٌ لِمُحَارَبَةِ مَلِكِ الْهِنْدِ وَالثُّصْرَةِ
عَلَيْهِ ، فَاشْتَغَلُوا بِذَلِكَ .

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لَا يَمُرُّ بِمَدِينَةٍ إِلَّا أَخَذَ الصُّنَاعَ الْمَشْهُورِينَ مِنْ صُنَاعِهَا
بِالْحِذْقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ . فَتَنَجَّتْ لَهُ هِمَّتُهُ وَدَلَّتْهُ فِطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الصُّنَاعِ
الَّذِينَ مَعَهُ أَنْ يَصْنَعُوا خَيْلًا مِنْ نَحَاسٍ مُجَوَّفَةً عَلَيْهَا تَمَائِيلٌ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى بَكْرِ
تَجْرِي ، إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتَ سِرَاعًا . وَأَمَرَ إِذَا فَرَّغُوا مِنْهَا أَنْ تُحْشَى أَجْوَافُهَا بِاللَّقْطِ
وَالكَبِيرِيتِ وَتُلْبَسَ وَتُقَدَّمَ أَمَامَ الصَّفِّ فِي الْقَلْبِ . وَوَقْتُ مَا يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ تُضْرَمُ
فِيهَا التَّيْرَانُ . فَإِنَّ الْفَيْلَةَ إِذَا لَقَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَى الْفُرْسَانِ وَهِيَ حَامِيَةٌ وَلَّتْ
هَارِيَةً . وَأَوْعَزَ إِلَى الصُّنَاعِ بِالتَّشْمِيرِ^٢ وَالْإِنْكَاشِ^٣ وَالفِرَاقِ مِنْهَا . فَجَدُّوا فِي ذَلِكَ
وَعَجَّلُوا وَقَرَّبَ أَيْضًا وَقْتُ اخْتِيَارِ الْمُنْجِمِينَ . فَأَعَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى فُورٍ بِمَا
يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَالْإِذْعَانِ لِدَوْلَتِهِ . فَأَجَابَ جَوَابَ مُصْرٍ عَلَى مُخَالَفَتِهِ
مُقِيمٌ^٤ عَلَى مُحَارَبَتِهِ .

فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأَهْبَتِهِ وَقَدَّمَ فُورَ الْفَيْلَةَ أَمَامَهُ وَدَفَعَتْ
الرِّجَالُ تِلْكَ الْحَيْلَ وَتَمَائِيلَ الْفُرْسَانِ فَأَقْبَلَتْ الْفَيْلَةُ نَحْوَهَا وَلَقَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا ،
فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا وَمَضَتْ مَهْزُومَةً

١ يتقدم إلى : أي يأمرهم ويوصيهم . ٤ مصر : مستمر .

٢ التشمير : الجلد . ٥ مقيم : ثابت العزم .

٣ الانكماش : الإسراع .

هَارِبَةً لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ^١ وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا وَطِئَتْهُ .

وَتَقَطَّعَ^٢ فُورٌ وَجَمَعَهُ وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الإسْكَندَرِ وَأَثَخُنُوا فِيهِمِ الجِرَاحَ .
وصَاحِ الإسْكَندَرُ : يَا مَلِكَ الهِنْدِ أَبْرِزْ إِلَيْنَا وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ وَلَا
تَحْمِلِهِمْ إِلَى الفَنَاءِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُرُوءَةِ أَنْ يَرْمِيَ المَلِكُ بِعُدَّتِهِ فِي المَهَالِكِ
المُتَلَفَةِ وَالمَوَاضِعِ المُجْحَفَةِ ، بَلْ يَقِيهِمْ بِمَالِهِ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ . فَأَبْرَزَ إِلَيَّ
وَدَعَ الجُنْدَ فَأَيُّنَا فَهَرَّ صَاحِبُهُ فَهُوَ الأسْعَدُ .

فَلَمَّا سَمِعَ فُورٌ مِنَ ذِي القَرْنَيْنِ ذَلِكَ الكَلَامَ دَعَتْهُ^٣ نَفْسُهُ إِلَى مُلَاقَاتِهِ طَمَعًا
فِيهِ وَظَنَّ ذَلِكَ فَرْصَةً . فَبَرَزَ إِلَيْهِ الإسْكَندَرُ فَتَجَاوَلَا^٤ عَلَى ظَهْرِي فَرَسَيْهَا سَاعَاتٍ
مِنَ النَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدَهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فَفُرْصَةً وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ .

فَلَمَّا أَعْيَا^٥ الإسْكَندَرُ أَمْرَهُ وَلَمْ يَجِدْ فَرْصَةً وَلَا حِيلَةَ أَوْقَعَ ذُو القَرْنَيْنِ فِي
عَسْكَرِهِ صَيْحَةً عَظِيمَةً أَرْتَجَّتْ لَهَا الأَرْضُ وَالعَسَاكِرُ . فَالْتَفَتَ فُورٌ عِنْدَمَا سَمِعَ
الرَّعْقَةَ وَظَنَّهَا مَكِيدَةً فِي عَسْكَرِهِ . فَعَاجَلَهُ ذُو القَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَلَتْهُ عَنْ سِرْجِهِ
أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَوَقَعَ إِلَى الأَرْضِ .

فَلَمَّا رَأَتْ الهِنْدُ مَا نَزَلَ بِهِمْ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ حَمَلُوا^٦ عَلَى الإسْكَندَرِ
فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا أَحْبَبُوا مَعَهُ المَوْتَ . فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ الإِحْسَانَ وَمَنَحَهُ اللهُ
أَكْتافَهُمْ^٧ فَاسْتَوَى عَلَى بِلَادِهِمْ وَمَلَكَ عَلَيْهِمْ رِجَالًا مِنْ ثِقَاتِهِ وَأَقَامَ بِالهِنْدِ حَتَّى
أَسْتَوْسَقَ^٨ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَأَتَّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ . ثُمَّ أَنْصَرَفَ عَنِ الهِنْدِ وَخَلَّفَ
ذَلِكَ الرِّجَالَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ لَهُ .

١ لا تلوي على شيء : لا تقف ولا تنتظر . ٥ أعياء : أعجز .

٢ تقطع : تفرق . ٦ حملوا : كروا .

٣ دعت : ساقته . ٧ أكتافهم : سلطه عليهم .

٤ تجاولا : دار أحدهما حول الآخر . ٨ استوسق : انتظم .

دبشليم الملك وبغيه

فلما بعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه تغيرت الهنود عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم وقالوا ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة والعامه أن يملكوا عليهم رجلاً ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم ، فإنه لا يزال يستدلهم ويستقلهم^١ . واجتمعوا يملكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم . فملكوا عليهم ملكاً يقال له دبشليم وخلصوا الرجل الذي كان خلفه عليهم الإسكندر .

فلما استوسق له الأمر واستقر له الملك طغى وبغى وتكبر وجعل يغزو من حوله من الملوك . وكان مع ذلك مؤيداً مظفراً منصوراً فهابته الرعية .

فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة عبت بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم وكان لا يرتقي حاله إلا ازداد عتواً فمكث على ذلك برهة من الدهر .

بيدبا الفيلسوف

وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة فاضيل حكيم يعرف بفضله ويرجع في الأمور إلى قوله يقال له بيدبا .

فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية فكر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه وردّه إلى العدل والإنصاف . فجمع لذلك تلاميذته وقال :

١ يستقلهم : يحترقهم .

أَتَعْلَمُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشَاوِرْكُمْ فِيهِ ؟ أَعَلِمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ وَالزُّومِ الشَّرِّ وَرَدَاءَةِ السَّيْرِ وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ . وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ^١ أَنْفُسَنَا لِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَّا لِنُرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَالزُّومِ الْعَدْلِ . وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لَزِمْنَا مِنْ وَقْعِ الْمَكْرُوهِ بِنَا وَبُلُوغِ الْمَحْذُورَاتِ إِلَيْنَا أَنْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجُهَالِ أَجْهَلَ مِنْهُمْ وَفِي الْعِيُونِ عِنْدَهُمْ أَقْلَ مِنْهُمْ . وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِي الْجَلَاءُ^٢ عَنِ الْوَطَنِ . وَلَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرِ وَقُبْحِ الطَّرِيقَةِ وَلَا يُمَكِّنُنَا مُجَاهَدَتُهُ^٣ بغيرِ أَسْبِتِنَا وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمَّا تَهَيَّأَتْ لَنَا مُعَانَدَتُهُ . وَإِنْ أَحْسَنَّا مِمَّا بِمُخَالَفَتِهِ وَإِنْ كَارَيْنَا سُوءَ سَيْرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَارِنَا^٤ . وَتَعْلَمُونَ أَنَّ مُجَاوِرَةَ السَّيِّعِ وَالْكَلبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طَيْبِ الْوَطَنِ وَنِضَارَةَ الْعَيْشِ عَدْرٌ بِالنَّفْسِ .

وَإِنَّ الْفَيْلَسُوفَ لِحَقِيقٌ^٥ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إِلَى مَا يُحْصَنُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ نَوَازِلِ الْمَكْرُوهِ وَلِوَاجِئِ الْمَحْذُورِ وَيُدْفَعُ الْمَخُوفَ لِاسْتِجْلَابِ الْمَحْجُوبِ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ فَيْلَسُوفًا كَتَبَ إِلَى تَلْمِيذِهِ يَقُولُ : إِنَّ مُجَاوِرَةَ رِجَالِ السُّوءِ وَالْمُصَاحِبَةَ لَهُمْ كِرَاكِبِ الْبَحْرِ ، إِنَّهُ هُوَ سَيْلَمٌ مِنَ الْعَرَقِ لَمْ يَسَلِّمْ مِنَ الْمَخَافِ ، فَإِذَا أوردَ نَفْسَهُ^٦ مَوَارِدَ^٧ الْهَلَكَاتِ وَمَصَادِرَ الْمَخُوفَاتِ عُدَّ مِنَ الْحَمِيرِ الَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا . لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْبَهِيمِيَّةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوهَ . وَذَلِكَ أَنَّنَا لَمْ نَرَهَا تُورِدُ أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكْتُهَا ، وَأَنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا الَّتِي رُكِبَتْ

٥ لحقيق : الجدير .

٦ أورد نفسه : أحضرها المورد .

٧ موارد : جمع مورد وهو الطريق إلى الماء .

٨ وهو هنا مجاز .

١ نروض : ندرّب .

٢ الجلاء : الاتزاح .

٣ مجاهدته : مقاومته .

٤ بوارنا : هلاكنا .

فيها ، شُحاً بأنفسها وصيانةً لها إلى الثُّمُورِ والتَّبَاعِدِ عنه .
 وقد جَمَعْتُكُمْ لهذا الأمرِ لأنَّكُمْ أُسْرَتِي ومكانُ سِرِّي ومَوْضِعُ مَعْرِفَتِي وبكم
 أَعْتَصِدُ وعليكم أَعْتَمِدُ . فإنَّ الوَحِيدَ في نَفْسِهِ والمُنْفَرِدَ برأيه حيثُ كان فهو
 ضائعٌ ولا ناصِرَ له . على أنَّ العاقِلَ قد يبلُغُ بحيلته ما لا يبلُغُ بالخيَلِ والجُودِ .

مثل القنبرة والفيل

والمَثَلُ في ذلكَ أنَّ قُنْبِرَةً^١ اتَّخَذَتْ أُدْحِيَةً^٢ وباضتَ فيها على طريقِ
 الفيلِ . وكانَ للفيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إليه . فَمَرَّ ذاتَ يومٍ على عادتهِ ليرِدَ مَورِدَهُ
 فَوَطِئَ عَشْرَ القُنْبِرَةِ وهَشَمَ^٤ بيضها وقتَلَ فراخها .
 فلَمَّا نَظَرَتْ ما ساءها عَلِمَتْ أنَّ الذي نالها مِنَ الفيلِ لا من غيره . فَطَارَتْ
 فَوَقَعَتْ على رأسِهِ باكيَةً ثمَّ قالتَ : أيُّها المَلِكُ لِمَ هَشَمْتَ بيضي وقتَلتَ فراخي
 وأنا في جِوارِكَ؟ أَفَعَلتَ هذا أَتَصَغَرًا مِنْكَ لأَمْرِي واحتِقارًا لِسائِي؟
 قالَ : هو الذي حَمَلَنِي على ذلكَ .
 فَتَرَكْتُهُ وَأَنْصَرَفَتْ إلى جَماعَةِ الطَّيْرِ فَشَكَتْ إليها ما نالها مِنَ الفيلِ .
 فقلنَ لها : وما عَسَى أن نبلُغَ منه ونحنُ طيورٌ؟
 فقالتَ للعقاعِقِ^٥ والغربانِ : أَجِبُّ مِنْكُنَّ أن تَصِرْنَ مَعِي إليه فَتَقْفَأَنَّ عَيْنَيْهِ
 فَإِنِّي أحتالُ لَهُ بعدَ ذلكَ بحيلةٍ أُخرى .

١ أعتضد : أستمين .

٢ قنبرة : نوع من العصافير .

٣ أدحية : عشاً .

٤ هشم : كسر .

٥ العقاقق : جمع عقق وهو طائر على قدر الحمامة .

فَأَجْبَنَهَا إِلَى ذَلِكَ وَذَهَبَ إِلَى الْفِيلِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَقَرَّنَ عَيْنَيْهِ حَتَّى ذَهَبَ بِهَا
 وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ إِلَّا مِمَّا يَقُمُّ^١ مِنْ مَوْضِعِهِ .
 فَلَمَّا عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى عُدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعٌ كَثِيرَةٌ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا
 نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ . قَالَتْ الضَّفَادِعُ : مَا حِيلَتْنا نَحْنُ فِي عِظْمِ الْفِيلِ وَأَيْنَ نَبْلُغُ
 مِنْهُ ؟ قَالَتْ : أَحَبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَصِرْنَ مَعِيَ إِلَى وَهْدَةٍ^٢ قَرِيبَةٍ مِنْهُ فَتَنْفِقْنَ^٣ فِيهَا
 وَتَضْجِجْنَ ، فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُمْ لَمْ يَشْكُ فِي الْمَاءِ فَيَهْوِي فِيهَا .
 فَأَجْبَنَهَا إِلَى ذَلِكَ وَاجْتَمَعْنَ فِي الْهَاطِيَةِ ، فَسَمِعَ الْفِيلُ تَقِيقَ الضَّفَادِعِ وَقَدَّ
 جَهْدَهُ الْعَطَشُ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي الْوَهْدَةِ فَأَعْتَظَمَ فِيهَا . وَجَاءَتِ الْقُبْرَةُ
 تُرْفِرُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَتْ : أَيُّهَا الطَّاعِي الْمُعْتَرِّ بِقُوَّتِهِ الْمُحْتَرِّ لِأَمْرِي كَيْفَ
 رَأَيْتَ عِظْمَ حَيْلَتِي مَعَ صِغْرِ جُتِّي عِنْدَ عِظْمِ جُتِّكَ وَصِغْرِ هِمَّتِكَ ؟

بيدبا يستشير تلامذته

فَلْيُشِرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنَحُ^٤ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ . قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : أَيُّهَا
 الْفَيْلَسُوفُ الْفَاضِلُ وَالْحَكِيمُ الْعَادِلُ ، أَنْتَ الْمُقَدَّمُ فِيْنَا وَالْفَاضِلُ عَلَيْنَا . وَمَا
 عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلُغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ وَفَهْمِنَا عِنْدَ فَهْمِكَ ؟ غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ
 السَّبَاحَةَ فِي الْمَاءِ مَعَ التَّمْسَاحِ تَغْرِيرٌ^٥ وَالذَّنْبُ فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ .
 وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السَّمَّ مِنْ نَابِ الْحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ لِيُجَرِّبَهُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَيْسَ الذَّنْبُ
 لِلْحَيَّةِ . وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَايَتِهِ لَمْ يَأْمَنْ وَثَبَتْهُ . وَهَذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْرِعْهُ
 التَّوَائِبُ وَلَمْ تُؤَدِّبْهُ التَّجَارِبُ وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ^٦ وَمُبَادَرَتِهِ بِسَوْءِ إِذَا

- | | |
|-------------------------------|-----------------------------------|
| ١ يقمه : يأكله عن وجه الأرض . | ٤ يسنح : يعرض ويخطر . |
| ٢ وهدة : ما انخفض من الأرض . | ٥ تغرير : أي ترميض النفس للهلكة . |
| ٣ التقيق : صياح الضفادع . | ٦ سورته : حدته . |

لِقِيَّتُهُ بغير ما يُجِبُّ .

فقال الحكيمُ بِيَدِبا : لَعَمْرِي لقد قُلْتُمْ فأحسبتم لكنَّ ذا الرأْيِ الحازِمِ لا يَدْعُ أن يُشاوِرَ مَنْ هو دونَهُ أو فَوْقَهُ في المَنزِلَةِ . والرأْيُ الفَرْدُ لا يُكْتَفَى به في الخاصَّةِ ولا يُنتَفَعُ به في العامَّةِ . وقد صَحَّتْ عَزِيمَتِي على لِقَاءِ دَبْشَلِيمَ . وقد سمعتُ مَقالَتِكُمْ وتَبَيَّنَ لي نَصِيحَتُكُمْ والإشفاقُ عَلَيَّ وعلَيْكُمْ . غيرَ أَنِّي قد رأيتُ رأياً وعزمتُ عَزْماً وستعرفونَ حَدِيثِي عندَ المَلِكِ ومُجاوِبَتِي إِيَّاهُ . فإذا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوجِي من عندهِ فاجتَمِعوا إِلَيَّ .
وصَرَفَهُمْ وهم يَدْعُونَ لَهُ بالسَّلَامَةِ .

دخول بيدبا على الملك

ثمَّ إنَّ بِيَدِبا اختارَ يوماً للدُّخُولِ على المَلِكِ ، حتى إذا كانَ ذلكَ الوقتُ ألقى عليه مُسُوْحَةً^١ وهي لِياسُ البَراهِمَةِ وقَصَدَ بابَ المَلِكِ . وسألَ عن صاحِبِ إِذْنِهِ^٢ وأرشدَ إِلَيْهِ وسَلَّمَ عليه وأعلمَهُ وقالَ لَهُ : إني رجلٌ قَصَدْتُ المَلِكَ في نَصِيحَةٍ . فدَخَلَ الأذِنُ على المَلِكِ في وَقْتِهِ وقالَ : بالبابِ رجلٌ مِنَ البَراهِمَةِ يُقالُ لَهُ بِيَدِبا ، ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ للمَلِكِ نَصِيحَةً . فأذِنَ لَهُ فدَخَلَ ووَقَّفَ بين يَدَيْهِ وكَفَّرَ وسَجَدَ لَهُ واستوى^٣ قائماً وسَكَتَ .

وفَكَرَ دَبْشَلِيمُ في سكوْتِهِ وقالَ : إنَّ هذا لم يَقْصِدنا إِلَّا لِأَمْرَيْنِ : إمَّا أن يَلْتَمِسَ مِنَّا شَيْئاً يُصْلِحُ به حالَهُ ، أو لِأَمْرٍ لِحَقِّهِ فلم يَكُنْ لَهُ به طاقَةٌ . ثم قالَ : إن كانَ للملوكِ فَضْلٌ في مملكتِها فإنَّ للحُكَماءِ فَضْلاً في حِكْمَتِها أعْظَمَ . لأنَّ

١ مسووحه : جمع مسح وهو نوب من شعر .

٢ صاحب إذنه : حاجبه .

٣ استوى : نهض .

الحُكَمَاءُ أَغْنِيَاءُ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْعِلْمِ وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ . وَقَدْ وَجَدْتُ الْعِلْمَ وَالْحَيَاءَ الْفَيْنِ مُتَأَلِّفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ مَتَى فَقَدْ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدْ الْآخَرُ ، كَالْمُتَصَافِيَيْنِ^١ إِنْ عُدِمَ مِنْهَا أَحَدٌ لَمْ يَطْبُ صَاحِبُهُ نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأْسُفًا عَلَيْهِ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ الْحُكَمَاءِ وَيُكْرِمَهُمْ يَعْرِفُ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَصْنُهُمْ عَنِ الْمَوَاقِفِ الْوَاهِتَةِ وَيُتْرَهُمْ عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذَلَةِ^٢ كَانَ مِمَّنْ حُرِمَ عَقْلَهُ وَخَسِرَ دُنْيَاهُ وَظَلَمَ الْحُكَمَاءَ حُقُوقَهُمْ وَعُدَّ مِنَ الْجُهَّالِ .

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى يَدْبَا وَقَالَ لَهُ : نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا يَدْبَا سَاكِتًا لَا تَعْرِضُ حَاجَتَكَ وَلَا تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ فَقُلْتُ : إِنْ الَّذِي أَسْكَنَهُ هَيْبَةً سَاوَرَتْهُ^٣ أَوْ حَيْرَهُ أَدْرَكْتَهُ . وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي طُولِ وَقُوفِكَ وَقُلْتُ : لَمْ يَكُنْ لِيَدْبَا أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرِ حَرَكَةٍ إِلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ ، فَهَلَّا نَسَأَلُهُ عَنِ سَبَبِ دُخُولِهِ . فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَمِيمٍ نَالَهُ كُنْتُ أَوْلَى مَنْ أَخَذَ يَدَيْهِ وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ وَتَقَدَّمَ فِي الْبُلُوغِ إِلَى مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ . وَإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ عَرَضًا مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا^٤ أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيهَا أَحَبُّ . وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ وَمِمَّا لَا يَبْغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَتَذَلُّوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَتَقَادُوا إِلَيْهِ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ عُقُوبَتِهِ . عَلَى أَنْ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرَى^٥ عَلَى إِدْخَالِ نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْأَلَةِ الْمُلُوكِ . وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الرِّعِيَّةِ يَقْصِدُ فِيهِ أَنْ أَصْرِفَ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ نَظَرْتُ مَا هُوَ . فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ وَالْجُهَّالَ يُشِيرُونَ بِضِدِّهِ . وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ فِي الْكَلَامِ .

فَلَمَّا سَمِعَ يَدْبَا ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ أُفْرِخَ^٦ عَنْهُ رَوْعُهُ وَسُرِّي^٧ مَا كَانَ وَقَعَ فِي

٥ أعراض الدنيا : حطامها ومتاعها .

٦ يجترئ : يتشجع .

٧ أفرخ : ذهب .

٨ سرى : زال .

١ المتصافيين : المتواذنين .

٢ الرذلة : الرديئة .

٣ ساورته : غالته .

٤ يأتينا .

نفسه من خوفه وكفر له^١. وسجد ثم قام بين يديه وقال :
 أول ما أقول أني أسأل الله تعالى بقاء الملك على الأبد ودوام ملكه على
 الأمد^٢. لأنه قد منحني الملك في مقامي هذا محلاً جملة شرفاً لي على جميع
 من بعدي من العلماء ، وذكراً باقياً على الدهر عند الحكماء .

ثم أقبل على الملك بوجهه مستبشراً به فرحاً بما بدا له منه وقال : قد عطف
 عليّ الملك بكرمه وإحسانه والأمر الذي دعاني إلى الدخول على الملك
 وحملي^٣ على المخاطرة في كلامه والإقدام عليه نصيحةً اختصصت بها دون
 غيره . وسعلم من يتصل به ذلك أني لم أقصر عن غاية فيما يجب للمولى على
 الحكماء . فإن فسح في كلامي ووعاه عني فهو حقيق بذلك . وإن هو ألقاه
 فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني .

قال الملك : يا بيدبا تكلم مها شئت فلأني مُصغٍ إليك ومقبل عليك
 وسامع منك حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره وأجازيك على ذلك بما أنت أهله .
 قال بيدبا : إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر
 الحيوان أربعة أشياء وهي جماع ما في العالم ، وهي :

الحكمة والعفة والعقل والعدل . والعلم والأدب والرؤية داخله في باب
 الحكمة . والجلم والصبر والوقار داخله في باب العقل . والحياء والكرم
 والصيانة والأنفة داخله في باب العفة . والصدق والإحسان والمراقبة وحسن
 الخلق داخله في باب العدل .

وهذه هي المحاسن وأضدادها هي المساوي . فتي كملت هذه في واحد لم
 يُخرجهُ التقصُّ في نعمته إلى سوء الحظ من ذنياه ولا إلى نقص من عقابه^٤ ،

١ كفر : خضع .
 ٢ الأمد : المدى .
 ٣ حملي : أغرائي .
 ٤ الأنفة : الترفع عن الدنيا .
 ٥ المراقبة : عناية الله .
 ٦ عقابه : آخرته .

ولم يتأسف على ما لم يُعِنِ التوفيقُ ببقائه ، ولم يُحزنه ما تجرئ به المقاديرُ في ملكه ، ولم يدهش عند مكروهه . فالحكمةُ كثرَ لا يقنى على الإنفاقِ ، وذخيرةٌ لا يُضربُ لها بالإملاق^١ ، وحلَّةٌ لا تخلُقُ^٢ جدُّتها ، ولذَّةٌ لا تُصرمُ^٣ مدَّتها . ولئن كنتُ عند مُقامي بين يدي الملكِ أمسكتُ عن ابتدائه بالكلامِ فإنَّ ذلك لم يكن مني إلا لِهَيْبَتِهِ والإجلالِ له . ولعمري إنَّ الملوكَ لأهلٌ أن يُهابوا ولا سيِّما من هو في المترلة التي جلَّ فيها الملكُ عن منازلِ الملوكِ قبله . وقد قالتِ العلماءُ ألزمِ السُّكوتَ فإنَّ فيه السَّلامَةَ . وتجنَّبِ الكلامَ الفارغَ فإنَّ عاقبتهُ الندامةُ .

بيدبا الفيلسوف

وحكي أن أربعة من العلماء ضمَّهم مجلسُ ملكٍ فقال لهم : ليتكلَّم كلُّ منكم بكلامٍ يكونُ أصلاً للأدبِ ؛ فقال أحدهمُ : أفضلُ حلَّةٍ العلماءِ السُّكوتُ . وقال الثاني : إنَّ من أنفعِ الأشياءِ للإنسانِ أن يَعْرِفَ قدرَ متزلِّته من عقله . وقال الثالثُ : أنفعُ الأشياءِ للإنسانِ أن لا يتكلَّم بما لا يعنيه . وقال الرابعُ : أروحُ الأمورِ للإنسانِ التَّسليمُ للمقاديرِ .

واجتمعَ في بعضِ الزمانِ ملوكُ الأقاليمِ من الصِّينِ والهنديِّ وفارسِ والرومِ وقالوا : ينبغي أن يتكلَّم كلُّ منَّا بكلمةٍ تُدوِّنُ عنه على غايرِ الدهرِ . قال ملكُ الصِّينِ : أنا على ما لم أقلُّ أقدَرُ مني على ردِّ ما قلتُ . قال ملكُ الهنديِّ : عجبتُ لمن يتكلَّمُ بالكلمةِ فإن كانت له لم تنفعهُ وإن كانت عليه أوبقتهُ^٤ . قال

١ الإملاق : الفقر أي لا يفتقر صاحبها .
٢ لا تخلق : لا تلبس .
٣ تصرم : لا تقطع .
٤ حلَّة : خصلة .
٥ أروح : تفضيل من الراحة .
٦ أوبقته : أهلكته .

مَلِكُ فَارِسَ : أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتَنِي وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكَتْهَا . قَالَ
 مَلِكُ الرُّومِ : مَا نَدِمْتُ عَلَى مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ
 كَثِيراً . وَالسُّكُوتُ عِنْدَ الْمَلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى نَفْعٍ .
 وَأَعْضَلُ^٢ مَا اسْتُضِلَّ^٣ بِهِ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ . غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ أَطَالَ اللَّهُ مُدَّتَهُ لَمَّا فَسَّحَ
 لِي فِي الْكَلَامِ وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ كَانَ أَوْلَى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ عَرَضِي أَنْ
 تَكُونَ ثَمَرَةً ذَلِكَ لِي دُونِي وَأَنْ أُخْتَصَّ بِالْفَائِدَةِ قَبْلِي . عَلَى أَنَّ الْعُقْبَى هِيَ مَا
 أَهْجِدُ فِي كَلَامِي لَهُ . وَإِنَّا نَفَعُهُ وَشَرَفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ وَأَكُونُ قَدْ قَضَيْتُ قَرَضاً
 وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ الْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ أَسَّسُوا الْمُلْكَ
 قَبْلَكَ وَشَيَّدُوهُ دُونَكَ . وَبَنُوا الْقِلَاعَ وَالْحُصُونَ ، وَمَهَّدُوا الْبِلَادَ ، وَقَادُوا
 الْجِيُوشَ ، وَاسْتَجَاشُوا الْعُدَّةَ ، وَطَالَتْ لَهُمُ الْمُدَّةُ ، وَأَسْتَكْتَرُوا مِنَ السَّلَاحِ
 وَالْكَرَاعِ^٧ ، وَعَاشُوا الدُّهُورَ فِي الْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ ، فَلَمْ يَمْنَعَهُمْ ذَلِكَ مِنْ
 أَكْسَابِ جَمِيلِ الذُّكْرِ ، وَلَا قَطْعَهُمْ عَنِ اعْتِنَامِ الشُّكْرِ وَاسْتِعْمَالِ الْإِحْسَانِ إِلَى
 مَنْ خَوْلُوهُ^٨ وَالرَّفْقِ بَيْنَ وُلُوهُ وَحُسْنِ السَّيْرِ فَمَا تَقَلَّدُوهُ ، مَعَ عِظَمِ مَا كَانُوا
 فِيهِ مِنْ غِرَّةٍ^٩ الْمُلْكَ وَسَكْرَةٍ الْاِقْتِدَارِ .

وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ الطَّالِعُ كَوَكَبُ سَعْدِهِ قَدْ وَرِثَتْ أَرْضَهُمْ
 وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ الَّتِي كَانَتْ عُدَّتَهُمْ ، فَأَقَمْتَ فِيهَا خَوْلَتَ مِنَ الْمُلْكِ
 وَوَرِثْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ . وَلَمْ تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ ، بَلْ
 طَغَيْتَ بَغَيْتَ وَعَعَوْتَ^{١٠} وَعَلَوْتَ عَلَى الرَّعِيَّةِ وَأَسَأْتَ السَّيْرَةَ وَءَاثَمْتَ مِنْكَ

- ١ الهذر : سقط الكلام .
 ٢ أعضل : أقيح .
 ٣ استضل : حُيِّلَ عَلَى الضَّلَالِ .
 ٤ العقبي : العاقبة .
 ٥ مهَّدوا : أصلحوا .
 ٦ استجاشوا : جمعوا .
 ٧ الكراع : الدواب .
 ٨ خَوْلوه : ملكوه .
 ٩ غرة : الاسم من الاغترار . مناه .
 ١٠ عتوت : استكبرت .

الْبَيْئَةُ . وكان الأولى والأشبه^١ بك أن تسلك سبيل أسلافك وتبج آثار الملوك
 قبلك وتقفوا^٢ محاسن ما أبقوه لك وتقلع عما عاره لزم لك وشينه^٣
 واقع بك ، وتحسين النظر برعييتك وتسنن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك
 ذكره ، ويعقبك الجميل فخره ، ويكون ذلك أبقي على السلامة ، وأدوم
 على الاستقامة . فإن الجاهل المعتز من استعمل في أموره البطر والأمينية ،
 والحازم اللبيب من ساس الملك بالمدارة والرفق .
 فانظر أيها الملك فيما أقيت إليك ، ولا يتقلن عليك . فلم أتكلّم بهذا أبتغاء
 عرض تجازيني به ، ولا التماس معروف تسوقه إليّ ، ولكني أتيتك ناصحاً
 مشفقاً عليك .

بيدبا في السجن

فلما قرع بيدبا من مقالته وقضى مناصحته أوغر قلب الملك فأغلظ له في
 الجواب استصغاراً لأمره وقال : لقد تكلمت بكلام ما كنت أظن أن أحداً
 من أهل مملكتي يستقبلني بمثله ولا يقدم على ما أقدمت عليه . فكيف أنت مع
 صغر شأنك وضعف متنتك^٤ وعجز قوتك ! ولقد أكثرت إعجابي من إقدامك
 عليّ وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك . وما أجد في ناديب غيرك أبلغ
 من التكيل بك ، فذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يبلغ ويروم ما رمت
 أنت من الملوك إذا أوسعوا لهم في مجالسهم . ثم أمر به أن يقتل ويصلب .

٤ يعقبك : أي يورثك .
 ٥ أوغر : ملأه غيظاً .
 ٦ متنتك : إحسانك .

١ الاشبه : أي الأليق .
 ٢ تقفوا : تبع .
 ٣ شينه : عيبه .

فلما مَضَوْا به فَكَّرَ فِيهَا أَمْرٌ بِهِ فَأَحْجَمَ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ .
 فلما حُجِسَ أَنْفَذَ الْمَلِكُ فِي طَلَبِ تَلَامِيذَتِهِ وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا فِي
 الْبِلَادِ وَأَعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ الْبِحَارِ . فَمَكَثَ يَتَدَبَّأُ فِي مَحْبَسِهِ أَيَّامًا لَا يَسْأَلُ الْمَلِكُ
 عَنْهُ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ .
 حتى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي سَهَدَ الْمَلِكُ سَهْدًا شَدِيدًا وَطَالَ سَهْدُهُ . فَمَدَّ
 إِلَى الْفَلَكَ بَصْرَهُ وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ الْفَلَكَ وَحَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ . فَأَغْرَقَ الْفِكْرَ
 فِيهِ فَسَلَّكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَّضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ الْفَلَكَ وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُ . فَذَكَرَ
 عِنْدَ ذَلِكَ يَتَدَبَّأُ وَتَفَكَّرَ فِيهَا كَلِمَةً فِيهِ . فَأَرَعَوَى^٣ لِذَلِكَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ
 أَسَأْتُ فِيهَا صَنَعْتُ بِهَذَا الْفَيْلَسُوفِ وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ وَمَا حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ
 إِلَّا سُرْعَةُ الْغَضَبِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي
 الْمُلُوكِ : الْغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الْأَشْيَاءِ مَقْتًا . وَالْبُخْلُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْلُومٍ
 مَعَ ذَاتِ يَدِهِ^٤ . وَالكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَاوِرَهُ . وَالْعُنْفُ فِي الْمُحَاوَرَةِ
 فَإِنَّ السَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا . وَإِنِّي أَتَى إِلَيَّ رَجُلٌ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ مُبَلِّغًا فَعَامَلْتُهُ
 بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ . وَمَا كَانَ هَذَا جَزَاؤُهُ مِنِّي . بَلِ
 كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ وَأَنْقَادًا لِمَا يُشِيرُ بِهِ . ثُمَّ أَنْفَذَ لِسَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ .

تولية بيدبا على جميع المملكة

فلما مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ : يَا بَيْدْبَا أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيرِ
 هِمَّتِي وَعَجَّزْتَ رَأْيِي فِي سِرِّي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آفَئًا؟ قَالَ لَهُ يَتَدَبَّأُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ
 النَّاصِحُ الشَّفِيقُ وَالصَّادِقُ الرَّفِيقُ ، إِنَّا نَبَأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ

٣ ارعوى : رجع عن رأيه .

٤ ذات يده : ميسرته .

١ سهد : طار نومه .

٢ تفلك : استدارة .

وَدَوَامَ مُلْكِكَ لَكَ . قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا يَدْبَا أَعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ كُلَّهُ وَلَا تَدَعْ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتَ بِهِ . فَجَعَلَ يَدْبَا يَنْتَرُ كَلَامَهُ وَالْمَلِكُ مُضْغٍ إِلَيْهِ . وَجَعَلَ دَبْشَلِيمُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا يَنْكُتُ^١ الْأَرْضَ بِشَيْءٍ كَانَ فِي يَدِهِ . ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى يَدْبَا وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ وَقَالَ لَهُ : يَا يَدْبَا إِنِّي قَدْ اسْتَعَذَّبْتُ كَلَامَكَ وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ فِي قَلْبِي وَأَنَا نَاظِرٌ فِي الَّذِي أَشْرْتَ بِهِ وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتَ .

ثُمَّ أَمَرَ بِقِيُودِهِ فَحُلَّتْ وَأُلْتَمِيَ عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ وَتَلَقَّاهُ بِالْقُبُولِ . فَقَالَ يَدْبَا : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ فِي دُونِ مَا كَلَّمْتِكَ بِهِ نُهْيَةً لِمِثْلِكَ . قَالَ : صَدَقْتَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ ، وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى جَمِيعِ أَقْصَى مَمْلَكَتِي . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَعْظَمِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فَلَنِّي غَيْرُ مُصْطَلِحٍ بِتَقْوِيمِهِ إِلَّا بِكَ ، فَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ .

فَلَمَّا انْصَرَفَ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ . فَبَعَثَ فَرْدَهُ وَقَالَ : إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ مِمَّا عَرَّضْتُهُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِكَ وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ وَلَا يَصْطَلِحُ بِهِ سِوَاكَ فَلَا تُخَالِفْنِي فِيهِ . فَأَجَابَهُ يَدْبَا إِلَى ذَلِكَ .

وَكَانَ عَادَةً ذَلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَوَزَرُوا وَزِيْرًا أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا وَيَرْكَبَ فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ بِيَدْبَا ذَلِكَ . فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَرَكِبَ فِي الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ فَجَلَسَ بِمَجْلِسِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ يَأْخُذُ لِلدُّنْيَاءِ مِنَ الشَّرِيفِ ، وَيُسَاوِي بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ . وَرَدَّ الْمَظَالِمَ وَوَضَعَ سُنْنَ الْعَدْلِ ، وَأَكْتَرَّ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَدْلِ . وَأَتَّصَلَ الْخَبِيرُ بِتِلَامِذَتِهِ فَجَاءُوا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَرِحِينَ بِمَا جَدَّدَ اللَّهُ لَهُ مِنْ جَدِيدِ رَأْيِ الْمَلِكِ فِيهِ . وَشَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ يَدْبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرَةِ ، وَأَتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يُعِيدُونَ فِيهِ ، فَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ عِيدٌ يُعِيدُونَهُ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ .

١ ينكت : يضربها بقضيب أو نحوه حال التفكير .

ثم إنَّ يَبْدَا لَمَّا أُخْلِى فِكْرُهُ مِنْ أَشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ تَفَرَّغَ لِوَضْعِ كُتُبِ السِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا . فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيهَا دَقَائِقُ الْحَيْلِ .

وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ يَبْدَا مِنْ حُسْنِ السِّيَرَةِ وَالْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ . فَرَعِيَتْ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ الَّذِينَ كَانُوا فِي نَوَاحِيهِ ، وَأَنْقَادَتْ لَهُ الْأُمُورُ عَلَى أَسْتِوَانِهَا ، وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ .

ثُمَّ إِنَّ يَبْدَا جَمَعَ تَلَامِذَهُ فَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ وَوَعَدَهُمْ وَعَدًّا جَمِيلًا وَقَالَ لَهُمْ : لَسْتُ أَشْكُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفُوسِكُمْ وَقَتَ دُخُولِي عَلَى الْمَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ إِنَّ يَبْدَا قَدْ ضَاعَتْ حِكْمَتُهُ وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ إِذْ عَزَمَ عَلَى الدُّخُولِ عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ الطَّاعِي . فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجَةَ رَأْيِي وَصِحَّةَ فِكْرِي وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلًا بِهِ . لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ الْحُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُولُ : إِنَّ الْمُلُوكَ لَهَا سَكْرَةٌ كَسَكْرَةِ الشَّرَابِ . فَالْمُلُوكُ لَا تُفِيقُ مِنَ السَّكْرَةِ إِلَّا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ وَأَدَبِ الْحُكَمَاءِ .

وَالوَاجِبُ عَلَى الْمُلُوكِ أَنْ يَتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ ، وَالوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ تَقْوِيمُ الْمُلُوكِ بِالسِّيَرَةِ وَتَأْدِيبُهَا بِحِكْمَتِهَا ، وَإِظْهَارُ الْحُجَّةِ النَّبِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُمْ لِیَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْوِجَاجِ وَالخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ . فَوَجَدْتُ مَا قَالَتِ الْعُلَمَاءُ قَرَضًا وَاجِبًا عَلَى الْحُكَمَاءِ لِمُلُوكِهِمْ لِیُوقِفُوهُمْ مِنْ سِنَةِ سَكْرَتِهِمْ . كَالطَّيِّبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ الْأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصِّحَّةِ .

فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَنْ أَمُوتَ وَمَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ يَبْدَا الْفَيْلَسُوفُ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمَ الطَّاعِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ . فَإِنَّ قَائِلَ إِنَّهُ لَمْ يُمَكِّنْهُ أَنْ يُكَلِّمَهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ قَالُوا : كَانَ الْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جِوَارِهِ أَوْلَى بِهِ . وَالانزعاج^٢ عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ . فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِجِيَانِي فَأَكُونَ قَدْ أَتَيْتُ فِيهَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحُكَمَاءِ بَعْدِي عُذْرًا . فَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّفْرِيرِ أَوْ الظَّفْرِ بِمَا

٢ الانزعاج : التحول والانتقال .

١ سنة : نوم .

أُرِيدُهُ ، وكان من ذلك ما أتمّ مُعَايِنُوهُ . فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ الْأَمْثَالِ : إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ : إِمَّا بِمَشَقَّةٍ تَنَالَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ ، أَوْ وَكْسٍ^٢ فِي دِينِهِ . وَمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَتَلَّ الرُّغَائِبَ .

وإنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ^٣ لِسَانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتَابًا فِيهِ ضُرُوبُ الْحِكْمَةِ . فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَيِّ فَرْ شَاءَ وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُرَ مِقْدَارَ عَقْلِهِ وَأَيَّنَ بَلَغَ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهَمُّهُ .

قَالُوا : أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ وَاللَّيِّبُ الْعَاقِلُ ، وَالَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَتَّحَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ وَالْأَدَبِ وَالْفَضِيلَةِ ، مَا خَطَرَ هَذَا بِقُلُوبِنَا سَاعَةً قَطُّ . وَأَنْتَ رَئِيسُنَا وَفَاضِلُنَا وَبِكْ شَرَفْنَا وَعَلَى يَدِكَ آتِعَاشُنَا . وَلَكِنْ سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنَا فِيهَا أَمْرًا .

وَمَكَثَ الْمَلِكُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ السَّيْرَةِ زَمَانًا يَتَوَلَّى لَهُ ذَلِكَ بِيَدَيْهَا وَيَقُومُ بِهِ .

نَدْبُ الْمَلِكِ بِيَدَيْهَا لَوْضَعِ الْكِتَابِ

ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ وَسَقَطَ عَنْهُ التَّنَظُّرُ فِي أُمُورِ الْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذَلِكَ بِيَدَيْهَا ، صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى التَّنَظُّرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَتْهَا فَلَاسِفَةُ الْهِنْدِ لِآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ . فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَتُذَكَّرُ فِيهِ أَيَّامُهُ كَمَا ذُكِرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ . فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِيَدَيْهَا . فَدَعَاهُ وَخَلَا بِهِ وَقَالَ

٣ بسط : أي أطلق .

٤ لا يقوم : لا يكون .

١ وضية : خسارة .

٢ وكس : نقصان .

لَهُ : يَا يَدْبَا إِنَّكَ حَكِيمُ الْهِنْدِ وَفَيْلَسُوفُهَا . وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ فِي خَرَائِنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي ، فَلَمْ أَرُ فِيهِمْ أَحَدًا إِلَّا قَدْ وَضَعَ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ وَيُنَبِّئُ عَنِ أَدْبِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ . فَمِنْهُ مَا وَضَعْتَهُ الْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهَا وَذَلِكَ لِإِفْضَالِ حِكْمَةٍ فِيهَا ، وَمِنْهُ مَا وَضَعْتَهُ حُكَمَاؤُهَا . وَأَخَافُ أَنْ يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أَوْلِيكَ مِمَّا لَا حِيلَةَ لِي فِيهِ وَلَا يَوْجُدُ فِي خَرَائِنِي كِتَابٌ أَذْكَرُ بِهِ بَعْدِي وَيُنَسِّبُ إِلَيَّ كَمَا ذُكِرَ مِنْ كَانَ قَبْلِي بِكُتُبِهِمْ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَابًا بَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ الْعَامَّةِ وَتَأْدِيبُهَا عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ ، وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ الْمُلُوكِ وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ ، فَيَسْقُطُ بِذَلِكَ عَنِّي وَعَنْهُمْ كَثِيرٌ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمُلْكِ . وَأُرِيدُ أَنْ يُبْقِيَ لِي هَذَا الْكِتَابُ ذِكْرًا عَلَى غَايِرِ الدُّهُورِ .

فَلَمَّا سَمِعَ يَدْبَا كَلَامَهُ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ ، عَلَا نَجْمُكَ وَغَابَ نَحْسُكَ وَدَامَتْ أَيَّامُكَ . إِنَّ الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ جُودَةِ الْقَرِيبَةِ وَوُفُورِ الْعَقْلِ حَرَكَةٌ إِلَى عَالِي الْأُمُورِ وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهَيَّئَتْهُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَرَاتِبِ مِثْرَلَةً وَأَبْعَدَهَا غَايَةً . وَأَدَامَ اللَّهُ سَعَادَةَ الْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى مَا عَزَمَ مِنْ ذَلِكَ وَأَعَاتَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ . فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ بِمَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ فَلَأُنِّي صَائِرًا إِلَى غَرَضِهِ بِجَهْدٍ فِيهِ . بِرَأْيِي .

قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا يَدْبَا لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَطَاعَةِ الْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ . وَقَدْ اخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذَلِكَ وَاخْتَرْتُ أَنْ تَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ وَتُعْمَلَ فِيهِ فِكْرُكَ وَتَجْهَدَ فِيهِ نَفْسَكَ بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَلِيَكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى الْجِدِّ وَالْهَزْلِ وَاللَّهْوِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ .

فَكَفَّرَ لَهُ يَدْبَا وَسَجَدَ وَقَالَ : قَدْ أَجَبْتُ الْمَلِكَ أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ وَجَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجْلًا^٢ . قَالَ : وَكَمْ الْأَجْلُ ؟ قَالَ : سَنَةٌ . قَالَ : قَدْ

٢ أَجْلًا : مَوْعِدًا .

١ صَائِرًا : مَتَهُ وَوَاوَصَل .

أَجَلْتُكَ . وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَيِّئَةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ الْكِتَابِ . فَبَقِيَ يَبْدَأُ مُفَكَّرًا فِي
الْأَخِذِ فِيهِ وَفِي أَيِّ صَوْرَةٍ يَبْتَدِئُ بِهَا فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ .

كيفية وضع الكتاب وترتيبه

ثُمَّ إِنَّ يَبْدَأُ جَمَعَ إِلَيْهِ تَلَامِذَهُ وَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ نَدَّنِي إِلَى أَمْرِ فِيهِ
فَخَرِي وَفَحَرَكُمُ وَفَحَرُ بِلَادِكُمْ . وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ . ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا
سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ وَالْعَرْضِ الَّذِي قَصَدَ فِيهِ ، فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ .
فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ إِنَّمَا يَنِي
بِاسْتِفْرَاحِ الْعَقْلِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ . وَقَالَ : أَرَى السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا
بِالْمَلَّاحِينَ لِأَنَّهُمْ يُعَدُّونَهَا . وَإِنَّمَا تَسْلُكُ اللَّجَّةُ ١ بِمُدْبِرِهَا الَّذِي تَقْرَدُ بِأَمْرِهَا .
وَمَنْ شَحِنَتْ بِالرُّكَّابِ الْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ مَلَّاحُهَا لَمْ يُؤْمَرْ عَلَيْهَا مِنَ الْعَرَقِ .
وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيهَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ الْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ مَعَ
رَجُلٍ مِنْ تَلَامِيذِهِ كَانَ يَتَّقِي بِهِ . فَخَلَا بِهِ مُنْفَرِدًا مَعَهُ بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَقِ
الَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ فِيهِ الْهِنْدُ شَيْئًا وَمِنْ الْقَوَاتِ مَا يَقُومُ بِهِ وَبِتَلْمِيذِهِ تِلْكَ الْمُدَّةَ
وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ وَرَدًّا عَلَيْهَا الْبَابَ . ثُمَّ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ ،
وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي وَتَلْمِيذُهُ يَكْتُبُ وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ حَتَّى اسْتَفَرَّ الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ
الْإِنْقَانِ وَالْإِحْكَامِ . وَرَتَّبَ فِيهِ خَمْسَةَ عَشَرَ بَابًا ، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ،
وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا ، لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ مِنَ التَّبَصُّرَةِ
وَالْهِدَايَةِ . وَضَمَّ تِلْكَ الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَاحِدًا وَسَمَّاهُ كِتَابَ كَلِيلَةٍ وَدِمْنَةٍ .

ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لِهَوَا
لِلْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ وَبَاطِنُهُ رِيَاضَةً لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ . وَضَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ

١ اللجة : معظم الماء .

الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته ، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه وآخرته وأولاده^١ ويحضره على حسن طاعته للملوك ويحبته ما تكون مجابته خيراً له . ثم جعله باطناً وظاهراً كرسم سائر الكتب التي يرسم الحكمة . فصار الحيوان هوأ وما ينطق به حكماً وأدباً .

فلما ابتدأ يبدأ بذلك جعل أول الكتاب وصف الصديق . كيف يكون الصديقان وكيف تقطع المودة الثابتة بينها بحيلة ذي التهمة . وأمر تلميذه أن يكتب على لسان يبدأ مثل ما كان الملك شرطه^٢ في أن يجعله لهوأ وحكمة ، فذكر يبدأ أن الحكمة متى دخلها كلام الثقلة أفسدها وأستهزل حكمتها . فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك حتى فتق لها العقل أن يكون كلامها على لسان بهيمتين . فوقع لها موضع اللهو والهزل بكلام البهائم وكانت الحكمة ما نطقا به . فأصغت الحكماء إلى حكمه وتركوا البهائم واللهو وعلموا أنها السبب في الذي وضع لهم . ومالت إليه الجهال عجباً من محاوره بهيمتين ولم يشكوا في ذلك وأتخذوه لهوأ وتركوا معنى الكلام أن يفهموه ولم يعلموا الغرض الذي وضع له . لأن الفيلسوف إننا كان غرضه في الباب الأول أن يخبر عن تواصل الإخوان كيف تأكد المودة بينهم على التحفظ من أهل السعاية^٣ والتحرز ممن يوقع العداوة بين المتحابين ليحجز بذلك نفعا إلى نفسه .

فلم يزل يبدأ وتلميذه في المقصورة حتى استتم عمل الكتاب في مدة سنة .

١ أولاه : أي حياته .

٢ شرطه : اشتراطه .

٣ السعاية : التهمة .

عرض الكتاب على الملك وأهل المملكة

فلَمَّا تَمَّ الحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ المَلِكُ أنْ قَدْ جَاءَ الوَعْدُ فإِذَا صَنَعْتَ ؟ فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ يَيْدَبَا : إني على ما وَعَدْتُ المَلِكَ فليَأْمُرني بِحَمَلِهِ بعد أن يَجْمَعَ أَهْلَ المَمْلَكَةِ لِتَكُونَ قِرَاءَتِي هَذَا الكِتَابَ بِحَضْرَتِهِمْ .

فلَمَّا رَجَعَ الرِّسُولُ إِلَى المَلِكِ سَرَّ بِذَلِكَ وَوَعَدَهُ يَوْمًا يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ المَمْلَكَةِ . ثم نادى في أَقاصي بلادِ الهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ الكِتَابِ . فلَمَّا كَانَ ذَلِكَ اليَوْمَ أَمَرَ المَلِكُ أنْ يُنْصَبَ لِيَيْدَبَا سُرِيرٌ مِثْلُ سُرِيرِهِ وَكَرَاسِيٌّ لِأبناءِ المُلُوكِ والعُلَماءِ وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ .

فلَمَّا جَاءَهُ الرِّسُولُ قَامَ فَلَيْسَ الثِّيَابَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى المُلُوكِ وَهِيَ المَسُوحُ السُّودُ وَحَمَلَ الكِتَابَ تَلْمِيذَهُ .

فلَمَّا دَخَلَ عَلَى المَلِكِ وَتَبَّ الخَلَاتِقُ بِأَجْمَعِهِمْ وَقَامَ المَلِكُ شَاكِرًا . فلَمَّا قَرَّبَ مِنَ المَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ . فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : يا يَيْدَبَا أَرْفَعْ رَأْسَكَ فَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ هِنَاءٌ وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ . وَأَمَرَهُ المَلِكُ أنْ يَجْلِسَ . فَحِينَ جَلَسَ لِقِرَاءَةِ الكِتَابِ سَأَلَهُ المَلِكُ عَنِ مَعْنَى كُلِّ بابٍ مِنْ أَبْوابِ الكِتَابِ وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ . فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ وَفِي كُلِّ بابٍ . فَازْدَادَ المَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا ، فَقَالَ لَهُ : يا يَيْدَبَا ما عَدَوْتُ^١ الَّذِي فِي نَفْسِي وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ فَأَطْلُبُ ما شِئْتَ وَتَحَكَّمْ . فَدَعَا لَهُ يَيْدَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُولِ الجِدَّةِ^٢ وَقَالَ : أَيُّهَا المَلِكُ أَمَّا المَالُ فلا حَاجَةَ لِي فِيهِ . وَأَمَّا الكُسُوفُ فلا أُخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي هَذَا

١ عدوت : جاوزت .

٢ الجِدَّةُ : بِمعنى السَّعَادَةِ .

شيئاً . ولسْتُ أُخْلِى^١ المَلِكُ من حاجَةٍ . قالَ المَلِكُ : يا يَدَبَا ما حاجَتُكَ فكلُّ حاجَةٍ لَكَ قِيلَنا^٢ مَقْضِيَةٌ ! قالَ : يا مُرَّ المَلِكُ أن يُدَوَّنَ كِتابي هذا كما دَوَّنَ آباؤُهُ وأجدادُهُ كُتُبُهُمْ . ويا مُرَّ بالمُحافِظَةِ عليهِ فإنِّي أخافُ أن يَخْرُجَ من بلادِ الهِنْدِ فَيَتَنَاوَلَهُ أَهْلُ فِارِسَ إذا عَلِموا بِهِ . فالْمَلِكُ يا مُرَّ أن لا يَخْرُجَ من بَيْتِ الحِكْمَةِ . ثم دَعَا المَلِكُ بتلاميذِهِ وأحسَنَ لَهُمُ الجِوازِثَ .

ثم إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِيسرى أنوشِروانُ وكانَ مُسْتَأْثِراً^٣ بالكُتُبِ والعِلْمِ والأدبِ والنَّظَرِ في أخبارِ الأوائِلِ وَقَعَ إِلَيْهِ خَبْرُ الكِتابِ ، فلم يَمِرَّ قَرارُهُ حتى بَعَثَ بَرزَوانِيهَ الطَّيِّبَ وتَلَطَّفَ حتى أَخْرَجَهُ من بلادِ الهِنْدِ فَأَقْرَهُ^٤ في خَزائِنِ فِارِسَ .

٣ مُسْتَأْثِراً : مفرداً .

٤ أَقْرَهُ : أثبته .

١ أُخْلِى : أي أَعْضِيه .

٢ قِيلَنا : عندنا .

باب

بَعَثَهُ الْمَلِكُ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ بْنِ قُبَادَ بْنِ فَيْرُوزَ
بِرُزُويهِ بْنِ أَزْهَرَ الطَّبِيبَ إِلَى الْهِنْدِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْكِتَابِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ غَيْبِهِ وَإِلَيْهِ مُتَهَيِّ كُلُّ عِلْمٍ وَغَايَةِ ، الدَّالِّ
عَلَى الْخَيْرِ الْمُسَبَّبِ كُلِّ فَضِيلَةٍ . أَلْهَمَ عِبَادَهُ كُلَّ مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ مِنْ نَوَافِلِ
الْخَيْرَاتِ ، وَنَوَامِي الْبَرَكَاتِ ، لِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ إِذْ
أَمَرَهُمْ بِالشُّكْرِ لَهُ لِيَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ الْمَزِيدَ مِنْهُ وَيُسَارِعُوا فِيهَا بِرُضِيهِ عَنْهُمْ ،
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ

وَقَدْ جَمَلَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسَبَّبٍ عِلَّةً وَلِكُلِّ عِلَّةٍ مَجْرَى يُجْرِيهَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَى
يَدِ عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِهِ وَيُقَدِّرُهَا لَهُ عَلَى أَيَّامِ دَوْلَتِهِ وَأَيَّامِ عُمْرِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ مَا كَانَ
مِنْ عِلْمِ انْتِسَاخِ هَذَا الْكِتَابِ وَنَقْلِهِ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَى مَمْلَكَةِ فَارِسَ إِلهَامُ
أَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ لِلْبَعثِ فِي نَقْلِهِ وَنَسْخِهِ . لِأَنَّهُ كَانَ أَكْبَرَ مَلُوكِ
الْفُرسِ ، وَأَكْثَرَهُمْ حِكْمَةً ، وَأَسَدَّهُمْ رَأْيًا ، وَأَرْشَدَهُمْ تَدْبِيرًا ، وَأَحَبَّهُمْ
لِلْعُلُومِ ، وَأَبْحَثَهُمْ عَنْ مَكَامِينِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى الْخَيْرِ وَتَقَرُّبِهِ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى اقْتِنَاءِ مَا يَزِينُهُ بِزِينَةِ الْحِكْمَةِ مِنْ طَالِبِي الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ فِي

١ نوافل : جمع نافلة وهي ما يستحسن عمله ولا يجب .

مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالنَّفْعِ وَالصَّرِّ وَالصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ .

ولم يكن يعرف ذلك إلا بنور الله تعالى في سياسته عبيده وبلادهم لإقامة رعيته وأموره ، وهو الملك المعظم في قومه كسرى المترين بزينة البهاء الفاضل الماجد الرشيد السعيد الذي لم يعدله أحد ممن مضى قبله من ملوك الفرس ، الناقد البصير الكامل الأدب ، المعينه له نفسه على التماس فروع الحكيم ، المستعين بنور العقل وجودة الفكر ، الذي اختصه الله تعالى بهذه النعمة السابغة حتى أذعنت له الرعية وطاعت لسلطانه البرية ، وصفت له الدنيا ودانت له البلاد ، وانقادت له الملوك وركنت إلى طاعته وخدمته ومناصحته . وذلك منحة من الخالق جلّ وعلا قسمها له في دولته وجملة بها في أقطار مملكته .

فبينما هو ذات يوم في عنقوان دولته وشمخها وعزة مملكته وقعسها إذ أخبره بعض جلسائه أن عند بعض ملوك الهند في خزائنه كتاباً من تأليف الحكماء وتصانيف العلماء واستنباط الفضلاء . وقد فصلت له غرائب من عجائب الموضوع على أفواه البهائم والطير والوحش والهوام وخشاش الأرض . مما يحتاج إليه الملوك لسياسة رعيته ونظام أمور ممالكها وتديريها . فدعته الحاجة إلى اقتناء هذا الكتاب لكمال ملكه وأنه يعلمه ناقصاً وبتحصيله كاملٌ وبتابعه يحصل على رضى الخالق جلّ وعلا وأتقياد المخلوق له وزجره عن المعاصي التي يتبعها شرار الخلق ويتجنبها أصفاهم جوهرأ وأجودهم طبعاً وأنبغهم حسباً .

١ قسمها : منعها وعزتها .

٢ خشاش : الحشرات مطلقاً .

٣ شرار : أشرار .

إيفاد برزويه إلى الهند لنسخ الكتاب

وإنه لما عَزَمَ على ما أرادَ من أمرِهِ وهَمَّ باقتنائه ونسخِهِ قالَ في نَفْسِهِ :
 مَنْ لَهِذا الأَمْرِ العَظِيمِ وَالخَطْبِ الجَسِيمِ وَالأَدَبِ النَّفِيسِ الَّذِي بِهِ تَتَكَمَّلُ
 الفِضائِلُ ، وَلَمْ تَتَرَيَنَّ بِهِ مَلوكُ الهِنْدِ دُونَ مَلوكِ فَارِسَ ؟ وَقَدِ هَمَمْتُ أَنْ لَا
 أَدَعَ مَشَقَّةً وَلَا صَعوبَةً وَلَا مُخاطِرَةً حَتَّى أُبْذِلَهَا فِي طَلَبِ هَذَا الكِتابِ حَتَّى
 أَصِلَ إِلَى نَسخِهِ واقتنائه على ترتيبِ منافعِهِ وعجائِبِهِ من أقوالِ الحُكَماءِ وَوَضَعَ
 العُلَماءِ ، لِيَقَعَ^١ لَنَا اسْتِنباطُهُ دُونَ سائِرِ المُلوكِ مِنْ أَحاديثِ مُعجِبَةٍ وَفِضائِلِ
 مُحكَمَةٍ يَكادُ العَقْلُ يَمُدُّ بِدَأْ إِلَى اجْتِنائِهَا فَمَرَّهَا وَبَفَتْحِهَا لِلذَّبِذِ مذاقِهَا وَيَتَعَلَّقُ
 بِوَثِيقِ^٢ حَبْلِهَا . إِذْ يَرُوضُ^٣ النَّفْسَ بِالْعُدُولِ عَنِ مَساوِئِهَا وَيَعْدِلُ بِهَا عَنِ
 تَتَبُّعِ أَهوائِهَا .

فلَمَّا فَحَصَ كِسْرَى رَأْيَهُ السَّديدَ وَعَزَمَهُ الرُّشيدَ فِيمَا صَمَّمَ عَلَيْهِ وَهَمَّ بِهِ
 قالَ : الأَمْرُ فِي ذَلِكَ جَليلٌ وَالخَطْبُ عَظِيمٌ وَالشَّقَّةُ^٤ بَعِيدَةٌ وَالسَّافَةُ طَوِيلَةٌ
 شاقَّةٌ . وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَتَخَلَّ^٥ مِنْ أَهْلِ الكِتابَةِ أَصْلِبَهُمْ عوداً^٦ وَأَجودَهُمْ عَزْماً
 وَحَزْماً . وَهَذَا يَوجَدُ إِمَّ فِي كُتُبِ الدِّيوانِ وَإِمَّ فِي الطَّبِّ الخَاصِّ . لِأَنَّ
 الخَاصَّ وَالعامَّ تَجْمَعُ مَسالِكُهُما جَميعَ الفِضائِلِ وَالأَدَبِ وَفنونِ العِلْمِ وَمَحض^٧
 الحِكمِ فِي أَناءِ^٨ وَثُوءِ^٩ وَبُلُوغِ الأَغراضِ لِلوَكِيها بِحُسْنِ الحِيلِ وَجُودَةِ الذَّهَنِ
 وَكَمالِ المُرُوءَةِ وَكِيانِ السِّرِّ وإظهارِ أَضدادِها .

- | | | |
|---|----------------|----------------|
| ١ | يقع : | بيت . |
| ٢ | وثيق : | محكم متين . |
| ٣ | يروض : | يقطف ويهذب . |
| ٤ | الشقة : | السفر . |
| ٥ | نتخل : | أي يختار . |
| ٦ | أصلبهم عوداً : | أحذقهم طبعاً . |
| ٧ | محض : | خالص . |
| ٨ | توعدة : | تأني . |

فلما تمَّ عزمُهُ وانتظَمَ سألَ وُزْرَاءَهُ أَنْ يَتَقَدَّمُوا وَيَجْتَهِدُوا فِي تَطَلُّبِ رَجُلٍ
 كَامِلٍ عَالِمٍ أَدِيبٍ ، قَدْ جَمَعَ الْفَضَائِلَ بِحِذَافِيرِهَا^١ وَنُسِبَ إِلَى الْكَمَالِ مِنْ أَهْلِ
 الصِّنْفَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ ، إِمَاماً كَاتِباً نَحْرِيّاً^٢ أَوْ طَبِيباً فَيْلَسُوفاً مَاهِراً قَدْ أَدَبَتْهُ
 التَّجَارِبُ ، عَارِفاً بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ خَيْرِاً بِاللُّغَةِ الْهِنْدِيَّةِ ، يَكْتُبُهَا جَمِيعاً ،
 حَرِيصاً عَلَى الْعِلْمِ مُجْتَهِداً فِي الْأَدَبِ مُوَظِئاً عَلَى الطَّبِّ أَوْ الْفَلَسَفَةِ فَيَأْتُوهُ بِهِ .
 فَخَرَجَ أَهْلُ مَشَاهِيرِهِ^٣ وَوُزْرَاؤُهُ مُسْرِعِينَ . فَبَحَثُوا عَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ
 فَوَجَدُوهُ وَظَفِرُوا بِهِ . فَإِذَا هُوَ شَابٌ جَمِيلٌ الْوَجْهِ كَامِلُ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ ذُو
 حَسَبٍ وَصِنَاعَةٍ شَرِيفَةٍ يُعْرَفُ بِهَا وَهِيَ الطَّبُّ . وَكَانَ مَاهِراً فِي الْفَارِسِيَّةِ
 وَالْهِنْدِيَّةِ . وَهُوَ بَرَزَوِيهِ بْنِ أَزْهَرَ الْفَيْلَسُوفُ وَكَانَ مِنْ فُضَلَاءِ أَطِبَّاءِ فَارِسَ .
 فَأَحْضَرَ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ كِسْرَى فَخَرَّ سَاجِداً وَعَفَّرَ^٤ وَجْهَهُ طَاعَةً لِلْمَلِكِ .
 فَشَرَحَ لَهُ الْأَمْرَ بِمَحْضَرٍ مِنْ وُزْرَائِهِ وَخَوَاصِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ وَقَالَ لَهُ :
 أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ ، إِنِّي تَقَدَّمْتُ إِلَى وُزْرَاءِ دَوْلَتِي وَأَهْلِ نَصِيحَتِي أَنْ
 يَنْظُرُوا لِي رَجُلًا كَامِلًا الْفَضْلِ قَدْ جَهَدَ نَفْسَهُ فِي طَلْبِ الْعُلُومِ وَأَقْتَنَاءِ الْفَضَائِلِ ،
 كَاتِمًا لِأَسْرَارِ الْمُلُوكِ ، أَطْلَعُهُ عَلَى مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ ضَمِيرِي وَأَوْصِلُهُ إِلَى مَكْنُونِ
 سِرِّي ، فَيَأْخُذُ ذَلِكَ بِقَبُولٍ وَإِقْبَالٍ وَسِيَّاسَةٍ وَإِذْعَانٍ ، وَيُظَهِّرُ الْخِدْمَةَ
 وَيُحْضِرُ الْمَهَنَةَ وَيَبْذُلُ الْجَهَادَ فِي بُلُوغِ الْمَلِكِ مَنَاهُ وَأَمَلَهُ ، وَيُمَيِّزُهُ عَلَى سَائِرِ
 مُلُوكِ الدُّوَلِ لِيَصِلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ . وَيُكَافَأُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَبْقَى فِي عَقِبِهِ^٥ بِإِذْلا
 نَفْسَهُ فِيمَا لِسُلْطَانِهِ .

وقد ذكِرَ عنكَ فُضَائِلُ كَثِيرَةٌ وَحِكْمٌ شَرِيفَةٌ أَنْتَ بِفِرَاسَتِكَ أَهْلٌ لَهَا
 وَيَبْشُرُكَ تَصَدُّرُكَ عَنْكَ . فَكُنْ عِنْدَ رَجَاءِ الْوُزْرَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ فِيكَ وَأَنْزِلْ نَفْسَكَ

- | | | | |
|---|-----------------------|---|--------------------------|
| ٤ | مكثور : مستور . | ١ | بحذافيرها : بأسرها . |
| ٥ | يحض : يخلص . | ٢ | نحرياً : عالماً متقناً . |
| ٦ | عقبه : ولده من بعده . | ٣ | عفر : مرغ . |

هذه المترلة التي تُحَيَّرَتْ لها . وأنفق من سَعَةٍ^١ وتَسَبَّبَ^٢ بأسباب^٣ من صفا
 جَوْهَرُهُ وطابَ عُنُصْرُهُ^٤ وأرتفعَ بعلمِهِ وحلمِهِ وطاعةِ بارِيهِ بطاعةِ سُلْطَانِهِ التي
 أَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا ونُهِيَ وَزَجَرَ عَنِ الخُرُوجِ عِنهَا . فإني قد أَخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغَنِي من
 فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعِزِّكَ وَحِرْصِكَ عَلَى طَلْبِ العِلْمِ حيثُ كَانَ . وقد بَلَغَنِي عن
 كِتَابِ بِالْهِنْدِ مَخْرُوجٍ فِي خَزَائِنِهِمْ . وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ وَمَا بَلَغَهُ عَنْهُ ،
 وَقَالَ لَهُ :

تَجَهَّزْ فَإني مُرَحِّلُكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ . فَتَلَطَّفُ فِي ذَلِكَ بِعِزِّكَ وَحُسْنِ
 أَدَبِكَ وَنَافِذِ رَأْيِكَ لِاسْتِخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَمَنْ قَبِلَ عِلْمَهُمْ
 وَحُكْمَانِهِمْ تَامًا كَامِلًا مَكْتُوبًا بِالْفَارِسِيَّةِ فَتَسْتَفِيدُهُ أَنْتَ وَتُفِيدُنَا إِيَّاهُ . وَمَا قَدَّرْتَ
 عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَاحْمِلْهُ مَعَكَ . وَقَدْ أَمَرْنَا أَنْ
 يُطْلَقَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَخْتَارُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ . فَإِذَا نَفِدَ مَا تَسْتَضِجِيهِ فَارْتَبِئْ
 نَمِدَّكَ بِالْمَالِ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيهِ التَّفَقُّهُ . فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِنَا مَبْدُولٌ لَكَ فِي
 طَلْبِ الْعُلُومِ وَهَذَا الْكِتَابِ . فَطِبْ نَفْسًا وَقَرِّ^٥ عَيْنًا وَعَجِّلْ فِي ذَلِكَ وَلَا تُقَصِّرْ
 فِي طَلْبِ الْعُلُومِ ، وَاعْمَلْ عَلَى مَسِيرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَالَ بَرَزَوِيهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ عِشْتَ دَهْرًا طَوِيلًا سَعِيدًا ، وَمَلَكَتِ الْأَقَالِيمَ
 السَّبْعَةَ فِي خَفْضٍ^٦ وَدَعَةٍ^٧ مُؤَيَّدًا مَنصُورًا . إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِكَ وَسَهْمٌ مِنْ
 سَهَامِكَ فَلِيْرِمِ بِي الْمَلِكُ حَيْثُ شَاءَ مِنَ الْأَرْضِ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الْمَلِكُ أَدَامَ
 اللَّهُ أَيَّامَهُ فِي غَيْطَةٍ وَسُرُورٍ أَنْ يَعْقِدَ لِي مَجْلِسًا قَبْلَ سَفَرِي يَحْضُرُهُ الْخَوَاصُّ
 لِيَعْلَمَ أَهْلَ الطَّاعَةِ وَالْمَمْلَكَةَ مَا اسْتَخَصَّنِي بِهِ الْمَلِكُ وَرَأَى أَهْلًا لَهُ وَتَوَّهَ^٨ بِاسْمِي .
 فَلِيْفَعَلْ ذَلِكَ مُنْعِمًا عَلَى الْعَبْدِ الطَّائِعِ .

- ١ أنفق من سعة : أي توسع في إنفاق المال .
 ٢ تسبب بأسباب : أي توسل بوسائل .
 ٣ قر : يكتن بقره العين عن السرور والغبطة .
 ٤ خفض : سعة عيش .
 ٥ دعة : سكينه .
 ٦ توه باسمي : رفعه .

فَقَالَ الْمَلِكُ : يَا بَرْزَوِيهَ قَدْ رَأَيْتُكَ لَدَلِكْ أَهْلًا وَأَجْبْتُكَ إِلَى مَا طَلَبْتَ
وَأَذْنْتُ لَكَ فِيهَا سَأَلْتَ . فَأَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ حَسَبَ مَا تَرَاهُ مُوَافِقًا لَكَ مُتَوَهَّأً بِاسْمِكَ .
ثُمَّ خَرَجَ بَرْزَوِيهَ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ الْمَلِكِ فَرِحًا مَسْرورًا . وَأَعَدَّ لَهُ الْمَلِكُ يَوْمًا
أَمْرًا أَنْ يُجْمَعَ لَهُ فِيهِ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ وَخَوَاصُّ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ . ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُنْصَبَ لَهُ مِئْبَرٌ
فَنُصِبَ وَرَقِي عَلَيْهِ بَرْزَوِيهَ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، خَلَقَ خَلْقَهُ بِرَحْمَتِهِ وَمَنْ عَلَى عِبَادِهِ
بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ، وَرَزَقَهُمْ مِنَ الْعَقْلِ مَا يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى إِصْلَاحِ مَعَايِشِهِمْ فِي
الدُّنْيَا وَيُدْرِكُونَ بِهِ اسْتِنْقَادًا أُرْوَاحِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ . وَأَفْضَلُ مَا
رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْعَقْلُ الَّذِي هُوَ الدَّعَامَةُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ،
وَالَّذِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا عَلَى إِصْلَاحِ مَعِيشَتِهِ وَلَا إِحْرَازِ نَفْعٍ وَلَا دَفْعِ
ضَرَرٍ إِلَّا بِفِيضِهِ مِنَ الْخَالِقِ الْمُبْدِعِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ .

وَكذَلِكَ طَالِبُ الْآخِرَةِ الزَّاهِدُ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ الْمُتَّجِحِي بِهِ نَفْسُهُ مِنْ عِبَادَةِ
الضَّلَالِ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِتْمَامِ عَمَلِهِ وَإِكْمَالِهِ وَلَا يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَقْلِ الَّذِي هُوَ
السَّبَبُ الْمَوْصِلُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَالْمِفْتَاحُ لِكُلِّ سَعَادَةٍ وَالْمَبْلَغُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ .
فَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنَى وَلَا بَغِيرُهُ أَكْتِفَاءً .

وَالْعَقْلُ غَرِيزِيٌّ مَطْبُوعٌ وَيَتَرَايَدُ بِالتَّجَارِبِ وَالْأَدَبِ . وَغَرِيزَتُهُ مَكْنُونَةٌ فِي
الْإِنْسَانِ كَامِنَةٌ فِيهِ كُمُونَ النَّارِ فِي الْحَجَرِ . فَإِنَّ النَّارَ طَبِيعَتُهَا فِيهِ كَامِنَةٌ لَا تَظْهَرُ
وَلَا يُرَى ضَوْوُهَا حَتَّى يُظْهَرَهَا قَادِحٌ مِنْ غَيْرِهَا ، فَإِذَا قَدَحَهَا ظَهَرَتْ طَبِيعَتُهَا
بِضَوْئِهَا وَحَرِيقِهَا ، وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ كَامِنٌ فِي الْإِنْسَانِ لَا يَظْهَرُ حَتَّى يُظْهَرَهُ
الْأَدَبُ وَتَعَضُّدُهُ^٣ التَّجَارِبُ . فَإِذَا اسْتَحْكَمَ كَانَ أَوْلَى بِالتَّجَارِبِ . لِأَنَّهُ هُوَ

١ استنقاذ : انجاء .

٢ عاية : ضد الهداية .

٣ تعضده : تعينه .

المَقْوِي لكلِّ فضيلةٍ والمُعِينُ على دَفْعِ كلِّ رَذِيْلَةٍ . فلا شيءَ أَفْضَلُ مِنَ العَقْلِ
إِذَا مَنْ اللهُ تَعَالَى على عِبْدِهِ وَأَعَانَهُ على نَفْسِهِ بِالمُواظَبَةِ على طُرُقِ الأَدَبِ والعِلْمِ
والحِرْصِ على ذلك . وَمَنْ رُزِقَ العَقْلَ وَمُنَّ بهِ عليه وَأُعِينَ على صِدْقِ قَرِيْبَتِهِ
بِالأَدَبِ حَرَّصَ على طَلَبِ سَعْدِ جَدِّهِ^١ وَأَدْرَكَ في الدُّنْيَا أَمَلَهُ وحَازَ في الآخِرَةِ
نَوَابَ الصَّالِحِينَ . فَالعَقْلُ هو المَقْوِي للمَلِكِ على مَلِكِهِ . فَإِنَّ السُّوقَةَ^٢ والعَوَامَّ
لَا يَصْلُحُونَ إِلا بِإِفَاضَةِ يَنْبِوعِ العَدْلِ الفَائِضِ عَنِ التَّعَلُّلِ لِأَنَّهُ سِيَاجُ الدَّوْلَةِ .
وقد رَزَقَ اللهُ مَلِكَنَا السَّعِيدَ كِسْرَى أَنُوشِروَانَ مِنَ العَقْلِ أَفْضَلَ الحِطِّ^٣
وأَجْزَلَهُ^٤ وَمِنَ العِلْمِ أَجْمَلَهُ وَأَكْمَلَهُ ، وَمِنَ المَعْرِفَةِ بِالأُمُورِ أَصَوْبَهَا . وَسِدَّدَهُ^٥
مِنَ الأَفْعَالِ إِلى أَسَدِّهَا وَمِنَ البَحْثِ عَنِ الأَصُولِ والفُرُوعِ إِلى أَنْفَعِهَا . وَبَلَّغَهُ
مِنَ فُنُونِ أَخْتِلافِ العِلْمِ وَبُلُوغِ مَتَرَلَةِ الفَلَسَفَةِ ما لَمْ يَبْلُغُهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ المُلُوكِ
قَبْلَهُ ، وَكَانَ هو القَابِلَ لِذلك بِجُودَةِ المادَّةِ القَابِلَةِ لِانطِباعِ الصُّورِ . فَبَلَّغَ بِذلك
الرُّتْبَةَ القُصُوى في الفَضْلِ على مَنْ مَضَى مِنَ المُلُوكِ قَبْلَهُ . حَتَّى كَانَ فِيهَا طَلَبَ
وَبَحْثَ عَنهُ وَسَمَّتْ إِليه نَفْسُهُ مِنَ العِلْمِ أَن بَلَّغَهُ عَن كِتابِ بِالهِنْدِ مِنْ كُتُبِ
فَلاسِيفَتِهَا وَعِلْمائِهَا مَخْزُونٍ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ . عِلِمَ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ ، وَرَأْسُ كُلِّ
عِلْمٍ ، وَالدَّلِيلُ على كُلِّ مَنفَعَةٍ ، وَمِفْتَاحُ عَمَلِ الآخِرَةِ وَعِلْمِهَا وَمَعْرِفَةُ النُّجَاةِ
مِنَ أَهْوالِها ، وَالمَقْوِي على جَمِيعِ الأُمُورِ ، وَالمُعِينُ على ما يَحْتَاجُ إِليه المُلُوكُ
في تَدْبِيرِهِمْ لِأُمُورِ مَمَالِكِهِمْ وَأَدَابِ السُّوقَةِ فِيما يُرْضُونَ بِهِ مَلُوكَهُمْ وَيُصْلِحُونَ بِهِ
مَعاشِهِمْ ، وَهو كِتابٌ كَلِيلَةٌ وَدِمْتَةٌ . فَلَمَّا تَيَقَّنَ ما بَلَّغَهُ عَن ذلك الكِتابِ
وَكَشَفَ عَمَّا فِيهِ مِنَ المَنافِعِ مِنَ تَقْوِيَةِ العَقْلِ والأَدَبِ رَأَى أَهلاً لِذلك وَنَدَبَنِي
إِلى اسْتِخْراجِهِ ، وَاللهُ المُوقِّعُ ، وَالسَّلَامُ .

٤ سَدَّدَهُ : أَرشَدَهُ .

٥ أَسَدِّهَا : أَصْوبَهَا .

١ جَدُّهُ : عَظْمَتُهُ .

٢ السُّوقَةُ : الرِّعِيَّةُ .

٣ أَجْزَلُهُ : أَعْظَمُهُ .

سفر برزويه ونسخة الكتاب

فَعِنْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ لِلْمَلِكِ عِلْمُهُ وَنَجَابَتُهُ وَشَهَامَتُهُ ، فَسَرَّ بِذَلِكَ سُورُوا شَدِيداً . ثُمَّ أَمَرَ الْمَلِكُ عِنْدَ ذَلِكَ بِإِحْضَارِ الْمُتَجَمِّينَ وَأَنْ يَتَخَيَّرُوا لَهُ يَوْماً سَعِيداً وَطَالِعاً صَالِحاً وَسَاعَةً مُبَارَكَةً لِتَوَجُّهَ فِيهَا . فَاخْتَارُوا لَهُ يَوْماً يَسِيرُ فِيهِ وَسَاعَةً صَالِحَةً يُخْرَجُ فِيهَا .

فَسَارَ بَرْزَوِيهِ بِطَالِعِ سَعْدٍ وَحَمَلَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ عِشْرِينَ جِرَاباً ، كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، وَتَوَجَّهَ جَاداً فِي طَلَبِ حَاجَتِهِ نَهَاراً وَلَيْلاً ، حَتَّى قَدِمَ بِلَادَ الْهِنْدِ ، فَجَعَلَ يَطُوفُ بِيَابِ الْمَلِكِ وَمَجَالِسِ السُّوقِ وَيُجَالِسُ الْحُكَمَاءَ وَيَسْأَلُ عَنْ خَوَاصِّ الْمَلِكِ وَالْأَشْرَافِ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِيفَةِ ، وَجَعَلَ يَعْشَاهُمْ^٢ فِي مَجَالِسِهِمْ وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلَادَهُمْ لَطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالبَحْثِ عَنْهُ وَرِيَاضَتِهِ^٣ بِهِ ، وَأَنَّهُ مَحْتَاجٌ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فِيمَا يَطْلُبُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَسْأَلُهُمْ بِذَلِكَ الدُّعَاءَ لَهُ يَبْلُوغَ أَمَالِهِ مَعَ شِدَّةِ كِتَابَتِهِ لِمَا قَدِمَ بِسَبَبِهِ وَدَفِنِهِ لِسِرِّهِ .

فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ زَمَاناً طَوِيلاً يَتَأَدَّبُ عَلَى عُلَمَاءِ الْهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئاً . وَهُوَ فِيهَا بَيْنَ ذَلِكَ يَسْتَرْ بُعَيْتَهُ وَحَاجَتَهُ . وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَبْحَثُ فِي مَطْلُوبِهِ بِحُنْكَةٍ^٤ وَسِيَاسَةٍ وَعِفَّةٍ وَنَزَاهَةٍ . وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ

١ طالعا : أي ما يتفائل به من السعد والنحس بطلوع الكواكب . والطالع عندهم جزء من منطقة البروج يكون على الأفق الشرقي في وقت مخصوص .

٢ يعشاهم : بأنهم .

٣ رياضته : تهذيب أخلاقه .

٤ حنكة : اسم من حنكت السن الرجل أي جعلته حكيماً .

لطول مُقامِهِ أصدقاءَ أَصْفِياءَ كَثِيرِينَ كُلَّهُمْ من أَهْلِ الهِنْدِ مِنَ الأَشْرَافِ والعِلماءِ
والفِلاسِفةِ والسُّوقَةِ ومن أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وصِناعَةٍ .

وكان قد اتَّخَذَ من بَين أَصدقاؤِهِ وأصْفِيائِهِ رَجُلًا واحِداً أَصْطَفاهُ لِسِرِّهِ
وَإِخْتِصَّهُ لِمَشورَتِهِ لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ من فَضيلِهِ وأَدبِهِ وَحِكْمَتِهِ وفَهْمِهِ وَكِتابَتِهِ لِسِرِّهِ
نَفسِهِ ولِما أَستَبانَ لَهُ من صِحَّةِ إِخائِهِ . وكان يُشاوِرُهُ في الأُمورِ وَيَرْتاحُ إِلَيهِ
في جَميعِ ما أَهَمَّهُ . إلا أَنَّهُ كانَ يَكْتُمُ عَنهُ الأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ من أَجْلِهِ حَتى
يَبْلُغَهُ وَيَخْتَبِرُهُ وَيَنْظُرُ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلى سِرِّهِ . ولم يَزَلْ يَبْحَثُ عَنهُ
وَيَجْتَهِدُ في أَمْرِهِ حَتى وَثِقَ بِهِ وَثوقَ الأَكْفاءُ^١ بالأَكْفاءِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مَحَلٌّ
لِكُشْفِ الأَسرارِ الجَلِيلَةِ الحَظيرَةِ ، وَأَنَّهُ مامونٌ عَلى ما يُستودَعُ من ذَلِكَ غَيرِ
خائِنِ صَدِيقٍ صَدَقٌ . ثم زادَ لَهُ إِطافاً^٢ وبه إِحْفاءٌ وَعَليه حَتواً إلى أَنْ حَضَرَ
اليومَ الَّذِي رَجَا فِيهِ بُلوغَ أَمِنِّيَّتِهِ وَالظَّفَرَ بِمَاجِئِهِ ، مَعَ طولِ العَيِّبَةِ وَعِظَمِ التَّفَقُّهِ
في اسْتِطافِ الإِخوانِ ومُجالِستِهِم عَلى الطَّعامِ والشَّرابِ .

وإِنَّهُ لَمَّا وَثِقَ بِصَدِيقِهِ الهِنْدِيِّ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكرُهُ وَأَنسَ بِهِ وَسَبَّرَ^٣ عَقْلَهُ
وَاطمأنَّ إِلَيهِ في سِرِّهِ قالَ لَهُ يوماً وَهُما خالِيانِ : يا أَخي ما أريدُ أَنْ أَكْتُمَكَ من
أَمْرِي فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتِكَ لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَلِكَ . فَأَعْلَمَ أَنِّي لِأَمْرِ قَدِمتُ بِبلادِكُمْ .
وهو غَيرُ الَّذِي يَظْهَرُ مِنِّي . وَالعَاقِلُ يَكْتُمُ مِنَ الرَّجُلِ بِالعَلاماتِ من نَظَرِهِ
وَإِشارَتِهِ ، فَيَعْلَمُ بِذَلِكَ سِرَّ نَفسِهِ وما يُضْمِرُهُ قَلْبُهُ .

فقالَ لَهُ صَدِيقُهُ الهِنْدِيُّ : إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِما لَكَ جِئْتَ
وإِياهُ تُريدُ وَإِلَيهِ قَصَدْتَ وَأَنْتَ تَكْتُمُ ما تَطْلُبُهُ وَتُظْهِرُ غَيرَهُ فما خَفيَ عَلَيَّ ذَلِكَ
مِنكَ ولا ذَهَبَ عَنِّي ما كَتَمْتَهُ . وَلَكِنِّي لِرَغْبَتِي فِيكَ وفي إِخائِكَ كَرِهْتُ أَنْ

١ الأَكْفاءُ : الامثال والنظراء .

٢ إِطافاً : إِكراماً .

٣ سَبَّرَ : أَي امْتحن .

أُوجِهَكَ بِذَلِكَ وَأُفَاجِئَكَ بِهِ . لِأَنِّي قَدْ ظَهَرَ لِي مَا تَكْتُمُ وَبَانَ لِي مَا أَنْتَ لَهُ مُخْفٍ . فَأَمَّا إِذَا قَدْ أَظْهَرْتَ ذَلِكَ وَأَفْصَحْتَ بِهِ مِنْ نَفْسِكَ فَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ سِرِّ حَاجَتِكَ الَّتِي قَدِمْتَ بِسَبَبِهَا وَأَطَلْتَ مُقَامَكَ فِي طَلِبِهَا .

وَذَلِكَ أَنَّكَ إِنَّمَا وَطِئْتَ أَرْضَنَا وَقَدِمْتَ إِلَى بِلَادِنَا لِتَسْلُبَنَا كُنُوزَنَا النَّفِيسَةَ فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ وَتَسْرِبَ بِهَا مَلَكَكَ . وَكَانَ قُدُومُكَ إِلَيْنَا بِالْمَكْرِ وَمُضَادَّتُكَ لَنَا بِالْخَدِيعَةِ . وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ وَمُواظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ وَالتَّحْفُظِ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ فِي الْكَلَامِ مَعَ طَوْلِ مُكَيِّتِكَ عِنْدَنَا عَلَى كَتْمِ أَمْرِكَ بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيرَتِكَ وَأُمُورِكَ أَزْدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَائِكَ وَثِقَةً بِعَقْلِكَ وَأَحْبَبْتُ مَوَدَّتَكَ . فَإِنِّي لَمْ أَرْ فِي الرِّجَالِ رَجُلًا هُوَ أَرْصَنُ مِنْكَ عَقْلًا وَلَا أَحْسَنُ أَدْبًا وَلَا أَصْبِرُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَلَا أَكْتُمُ لِسِرِّهِ وَلَا سِيَّامًا فِي بِلَادِ غُرَبَةٍ وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ وَعِنْدَ قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَّتَهُمْ وَلَا شِيَمَهُمْ .

وَأَنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي خِصَالِ ثَمَانٍ : الْأُولَى مِنْهَا الرِّقُّ . وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا . وَالثَّلَاثَةُ طَاعَةَ الْمُلُوكِ وَالتَّحَرِّيَ لِمَا يُرْضِيهِمْ . وَالرَّابِعَةُ مَعْرِفَةَ الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ صَدِيقُهُ . وَالخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ أَدِيًّا مَلِيقًا^٢ اللِّسَانِ . وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَلِسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا . وَالسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ^٣ وَلَا يُطْلَعَ عَلَى سِرِّهِ إِلَّا النَّفَاتِ . وَالثَّمَانَةُ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ فِي الْمَحَافِلِ بِمَا لَا يُسْأَلُ عَنْهُ .

فَإِنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ كَانَ هُوَ الدَّاعِيَّ الْخَيْرَ إِلَى نَفْسِهِ . وَهَذِهِ الْخِصَالُ كُلُّهَا قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيكَ وَبَانَ لِي مِنْكَ . فَاللَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُكَ وَيُعِينُكَ

١ أَرَصَنُ : أَثْبَتَ وَأَحْكَمَ .

٢ مَلِيقٌ : مِنَ الْمَلِيقِ وَهُوَ الْوَدُّ وَاللُّطْفُ .

٣ تَبِعَتُهُ : عَاقِبَتُهُ .

على ما قَدِمْتَ له وِظْفُرِكَ بِحَاجَتِكَ . لِأَنَّكَ إِنَّمَا صَادَقْتَنِي لِتَسْلُبَنِي عِلْمِي
وَفَخْرِي . وَإِنَّكَ أَهْلٌ لِأَنْ تُسَمِّعَ بِحَاجَتِكَ وَتُسَمِّعَ^١ بِطَلَّتِكَ وَتُعْطَى سَوْلكَ .
وَلَكِنَّ حَاجَتَكَ الَّتِي تَطْلُبُ قَدْ أَرْهَبَتْ نَفْسِي وَأَدْخَلَتْ عَلَيَّ الْفَرْقَ^٢ وَالْحَشْيَةَ .
فَلَمَّا عَرَفَ بَرَزَوِيهِ أَنَّ الْهِنْدِيَّ قَدْ عَرَفَ أَنَّ مُصَادَقَتَهُ إِنَّمَا كَانَتْ مَكْرًا
وَخَدِيعَةً ، وَطَلَبَ حَاجَتَهُ فَلَمْ يَزْجُرْهُ وَلَمْ يَتَهَرَّهْ بَلْ رَدَّ عَلَيْهِ رَدًّا لَيِّنًا كَرَدَّ الْأَخِ
عَلَى أَخِيهِ بِالْتَعَطُّفِ وَالرَّفْقِ ، وَثِقَ بِقِضَاءِ حَاجَتِهِ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ كُنْتُ
هَيَّاتُ كَلَامًا كَثِيرًا ، وَشَعَبْتُ لَهُ شِعَابًا^٣ ، وَأَنْشَأْتُ لَهُ أَصُولًا وَطُرُقًا ، فَلَمَّا
انْتَهَيْتُ فِيهِ إِلَى مَا بَادَهْتَنِي^٤ بِهِ مِنْ أَطْلَاعِكَ عَلَى أَمْرِي وَالَّذِي قَدِمْتُ لَهُ وَالْقَيْتَهُ
إِلَيَّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ وَرَغْبَتِكَ فِيهَا أَلْقَيْتَ مِنَ الْقَوْلِ ، أَكْتَفَيْتُ بِالْيَسِيرِ مِنَ
الْخِطَابِ مَعَكَ عَمَّا كُنْتُ أُخْتَلِفُ فِيهِ ، إِذْ عَرَفْتُ الْكَثِيرَ مِنْ أُمُورِي بِالْقَلِيلِ مِنَ
الْكَلَامِ لِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ ، فَكَفَيْتَنِي مُؤُونَةَ الْكَلَامِ
فَاقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى الْإِيْجَازِ . وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِيَّايَ بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي عَلَى
كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفَائِكَ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا أُلْقِيَ إِلَى الْفَيْلَسُوفِ وَالسَّرِّ إِذَا اسْتُودِعَ
اللَّيِّبَ الْحَافِظَ فَقَدْ حُصِّنَ وَبُلِّغَ بِهِ نِهَائُهُ أَمَلِي صَاحِبِهِ كَمَا يُحْصَنُ الشَّيْءُ التَّفَيْسُ
فِي الْقِلَاعِ الْحَصِينَةِ .

فَقَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ : لَا شَيْءَ أَفْضَلَ مِنَ الْمَوَدَّةِ . وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ
أَهْلًا أَنْ يَخْطِطَهُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ وَلَا يَنْخَرَهُ عَنْهُ شَيْئًا وَلَا يَكْتُمُهُ سِرًّا وَلَا يَمْنَعُهُ
حَاجَتَهُ وَمُرَادَهُ إِنْ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ . وَرَأْسُ الْأَدَبِ حِفْظُ السَّرِّ . فَإِنْ كَانَ السَّرُّ
عِنْدَ الْأَمِينِ الْكَثُومِ فَقَدْ أَحْتَرَزَ مِنَ التَّضْيِيعِ لِأَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِهِ . وَلَا
يُكْتَمُ سِرًّا بَيْنَ اثْنَيْنِ قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَا فِيهِ ، وَلَا يَكُونُ سِرًّا لِأَنَّ اللِّسَانَيْنِ قَدْ

٤ بادهنتي : فاجأتني .

• يذخر : يجبا .

١ تشفع : تعان .

٢ الفرق : الخوف .

٣ شعاباً : أي فصلت له طرقاً .

تَكَلَّمَا بِهِ . فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالسَّرِّ أَتَانِ مِنْ نَائِلٍ مِنْ جِهَةِ الْوَاحِدِ أَوْ مِنْ جِهَةِ
الْآخَرِ . فَإِذَا صَارَ إِلَى الثَّلَاثَةِ فَقَدْ شَاعَ وَذَاعَ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ أَنْ
يَجْحَدَهُ^١ وَيُكَابِرَ فِيهِ . كَالغَيْمِ إِذَا كَانَ مُتَقَطَّعًا فِي السَّمَاءِ فَقَالَ قَائِلٌ إِنَّ هَذَا
الغَيْمَ مُتَقَطَّعٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ .

وَأَنَا فَقَدْ يُدَاخِلُنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَمُخَالَطَتِكَ مَعَ أُنْسِي بِقَرِيبِكَ سُرُورٌ لَا
يَعْدِلُهُ شَيْءٌ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي لَا تُكْتَمُ فَلَا
بُدَّ أَنْ يَفْشَوْا وَيُظْهَرُ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ . فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِي
هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْفِدَاءِ مِنْهُ بِالْمَالِ وَإِنْ كَثُرَ . لِأَنَّ مِلْكَنَا فَظٌّ غَلِيظٌ يُعَاقِبُ
عَلَى الذَّنْبِ الصَّغِيرِ أَشَدَّ الْعِقَابِ كَيْفَ مِثْلُ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ! وَإِذَا حَمَلْتَنِي
الْمَوَدَّةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَاسْعَفْتَنِي بِحَاجَتِكَ لَمْ يُرِدَّ عِقَابُهُ عَنِّي شَيْءٌ .

قَالَ بَرْزَوِيُّ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحَتِ الصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ وَأَعَانَهُ
عَلَى الْفَوْرِ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِمَلِكِكَ ذَخْرَتُهُ^٢ وَبِكَ أَرْجُو بُلُوعَهُ . وَأَنَا
وَإِثْقُ بَكْرَمِ طِبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ فِيهِ . وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنِّي مَا
وَصَلَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فَانْعِمْ بِتَحَمُّلِ ذَلِكَ . وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ
أَنْ أُبْدِيَهُ بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَلَدِكَ الْمُطِيفِينَ بِكَ وَبِالْمَلِكِ أَنْ يَسْعَوْا بِكَ إِلَيْهِ
وَيُلْغَوْهُ ذَلِكَ عَنْكَ . وَأَنَا أَرْجُو أَنْ لَا يَشِيعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ لِأَنِّي أَنَا
ظَاعِنٌ^٣ وَأَنْتَ مُقِيمٌ وَمَا أَقَمْتُ^٤ فَلَا نَائِلَ بَيْنَنَا ، فَتَعَاهَدَا عَلَى هَذَا جَمِيعًا .
وَكَانَ الْهِنْدِيُّ خَازِنَ الْمَلِكِ ، وَبِيَدِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهِ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ
الْكِتَابِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ وَسَلَّمَهَا إِلَيْهِ . فَأَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقَلَهُ مِنْ
اللِّسَانِ الْهِنْدِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْفَارِسِيِّ وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ وَأَنْصَبَ^٥ بَدَنَهُ نَهَارًا وَلَيْلًا وَهُوَ

٤ ما أقت : مدة اقامتي .

٥ أنصب : أعيأ .

١ يجحده : ينكره .

٢ ذخرتة : خبأته .

٣ ظاعن : راحل .

مع ذلك وَجِلًّا^١ فَرَعُ من مَلِكِ الهِنْدِ خَائِفٌ على نَفْسِهِ من أن يَذْكُرَ المَلِكُ الكِتَابَ في وِقْتِ ولا يُصَادِفُهُ في خِزَانَتِهِ .

رجوع برزويه بالكتاب

فلَمَّا فَرَعُ من أُنْتِساخِ الكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ من سائِرِ الكُتُبِ كَتَبَ إلى أنوشِروانَ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ . فلَمَّا وَصَلَ إليه الكِتَابُ سَرَّ سروراً شديداً ثم تَحَوَّفَ مُعالِجَةَ المَقادِيرِ أن تُنْغَصَ عليه فَرَحُهُ وَيَنْتَقِصَ سرورُهُ . فكَتَبَ إلى بَرزَوِيهِ بِأَمْرِهِ بِتَعْجِيلِ القُدومِ . فسارَ بَرزَوِيهِ مُتَوَجِّهاً نحو كِسرَى .

فلَمَّا رَأى المَلِكُ ما قد مَسَّهُ مِنَ الشُّحوبِ والإعياءِ قالَ له : أَيُّها العَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ ما قد عَرَسَ ، أُبَشِّرُ وقرَّ عَيْنًا فإني مُشَرَّفُكَ وَبالِغُ بك أَفْضَلَ دَرَجَةٍ . وَأَمْرُهُ أن يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيامٍ .

فلَمَّا كانَ اليَوْمُ الثَّامِنُ أَمَرَ المَلِكُ بِإِحْضارِ أَشْرافِ مَمْلَكَتِهِ وَجَميعِ عِلماءِ مِصرِهِ^٢ وشُعرائِهِ وَالحُطباءِ . فلَمَّا اجْتَمَعوا أَحْضَرَ بَرزَوِيهِ فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ وَجَلَسَ على مَرْتَبَةٍ أُعِدَّتْ له . ثم وَقَعَ^٣ الكِلامَ فِيا شَاهِدَهُ وَرآهُ وَشَرَحَ قِصَّتَهُ وَحالَهُ من أَوَّلِها إلى آخِرِها . فلم يَبْقَ أَحَدٌ من رِجالِ الدَّوَلَةِ وَقُوادِها وَأَهْلِ عُلومِها على طَبَقَاتِهِمْ إلا تَعَجَّبَ مِنْهُ وَمن طُولِ طَرِيقِهِ وَحُسْنِ سِيرَتِهِ مع صَدِيقِهِ ، وَما وَفَى له به بِلا عَهْدٍ مِنْهُ وَلا مُقَدِّمَةٍ تَقَدَّمَتْ بَيْنَها مِنْ إِفْشاءِ سِرِّهِ له معَ ما بَيْنَها مِنْ اقْتِراقِ الأديانِ وَتَباينِ الأشْكالِ وَمُنافَرَةِ المَذْهَبِ . وَاسْتَعْظَموا ما أَنْفَقَ على تَحْصِيلِ ذَلِكَ ، وَعَظَّمَ بَرزَوِيهِ في أَعْيُنِ الحاضِرِينَ وَكَبَّرَ قَدْرَهُ عِنْدَ مَلِكِهِ .

٣ وَقَعَ : أَي ألقى .

٤ عَهْدَ : أَي مَعْرِفَةَ .

١ وَجِلًّا : خَائِفًا .

٢ مِصرِهِ : كُورْتِهِ وَناحِيَتِهِ .

ثم إنَّ الملكَ صَرَفَ مَنْ حَضَرَ وانصَرَفَ بَرَزَوِيَه . وَعَمَدَ الخُطْبَاءُ
يَصْنَعُونَ مُقَدَّمَاتٍ تَصْلُحُ لِحُضُورِ المَجْلِسِ وتَأَهَّبُوا لذلك . وَعَقَدَ لهم الملكُ
مَجْلِسًا وحَضَرَ بَرَزَوِيَه وخطباءُ الدَّوْلَةِ والوُزَرَاءُ وفُصْحَاءُ المَمْلَكَةِ وأحضِرَ
الكتابُ وسائرُ الكُتُبِ . فلَمَّا قُرِئَتِ الكُتُبُ وَسَمِعُوا ما فِيها مِنَ العُلُومِ
والحِكْمِ وسائرِ الظَّرَائِفِ وغرائبِ الآدابِ اسْتَبَشَّرَ مَنْ حَضَرَ وَبَلَغَ الملكُ أُمْنِيَّتَهُ .
ومدحوا بَرَزَوِيَه وأثنوا عليه وشكروه على ما نالَهُ مِنَ الثَّعْبِ . فأمرَ الملكُ عند
ذلك بالدُّرِّ والجَوْهَرِ والدَّهَبِ والفِضَّةِ وفُتِحَتْ خَزَائِنُ الكُسُوفِ وخَلَعَ عليه
وَحَمَلَ بين يديه جميعَ ذلك . ثم إنَّ الملكَ ألبَسَهُ التَّاجَ وأجْلَسَهُ على سَرِيرِهِ
تَشْرِيفًا له وزيادةً في إِجْلَالِهِ . ولَمَّا تَمَّ لِبرَزَوِيَه ذلكُ خَرَّ ساجدًا
للملِكِ وقال :

أَكْرَمَ اللهُ الملكَ بأفضلِ الكَرَامَاتِ بزيادتهِ في دُنْيَاهُ وأخْرَاهُ ، وَخَلَدَ مُلْكُهُ
وَبَيَّتَ وَطْأَتَهُ^١ وشيَّدَ مَبَانِيَ مَجْدِهِ . إنَّ اللهُ وَلِيَّ الحَمْدِ قد أغْنَانِي عنِ المَالِ
بما بَلَغْتُ مِنَ الرُّتْبَةِ العَلِيَّةِ السَّيِّئَةِ والبُغْيَةِ الأُمْنِيَّةِ بما رَزَقَنِي من تَشْرِيفِ ملكِ
المُلُوكِ للعَبْدِ الدَّلِيلِ . لكنْ إذْ كَلَّفَنِي الملكُ ذلكَ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسْرُهُ فانا آخِذٌ مِمَّا
أَمَرَ لي به أَمِثَالًا لِأَمْرِهِ وَطَلَبًا لِمرَضَاتِهِ . وقامَ فأخَذَ منها تَخَنُّتًا^٢ من طرائفِ
خُرَاسانَ من مَلابِسِ المُلُوكِ ، ثم قال للملِكِ :

إنَّ الإنسانَ إذا مَنَحَهُ اللهُ تعالى عَقْلاً وافِراً وَعِلْماً راجِحاً وَخُلُقاً رَحِماً
وَدِيناً صُلْباً وَنِيَّةً سَالِماً مِنَ العاهاتِ فليشكُرِ الصَّانِعَ الأزليَّ سَرْمَدًا^٣ على ما
وَهَبَهُ من ذلكَ من غيرِ اسْتِحْقادٍ يَسْتَحِقُّهُ ولا مُقَدِّمَةٍ سَبَقَتْ له . وإنَّ الإنسانَ
إذا أَكْرَمَ وَجَبَ عليه الشُّكْرُ وإن كان قد اسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً . وأما أنا فها

١ وطأته : أي مكن سلطته .

٢ تخنأ : وعاء تصان فيه الثياب .

٣ سرمداً : دائماً .

لَقَيْتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ الشَّرْفَ يَا أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ فَلَمَّا لَا
أَزَالَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ تَابِعاً رِضَاكُمْ ، أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا وَالشَّاقَّ هَيِّنًا
وَالنَّصَبَ وَالْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً ، لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضَى وَعِنْدَكُمْ
قُرْبَةً ١ . وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً تُسَعِّفُنِي بِهَا وَتُعْطِينِي فِيهَا سُؤْلِي . فَإِنَّ
حَاجَتِي بِسِيرَةٍ وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ .

قَالَ أَنْوَشِرَوَانُ : قُلْ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَةٌ . فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيمٌ .
وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا وَلَمْ نَزِدْكَ طَلِبَتَكَ فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ !
فَقُلْ وَلَا تَحْتَشِمِمْ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَبْنُوءَةٌ لَكَ .

قَالَ بَرْزَوَيْهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَاكَ وَأَنْكَاشِي ٢ فِي
طَاعَتِكَ . فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزَمُنِي بَدَلُ مُهْجَتِي فِي رِضَاكَ . وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ
ذَلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا وَاجِبًا عَلَى الْمَلِكِ . وَلَكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدًا
إِلَى مُجَازَاتِي وَخَصْنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ وَرَفْعِ الدَّرَجَةِ حَتَّى لَوْ قَدَّرَ أَنْ
يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَفَعَلَ . فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزَاءِ .
قَالَ أَنْوَشِرَوَانُ : أَذْكَرُ حَاجَتَكَ فَعَلِيَّ مَا يَسْرُوكَ .

فَقَالَ بَرْزَوَيْهِ : حَاجَتِي أَنْ يَخْرُجَ أَمْرُ الْمَلِكِ أَنْفَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْحَكِيمِ
الْفَاضِلِ الرَّفِيعِ الْمَقَامِ وَزَيْرِهِ بَرْزَجْمَهْرَ بْنِ الْبَحْتِكَانَ أَنْ يَنْظِمَ أَمْرِي فِي نُسْخَةٍ
وَيُيَوِّبَ الْكِتَابَ وَيَجْعَلَ تِلْكَ النُّسْخَةَ بَابًا يَذْكَرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي وَلَا
يَدْعُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي ذَلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ . وَيَأْمُرُهُ إِذَا فَرَّغَ مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَهُ
أَوَّلَ الْأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ . فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ
بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرْفِ وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَبْهَى لَنَا مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِيًا عَلَى
الْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الْكِتَابُ .

١ قرية : قرأ في المتن .

٢ انكاشي : اسراعي .

فلما سمع كسرى أنوشروان والعظماء مقلته وما سمته إليه نفسه من
 حجة إبقاء الذكر عجبوا من أدبه وحسن عقله وكبر نفسه واستحسنوا طيبته
 واختياره . فقال كسرى : حبا وكرامة يا برزويه . إنك لأهل أن تسعف
 بحاجتك فما أقل ما قنعت به وأيسره عندنا وإن كان خطره عندك عظيما !
 ثم أقبل أنوشروان على وزيره برزجمهر فقال له : قد عرفت مناصحة
 برزويه لنا وتجنسهم المخاوف والمهالك فما يقربهم منا وإتباعه بدنه فيما
 يسرنا ، وما أتى إلينا من المعروف وما أفادنا الله على يده من الحكمة والأدب
 الباقي لنا فخره ، وما عرضنا عليه من خزائنا لتجزيه على ما كان منه فلم تمل
 نفسه إلى شيء من ذلك . وكانت بعثته وطيته منا أمرا يسيرا رآه هو الثواب منا
 له والكرامة الجليلة عنده . فلني أحب أن تتكلم في ذلك وتسعفه بحاجته
 وطيته . وأعلم أن ذلك مما يسرني . ولا تدع شيئا من الاجتهاد والمبالغة إلا
 بلغت وإن نالتك فيه مشقة . وهو أن تكتب بابا مضارعا لتلك الأبواب التي
 في الكتاب وتذكر فيه فضل برزويه ونسبه وحسبه وصناعته وأدبه . وكيف
 كان ابتداء أمره وشأنه وتنسبه إليه . وتذكر فيه بعثته إلى بلاد الهند في حاجتنا
 وما أفدنا من الحكم على يده من هنالك وشرفنا به وفصلنا على غيرنا .
 وكيف كان حاله بعد قدومه وما عرضنا عليه من الأموال فلم يقبله . فقل ما
 تقدر عليه من التقرير والإطناب في مدحه وبالغ في ذلك أفضل المبالغة .
 واجتهد في ذلك اجتهدا يسر برزويه وأهل المملكة . وإنه لأهل لذلك من قبلي
 ومن جميع أهل المملكة ومن قبلك أيضا لمحيتك للعلوم . واجتهد أن يكون
 غرض هذا الكتاب الذي ينسب إليه أفضل من أغراض تلك الأبواب عند
 الخاص والعام وأشد مشاكلة لحال هذا الكتاب ، فإنك أسعدت الناس كلهم

بذلك لانفرادك به ، وأجعله أول الأبواب . فإذا أنت عملته ووضعته بحيث
رسمت لك^١ فأعلمني لأجمع أهل المملكة وتقرأه عليهم فيظهر فضلك واجتهادك
في محبتنا فيكون لك بذلك فخر .

فلما سمع بززجيه مقالة الملك خر له ساجداً وقال : أدام الله لك أيها
الملك البقاء وبلغك أفضل منازل الصالحين في الآخرة والأولى . لقد شرفني
في ذلك شرفاً باقياً إلى الأبد .

ثم خرج بززجيه من عند الملك فوصف بززويه من أول يوم دفعه
أبواه إلى المؤدب ومضيه إلى بلاد الهند في طلب العقاقير والأدوية ، وكيف
تعلم خطوطهم ولقنتهم إلى أن بعته أنوشروان إلى الهند في طلب الكتاب . ولم
يدع من فضائل بززويه وحكمته وخلائقه ومذهبه أمراً إلا نسقه^٢ وأتى به
بأجود ما يكون من الشرح . ثم أعلم الملك بفرغ منه .

فجمع أنوشروان أشراف قومه وأهل مملكته وأدخلهم إليه وأمر بززجيه
بقراءة الكتاب وبززويه قائم إلى جانب بززجيه . وابتدأ بوصف بززويه حتى
انتهى إلى آخره . ففرح الملك بما أتى به بززجيه من الحكمة والعلم . ثم
أثنى الملك وجميع من حضر على بززجيه وشكروه ومدحوه وأمر له الملك
بمال جزيل وكسوة وحلى وأوان فلم يقبل من ذلك شيئاً غير كسوة كانت من
ثياب الملوك . ثم شكر له ذلك بززويه وقبل رأسه ويده وأقبل على الملك
وقال : أدام الله لك الملك والسعادة ، فقد بلغت بي وبأهلي غاية الشرف بما
أمرت به بززجيه من صنعة الكتاب في أمري وإبقاء ذكري .

ثم انصرف الجمع مسرورين مبتهجين ، وكان يوماً لا مثال له .

١ بحيث رسمت لك : أي كما رسمت لك .

٢ نسقه : نظمه .

باب عرض الكتاب

لعبد الله بن المقفع معرب هذا الكتاب

هذا كتابٌ كَلِيلَةٌ وِدْمَةٌ وهو مِمَّا وَضَعْتُهُ علماءُ الهِنْدِ مِنَ الأمثالِ والأحاديثِ التي أَلْهِمُوا أَنْ يُدْخِلُوا فِيهَا أَبْلَغَ مَا وَجَدُوا مِنَ الْقَوْلِ فِي التَّحْوِ الَّذِي أَرَادُوا ، ولم تَزَلِ العلماءُ من كلِّ أُمَّةٍ وَلِسَانٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُعْقَلَ^١ عَنْهُمْ وَيَحْتَالُونَ لذلك بِصُنُوفِ الحَيْلِ وَيَتَّبِعُونَ إِخْرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلَلِ فِي إِظْهَارِ مَا لَدَيْهِمْ مِنَ العُلُومِ وَالْحِكَمِ ، حتى كَانَ من تلك العِلَلِ وَضَعُ هذا الكتابِ على أفواهِ البهائمِ والطَّيْرِ فَاجْتَمَعَ لَهُم بِذلك خِلَالُ^٢ . أما هم فَوَجَدُوا مُنْصَرَفًا^٣ فِي الْقَوْلِ وَشِعَابًا يَأْخُذُونَ مِنْهَا وَوُجُوهًا يَسْلُكُونَ فِيهَا . وَأَمَّا الكِتَابُ فَجَمَعَ حِكْمَةً وَلَهُوَ فَاخْتَارَهُ الحُكَمَاءُ لِحِكْمَتِهِ وَالْأَغْرَارُ^٤ لِلْهُوهِ . وَالمُتَعَلِّمُ مِنَ الأَحْدَاثِ نَاشِطٌ فِي حِفْظِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُرْبِطُ فِي صَدْرِهِ وَلَا يَدْرِي مَا هُوَ بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ مِنْ ذلك بِمَكْتُوبٍ مَرْقُومٍ . وَكَانَ كَالرَّجُلِ الَّذِي لَمَّا اسْتَكْمَلَ الرَّجُولِيَّةَ وَجَدَ أَبُوِيهِ قَدْ كُنَزَ لَهُ كُنُوزًا وَعَقَدًا لَهُ عَقْدًا^٥ اسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الكَدْحِ فِيهَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيشَتِهِ . فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ^٦ عَلَيْهِ مِنَ الحِكْمَةِ عَنِ الحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ وَجُوهِ الأَدَبِ .

-
- ١ يعقل : أي يؤخذ ويفهم .
٢ خلال : أي فضائل .
٣ منصرفاً : مذهباً ينصرفون إليه .
٤ الاغرار : من لا تجربة لهم .
٥ عقداً : ما يعتقدُه الانسان ملكاً له .
٦ أشرف : أي وصل .

فأول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له
والرموز التي رُمزت فيه وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نَسَبَهُ إلى البهائم
وأضافه إلى غير مُفصِّح^١ وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثلاً ، فإن
قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتني منها ولا
أي نتيجة تحصل له من مُقدِّمات ما تَضَمَّتْ هذا الكتاب . وإنه إن كانت غايته
منه استتمام قراءته والبلوغ إلى آخره دون تفهيم ما يَقْرَأُ منه لم يعد عليه شيء
يرجع إليه نفعه .

مثل الحمالين والرجل الذي أصاب كنزاً

ومن استكثر من جمع الكتب وقراءة العلوم من غير إعمال الروية فيما
يقراه كان خليفاً أن لا يصبیه إلا ما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه
اجتاز ببعض المفاوز فظهر له موضع آثار كثير . فجعل يحفر ويطلب فوق على
شيء من عين^٢ وورق^٣ فقال في نفسه : إن أنا أخذت في نقل هذا المال قليلاً
قليلاً طال عليّ وقطعتي الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه .
ولكن سأستاجر أقواماً يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم . ولا يكون بقي
ورائي شيء يشغل فكري بنقله . وأكون قد استظهرت^٤ نفسي في إراحة بدني
عن الكد يسير أجره أعطيها لهم .

ثم جاء بالحمالين فجعل يحمل كل واحد منهم ما يطبق فينطلق به إلى
منزله هو فيفوز به ، حتى إذا لم يبق من الكثر شيء انطلق خلفهم إلى منزله
فلم يجد فيه من المال شيئاً لا كثيراً ولا قليلاً . وإذا كل واحد من الحمالين قد

٣ ورق : نقود فضية .

٤ استظهرت : استمنت .

١ غير مفصِّح : أي غير ناطق .

٢ عين : نقود ذهبية .

فاز بما حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ . ولم يكن للرجل من ذلك إلا العناء والتعب لأنه لم يفكر في آخر أمره .

مثل طالب العلم والصحيفة الصفراء

وكذلك من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً لم ينتفع بما يبدو له من خطه ونقشه . كما لو أن رجلاً قدم له جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره ويستخرج ما فيه . وكان أيضاً كالرجل الذي طلب علم الفصح من كلام الناس . فأتى صديقاً له من العلماء له علم بالفصاحة فأعلمه حاجته إلى علم الفصح . فرسم له صديقه في صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه وأجوهه . فانصرف بها إلى منزله فجعل يكثر قراءتها ولا يفهم على معانيها ولا يعلم تأويل ما فيها حتى استظهرها كلها ، فاعتقد أنه قد أحاط بعلم ما فيها .

ثم إنه جلس ذات يوم في محفل من أهل العلم والأدب فأخذ في محاورتهم فجرت له كلمة أخطأ فيها . فقال له بعض الجماعة : إنك قد أخطأت والوجه غير ما تكلمت به . فقال : كيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهي في منزلي ؟ فكانت مقالته هذه أوجب للحجة عليه وزاد ذلك قرباً من الجهل وبعداً من الأدب .

مثل رب البيت والسارق

ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه ينبغي له أن يعمل بما علم منه ليتفجع به ويجعله مثلاً لا يحيد عنه . فإذا لم يفعل ذلك كان مثله كالرجل الذي زعموا أن سارقاً تسور عليه^١ وهو نائم في منزله ، فعلم به فقال : والله لأسكتن حتى أنظر ماذا يصنع ولا أدعره^٢ ولا أعلمه أني قد علمت به ، فإذا بلغ مراده قمت إليه فنقصت ذلك عليه . ثم إنه أمسك عنه وجعل السارق يتردد وطال تردده في جميع ما يجده . فقلب الرجل الناس فنام وفرغ اللص مما أراد وأمكته الذهاب . واستيقظ الرجل فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به . فأقبل على نفسه يلومها وعرف أنه لم يتفجع بعلمه باللص إذ لم يستعمل في أمره ما يجب .

وقد يقال : إن العلم لا يتم إلا بالعمل ، وإن العلم كالشجرة والعمل به كالثمرة . وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل ليتفجع به وإن لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالماً . ولو أن رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمي جاهلاً . ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيها هو أعرف بضررها فيه وأذاها . ومن ركب هواه ورفض أن يعمل بما جربته هو أو أعلمه به غيره كان كالمرضى العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقله ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته . وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على

١ تسور عليه : أي دخل عليه واثباً من سور بيته .

٢ أدعره : أخيفه .

بعض. كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقفها الأجل إلى حفرة فوقها فيها كانا إذا صارا في قعرها بمنزلة واحدة. غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الضير إذ كانت له عينان يُبصرُ بها ، وذلك بما صار إليه جاهل غير عارف .

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناء العلم لمعاونة غيره ونفعه به وحرمان نفسه منه ، ويكون كالعين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة ، وكودودة القر التي تحكم صنعة ولا تستفح به . ينبغي لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه ويتعهدا برضايتها ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه^١ . فإن خلا^٢ ينبغي لصاحب الدنيا أن يقنيتها ويقبسها . منها العلم والمال ومنها اتخاذ المعروف . وليس للعالم أن يعيب امرأ بشيء فيه مثله ويكون كالأعمى الذي يُعير الأعمى بعماه . وينبغي لمن طلب امرأ أن يكون له فيه غاية ونهاية يعتمد عليها ويقف عندها ولا يتأدى في الطلب . فإنه يقال : من سار إلى غير غاية فيوشك أن تنقطع^٣ به مطيته ، وإنه كان حقيقاً ألا يُعني نفسه في طلب ما لا حد له وما لم يتلَّهُ أحد قبله ، ولا يتأسف عليه ولا يكون لدنياه مؤثراً على آخرته .

فإن من لم يعلق قلبه بالغايات قلت حسرته عند مفارقتها . وقد يقال في أمرين إنها يجملان بكل أحد : أحدهما التمسك والآخر المال الحلال . وقد يقال في أمرين إنها لا يجملان بأحد : الملك أن يشارك في ملكه والرجل أن يشارك في خاصته . وليس ينبغي للعاقل أن يقنط ويأس من رحمة الله وفضله فيما لا يتأله ، فربما ساق القدر له رزقاً هنيئاً وهو غافل عنه لا يدري به ولا يعلم وجهه .

٣ تنقطع : تعجز عن السير .

٤ يجملان : يحسان .

١ يقبسه : يستفده .

٢ خلا : خصالاً

مثل الرجل واللص

ومن أمثالِ هذا أن رجلاً كان به فاقةٌ وجوعٌ وعزْيٌ . فالتجأ^١ ذلك إلى أن سألَ بعضَ أقاربه وأصدقائه فلم يكن عند أحدٍ منهم فضلٌ^٢ يعودُ به عليه . فبينما هو ذاتَ ليلةٍ في منزله إذ بصُرَّ بسارقٍ في المتراءى فقالَ في نفسه : والله ما في منزلي شيءٌ أخافُ عليه فليجهدِ السَّارقُ جهدهُ . فبينما السَّارقُ يجولُ إذ وَقَعَتْ يَدُهُ على خايبةٍ فيها حِنطةٌ فقالَ السَّارقُ : والله ما أحبُّ أن يكونَ عَنائي الليلةَ باطلاً ، ولعلمي لا أصلُ إلى موضعٍ آخرَ ، ولكن سأحملُ هذه الحِنطةَ خيراً من الرجوعِ بغيرِ شيءٍ . ثم بسَطَ رِداءَهُ لِيَصُبَّ عليه الحِنطةَ . فقالَ الرجلُ : يذهبُ هذا بالحِنطةِ وليسَ ورالي سِواها ، فيجتمعُ عليَّ مع العزْيِ ذهابُ ما كنتُ أقاتُ به . وما تجتمعُ والله هاتانِ الحلتانِ على أحدٍ إلا أهلكتاهُ . ثم صاحَ بالسَّارقِ ووَثَبَ إليه بهراوةً كانت عند رأسِهِ ، فلم يكن للسَّارقِ حيلةٌ إلا الهَرَبَ منه وتَرَكَ رِداءَهُ ونَجَا بنفسِهِ وعَدَا الرجلُ به كاسياً . وليسَ يَنْبَغِي للعاقِلِ أن يَرَكْنَ إلى مثلِ هذا المثلِ فيتَكَلَّفَ عليه ويدعُ ما يجبُ عليه من السَّعيِ والعملِ لِصَلاحِ معاشِهِ ، بل أن لا يَألُو جهداً في الطَّلَبِ على قَدَرِ معرفتِهِ ، ولا يَنْظُرَ إلى مَنْ تُؤاتِيهِ المقاديرُ وتُساعِدُهُ على غيرِ التماسِ منه ولا حركةٍ . لأنَّ أولئك في الناسِ قليلٌ . وإِنَّا الجُمهورُ منهم مَنْ يَجهدُ نفسَهُ في الكَدِّ والسَّعيِ فيما يُصلِحُ من أمرِهِ وينالُ به ما يُريدُ . وليحرصْ أن يكونَ مكسبُهُ من أطيبِ المكاسبِ وأفضلِها وأنفعِها له ولغيرِهِ معاً ما أمكنَ . ولا يَتعرَّضْ لِمَا يَجلبُ عليه العناءَ والشقاءَ وما يُعقبُهُ الهَمَّ والغَمَّ .

١ التجأ : اضطره ودفنه .

٢ فضل : زيادة عن حاجته .

وَلِيَحْذَرَ أَنْ يُعَاوِدَ مَا أَصَابَهُ مِنَ الضَّرَرِ . وَيَنْبَغِي لَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَحْذَرَ مِمَّا يُصِيبُ غَيْرَهُ مِنَ الضَّرَرِ لِئَلَّا يُصِيبَهُ مِثْلُهُ فَيَكُونَ كَالْحَمَامَةِ الَّتِي تُفْرِخُ الْفِرَاحَ فَتُؤَخَذُ وَتُذْبِحُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُهَا ذَلِكَ مِنْ أَنْ تَعُودَ فَتَفْرِخَ مَوْضِعَهَا وَتُقِيمَ بِمَكَانِهَا ، فَتُؤَخَذُ الثَّانِيَةَ مِنْ فِرَاحِهَا فَتُذْبِحُ حَتَّى تُؤَخَذَ هِيَ أَيْضًا فَتُذْبِحُ .

وقد يُقَالُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا يُوقِفُ عَلَيْهِ . وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي الْأَشْيَاءِ حَدَّهَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْحَقَهُ التَّقْصِيرُ عَنْ بُلُوغِهَا . وَالْمُتَجَاوِزُ الْحَدَّ وَالْمُقْصَرُّ عَنْهُ سَيِّانٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ . لِأَنَّ كُلَّيْهَا زَانِعٌ عَنْهُ فِي الْحَالَيْنِ جَمِيعًا . وَيُقَالُ : مَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِآخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ فَحْيَاثُهُ لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِدُنْيَاهُ خَاصَّةً فَحْيَاثُهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِآخِرَتِهِ فَحْيَاثُهُ لَهُ . وَيُقَالُ فِي أَشْيَاءٍ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الدُّنْيَا إِصْلَاحُهَا وَبَدَلُ جُهْدِهَا فِيهَا ، مِنْهَا أَمْرٌ دِينِي ، وَمِنْهَا أَمْرٌ مَعِيشِي ، وَمِنْهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمِنْهَا مَا يُكْسِبُهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ بَعْدَهُ . وَقَدْ قِيلَ فِي أُمُورٍ مِنْ كُنَّ فِيهَا لَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ عَمَلٌ ، مِنْهَا التَّوَانِي ، وَمِنْهَا تَضْيِيعُ الْفُرْصِ ، وَمِنْهَا التَّصْدِيقُ لِكُلِّ مُخِيرٍ ، وَمِنْهَا التَّكْذِيبُ لِكُلِّ عَارِفٍ .

وَرُبَّ مُخِيرٍ بِشَيْءٍ عَقَلَهُ وَلَا يَعْرِفُ اسْتِقَامَتَهُ فَيُصَدِّقُهُ . وَالَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ : رَجُلٌ يُصَدِّقُ بِمَا جَرَّبَهُ غَيْرُهُ وَصَدَّقَهُ ، فَيُصَدِّقُهُ هُوَ وَيَتَادَى فِي التَّصْدِيقِ حَتَّى كَانَتْ جَرَّبَهُ بِنَفْسِهِ ، وَرَجُلٌ يُصَدِّقُ بِالْأُمُورِ الَّتِي جَرَّبَهَا وَلَكِنْ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِحَقِيقَتِهَا ، وَرَجُلٌ تَلْتَبَسُ عَلَيْهِ الْأُمُورُ فَيُصَدِّقُ بِهَا .

وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَوَاهُ مَتِّهَمًا ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَدِيثًا ، وَلَا يَتَادَى فِي الْخَطِّ إِذَا التَّبَسَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَلَا يَلِجُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ، وَلَا يُعْدِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابُ فِيهِ وَتَسْتَوْضِحَ لَهُ الْحَقِيقَةُ . وَلَا يَكُونَ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَزِيغُ عَنِ الطَّرِيقِ فَيَسْتَمِيرُ عَلَى الضَّلَالِ فَلَا يَزْدَادُ فِي السَّرِّ جَهْدًا إِلَّا أَزْدَادَ

عن القَصْدِ بُعْداً . وكالرجل الذي تَقْذَى عَيْنُهُ^١ فلا يَزَالُ يَحْكُمُهَا حتى ربما كان ذلك الحَكُّ سَبَباً في ذَهَابِهَا .

ويجبُ على العاقِلِ أن يُصَدِّقَ بالقضاءِ والقَدْرِ وَيَعْلَمَ أنَّ ما كُتِبَ سَوْفَ يَكُونُ ، وأنَّ مَنْ أتى صاحِبَهُ بما يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ فقد ظَلَمَ . ويأخُذُ بِالْحَزْمِ في أُمُورِهِ وَيُجِبُّ لِلنَّاسِ ما يُجِبُّ لِنَفْسِهِ وَيَكْرَهُ لَهُمْ ما يَكْرَهُ لَهَا ، فلا يَطْلُبُ أَمْرًا فيه مَضْرَةٌ لِغَيْرِهِ طَلَبًا لِصَلَاحِ نَفْسِهِ بِفَسَادِ غَيْرِهِ ، فإنَّ كُلَّ غَادِرٍ مَأخُوذٌ .

مثل التاجر ورفيقه والعِدلُ المسروق

وَمَنْ فَعَلَ ذلكَ كَانَ خَلِيقًا أن يُصِيبَهُ ما أَصَابَ التَّاجِرَ من رَفِيقِهِ . فإنه يُقالُ إِنَّه كَانَ رَجُلًا تاجِرًا وَكانَ لَهُ شريكٌ ، فاستأجرا حانوتًا وجعلا متاعها فيه . وكان أحدهما قَرِيبَ المِترِ مِنَ الحانوتِ ، فأضَمَرَ في نَفْسِهِ أن يَسْرِقَ عِدلاً^٢ من أَعْدالِ رَفِيقِهِ ، ومَكَّرَ الحِيلَةَ في ذلكَ وقالَ : إن أنا أتيتُ ليلًا لم أَمِنْ أن أَحْمِلَ عِدلاً من أَعْدالي أو رِزْمَةً من رِزْمِي ولا أَعْرِفُها فيذَهَبَ عَنائي وتَجِبِي باطلاً . فأخَذَ رِداءَهُ وألقاهُ على العِدْلِ الذي أضَمَرَ أخَذَهُ ثم انصَرَفَ إلى مِترِهِ . وجاء رَفِيقُهُ بعد ذلكَ ليُصَلِّحَ أَعْدالَهُ فقالَ : واللهِ هذا رِداءُ صاحِبِي ولا أَحْسِبُهُ إلاَّ قد نَسِيَهُ . وما الرُّأيُ أن أَدْعَهُ ههنا ولكن أَجْعَلُهُ على رِزْمِهِ فلعلَّهُ يَسْتَبْقِي إلى الحانوتِ فيجدهُ حيثُ يُجِبُّ . ثم أَخَذَ الرِّداءَ فألقاهُ على عِدْلِ من أَعْدالِ رَفِيقِهِ وأقفلَ الحانوتَ ومَضَى إلى مِترِهِ .

فلما جاء الليلُ أتى رَفِيقُهُ ومعه رَجُلٌ قد واطأَهُ على ما عَزَمَ عليه وضمينَ له جُعلاً^٣ على حَمَلِهِ . فصارَ إلى الحانوتِ فَتَحَسَّسَ الرِّداءَ في الظُّلْمَةِ وتَلَمَّسَهُ

١ تقذى عينه : يصيبها قذى من غبار أو نحوه .

٢ عدلاً : الكيس الكبير فيه البضاعة . ٣ جعلاً : اجرة .

فوجدَهُ على العِدْلِ . فاحتمَلَ ذلك العِدْلَ وأخرَجَهُ هو والرجلُ وجَمَلًا يَتَرَاوِحَانِ
 فِي حَمَلِهِ حَتَّى أَتَى مِترَلَهُ وَرَمَى نَفْسَهُ تَعَبًا . فَلَمَّا أَصْبَحَ افْتَقَدَهُ فَإِذَا هُوَ بَعْضُ
 أَعْدَائِهِ قَنَدِيمٍ أَشَدَّ التَّدَامَةِ .

ثُمَّ انطَلَقَ نَحْوَ الحَانُوتِ فَوَجَدَ شَرِيكَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ ، فَفَتَحَ الحَانُوتَ وَقَدَّ
 العِدْلَ فَاغْتَمَّ لِدَلِكِ غَمًّا شَدِيدًا وَقَالَ : وَاسُوءَاتَا^١ مِنْ رَفِيقِي صَالِحٍ قَدْ اتَّكَمْتَنِي
 عَلَى مَالِهِ وَخَلَّفَنِي فِيهِ ! مَاذَا يَكُونُ حَالِي عِنْدَهُ ؟ وَلَسْتُ أَشْكُ فِي تُهْمَتِيهِ
 لِإِيَّايَ ، وَلَكِنْ قَدْ وَطَّئْتُ نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِيهِ . فَلَمَّا أَنَاهُ صَاحِبُهُ وَجَدَهُ مُغْتَمًّا
 فَسَأَلَهُ عَنِ حَالِهِ فَقَالَ : إِنِّي قَدْ افْتَقَدْتُ الأَعْدَالَ وَقَدَّتُ عِدْلًا مِنْ أَعْدَالِكِ وَلَا
 أَعْلَمُ بِسَبَبِهِ ، وَإِنِّي لَا أَشْكُ فِي تُهْمَتِكَ لِإِيَّايَ . وَإِنِّي قَدْ وَطَّئْتُ نَفْسِي عَلَى
 غَرَامَتِيهِ . فَقَالَ لَهُ : يَا أُخِي لَا تُغْتَمَّ فَإِنَّ الحَيَاةَ شَرٌّ مَا عَمِلَهُ الإِنْسَانُ ، وَالمَكْرُ
 وَالحَدِيدَةُ لَا يُؤَدِّيَانِ إِلَى خَيْرٍ ، وَصَاحِبُهَا مَغْرُورٌ أَبَدًا ، وَمَا عَادَ وَبَالَ^٢ البَغْيِ^٣
 إِلَّا عَلَى صَاحِبِهِ . وَأَنَا أَحَدُ مَنْ مَكَّرَ وَخَدَعَ وَاحْتَالَ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَكَيْفَ
 كَانَ ذَلِكَ ؟ فَأَخْبَرَهُ بِخَبْرِهِ وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ . فَقَالَ لَهُ رَفِيقُهُ : مَا مَثَلُكَ إِلَّا
 مَثَلُ اللِّصِّ وَالتَّاجِرِ . فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

مثل اللص والتاجر

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ تَاجِرًا كَانَ لَهُ فِي مِترَلِهِ خَاطِبَتَانِ إِحْدَاهُمَا مَمْلُوءَةٌ حِنطَةً
 وَالأُخْرَى مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا . فَتَرَقَّبَهُ بَعْضُ اللِّصُوصِ زَمَانًا حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْضُ الأَيَّامِ
 تَشَاغَلَ التَّاجِرُ عَنِ المِترَلِ ، فَتَقَفَّهُ اللِّصُّ وَدَخَلَ المِترَلَ وَكَمَّنَ فِي بَعْضِ

١ واسوءاتا : السوءة الأمر القبيح يريد واخجلتا .

٢ وبال : أي سوء العاقبة .

٣ البغي : الظلم .

نواحيه . فلما هم بأخذ الحايية التي فيها الدنانير أخذت التي فيها الحنطة وظننها التي فيها الذهب . ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها متره ، فلما فتحها وعلم ما فيها ندب .

قال له الخائز : ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس . وقد اعترفت بذنبي وخطاي عليك . وعزيراً عليّ أن يكون هذا كهذا . غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء . فقيل الرجل مغلبرته وأضرب عن توبيخه وعن التمه به ، وندب هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله .

مثل الإخوة الثلاثة

وقد ينبغي للتأطير في كتابنا هذا أن لا تكون غايته التصفح لتراويقه^١ ، بل يُشرف على ما يتضمن من الأمثال حتى يأتي عليه إلى آخره ، ويقف عند كل مثل وكلمة ، ويعمل فيها رويته ، ويكون مثل ثالث الإخوة الثلاثة الذين خلف لهم أبوهم المال الكثير فتنازعوهم بينهم . فأما الاثنان الكبيران فلأنهما أسرعاً في إتلافه وإنفاقه في غير وجهه . وأما الصغير فإنه عندما نظر ما صار إليه أخواه من إسرافها وتخليها من المال أقبل على نفسه يشاورها وقال : يا نفس إننا المال يطلبه صاحبه ويجمعه من كل وجه لبقاء حاله وصلاح معاشه ودنياه وشرف منزلته في أعين الناس ، واستغنايه عما في أيديهم ، وصرفه في وجهه من صلة الرّحيم ، والإنفاق على الولد والإفضال على الإخوان . فمن كان له مال ولا ينفقه في حقوقه كان كالذي يعد فقيراً وإن كان موسراً . وإن هو

١ عزيز : أي صعب .

٢ تراويقه : أي النظر فيها .

أَحْسَنَ إِسْكَاهُ وَالْقِيَامَ عَلَيْهِ لَمْ يَعْدَمِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً مِنْ دُنْيَا تَبْقَى عَلَيْهِ وَحَمْدِ يُصَافُ إِلَيْهِ . وَمَنْ قَصَدَ إِفْثَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي حُدَّتْ ١ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلِفَهُ وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ . وَلَكِنْ الرَّأْيُ أَنْ أُمْسِكَ هَذَا الْمَالَ ، فَلَنْ أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنِي اللَّهُ بِهِ وَيُعْنِيَ أَخَوِيَّ عَلَى يَدِي ، فَلِئِنْ هُوَ مَالُ أَبِي وَمَالُ أُيْبِهِا . وَإِنَّ أَوْلَى الْإِفْثَاقِ عَلَى صِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَمُدَّتْ ، فَكَيْفَ بِأَخَوِيَّ ! فَانْفَذْ فَأَحْضَرَهَا وَشَاطَرَهَا مَالَهُ .

مثل الصياد والصدقة

وكذلك يجبُ على قارئِ هذا الكتابِ أن يُدِيمَ النَّظَرَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ ضَجْرٍ ، وَيَلْتَمِسَ جَواهِرَ مَعَانِيهِ ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّ نَتِيجَتَهُ إِنَّا هِيَ الْإِخْبَارُ عَنْ حِيلَةٍ بِهَيْمَتَيْنِ أَوْ مُحَاوَرَةٍ سَبِيعِ لُثُورٍ ، فَيَنْصَرِفَ بِذَلِكَ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ ، وَيَكُونُ مِثْلَهُ مِثْلَ الصَّيَّادِ الَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ الْخُلُجِ ٢ يَصِيدُ فِيهِ السَّمَكَ فِي زَوْرَقٍ . فَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَقِيقِ ٣ الْمَاءِ صَدَقَةً تَلَالُؤًا حُسْنًا فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَتَهُ فِي الْبَحْرِ فَاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قَوَتْ يَوْمِهِ فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ لِأَخْذِ الصَّدَقَةِ . فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ . فَندِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي تَنَحَّى عَنِ ذَلِكَ الْمَكَانِ وَأَلْقَى شَبَكَتَهُ ، فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَأَى أَيْضًا صَدَقَةً سَنِيَّةً ٤ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا وَاجْتَنَزَّ بِهَا بَعْضُ الصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا .

وكذلك الجهالُ على إغفالِ أمرِ التَّفَكُّرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَالِاغْتِرَارِ بِهِ وَتَرْكِ

١ حُدَّتْ : أَي رَسَمَتْ وَفَرَضَتْ .
٢ الخُلُجِ : جَمْعُ خُلُجٍ .
٣ عَقِيقِ : مَسِيلٌ .
٤ سَنِيَّةٌ : أَي كَرِيمَةٌ .

الوُوقِفِ عَلَى أَسْرَارِ مَعَانِيهِ وَالْأَخْذِ بِظَاهِرِهِ دُونَ الْأَسْرِ بِبَاطِنِهِ ، وَمَنْ صَرَفَ
 هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي أَبْوَابِ الْهَزْلِ مِنْهُ فَهُوَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضاً طَيِّبَةً حَرَّةً^١ وَحَبّاً
 صَحِيحاً فَرَزَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى إِذَا قَرَّبَ خَيْرَهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعٍ مَا فِيهَا مِنْ
 الزَّهْرِ وَقَطَعَ الشُّوكَ ، فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً .
 وَيَبْغِي لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ :
 أَحَدُهَا مَا قَصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَهَائِمِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ أَهْلِ
 الْهَزْلِ مِنَ الشُّبَّانِ إِلَى قِرَاءَتِهِ فَتُسْتَأَلُ بِهِ قُلُوبُهُمْ . لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْغَرَضُ بِالنَّوَادِرِ
 مِنْ حَيْلِ الْحَيَوَانَاتِ . وَالثَّانِي إِظْهَارُ خَيَالَاتِ الْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ الْأَصْبَاحِ
 وَالْأَلْوَانِ لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ الْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِلتَّرَهَةِ فِي تِلْكَ
 الصُّورِ . وَالثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فَيَتَّخِذُهُ الْمُلُوكُ وَالسُّوقَةَ فَيَكْتُرُ
 بِذَلِكَ انْتِسَاحَهُ وَلَا يَبْطُلُ فَيَخْلُقُ^٢ عَلَى مُرُورِ الْأَيَّامِ ، وَلِيَتَفَقَّحَ بِذَلِكَ الْمُصَوِّرُ
 وَالتَّاسِخُ أَيْدَاءً . وَالْقَرَضُ الرَّابِعُ وَهُوَ الْأَقْصَى مَخْصُوصٌ بِالْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً .
 قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ : لَمَّا رَأَيْتُ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ فَسَّرُوا هَذَا الْكِتَابَ
 مِنَ الْهِنْدِيَّةِ إِلَى الْفَارِسِيَّةِ ، وَالْحَقُّوْا بِهِ بَاباً وَهُوَ بَابُ بَرْزَوَيْهِ الطَّيِّبِ ، وَلَمْ
 يَدْكُرُوا فِيهِ مَا ذَكَرْنَا فِي هَذَا الْبَابِ لِمَنْ أَرَادَ قِرَاءَتَهُ وَاقْتِبَاسَ عُلُومِهِ وَفَوَائِدِهِ
 وَضَعْنَا لَهُ هَذَا الْبَابَ . فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ تُرْشِدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

١ أرضاً حَرَّةً : لَا رَمْلَ فِيهَا .

٢ فَيَخْلُقُ : أَي فَيُحْيِي .

باب برزويه

لِبُرْزُجْمِهَرَ بْنِ الْبَحْتِكَانِ

قالَ بَرْزَوِيهِ بْنِ أَزْهَرَ رَأْسُ أَطِيَاءِ فَارِسَ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى انْتِسَاخَ هَذَا
الْكِتَابِ وَتَرْجَمَهُ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ ، وَقَدْ مَضَى ذِكْرُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ :
إِنَّ أَبِي كَانَ مِنْ الْمُقَاتِلَةِ ، وَكَانَتْ أُمِّي مِنْ عَظْمَاءِ بِيوتِ الرِّمَازِمَةِ ،
وَكَانَ مَنْشَأِي فِي نِعْمَةٍ كَامِلَةٍ ، وَكَانَتْ أَكْرَمَ وَلَدِ أَبِيِّي عَلَيْهَا ، وَكَانَا بِي أَشَدَّ
احْتِفَازًا مِنْ دُونِ إِخْوَتِي ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ سَبْعَ سِنِينَ أَسْلَمَانِي إِلَى الْمُؤَدِّبِ .
فَلَمَّا حَدَقْتُ الْكِتَابَةَ شَكَرْتُ أَبِيِّي وَنَظَرْتُ فِي الْعِلْمِ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا ابْتَدَأْتُ
بِهِ وَحَرَّضْتُ عَلَيْهِ عِلْمَ الطَّبِّ ، لِأَنِّي كُنْتُ عَرَفْتُ فَضْلَهُ . فَأَقَمْتُ فِي تَعَلُّمِهِ
سَبْعَ سِنِينَ ، وَكُلَّمَا أَزْدَدْتُ مِنْهُ عِلْمًا أَزْدَدْتُ عَلَيْهِ حِرْصًا وَلَهُ اتِّبَاعًا حَتَّى
أَحْطْتُ مِنْهُ بِعِلْمٍ وَافِرٍ وَقَدَّرْتُ عَلَى غَوَامِضِهِ . فَلَمَّا هَمَّتُ نَفْسِي بِمُدَاوَاةِ
الْمَرَضِي وَعَزَّمْتُ عَلَى ذَلِكَ أَمَرْتُهَا^١ ثُمَّ خَيْرْتُهَا بَيْنَ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا
النَّاسُ وَفِيهَا يَرْعَبُونَ وَهِيَ يَسْعَوْنَ . فَقُلْتُ : أَيُّ هَذِهِ الْخِلَالِ ابْتَنِي فِي عِلْمِي
وَأَيْهَا أُخْرَى بِي فَأَدْرِكَ مِنْهُ حَاجَتِي ، الْمَالُ أَمْ الذِّكْرُ أَمْ اللَّذَاتُ أَمْ الْآخِرَةُ ؟
وَكَانَتْ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الطَّبِّ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَطِيَاءِ مَنْ وَاظَبَ عَلَى طِبِّهِ لَا
يَبْتَنِي إِلَّا أَجْرَ الْآخِرَةِ . فَرَأَيْتُ أَنَّ أَطْلُبَ الْإِسْتِغَالَ بِالطَّبِّ ابْتِغَاءَ الْآخِرَةِ وَرِجَاءَ

١ الزمزمة : طائفة معروفة عندهم .

٢ أمرتها : شاورتها .

أَجْرِ الْمُقْلِبِ^١ ، لا أَبْتغِي مَكافَأَةَ الدُّنْيَا ولا تَعْجِيلَهَا ، لِئَلَّا أَكُونَ كَالثَّاجِرِ الَّذِي
 باعَ بِياقوتَةَ نَمِيئَةٍ كانَ يُصِيبُ بِسَمِئِها غَنِيَّ الدَّهْرِ بِحَرَزَةٍ لا تُساوي شَيْئاً . معَ أَنِّي
 قد وَجَدْتُ في كُتُبِ الأوَّلِينَ أَنَّ الَّذِي يَبْتغِي بِطَبِّهِ أَجْرَ الآخِرَةِ لا يَنْقُصُهُ ذلكَ
 حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَنَّ مِثْلَهُ مِثْلُ الرَّارِعِ الَّذِي يَبْذُرُ حَبَّهُ في الأَرْضِ وَيَعْمُرُها^٢
 ابْتِغَاءَ الزَّرْعِ لا ابْتِغَاءَ العُشْبِ . ثمَّ هِيَ لا مَحالَةَ نابتُ فيها ألوانُ العُشْبِ معَ
 ناضِرِ الزَّرْعِ .

فأَقْبَلْتُ على مُداوِةِ المَرَضِي ابْتِغَاءَ أَجْرِ الآخِرَةِ . فلمَ أَدَعُ مريضاً أَرْجو له
 البُرَّةَ وآخَرَ لا أَرْجو له ذلكَ ، إلا أَنِّي أَطْمَعُ أَن يَخِفَّ عَنْهُ بَعْضُ المَرَضِ ، إلا
 بِالْعَفْوِ في مُداوِةِ جُهْدِي . وَمَنْ قَدَّرْتُ على القيامِ عَلَيْهِ قُمتُ عَلَيْهِ بنَفْسِي ،
 وَمَنْ لَمْ أَقْدِرْ على القيامِ عَلَيْهِ وَصَفْتُ لَهُ ما يَصْلُحُ وَأَعْطَيْتُهُ مِنَ الدَّواءِ ما يَتَعالَجُ
 بِهِ ، وَأَمَرْتُهُ بِالَّذِي يَبْتغِي ولمَ أُرِدْ مَنْ فَعَلْتُ مَعَهُ ذلكَ جِزاءً ولا مَكافَأَةً . ولمَ
 أَعْطِ أَحداً منَ تَطْرَائِي الَّذينَ هُم مِثْلِي في العِلْمِ ، ولا مَنْ هُم فَوْقِي في الجِواهِ
 والمالِ وغيرِها ، مما لا يَعودُ بِصِلاحٍ ولا حُسْنِ سِيرةٍ قولاً ولا عَمَلًا .
 ولما كانَتِ نَفْسِي تَتوقُّ إلى ذلكَ وتُنازِعُنِي في أن تَنالَ مِثْلَ مَنالِهِمْ كُنْتُ
 آئِي لها إلا الحُصومَةَ وأقولُ لها :

يا نَفْسِ أَمَّا تَعْرِفينَ نَفْعَكَ مِنْ صَرْكٍ ؟ أَلَا تَتَتَهَمِينَ عَن طَلَبِ ما لا يَنالُهُ أَحَدٌ
 إلا قَلَّ انْتِفاعُهُ بِهِ ، وَكثُرَ عَناءُهُ فِيهِ ، واشتَدَّتِ المُوونَةُ^٣ عَلَيْهِ ، وَعَظَمَتِ
 المَشَقَّةُ لَدَيْهِ بَعْدَ فِراقِهِ ؟

يا نَفْسِ أَمَّا تَدْكُرِينَ ما بَعَدَ هذِهِ الدَّارِ فَيُنسِيكَ ما تَشْرَهينَ إِلَيْهِ^٤ مِنْها ؟ أَلَا
 تَسْتَحِينِ مِنَ مُشارَكَةِ الفُجَّارِ في حُبِّ هذِهِ العاجِلَةِ الفانِيَةِ الَّتِي مَنْ كانَ في يَدِهِ
 مِنْها شَيْءٌ فَلَيْسَ لَهُ وَلَيْسَ بِباقٍ عَلَيْهِ ، فلا يَأْلُفُها إلا المَعْرورُونَ الجاهِلُونَ ؟

١ المقلب : العاقبة .

٣ اشتدَّت المُوونة : الضل والشدة .

٢ يعمرها : أي يصلحها .

٤ تشرهين إليه : أي تحرصين عليه حرصاً شديداً

يا نفسِ انظري في أمرِكِ وانصِري عن هذا السَّفهِ^١ وأقبلي بقوَّتِكِ وسعيكِ
على تقديمِ الخيرِ وإيَّاكِ والتسويِفَ . واذكري أنَّ هذا الجسدَ موجودٌ لآفاتٍ
وأَنَّهُ مملوءٌ أخلاطاً فاسدةً قَدْرَةَ مُتَعَاذِيَةٍ مُتَعَالِيَةٍ تَعْقِدُهَا الحَيَاةُ ، والحياةُ إلى نفاذٍ .
كالصَّنَمِ المُفَصَّلَةِ أعضاؤه إذا رُكِّبَتْ ووُضِعَتْ جَمَعَهَا في مواضعِها مِسَارٌ واحدٌ
يُمسِكُ بعضها على بعضٍ . فإذا أُخِذَ ذلك المِسَارُ نَسَاقَطَتْ تلك الأوصالُ .

يا نفسِ لا تَعْتَرِي بصحبةِ أحيائِكِ وخُلَّانِكِ ولا تَحْرِصِي على ذلك كلِّ
الحِرْصِ . فإنَّ صُحْبَتَهُمْ على ما فيها مِنَ البهجةِ والسرورِ كَثِيرَةٌ المَوْنَةُ والأذى
وعاقِبَةُ ذلك الفِراقِ . ومثلُها مَثَلُ المِغْرَقَةِ التي تُسْتَعْمَلُ في جِدَّتِهَا لِسُخُونَةِ المَرَقِ
ولذِئِبِهِ ، فإذا قَدِمَتْ صَارَتْ وَقُوداً في النارِ .

يا نفسِ لا يَحْمِلُكَ أَهْلُكَ وَأَقَارِبُكَ على جَمْعِ ما تُهْلِكُ فِيهِ إِرَادَةَ
صِلَتِهِمْ^٢ ، فإذا أَنْتِ كَالدُّخَانِ^٣ الأَرَجَةِ التي تَحْتَرِقُ وَيَذْهَبُ آخِرُونَ بِرِيحِهَا .

يا نفسِ لا تَرَكِّي إلى هذه الدَّارِ الفانِيَةِ ولا تَعْتَرِي بها طَمَعاً في البقاءِ
والمنزلةِ التي يَنْظُرُ إليها أَهلُها . فكأَيِّ مَنْ لا يُبْصِرُ صِغَرًا ما يَسْتَعْظِمُ وحقارَةً
حتى يُفَارِقَهُ . كَشَعْرِ الرَأْسِ الذي يَخْدُمُهُ صاحِبُهُ وَيُكْرِمُهُ ما دامَ على رَأْسِهِ ،
فإذا فارقَ رَأْسَهُ اسْتَقْدَرَهُ ورَفَضَهُ .

يا نفسِ لا تَمَلِّي من عبادَةِ المَرَضِيِّ ومُدَاوَاتِهِمْ واعتَبِرِي كيفَ يَجْهَدُ
الرجلُ أَنْ يُفَرِّجَ عن مَضِيمٍ واحدٍ كُرْبَةً^٤ واحِدةً وَيَسْتَنْفِذَهُ منها رَجاءَ الأَجْرِ .
فكيفَ بالطَّيِّبِ الذي يَفْعَلُ كَثِيراً من ذلك مع كَثِيرِينَ ! إِنَّ هذا لَخَلِيقٌ أَنْ يَعْظُمَ
رِجَاؤُهُ وَيُوثِقُ مِنْهُ بِحُسْنِ الثَّوَابِ .

١ السَّفهِ : الجهل .

٢ صلتهم : أي الإحسان إليهم .

٣ كاللذخنة : نوع من الطيب .

٤ كربة : حزنًا .

يا نفس لا يبعذ عليك أمر الآخرة فتصلي إلى العاجلة في تسجيل القليل
 وبيع الكثير باليسير . كالتاجر الذي كان له ميلٌ بيتٍ من الصندل^١ فقال : إن
 بعته وزناً طال علي فباعه جزافاً^٢ بأبخس الثمن . وقد وجدت آراء الناس مختلفةً
 وأهواءهم متباينةً وكلٌّ على كلٍّ عادٍ^٣ وله عدوٌّ ومُقتابٌ وفيه واقعٌ .

مثل المصدق المخدوع

فلما رأيتُ ذلك لم أجدُ إلى متابعةٍ أحدٍ منهم سبيلاً وعرفتُ أنني إن
 صدقتُ أحداً منهم لا علمَ لي بحاله كنتُ في ذلك كالمُصدقِ المخدوعِ الذي
 زعموا فيه أن سارقاً علا ظهرَ بيتِ رجلٍ من الأغنياء وكان معه جماعةٌ من
 أصحابه . فاستيقظَ الرجلُ من وطئهم^٤ فأيقظَ امرأتهُ فأعلمها بذلك وقال لها :
 رويداً إني لأحسبُ اللصوصَ علواً على البيتِ . فأيقظيني بصوتِ يسمعهُ
 اللصوصُ وقولي : ألا تُخبرني أيها الرجلُ عن أموالك هذه الكثيرةِ وكنوزك
 العظيمةِ من أين جمعتها؟ فإذا امتنعتُ عليك فألحي علي في السؤالِ
 واستحلفيني حتى أقولَ لك .

فعلتِ المرأةُ ذلك وسألتهُ كما أمرها وأنصتتِ^٥ اللصوصُ إلى سماعِ قولها .
 فقال لها الرجلُ : أيها المرأةُ قد ساقك القدرُ إلى رزقٍ واسعٍ ومالٍ كثيرٍ فكُلِي
 واشربي ولا تسألِي عن أمرٍ إن أخبرتكِ به لم آمنُ أن يسمعهُ أحدٌ فيكونَ في
 ذلك ما أكرهه وتكرهين . فقالتِ المرأةُ : أخبرني أيها الرجلُ فلعمري ما بقربنا
 أحدٌ يسمعُ كلامنا . فقال لها : فلإني مُخبركُ أني لم أجمعُ هذه الأموالَ إلا مِن

١ الصندل : حبّ طيب الرائحة .
 ٢ جزافاً : بلا وزن ولا كيل .
 ٣ عاد : ساط وهاجم .
 ٤ واقع : ساب له .
 ٥ وطئهم : دوسهم .
 ٦ أنصتت : أصغت .

السَّرِقَةَ . قالت : وكيفَ كانَ ذلكَ وما كنتَ تصنعُ وأنتَ عندَ الناسِ مِن
البرِّرة الصُّلَاحِ ؟ قالَ : ذلكَ لِعِلمِ أَصِبْتَهُ في السَّرِقَةَ وكانَ الأمرُ عليَّ يَسِيراً
وأنا آمِنٌ من أن يَتَّهَمَنِي أَحَدٌ أو يَرتابَ بي . قالتَ : فاذكُرْ لي ذلكَ .

قالَ : كنتُ أَذهبُ في اللَّيْلَةِ المُقَمَّرَةِ أنا وأصحابي حتى أعلُو دارَ بعضِ
الاغنياءِ مثلنا . فأتَّهَمِي إلى الكَوَّةِ^٢ التي يَدْخُلُ منها الصُّوءُ . فأرقي بِهِذِهِ الرُّقِيَةَ
وهي شَوْلَمُ شَوْلَمَ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَأَعْتَنِقُ الصُّوءَ فلا يُحِسُّ بِوقوعي أَحَدٌ . ولا يَبْقَى
في البَيْتِ شَيْءٌ إِلَّا أَناني قاصِداً مُطِيعاً . فلا أَدْعُ مالاً ولا مَتاعاً إِلَّا أَخَذْتُهُ . ثم
أَعِيدُ العَزِيمَةَ^٣ أيضاً وَأَعْتَنِقُ الصُّوءَ فيجذِبُنِي فأصعدُ إلى أصحابي فَنَمْضِي سَالِمِينَ
آمِنِينَ . وليسَ عليَّ مَن يَفْعَلُ ذلكَ إِلَّا أن تكونَ له جُرْأَةٌ فيسَلِّمَ نَفْسَهُ إلى
جِبَالِ الصُّوءِ ويتعلَّقُ بها ويترنَّلَ عليها . فاكْتُمِي ذلكَ وإيَّاكِ أن تُعَلِّمِيه لِأَحَدٍ .
فلَمَّا سَمِعَ اللُّصُوصُ ذلكَ قالوا : قد ظَفَرنا اللَّيْلَةَ بما نُريدُ مِنَ المَالِ . ثم
إنهم أَطالوا المُكْتَحَ حتى ظَنُّوا أَنَّ صاحِبَ الدَّارِ وزَوَجاتَهُ قد هَجَعَا . وكانت
تلكَ اللَّيْلَةُ مُقَمَّرَةً وللبيتِ كُوءٌ نافِذٌ منها الصُّوءُ . فقامَ قائِدهُمُ إلى مَدْخَلِ الصُّوءِ
وقالَ : شَوْلَمَ شَوْلَمَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثمَّ اعْتَنَقَ الصُّوءَ لِيترنَّلَ إلى أرضِ المَترِلي ،
فوقَعَ على أُمِّ راسِهِ مُنْكَسَأً ، فَوَثَبَ إليه الرِجْلُ بِهراونَةٍ وقالَ له : مَن
أنتَ ؟ قالَ : أنا المُصَدِّقُ المَخدوعُ المُفْتَرُّ بما لا يكونُ أبداً وهذه ثَمَرَةٌ
رُقِيَّتِكَ وَعاقِبَةُ مَن يُصَدِّقُ كلَّ ما يَسْمَعُ .

فلَمَّا تَحَرَّزْتُ من تَصَدِيقِ ما لا يكونُ ولم آمِنُ إن صدَّقْتُهُ أن يُوَقِّعَنِي في
تَهْلِكَةِ عَدْتُ إلى البَحْثِ عَنِ الأديانِ والتماسِ العَدْلِ منها . فلم أَجدْ عندَ أَحَدٍ
من كَلِمَتُهُ جواباً فيما سألتُهُ عنه فيها ، ولم أرَ فيما كَلَّموني به شَيْئاً يَحِقُّ لي في

-
- | | |
|---------------------------|--------------------------|
| ١ البررة : جمع بار . | ٤ هجما : ناما . |
| ٢ الكوة : خرق في الحائط . | ٥ منكساً : منقبلاً . |
| ٣ العزيمة : الرقية . | ٦ هراوته : عصاه الضخمة . |

عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه . فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه فالرأي أن الزم دين آبائي وأجدادي الذي وجدتهم عليه . وهممت بذلك . ثم التمسْتُ نفسي مخرجاً فقلت : إن كان من يفعل هذا معنوراً فإن الذي يجد أباه ساحراً ويجري على مثاله يكون غير ملومٍ مع أشباه ذلك مما لا يحتمله العقل . وذكّرتُ في ذلك قولَ رجلٍ كان فاجشَ الأكلِ فعُوتِبَ في ذلك فقال : كذلك كان أكلُ أبي وجدِّي .

فلما ذهبتُ ألتمسُ العُذرَ لنفسي في لزومِ دينِ الآباءِ والأجدادِ ولم أجد لها على الثبوتِ على دينِ الآباءِ طاقةً بل وجدتها تُريدُ أن تتفرَّغَ للبحثِ عن الأديانِ والمسألةِ عنها وللنظرِ فيها ، هَجَسَ^١ في قلبي وخطرَ على بالي قُربُ الأجلِ وسُرعةُ انقطاعِ الدنيا واعتباطُ^٢ أهلها وتحرُّمُ^٣ الدهرِ حياتهم ، ففكرتُ في ذلك وقلتُ : أمّا أنا فلعلِّي قد قُربُ أجلي وحانتُ فُلتي ، وقد كنتُ أعملُ أموراً محمودَةً أرجو أن تكونَ أصلحَ الأعمالِ .

مثل الرجل والخادم

ولعلَّ تَرَدُّدي شغلني عن خيرٍ كنتُ أعملُهُ فيكونُ أجلي دونَ ما تطمَحُ إليه نفسي ويطلبُهُ أُملي ويصيبني ما أصابَ الرجلَ الذي زَعَموا أنه تَوَاطَأَ^٤ معَ خادمٍ في بيتٍ لأحدِ الأغنياءِ على أن يأتيَ البيتَ في كلِّ ليلةٍ يَغيبُ أهلهُ ، فيجمعُ له الخادِمُ مما في البيتِ فيذهبُ به وبيعهُ ويتشاطرًا ثمنَهُ .

١ هجس : بمعنى خطر .

٢ اعتباط : يقال اعتبط الموت فلاناً أي أخذه بلا علة .

٣ تحرّم : استتصال .

٤ تَوَاطَأَ : اتفق .

فَاتَّفَقَ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنْ غَابَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَبَقِيَ الْخَادِمُ وَحَدَهُ . فَأَنْفَذَ فَأَخْبَرَ
صَاحِبَهُ فَأَقْبَلَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ وَأَخَذَا فِي الْجَمْعِ مِمَّا فِيهِ . وَبَيْنَا هُمَا يَجْمَعَانِ إِذْ
قُرِعَ الْبَابُ وَكَانَ لِلْبَيْتِ بَابٌ آخَرٌ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ الرَّجُلُ وَكَانَ ذَلِكَ الْبَابُ عِنْدَ
جُبِّ الْمَاءِ . فَقَالَ الْخَادِمُ لِلرَّجُلِ عَلَى عَجَلٍ مِنْهُ وَخَيْفَةٍ : بَادِرْ أَخْرُجْ مِنَ الْبَابِ
الَّذِي عِنْدَ جُبِّ الْمَاءِ ، وَأَشَارَ لَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ . فَاَنْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ
فَوَجَدَ الْبَابَ وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ جُبَّ الْمَاءِ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : أَمَا الْبَابُ
فَوَجَدْتُهُ وَأَمَا الْجُبُّ فَلَمْ أَجِدْهُ . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَاتِقُ^٢ وَمَا تَصْنَعُ بِالْجُبِّ ! أَنَا
ذَلِكَ بِه لِتَعْرِفَ الْبَابَ فَإِذَا قَدْ عَرَفْتَهُ فَادْهَبْ عَاجِلاً . فَقَالَ لَهُ : لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ
صِدْقًا فَلِمَ ذَكَرْتَ الْجُبَّ وَلَيْسَ هُوَ هُنَاكَ ؟ فَقَالَ لَهُ : وَيْحَكَ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ أَنْجُ
بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنكَ الْحَقَّ وَالتَّرْدُّدَ . فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ أَمْضِي وَقَدْ خَلَطْتُ^٣ عَلَيَّ
وَذَكَرْتَ الْجُبَّ وَلَيْسَ هُنَاكَ ؟ فَلَمْ يَزَلْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى دَخَلَ رَبُّ
الْبَيْتِ فَأَخَذَ بِتَلْيِيهِ^٤ وَأَوْجَعَهُ ضَرْبًا وَرَفَعَهُ إِلَى السُّلْطَانِ .

فَلَمَّا خِفْتُ مِنَ التَّرْدُّدِ رَأَيْتُ أَنْ لَا أُتَعَرَّضَ لَهُ وَلَا لِمَا أُتَخَوَّفُ مِنْهُ
الْمَكْرُوهَ . وَاقْتَصَرْتُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ وَتَتَّقَى عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَدْيَانِ
وَيُرَى أَنَّهُ صَوَابٌ وَحَقٌّ . فَكَفَفْتُ يَدَيَّ عَنِ الضَّرْبِ وَالْقَتْلِ وَالسَّرِقَةِ وَزَجَرْتُ
نَفْسِي عَنِ الْكِبْرِ وَالْعَصَبِ . وَنَزَهْتُ قَلْبِي عَنِ الْحَقْدِ وَالْبُغْضِ وَالْخِيَانَةِ .
وَصُنْتُ لِسَانِي عَنِ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ^٥ وَالغَيْبَةِ وَالتَّنْمِيمَةِ وَكُلِّ أَمْرٍ مَكْرُوهٍ .
وَأَضْمَرْتُ فِي نَفْسِي أَنْ لَا أَبْغِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا أُكْذِبُ بِالْبَعْثِ وَلَا الْقِيَامَةِ وَلَا

١ جب : بئر .

٢ الماتق : الاحمق في غياوة .

٣ خلطت : أي خلطت الحق بالباطل .

٤ تلييه : جمع ثياه عند صدره وعنقه ساحباً لياه .

٥ البهتان : أن يقال عن الناس ما لم يفعلوه .

الثَّوَابِ وَلَا الْعِقَابِ . وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ يُكَافِي عَلَى الْخَيْرِ بِالْخَيْرِ
وَعَلَى الشَّرِّ بِالشَّرِّ . وَأَنْ لَا بُدَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ وَالْحِسَابِ . وَزَايَلْتُ^١ الْأَشْرَارَ
وَحَاوَلْتُ الْجُلُوسَ مَعَ الْأَخْيَارِ بِجُهْدِي . وَرَأَيْتُ كَلَّامَ الصَّلَاحِ وَالْعِلْمِ لَيْسَ
كَمَثَلِهِ صَاحِبٌ وَلَا قَرِينٌ^٢ . وَوَجَدْتُ مَكْسَبَهُ إِذَا وَفَّقَ اللَّهُ وَأَعَانَ يَسِيراً . وَوَجَدْتُهُ
يَدُلُّ عَلَى الْخَيْرِ وَيُشِيرُ بِالتَّصَحُّحِ فَعَلَ الصَّدِيقِ بِالصَّدِيقِ . وَوَجَدْتُهُ لَا يَنْقُصُ عَلَى
الْإِنْفَاقِ مِنْهُ بَلْ يَزِدَادُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ بَلْ يَجِدُّ وَيَزْهَوُ وَيَكْتُرُ .
وَوَجَدْتُهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَغْصِبَهُ^٣ ، وَلَا مِنَ الْآفَاتِ أَنْ تُغْسِدَهُ ،
وَلَا مِنَ الْمَاءِ أَنْ يُغْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ النَّارِ أَنْ تُحْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ اللَّصُوصِ أَنْ
تَسْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ السَّبَاعِ وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ أَنْ تُمَرِّقَهُ .

مثل تاجر الجواهر والأجير

وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ السَّاهِيَ اللَّاهِيَّ الْمُؤَيَّرَ الْيَسِيرَ يَنَالُهُ فِي يَوْمِهِ وَيَعْدَمُهُ فِي
غَدِهِ عَلَى الْكَثِيرِ الْبَاقِي نَعِيمُهُ يُصِيبُهُ فَمَا ذَهَبَتْ فِيهِ أَيَّامُهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ الَّذِي
زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ فَاسْتَأْجَرَ لِثَقْبِهِ رَجُلًا فِي الْيَوْمِ عَلَى مِئَةِ دِرْهَمٍ
يَدْفَعُهَا إِلَيْهِ . وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَتْرَلِهِ لِيَعْمَلَ . وَإِذَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ صَنْجٌ^٤
مَوْضُوعٌ ، فَقَالَ التَّاجِرُ لِلصَّانِعِ : هَلْ تُحْسِنُ الضَّرْبَ بِالصَّنْجِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ،
وَكَانَ بَصْرِيهِ مَاهِرًا . فَقَالَ الرَّجُلُ : دُونَكَ الصَّنْجُ فَاسْمِعْنَا ضَرْبَكَ بِهِ . فَأَخَذَ
الرَّجُلُ الصَّنْجَ وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ التَّاجِرَ الضَّرْبَ الصَّحِيحَ وَالصَّوْتَ الرَّخِيمَ وَالتَّاجِرُ
يُشِيرُ بِيَدِهِ وَرَأْسِهِ طَرَبًا حَتَّى أَمْسَى .

١ زايلت : فارقت .

٢ قرين : مصاحب وعشير .

٣ يغصبه : يأخذه قهراً وظلماً .

٤ صنج : من آلات الطرب .

فلَمَّا حَانَ الثُّرُوبُ قَالَ الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ : مُرْ لِي بِالْأَجْرَةِ . فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ :
 وَهَلْ عَمِلْتَ شَيْئاً تَسْتَحِقُّ بِهِ الْأَجْرَةَ ؟ فَقَالَ لَهُ : عَمِلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ وَأَنَا
 أَجِيرُكَ وَمَا اسْتَعْمَلْتَنِي عَمِلْتُ . وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اسْتَوْفَى مِنْهُ مِئَةَ الدَّرَاهِمِ
 وَبَقِيَ جَوْهَرُهُ غَيْرَ مَتَّقٍ .

فَلَمْ أَزِدْ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا نَظْراً إِلَّا أَزِدْتُ فِيهَا زَهَادَةً وَمِنْهَا هَرَباً .
 وَوَجَدْتُ التُّسْكَ هُوَ الدُّنْيَا ، يُمَهِّدُ لِلْمَعَادِ^٢ كَمَا يُمَهِّدُ الْوَالِدُ لِوَلَدِهِ . وَوَجَدْتُهُ هُوَ
 الْبَابَ الْمَفْتُوحَ إِلَى التَّعْمِيرِ الْمُقِيمِ . وَوَجَدْتُ النَّاسِكَ قَدْ تَدَبَّرَ فِعْلَتَهُ بِالسُّكِينَةِ^٣
 وَالْوَقَارِ فَشَكَرَ وَتَوَاضَعَ . وَقَبَعَ فَاسْتَعْنَى . وَرَضِيَ فَلَمْ يَهْتَمَّ . وَخَلَعَ الدُّنْيَا فَتَجَا
 مِنْ الشُّرُورِ . وَرَفَضَ الشَّهَوَاتِ فَصَارَ طَاهِراً . وَطَرَحَ الْحَسَدَ فَوَجِبَتْ لَهُ
 الْمَحَبَّةُ . وَانْفَرَدَ بِنَفْسِهِ فَكَفَى الْأَحْزَانَ وَسَحَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ . وَاسْتَعْمَلَ
 الْعَقْلَ فَأَبْصَرَ الْعَاقِبَةَ فَأَمِنَ التَّدَامَةَ . وَاعْتَرَلَ النَّاسَ فَسَلِمَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَخَفْهُمْ .

فَلَمْ أَزِدْ فِي أَمْرِ التُّسْكَ نَظْراً إِلَّا أَزِدْتُ فِيهِ رَغْبَةً حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَكُونَ
 مِنْ أَهْلِهِ . ثُمَّ تَخَوَّفْتُ أَنْ لَا أَصْبِرَ عَلَى عَيْشِ النَّاسِكَ وَلَا أَقْوَى عَلَى عُسْرِهِ
 وَمَشَقَّتِهِ لِأَنَّ اعْتِدُّهُ وَعُدِّيْتُ بِهِ مِنْذُ كُنْتُ وَلِيداً . وَلَمْ أَمِنْ إِنْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا
 وَأَخَذْتُ فِي التُّسْكَ أَنْ أضعُفَ عَنْ ذَلِكَ وَأَكُونَ قَدْ رَفَضْتُ أَعْمَالاً كُنْتُ أَرْجُو
 عَائِدَتَهَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُهَا فَأَنْتَفِعَ بِهَا فِي الدُّنْيَا . فَيَكُونُ مِثْلِي فِي ذَلِكَ مِثْلَ
 الْكَلْبِ الَّذِي مَرَّ بِنَهْرٍ وَفِي فِيهِ ضِلْعٌ فَرَأَى ظِلَّهُا فِي الْمَاءِ فَأَهْوَى لِأَخْذِهَا فَاتْلَفَ
 مَا كَانَ مَعَهُ وَلَمْ يَجِدْ فِي الْمَاءِ شَيْئاً . فَهَبَتْهُ التُّسْكَ مَهَابَةً شَدِيدَةً وَخِفْتُ مِنْ
 الصَّجْبَرِ وَقِلَّةِ الصَّبْرِ وَأَرَدْتُ الثَّبُوتَ عَلَى حَالَتِي الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا .

ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ أَقْبِسَ مَا أَخَافُ أَنْ لَا أَصْبِرَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّظْفِ^٤ وَالصَّبِيِّ

١ استعملتني : طلبت مني عمله .

٢ للمعاد : للآخرة .

٣ السكينة : الطمانينة والهدوء .

٤ الشظف : سوء العيش .

والخشونة في التسك وما يُصيبُ صاحبَ الدنيا مِنَ البلاء . وكان عندي أَنه ليسَ شيءٌ من شهواتِ الدنيا ولذاتها إِلَّا وهو مُتحوِّلٌ إلى الأذى وموَلَّدٌ للحزن . فالدنيا كالماءِ المِلحِ الذي لا يَزَادُ شاربُهُ شرباً إِلَّا ازدادَ عطشاً . وكالعظمِ الذي يُصيبُهُ الكلبُ فيجدُ فيه رِيحَ اللحمِ فلا يزالُ يَطْلُبُ ذلكَ اللحمَ حتى يُدميَ فاهُ ولا ينالُ شيئاً ممَّا طَلَبَ . وكالحِداة^١ التي تظفرُ بالبضعة^٢ من اللحمِ فيجتمعُ عليها الطيرُ فلا تزالُ تَدورُ وتَدأبُ حتى تُعييَ وتَعجزُ فإذا تَعَيَّتْ أَلقتْ ما مَعها . وكالكوزِ مِنَ العسلِ الذي في أسفلِهِ السَّمُ الذي يُدأقُ منه حلاوةٌ عاجلةٌ وآخِرُهُ مَوْتٌ زُعافٌ . وكأحلامِ النَّائمِ التي يَفرحُ بها الإنسانُ في نومه فإذا استيقظَ ذَهَبَ الفرحُ . وكالبرقِ الذي يُضيءُ بسيراً فيطعمُ بالثورِ ثم يذهبُ بَعتهُ ويرجعُ الظلامُ . وكدودةِ القزِّ التي تَسِجُ نهاراً وليلاً وتَهلكُ وَسَطَ نسيجها الذي كلَّمَا زادتْ منه نَسجاً زادَ استحكاماً ومنعاً لها عن الخروجِ .

فلَمَّا فَكَّرْتُ في هذه الأمورِ رَجَعْتُ إلى طَلَبِ التسكِ وهزني الاشتياقُ إليه وقلتُ : لا يَلبِقُ بي أن أقيسَ الدنيا بالتسكِ إذا تَفَكَّرْتُ فيها وفي شُرورها وأحزانها . ثم خَاصَتْ نَفسي إذ هي في شُرورها سارِحَةٌ وقد لا تُثبِتُ على أمرٍ تَعزِمُ عليه كقاضي سَمِعَ من خَاصِمٍ واحدٍ فَحَكَمَ له ، فلَمَّا حَضَرَ الخَاصِمُ الثاني عادَ إلى الأولِ فَقَضَى عليه .

ثم نَظَرْتُ في الذي أكابِدُهُ من احتمالِ التسكِ وضيقيهِ فقلتُ : ما أصغرَ هذه المَشَقَّةَ في جانبِ رُوحِ الأبدِ وراحتهِ . ثم نَظَرْتُ فيما تُشرُهُ إليه النَّفسُ البهيمية^٣ من لَذَّةِ الدنيا فقلتُ ما أمرٌ هذا وأوجعُهُ وهو يَدْفَعُ إلى عذابِ الأبدِ

٤ تدأب : تجهد .

١ يصيبه : يجده .

٢ الحداة : طائر يعرف عند العامة بالشوكة . ٥ روح : سرور .

٦ البهيمية : أي فيما يشد حرصها عليه .

٣ البضعة : القطعة .

وأهواله . وكيف لا يَسْتَحِلِي الرجلُ مَرَارَةً قَلِيلَةً تَعْقِبُهَا حَلَاوَةٌ طَوِيلَةٌ ، وكيف لا تَمُرُّا عليه حَلَاوَةٌ قَلِيلَةٌ تَعْقِبُهَا مَرَارَةٌ دَائِمَةٌ ؟ وقلتُ لو أَنَّ رجلاً عُرِضَ عليه أن يَعيشَ مئةَ سنةٍ لا يَأْتِي عليه يومٌ واحدٌ إلا بُضِعَ منه بَضْعَةٌ غيرُ أَنَّهُ يُشْرَطُ له أَنَّهُ إذا اسْتَوَفَى السَّنِينَ المِئَةَ نَجَا من كُلِّ آلمٍ وأذى وصارَ إلى الأَمَنِ والسُّرُورِ كانَ حَقِيقاً أن لا يَرى تلكَ السَّنِينَ شيئاً . فكيف يَأْمِي الصَّبْرَ على أَيامٍ قَلِيلَةٍ يَعيشُها في التُّسْكِ ، وأذى تلكَ الأَيامِ قَلِيلٌ يُعْقِبُ خيراً كثيراً ؟ أوليسَ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّها بَلَاءٌ وعذابٌ والإنسانُ إِنَّا يَتَقَلَّبُ في عذابِها من حينٍ يُولَدُ إلى أن يَسْتَوَفِي أَيامَ حَيَاتِهِ !

فإنَّهُ إذا كانَ طِفْلاً ذاقَ مِنَ العذابِ ألواناً . إن جاعَ فليسَ به اسْتِطعامٌ أو عطشٌ فليسَ به اسْتِسْقَاءٌ أو وجعٌ فليسَ به اسْتِغَاثَةٌ . مع ما يَلْقَى مِنَ الوَضَعِ والحَمْلِ واللَّفِّ والدَّهْنِ والمَسْحِ . إن أنيمَ على ظَهْرِهِ لم يَسْتَطِعْ قِياماً ولا تَقَلُّباً ثم يَلْقَى أصنافَ العذابِ ما دامَ رَضِيعاً . فإذا أَفَلَّتْ من عذابِ الرُّضَاعِ أَخَذَ في عذابِ الأَدَبِ فأذيقَ منه ألواناً من عُنْفِ المُعَلِّمِ وضَجْرِ الدَّرْسِ وسَامَةِ^٢ الكِتَابَةِ . ثم له مِنَ الدَّوَاءِ والحِمِيَةِ^٣ والأسقامِ والأوجاعِ أوفى نَصِيبٍ . فإذا أدْرَكَ لَحِيقَهُ هَمُّ الأهلِ وكانت هِمَّتُهُ في جَمْعِ المالِ وتربيَةِ الولدِ ومُخاطَرَةِ الطَلَبِ والسَّعْيِ والكَدِّ والتَّعَبِ . وهو مع كُلِّ ذلكَ يَتَقَلَّبُ مع أعدائِهِ الباطِنِينَ اللّازِمِينَ له . وهُمُ البِيرَةُ الصَّفْرَاءُ والبِيرَةُ السُّوداءُ والرَّيْحُ والبَلْغَمُ والدَّمُ مع السَّمِّ المُمِيتِ والحَيَّةِ اللّادِغَةِ والخَوْفِ مِنَ السَّبَاعِ والهَوَامِّ مع تَقَلُّبِ الفُصولِ مِنَ الحَرِّ والبَرْدِ والأمطارِ والرَّياحِ والثَّلُوجِ والشَّيْطَانِ الدَّائِمِ والقَرِينِ السُّوءِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الطَّوارِيئِ الرَّدِيئَةِ ثم أنواعِ عذابِ الهَرَمِ لِمَنْ يَبْلُغُهُ .

١ تمرّ : من المَرارة .

٢ سَلْمَةٌ : مَلل .

٣ الحِمِيَةُ : مَنعَ الرِّبضِ عَمَّا يَبْزُرُهُ .

فلو لم يَخَفَ من هذه الأمور شيئاً وكان قد آمنَ وَوَتَّقَ بِالسَّلَامَةِ منها فلم يُفَكِّرْ بها لَوَجِبَ عليه أن يكونَ مُفَكِّراً في السَّاعَةِ التي يَحْضُرُهُ فيها المَوْتُ ويُفَارِقُ الدُّنْيَا فَيَذْكُرُ ما هو نازِلٌ به في تلك السَّاعَةِ ممَّا هو أشدُّ جِدًّا من ذلك من فراقِ الأَحِبَّةِ والأَقَارِبِ والمالِ وكلِّ مَضْنُونٍ به مِنَ الدُّنْيَا مع الإشرافِ على الهولِ العَظِيمِ بَعْدَ المَوْتِ . فلو لم يَفْعَلْ ذلكَ لكانَ حَقِيقاً أن يُعَدَّ عَاجِزاً مُفَرِّطاً^١ مُحِبًّا لِلدُّنَاءَةِ مُسْتَحِقًّا لِلْوَمِ .

فَمَنْ ذا الذي يَعْلَمُ هذا ولا يَسْتَعِدُّ له قَبْلَ حُلُولِهِ وَيَحْتالُ لِغَدِّ جُهْدُهُ في الحِيلَةِ وَيَرْفُضُ ما يَشَقُّهُ وَيُلهِيهِ من شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَغُرُورِها ولا سِيِّئاً في هذا الزمانِ الشَّيْبِ بِالصَّافِي وهو كَثِيرٌ . فَإِنَّه وَإِنْ كانَ المَلِكُ حَازِماً عَظِيمَ المَقْدِرَةِ رَفِيعِ الهِمَّةِ بَلِيعِ الفَحْصِ عَدِلاً مَرَجُوا صَدوقاً شُكُوراً رَحِبَ الذَّرَاعِ مَواظِباً على الحُسْنَى عالِماً بِالنَّاسِ مُهْتَمًّا بِأُمُورِ رَعِيَّتِهِ ناظِراً في أحوالِهِمْ مُحِبًّا لِلعِلْمِ والخَيْرِ والأَخْيَارِ شَدِيداً على الظُّلْمَةِ غيرَ جَبانٍ ولا خَفِيفِ القِيادِ^٢ رَفيقاً بالتَّوَسُّعِ على الرَعِيَّةِ فيما يُحِبُّونَ والدَّفْعِ لِمَا يَكْرَهُونَ ، فَإِنَّما قد نَرى الزمانَ مُدْبِراً^٣ بِكُلِّ مَكانٍ حَتى كَأَنَّ أُمُورَ الصِّدْقِ قد نُزِعَتْ مِنَ النَّاسِ فأصْبَحَ ما كانَ عَزِيزاً فَقَدُهُ مَفقُوداً ومَوجوداً ما كانَ ضائِراً^٤ وُجودُهُ . وكانَ الخَيْرُ أَصْبَحَ ذابِلاً والشَّرُّ ناضِراً . وكانَ الفَهْمُ أَصْبَحَ قد زالتْ سَبيلُهُ . وكانَ الحَقُّ وَلَّى كَسِيراً^٥ وأقْبَلَ الباطِلُ تايِبَهُ . وكانَ اتِّباعُ الهوى وإِضاعَةُ الحُكْمِ أَصْبَحَ بِالحُكَّامِ مُوكَّلاً^٦ وأصْبَحَ المَظْلُومُ بِالحَيفِ^٧ مُقَرَّراً والظَّالِمُ بِنَفْسِهِ مُسْتَطِلاً^٨ . وكانَ الحِرْصُ أَصْبَحَ

- ١ مفراطاً : مقصراً .
 ٢ القياد : أي غير سهل الانقياد .
 ٣ مدبراً : مولىً .
 ٤ ضائراً : مضراً .
 ٥ كسيراً : أي مكسور الحاطر .
 ٦ موكلاً : أي لازماً لهم .
 ٧ الحيف : الظلم والجور .
 ٨ مستطلاً : متكبراً .

فاغراً فاهُ من كلِّ جهةٍ يَتَلَقَّفُ^١ ما قَرَّبَ منه وما بَعُدَ . وكانَ الرِّضَى أَصْبَحَ
 مجهولاً . وكانَ الأَشْرَارُ يَقْصِدُونَ السَّمَاءَ صُعوداً وكانَ الأَخْيَارُ يُرِيدُونَ بَطْنَ
 الأَرْضِ . وَأَصْبَحَتِ المُرُوءَةُ مَقْدُوفاً بِهَا من أَعْلَى شَرَفٍ^٢ إلى أَسْفَلِ دَرَكٍ^٣
 وَأَصْبَحَتِ الدَّنَاءَةُ مَمَكَّةً وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ مُنْتَقِلاً عن أَهْلِ الفَضْلِ إلى أَهْلِ
 النِّقْصِ . وكانَ الدُّنْيَا جَدِلةً مَسُورَةً نَقُولُ قد عُيِّبَتِ الخَيْرَاتُ وَأُظْهِرَتِ السِّئَاتُ .
 فلَمَّا فَكَّرْتُ في الدُّنْيَا وأُمُورِهَا وأنَّ الإنسانَ هو أَشْرَفُ الخَلْقِ فِيهَا وَأَفْضَلُهُ ثُمَّ
 هو لا يَتَقَلَّبُ إِلَّا في الشُّرُورِ والهَمُومِ عَجِبْتُ من ذلكَ كلِّ العَجَبِ وَتَحَقَّقْتُ أَنَّهُ
 لَيْسَ إنسانٌ ذو عَقْلٍ يَعْلَمُ ذلكَ ثُمَّ لا يَحْتالُ لِنَفْسِهِ في النِّجاةِ وَيَلْتَمِسُ
 الخِلاصَ . وإن قَرِطَ في ذلكَ فهو عِنْدِي عاجِزٌ قَليلُ الرَّأْيِ ناقِصُ الهِمَّةِ فَمَا لَه
 وَعَلَيْهِ . ثُمَّ نَظَرْتُ فإذا النَّاسُ كُلُّهُمْ مُقَرَّطُونَ في ذلكَ مُغْفِلُونَ لَهُ ، فَفَضَّيْتُ
 العَجَبَ من ذلكَ ، وَالتَّمَسْتُ^٤ لَهُم عُدْرًا فِيهِ ، وَنَظَرْتُ فإذا الإنسانُ لا يَمْتَنِعُ
 عنِ الاحْتِيالِ لِنَفْسِهِ إِلَّا لَدَّةً صَغِيرَةً حَقِيرَةً مِنَ النَّظَرِ والسَّمْعِ والشَّمِّ والذُّوقِ
 وَاللَّمْسِ لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيبَ مِنْهَا الطَّفِيفَ أو يَقْتَنِي مِنْهَا اليَسِيرَ . فإذا ذلكَ يَشْغَلُهُ
 وَيَذْهَبُ بِهِ عنِ الاهتمامِ لِنَفْسِهِ وَطَلَبِ النِّجاةِ لَهَا .

مثل الرب الهارب من الفيل

فالتَّمَسْتُ لِلإنسانِ مَثَلاً فإذا مَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ نَجَا من خَوْفِ فيلٍ هائِجٍ إلى
 بَيْتٍ فَتَدَلَّى فِيهَا وَتَعَلَّقَ بِعُصْبَيْنِ كانا على سَمائِهَا . فَوَقَعَتْ رِجْلَاهُ على شَيْءٍ في طَيِّ
 البَيْتِ . فإذا حَيَّاتٌ أَرَبَعٌ قد أَخْرَجْنَ رُؤُوسَهُنَّ من أَجْحارِهَا . ثُمَّ نَظَرَ فإذا في
 قَعْرِ البَيْتِ ثَنِينٌ فائِجٌ فاهُ مُتَنَطِّرٌ لَهُ لِيَقَعَ فَيَأْخُذُهُ . فَرَفَعَ بَصَرَهُ إلى العُصْبَيْنِ فإذا في

٣ أسفل درك : قعر الشيء .

٤ التمس : طلبت .

١ يتلقف : يتناول .

٢ أعلى شرف : مكان عال .

أصلها جُرْدَانِ أَسْوَدٌ وَأَبْيَضٌ وَهِيَ بَقْرِضَانِ الْمُغْصِنِينَ دَائِبِينَ^١ لَا يَفْتَرَانِ .
 فَبَيْنَا هُوَ فِي النَّظَرِ لِأَمْرِهِ وَالْإِهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ إِذْ بَصُرَ قَرِيباً مِنْهُ بِحَلِيَّةٍ فِيهَا عَسَلٌ
 فَذَاقَ الْعَسَلَ فَشَعَلَتْهُ حَلَاوَتُهُ وَالْهَيْهَةَ لَدَيْهِ عَنِ الْفِكْرَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ وَأَنْ
 يَلْتَمِسَ الْخَلَاصَ لِنَفْسِهِ . وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَدْرِي مَتَى
 يَقَعُ عَلَيْهِنَّ . وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْجُرْدَيْنِ دَائِبَانِ فِي قَطْعِ الْمُغْصِنِينَ وَمَتَى انْقَطَعَا وَقَعَ
 عَلَى التَّيْنِ . فَلَمْ يَزَلْ لَاهِياً غَافِلاً مَشْغُولاً بِتِلْكَ الْحَلَاوَةِ حَتَّى سَقَطَ فِي فَمِ
 التَّيْنِ فَهَلَكَ .

فَشَبَّهْتُ بِالْبَيْتِ الدُّنْيَا الْمَمْلُوءَةَ آفَاتٍ وَشُرُوراً وَمَخَافَاتٍ وَعَاهَاتٍ^٢ .
 وَشَبَّهْتُ بِالْحَيَاتِ الأَرْبَعِ الأَخْلَاطِ الأَرْبَعَةَ الَّتِي فِي البَدَنِ ، فَإِنَّهَا مَتَى هَاجَتْ أَوْ
 هَاجَ أَحَدُهَا كَانَتْ كَحَمَّةٍ^٣ الأَفَاعِي وَالسَّمِّ المُمِيتِ . وَشَبَّهْتُ بِالْمُغْصِنِينَ الأَجَلَ
 الَّذِي هُوَ إِلَى حِينٍ ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ فَنَائِهِ وَانْقِطَاعِهِ . وَشَبَّهْتُ بِالْجُرْدَيْنِ الأَسْوَدِ
 وَالأَبْيَضِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذَيْنِ هُمَا دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الأَجْلِ . وَشَبَّهْتُ بِالتَّيْنِ
 المَصِيرِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ . وَشَبَّهْتُ بِالْعَسَلِ هَذِهِ الْحَلَاوَةَ القَلِيلَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا
 الإِنْسَانُ فَيَرَى وَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ وَيَلْمَسُ وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَلْهُو عَنْ
 شَأْنِهِ فَيَنْسَى أَمْرَ الآخِرَةِ وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ .

فَحِينَئِذٍ صَارَ أَمْرِي إِلَى الرُّضَى بِحَالِي وَإِصْلَاحِ مَا اسْتَطَعْتُ إِصْلَاحَهُ مِنْ
 عَمَلِي لَعَلِّي أَنْ أَصَادِفَ بَاقِي أَيَامِي زَمَاناً أُصِيبُ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى هُدَايَ وَسُلْطَانًا
 عَلَى نَفْسِي وَقَوْمَاً عَلَى أَمْرِي . فَأَقَمْتُ عَلَى هَذِهِ الحَالِ وَأَتَّجَهْتُ إِلَى بِلَادِ الهِنْدِ
 فِي طَلَبِ العَقَاقِيرِ والأَدْوِيَةِ . ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهَا فِي انْتِسَاحِ هَذَا الكِتَابِ وَانصَرَفْتُ
 مِنْهَا إِلَى بِلَادِي وَقَدْ انْتَسَخْتُ مِنْ كُتُبِهِمْ كُتُباً كَثِيرَةً مِنْهَا هَذَا الكِتَابُ .

١ دائبين : مستمرين .

٢ عاهات : امراضاً مفسدة .

٣ حمة : الابرة التي تلسع بها الحية .

٤ المصير : المنتهى .

كَلِيَّةٌ وَدَمْنَةٌ

باب الأسدِ والثورِ

وهو أولُ الكتابِ

قالَ دَبشَلِيمُ المَلِكُ لِيَدبَا الفِيلَسُوفِ وهو رأسُ البَراهِمَةِ : أَضْرِبْ لِي مَثَلًا لِمُتَحَابِّينَ يَقَطَعُ بَيْنَهُمَا الكَذُوبُ المُحْتالُ حَتَّى يَحْمِلَهُمَا عَلَى العَدَاوَةِ والبَغْضَاءِ .

مثل الشيخِ وبنيه الثلاثة

قالَ يَدبَا : إِذَا ابْتَلَى المُتَحَابِّانِ بَأَن يَدْخُلَ بَيْنَهُمَا الكَذُوبُ المُحْتالُ لَمْ يَلْبَثَا أَن يَتَقاطَعَا وَيَتَدابِرا^١ وآفَةً^٢ المَوَدَّةِ التَّمِيمَةِ . وَمِن أَمْثالِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بَارِضٍ دَسْتاؤُنَدَ رَجُلٌ شَيْخٌ لَهُ ثَلَاثَةُ بَنِينَ . فَلَمَّا بَلَغُوا أَشَدَّهُمْ^٣ أَسْرَفُوا فِي مالِ آبِيهِمْ وَلَمْ يَكُونُوا احْتَرَفُوا حِرْفَةً يَكْسِبُونَ بِهَا لأنفُسِهِمْ خَيْرًا . فَلامَهُمْ أبُوهُمْ وَوَعظَهُمْ عَلَى سِوَةِ فِعْلِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ : يا بَنِيَّ إِنَّ صاحِبَ الدُّنْيا يَطْلُبُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ لَنْ يَدْرِكَهَا إِلَّا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ . أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ فَالسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ ، وَالمَتَرَلَةُ فِي النِّاسِ ، وَالزَّادُ لِلآخِرَةِ . وَأَمَّا الأَرْبَعَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي دَرَكِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فَالكِيسابُ المَالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجِهٍ يَكُونُ ، ثُمَّ حُسْنُ القِيامِ

١ يتدابرا : يولي بعضها عن بعض .

٢ الآفة : عرض مفسد لما اصابه وقد مرَّ .

٣ أشدَّهُم : قوتهم أي خرجوا من سن الصبوة .

٤ درك : إدراك .

على ما اكتسب منه ، ثم استثاره ، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان فيعود عليه نفعه في الآخرة .

فمن ضيغ شيئاً من هذه الأحوال لم يدرك ما أراد من حاجته . لأنه إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به . وإن هو كان ذا مالٍ واكتساب ثم لم يحسن القيام عليه أو شك المال أن يبقى ويبقى معدماً . وإن هو وضعه ولم يستثيره لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة الذهاب . كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا غبار الميل ثم هو مع ذلك سريع فناؤه . وإن هو أنفق في غير وجهه ووضع في غير موضعه وأخطأ به مواضع استحقاقه صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له . ثم لم يمنع ذلك أيضاً ماله من التلف بالحوادث والعلم التي تجري عليه كمحسب الماء الذي لا تزال المياه تنصب فيه فإن لم يكن له مخرج ومقاص^٢ ومتنفس يخرج منه الماء بقدر ما ينبغي خرب وسال ونز من نواح كثيرة وربما انبت^٣ البق العظيم فذهب الماء ضياعاً .

وإن بني الشيخ اتفقوا بقول أبيهم وأخذوا به ؛ وعلموا أن فيه الخير وعولوا عليه ، فانطلق أكبرهم نحو أرض يقال لها ميون . فأتى في طريقه على مكان فيه وحل كثير . وكان معه عجلة يجرها ثوران يقال لأحدها شترته وللآخر بندبة . فوحل شترته في ذلك المكان ، فعالجه الرجل وأصحابه حتى بلغ منهم الجهد فلم يقدروا على إخراجها . فذهب الرجل وخلف عنده رجلاً يشارفه^٤ لمل الوحل ينشف فيتبعه به . فلما بات الرجل بذلك المكان تبرم^٥ به

٥ فعالجه : حاول إخراجها .
٦ يشارفه : يطلع عليه .
٧ تبرم : مل .

١ معدماً : فقيراً .
٢ مقاص : مكان يفيض منه .
٣ انبت وانفجر .
٤ أخذوا به : عملوا بموجبه .

وَأَسْتَوْحَشَ . فَتَرَكَ الثَّوْرَ وَالتَّحَقَّ بِصَاحِبِهِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الثَّوْرَ قَدْ مَاتَ . وَقَالَ لَهُ
 إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا انْقَضَتْ مُدَّتُهُ وَحَانَتْ مَيِّتُهُ فَهُوَ وَإِنْ اجْتَهَدَ فِي التَّوْقِي مِنْ
 الْأُمُورِ الَّتِي يَخَافُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ الْهَلَاكَ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ عَنْهُ شَيْئًا . وَرَبَّمَا عَادَ
 اجْتِهَادُهُ فِي تَوْقِيهِ وَحَدْرِهِ وَبِالْأَعْلَى عَلَيْهِ .

مثل الرجل الهارب من الذئب واللصوص

كالذي قيل إن رجلاً سلك مفازة^١ فيها خوف من السباع وكان الرجل
 خبيراً بوعث^٢ تلك الأرض وخوفها . فلما سار غير بعيدٍ اعترض له ذئب من
 أحد الذئاب وأصراها . فلما رأى الرجل أن الذئب قاصدٌ نحوه خاف منه ونظر
 يميناً وشمالاً ليجد موضعاً يتحرز^٣ فيه من الذئب ، فلم ير إلا قرية خلف وادٍ
 فذهب مسرعاً نحو القرية . فلما أتى الوادي لم ير عليه قنطرةً ورأى الذئب قد
 أدركه فألقى نفسه في الماء وهو لا يحسن السباحة وكاد يغرق لولا أن بصر به
 قوم من أهل القرية فتواقعوا^٤ لإخراجه ، فأخرجوه وقد أشرف على الهلاك .
 فلما حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة^٥ الذئب رأى على عدوة^٦
 الوادي بيتاً مفرداً فقال : أدخل هذا البيت فاستريح فيه . فلما دخله وجد
 جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار وهم يقتسمون ماله
 ويريدون قتله . فلما رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية فأسند

- ١ مفازة : فلاة لا ماء فيها .
 ٢ وعث : وعورة .
 ٣ يتحرز : يتوقى .
 ٤ تواقعوا : أي رموا بأنفسهم .
 ٥ غائلة : شر .
 ٦ عدوة : جانب .

ظَهَرَهُ إِلَى حَائِطٍ مِنْ حَيْطَانِهَا لِيَسْتَرِيحَ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الْهَوْلِ^١ وَالْإِعْيَاءِ^٢ إِذْ سَقَطَ عَلَيْهِ الْحَائِطُ فَاتَ .

قَالَ الرَّجُلُ : صَدَقْتَ قَدْ بَلَغَنِي هَذَا الْحَدِيثُ . وَأَمَّا الثَّوْرُ فَإِنَّهُ خَلَّصَ مِنْ مَكَانِهِ وَانْبَعَثَ^٣ فَلَمْ يَزَلْ فِي مَرَجٍ مُخْصَبٍ كَثِيرِ الْمَاءِ وَالْكَلاِ^٤ ، فَلَمَّا سَمِعَ وَأَمِينَ جَعَلَ يَخُورُ^٥ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْخُورِ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَجْمَةٌ^٦ فِيهَا أَسَدٌ عَظِيمٌ وَهُوَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَمَعَهُ سِبَاعٌ كَثِيرَةٌ وَذَنَابٌ وَبَنَاتٌ آوَى وَثَعَالِبٌ وَفُهُودٌ وَنُمُورٌ . وَكَانَ هَذَا الْأَسَدُ مُتَفَرِّدًا بِرَأْيِهِ دُونَ أَخِيذٍ بِرَأْيِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا سَمِعَ خُورَ الثَّوْرِ وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ثُورًا قَطُّ وَلَا سَمِعَ خُورَهُ خَامِرَهُ^٧ مِنْهُ هَيْبَةً وَخَشْيَةً^٨ وَكَرِهَةً أَنْ يَشْعُرَ بِذَلِكَ جُنْدُهُ . فَكَانَ مُقِيمًا مَكَانَهُ لَا يَبْرَحُ وَلَا يَنْشَطُ بَلْ يُؤْتَى بِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى يَدِ جُنْدِهِ . وَكَانَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ السَّبَاعِ ابْنَا آوَى يُقَالُ لِأَحَدِهَا كَلِيلَةٌ وَاللَّآخِرِ دِمْتُهُ ، وَكَانَا ذَوِي دَهَاءٍ وَعِلْمٍ وَأَدَبٍ . فَقَالَ دِمْتُهُ يَوْمًا لِأَخِيهِ كَلِيلَةَ : يَا أَخِي مَا شَأْنُ الْأَسَدِ مُقِيمًا مَكَانَهُ لَا يَبْرَحُ وَلَا يَنْشَطُ خِلَافًا لِعَادَتِهِ؟ فَقَالَ لَهُ كَلِيلَةُ : مَا شَأْنُكَ أَنْتَ وَالْمَسْأَلَةَ عَنْ هَذَا؟ نَحْنُ عَلَى بَابِ مَلِكِنَا آخِذِينَ بِمَا أَحَبَّ وَتَارِكِينَ مَا يَكْرَهُ وَلِسْنَا مِنْ أَهْلِ الْمُرْتَبَةِ الَّتِي يَتَنَاوَلُ أَهْلُهَا كَلَامَ الْمُلُوكِ وَالتَّنَظَّرَ فِي أُمُورِهِمْ . فَأَمْسِكْ عَنْ هَذَا وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَا لَيْسَ مِنْ شَكْلِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْقِرَدَ مِنَ النَّجَّارِ . قَالَ دِمْتُهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

٥ يخور : من الخوار وهو صوت البقر .

٦ أجمه : شجر كثير ملفف .

٧ خامره : داخله .

٨ خشية : خوف .

١ الهول : الخوف الشديد .

٢ الإعياء : شدة التعب .

٣ انبعث : سار مسرعاً .

٤ الكلا : العشب .

مثل القرد والنجار

قال كَلَيْلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ قَرْدًا رَأَى نَجَّارًا يَشُقُّ خَشَبَةً وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، وَكَلَّمَا شَقَّ مِنْهَا ذِرَاعًا أَدْخَلَ فِيهَا وَتَدًّا ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدْ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ فَقَامَ الْقَرْدُ وَتَكَلَّفَ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ فَرَكِبَ الخَشَبَةَ وَجَعَلَ وَجْهَهُ قِبَلَ الْوَتْدِ^١ وَظَهَرَهُ قِبَلَ طَرْفِ الخَشَبَةِ فَتَدَلَّى ذَنْبُهُ فِي الشَّقِّ وَنَزَعَ الْوَتْدَ فَلَزِمَ الشَّقُّ عَلَيْهِ فَكَادَ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَلَمِ . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ^٢ فَأَصَابَهُ^٣ عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِضَرْبِهِ . فَكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ النَّجَّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الخَشَبَةِ .

قال دِمْنَةُ : قَدْ سَمِعْتُ مَا ذَكَرْتَ . وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَدْنُو مِنَ المُلُوكِ يَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِهِمْ وَيَفُوزُ بِقُرْبِهِمْ . وَلَكِنْ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْنُو مِنْهُمْ لَيْسَ يَدْنُو مِنْهُمْ لِبَطْنِهِ ، فَإِنَّ البَطْنَ يُحْسِي بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَإِنَّا يَدْنُو مِنْهُمْ لَيْسَ الصَّدِيقُ وَيَكْبِتُ^٤ العَدُوَّ . وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا مَرُوءَةَ لَهُ وَهُمْ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِالْقَلِيلِ وَيَرْضُونَ بالدُّونِ كَالكَلْبِ الَّذِي يُصِيبُ عَظْمًا يَابِسًا فَيَفْرَحُ بِهِ . وَأَمَّا أَهْلُ الفَضْلِ والمَرُوءَةِ فَلَا يَقْنَعُهُمُ القَلِيلُ وَلَا يَرْضُونَ بِهِ دُونَ أَنْ تَسْمُوَ بِهِمْ نُفُوسُهُمْ إِلَى مَا هُمْ أَهْلٌ لَهُ وَهُوَ أَيْضًا لَهُمْ أَهْلٌ . كَالأَسَدِ الَّذِي يَفْتَرِسُ الأَرْنَابَ فَإِذَا رَأَى البَعِيرَ تَرَكَهَا وَطَلَبَ البَعِيرَ . أَلَا تَرَى أَنَّ الكَلْبَ يُصِيبُ بِذَنْبِهِ حَتَّى تَرْمِيَهُ لَهُ الكِيسَرَةَ مِنَ الخُبْزِ فَيَفْرَحُ بِهَا وَتُقْنَعُهُ مِنْكَ ، وَأَنَّ الفَيْلَ المُعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ عَظْمٌ لَا يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يُمَسِّحَ وَجْهَهُ وَيَتَمَلَّقَ لَهُ ؟ فَمَنْ عَاشَ ذَا مَالٍ

٣ أصابه : وجده .

١ قبل الوتد : إلى جهته .

٤ يكبت : يذل ويقهر .

٢ وافاه : أتاه .

وكان ذا فضلٍ وإفضالٍ على نفسه وأهله وإخوانه غيرَ حامِلٍ انمرته فهو وإن قلَّ
عمره طويلُ العمرِ . ومن كان في عيشه ضيقٌ وقلةٌ وإمساكٌ^١ على نفسه وذويه
وكان حامِلَ المنزلةِ فالمقبورُ أحياناً^٢ منه . ومن عمِلَ لبطنه وشهوته وقنعَ وتركَ
ما سوى ذلك عدَّ من البهائمِ .

قال كَلْبَةُ : قد فهمتُ ما قلتَ فراجعْ عقلك واعلمْ أن لكلِّ إنسانٍ منزلةً
وقدرًا ، فإن كان في منزلته التي هو فيها مُتأسِكاً^٣ كان حَقِيقاً أن يَقنعَ . وليسَ
لنا من المنزلةِ ما يحطُّ حالنا التي نحن عليها . ثم إنَّ منزلةَ الإنسانِ مقدورةٌ عليه
منذ الأزلِ فلا سبيلَ له إلا الرضى بها كيفَ كانت .

قال دِمَّةُ : إنَّ المنازلَ مُتَنازِعَةٌ مُشتركةٌ على قَدَرِ المروءةِ . فالمرءُ ترفعهُ
مروءته من المنزلةِ الوضعيةِ إلى المنزلةِ الرفيعةِ . ومن لا مروءةَ له يحطُّ نفسه من
المنزلةِ الرفيعةِ إلى المنزلةِ الوضعيةِ . وإنَّ الارتفاعَ إلى المنزلةِ الشريفةِ شديدٌ
والانحطاطُ منها هينٌ . كالحجرِ الثقيلِ رفعةُ من الأرضِ إلى العاتقِ عسيرٌ
ووضعهُ إلى الأرضِ هينٌ . فنحنُ أحقُّ أن نرومَ ما فوقنا من المنازلِ وأن نلتَمِسَ
ذلك بمرءوتنا . ثم كيفَ نَقنعُ بمنزلتنا ونحن نستطيعُ التحوُّلَ عنها ؟

قال كَلْبَةُ : فما الذي اجتمعَ عليه رأيك ؟

قال دِمَّةُ : أريدُ أن أعرضَ للأسدِ عند هذه الفرصةِ لأنه قد ظهرَ لي أنه
ضعيفُ الرأيِ قد التبسَ عليه أمره وعلى جنديه أيضاً . ولعلي على هذه الحالِ
أدنو منه فأصيبَ عنده منزلةٌ ومكانةٌ فيبتدِرني بالكلامِ ، فأجيبه بما تقدحه^٤
القريحةُ لعلها تُنتجُ بيننا نتيجةً تؤدي إلى إظهارِ أمرٍ مكتومٍ .

-
- | | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| ١ إمساك : بخل وشح . | ٤ متنازعة : أي كلٌ يطلبها . |
| ٢ أحياناً : تفضيل من الحياة . | ٥ العاتق : ما بين العنق والكتف . |
| ٣ متأسكاً : أي مكثباً . | ٦ تقدحه : تخرجه . |

قَالَ كَلِيلَةٌ : وما يُدريكَ أَنَّ الأَسَدَ قد التَّبَسَّ عليه أمرُهُ ؟
 قَالَ دِمْنَةٌ : بالحِيسِّ والرَّأيِ أَعْلَمُ ذلكَ منه ، فإنَّ الرَّجُلَ ذا الرَّأيِ يَعْرِفُ
 حالَ صاحِبِهِ وباطِنَ أمرِهِ بما يَظْهَرُ له من دَلَلِهِ وشكْلِهِ .
 قَالَ كَلِيلَةٌ : فكيفَ تَرجو المَترَلَةَ عندَ الأَسَدِ ولستَ بصاحبِ السُّلطانِ ولا
 لكَ عِلمٌ بِخدمَةِ السُّلطانِ وآدابِهِمْ وآدابِ مجالِسِهِمْ .
 قَالَ دِمْنَةٌ : الرَّجُلُ الشَّدِيدُ القويُّ لا يَنوهُ بهِ الجِملُ الثَّقيلُ وإن لم تكن
 عادَتُهُ الحَمَلُ ، والرَّجُلُ الضَّعيفُ لا يَسْتَقِيلُ بهِ وإن كانَ ذلكَ من صِناعَتِهِ .
 قَالَ كَلِيلَةٌ : فإنَّ السُّلطانَ لا يَتَوَخَّى^٢ بِكرامَتِهِ فَضْلاً مَن بِحضرتِهِ ولكنه
 يُؤزِّرُ الأَدنى وَمَن قَرَبَ منه .
 قَالَ دِمْنَةٌ : يُقالُ أَنَّ مَثَلَ السُّلطانِ في إِشارِهِ^٣ الأَفْضَلُ دونَ الأَدنى مَثَلُ
 شَجَرِ الكَرَمِ الذي لا يَعلَقُ إلا بأَكْرَمِ الشَّجَرِ .
 قَالَ كَلِيلَةٌ : وكيفَ تَرجو المَترَلَةَ عندَ الأَسَدِ ولم تكن دَنوتَ منه من قَبْلُ ؟
 قَالَ دِمْنَةٌ : قد فَهَمتُ كَلامَكَ جَميعَهُ وتَدبَّرتُ ما قلتَ^٤ وأنتَ صادقٌ .
 لكن اَعْلَمُ أَنَّ الذينَ لَهُمُ المَنازِلُ الرَّفيعةُ عندَ الملوِكِ قد كانوا قَبْلَ أن يَرقوا^٥ إليها
 ليستَ بِحالَتِهِمْ فيَقْرَبونَ بعدَ البُعدِ ويدنونَ بعدَ التَّنائي^٦ ، وأنا مُلتَمِسٌ بُلُوغَ
 مَكانَتِهِمْ بِجُهْدِي . وقد قَبِلَ لا يُواظِبُ على بابِ السُّلطانِ إلا مَن يَطْرَحُ الأَنفَةَ^٧
 وَيَحْمِلُ الأذى وَيَكْظِمُ^٨ العَيْظَ وَيَرفُقُ بالناسِ وَيَكْتُمُ السِّرَّ ، فإذا وَصَلَ إلى
 ذلكَ فقد بَلَغَ مُرادَهُ .
 قَالَ كَلِيلَةٌ : هَبْكَ وَصَلتَ إلى الأَسَدِ فما تَوَفَّقَكَ عندَهُ الذي تَرجو أن

- ١ ينوه به : يثقله .
 ٢ لا يتوخى : لا يقصد ويعتمد .
 ٣ إشارته : اختياره .
 ٤ تدبَّرتُ ما قلتَ : تفكَّرتُ فيه .
 ٥ يرقوا : يصعدوا .
 ٦ التَّنائي : التباعُد .
 ٧ الأَنفَةُ : عِزَّةُ النَّفسِ .
 ٨ يكظمُ : يرد .

تَنَالَ بِهِ الْمُرْتَلَةَ عِنْدَهُ وَالْحُظْوَةَ لَدَيْهِ ؟

قَالَ دِمَّةٌ : لَوْ دَتَوْتُ مِنْهُ وَعَرَفْتُ أَخْلَاقَهُ لَرَفَقْتُ فِي مُتَابَعَتِهِ وَقَلَّةِ الْخِلَافِ لَهُ . وَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا هُوَ فِي نَفْسِهِ صَوَابٌ زَيْتُهُ لَهُ وَصَبْرُهُ عَلَيْهِ وَعَرَفْتُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ وَشَجَعْتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ حَتَّى يَزِدَادَ بِهِ سُورًا . وَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا يُخَافُ عَلَيْهِ ضَرُّهُ وَشَيْئُهُ بَصْرُهُ^١ بِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرْرِ وَالشَّيْنِ وَأَطْلَعْتُهُ عَلَى مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالزَّيْنِ بِحَسَبِ مَا أُجِدُّهُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَزِدَادَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْأَسَدِ مَكَانَةً وَيَرَى مِنِّي مَا لَا يَرَاهُ مِنْ غَيْرِي . فَإِنَّ الرَّجُلَ الْأَدِيبَ الرَّفِيقَ لَوْ شَاءَ أَنْ يُبَيِّطَ حَقًّا أَوْ يُجِئَ بَاطِلًا لَفَعَلَ . كَالْمُصَوِّرِ الْمَاهِرِ الَّذِي يُصَوِّرُ فِي الْحَيْطَانِ صُورًا كَأَنَّهَا خَارِجَةٌ وَلَيْسَتْ بِخَارِجَةٍ وَأُخْرَى كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ . فَإِذَا هُوَ عَرَفَ مَا عِنْدِي وَبَانَ لَهُ حُسْنُ رَأْيِي وَجُودَةُ فِكْرِي التَّمَسُّ لِكِرَامِي وَقَرْنِي إِلَيْهِ .

قَالَ كَلْبَةُ : أَمَا إِنْ قُلْتَ هَذَا أَوْ قُلْتَ هَذَا فَلِنِي أَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ السُّلْطَانِ ، فَإِنَّ صُحْبَتَهُ خَطِرَةٌ ، وَأَحْذَرُكَ مِنَ الَّذِي أَرَدْتَهُ لِعِظَمِ خَطَرِهِ^٢ عِنْدَكَ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنْ ثَلَاثَةٌ لَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِنَّ إِلَّا أَهْوَجُ وَلَا يَسْلُمُ مِنْهُنَّ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَهِيَ صُحْبَةُ السُّلْطَانِ ، وَاتِّمَانُ النِّسَاءِ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَشُرْبُ السَّمِّ لِلتَّجْرِيبَةِ . وَإِنَّمَا شَبَّهَ الْعُلَمَاءُ السُّلْطَانَ بِالْجَبَلِ الصَّعْبِ الْمُرْتَقَى الَّذِي فِيهِ الثَّأْرُ الطَّيِّبُ وَالْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ وَالْجَوَاهِرُ الثَّمِينَةُ وَالْأَدْوِيَةُ النَّافِعَةُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَعْدِنُ^٣ السَّبَاعِ وَالثَّمُورِ وَالذَّنَابِ وَكُلِّ ضَارٍ مَخُوفٍ . فَلَارْتِقَاءَهُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ وَالْمَقَامُ فِيهِ أَشَدُّ .

قَالَ دِمَّةٌ : صَدَقْتَ فِيهَا ذَكَرْتَ ، غَيْرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَتَلَّ

١ بصْرته : عرّفته وأوضحت له .
٢ خطره : شرفه .
٣ معدن : مكان .
٤ ضار : معتد كاسر .

الرَّغَائِبَ ، وَمَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَعْلُهُ يَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتُهُ هَيْبَةً وَمَخَافَةً لِمَا لَعْلُهُ أَنْ يَتَوَقَّاهُ فَلَيْسَ بِبَالِغٍ جَسِيماً . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ خِصَالاً ثَلَاثاً لَنْ يَسْتَطِيعَهَا أَحَدٌ إِلَّا بِمَعُونَةٍ مِنْ عُلُوِّ هِمَّةٍ وَعَظِيمِ خَطَرٍ ، مِنْهَا صُحْبَةُ السُّلْطَانِ ، وَتِجَارَةُ الْبَحْرِ ، وَمُنَاجَزَةُ الْعَدُوِّ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ فِي الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الرَّشِيدِ : إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَى إِلَّا فِي مَكَائِنٍ وَلَا يَلِيقُ بِهِ غَيْرُهَا : إِمَّا مَعَ الْمُلُوكِ مُكْرَماً أَوْ مَعَ النَّسَاكِ مُتَعَبِّداً . كَالْفِيلِ إِذَا جَآءَهُ وَبَهَاؤُهُ فِي مَكَائِنٍ : إِمَّا أَنْ تَرَاهُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَحْشِيّاً أَوْ مَرْكَباً لِلْمُلُوكِ .

قَالَ كَلِيلَةُ : خَارَ اللَّهُ لَكَ^٣ فِيمَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ دِمْتَ أَنْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَعَفَّرَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ . فَقَالَ الْأَسَدُ لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا دِمْتُ بْنُ سَلِيطٍ . قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَبَاهُ . ثُمَّ سَأَلَهُ : أَيْنَ تَكُونُ ؟ قَالَ : لَمْ أَزَلْ بِيَابِ الْمَلِكِ مُرَابِطاً ، دَاعِياً لَهُ بِالنَّصْرِ وَدَوَامِ الْبَقَاءِ ، رَجَاءً أَنْ يَحْضُرَ أَمْرٌ فَأَعِينَ الْمَلِكَ فِيهِ بِنَفْسِي وَرَأْيِي . فَإِنَّ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ تَكْتُمُ فِيهَا الْأُمُورَ الَّتِي رُبَّمَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى الَّذِي لَا يُؤْبَهُ لَهُ . وَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْغُرُ أَمْرُهُ إِلَّا وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ الْغَنَاءِ^٦ وَالْمَنَافِعِ عَلَى قَدَرِهِ ، حَتَّى الْعُودُ الْمُلْتَقَى فِي الْأَرْضِ رُبَّمَا نَفَعَ فَيَأْخُذُهُ الرَّجُلُ فَيَحْكُ بِهِ أذُنَهُ فَيَكُونُ عُدَّتُهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ قَوْلَ دِمْتَ أَعْجَبَهُ وَطَمِعَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ نَصِيحَةً وَرَأْيً . فَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ فَقَالَ : إِنَّ الرَّجُلَ ذَا الثُّبُلِ^٧ وَالْمُرُوءَةِ يَكُونُ خَامِلَ الذِّكْرِ مُنْخَفِضَ الْمَتْرَلَةِ فَتَأْبَى مَتْرَلَتُهُ إِلَّا أَنْ تَشُبَّ^٨ وَتَرْتَفِعَ كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ يَضْرِبُهَا

- | | |
|---|---------------------------------|
| ١ | خطر : قدر ومتزلة . |
| ٢ | مناجزة : مقابلة . |
| ٣ | خار لك : أي جعل لك الخير . |
| ٤ | مرابطاً : ملازماً . |
| ٥ | لا يؤبه له : أي لا يلتفت إليه . |
| ٦ | الغناء : النفع والاكتفاء . |
| ٧ | الثبل : الذكاء . |
| ٨ | تشب : ترداد . |

صاحِبُهَا وَتَأْمِي إِلا اِرْتِفَاعاً .

فَلَمَّا عَرَفَ دِمْتَهُ أَنَّ الأَسَدَ قد عَجِبَ مِنْهُ وَحَسَنَ عِنْدَهُ كَلَامَهُ قَالَ : أَيُّهَا المَلِكُ ، إِنَّ رَعِيَةَ المَلِكِ تُحَضَّرُ بِأَبِيهِ رَجَاءً أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَهَا مِنْ عِلْمٍ وَافِرٍ كالأُزْرَعِ المَدْفُونِ الَّذِي لا يُعْرَفُ فَضْلُهُ حَتَّى يَخْرُجَ وَيُظَهَّرَ عَلَى وَجهِ الأَرْضِ . فَيَجِبُ عَلَى المَلِكِ أَنْ يَبْلُغَ بِكُلِّ امْرِئٍ مَرْتَبَتَهُ عَلَى قَدْرِ رَأْيِهِ وَعَلَى قَدْرِ مَا يَجِدُ عِنْدَهُ مِنَ المَنْفَعَةِ . وَقد قِيلَ : أَمْرَانِ لا يَنْبَغِي لِأَحَدِهِ أَنْ يَأْتِيَهُمَا^١ مِثْلُ أَنْ يُجْعَلَ الخَلخالُ^٢ قِلَادَةً لِلْعَتِقِ وَمِثْلُ أَنْ تُجْعَلَ القِلَادَةُ خَلخالاً فِي الرَّجُلِ . وَقد يُقَالُ : إِنَّ الفَضْلَ فِي أَمْرَيْنِ : فَضْلُ المُقَاتِلِ عَلَى المُقَاتِلِ وَالعَالِمِ عَلَى العَالِمِ . وَإِنَّ كَثْرَةَ الأَعْوَانِ إِذَا لم يَكُونُوا مُحْتَبَرِينَ رُبَّمَا تَكُونُ مَضْرَّةً عَلَى العَمَلِ . فَإِنَّ العَمَلَ لَيْسَ رَجَاؤُهُ بِكثْرَةِ الأَعْوَانِ وَلَكِنْ بِصَالِحِي الأَعْوَانِ .

وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَحْمِلُ الحَجَرَ الثَّقِيلَ فَيَقْتُلُ بِهِ نَفْسَهُ وَلا يَجِدُ لَهُ نَمْتًا . وَحَامِلُ اليَاقوتِ وَإِنْ قَلَّ يَقْدِرُ عَلَى بَيْعِهِ بِالكَثِيرِ مِنَ المَالِ . وَالعَمَلُ الَّذِي يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الحَيْلِ وَالخِدَاعِ لا يَقْتَحِمُهُ إِلا أَفْهَمُ الرِّجَالِ وَأذْكَاهُمْ . وَالرَّجُلُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى الجُنُوعِ لا يُجْزئُهُ^٣ القَصَبُ وَإِنْ كَثُرَ .

فَأنتَ الآنَ أَيُّهَا المَلِكُ حَقِيقٌ أَنْ لا تُحَقِّرُ مُرُوءَةً أنتَ تَجِدُهَا عِنْدَ رَجُلٍ صَغِيرِ المِزَلَّةِ ، فَإِنَّ الصَّغِيرَ رُبَّمَا عَظُمَ كالعَصَبِ الَّذِي يُؤخَذُ مِنَ المِيتَةِ فَإِذَا عَمِلَتْ مِنْهُ القَوْسُ أُكْرِمَ فَتَقْبِضُ عَلَيْهِ المَلُوكُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي البَأْسِ وَاللَّهْوِ . وَأَحَبُّ دِمْتِهِ أَنْ يُرِيَ القَوْمَ أَنَّ ما نالَهُ مِنْ كِرامَةِ المَلِكِ إِنَّمَا هُوَ لِرَأْيِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَعَقْلِهِ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَعْرِفَتِهِ أَبَاهُ .

فَقَالَ : إِنَّ السُّلْطَانَ لا يُقَرِّبُ الرِّجَالَ لِقُرْبِ آبائِهِمْ وَلا يُبْعِدُهُمْ لِبُعْدِهِمْ ،

١ يَأْتِيهَا : بِفِعْلِهَا .

٢ الخَلخالُ : سِوَارِ يَلْبَسُ فِي الرَّجْلِ لِلزِينَةِ .

٣ لا يَجْزئُهُ : أَي لا يَغْنِيهِ .

ولكن يَنْبِي أن يَنْظُر إلى كلِّ رجلٍ بما عندهُ لأنَّهُ لا شيءَ أَقْرَبُ إلى الرجلِ من جسديهِ ومن جسديهِ ما يدوي^١ حتى يُوذِيهِ ولا يُدْفَعُ ذلكُ عنه إلا بالنَّوَاءِ الذي يأتيهِ من بعدُ .

فلَمَّا فَرَّغَ دِمْنَةً من مَقَالَتِهِ هذه أُعْجِبَ الأَسَدُ به إعجاباً شديداً وأحسَنَ الرَّدَّ عليه وزادَ في كرامتِهِ . ثم قالَ المَلِكُ لَجُلَسَائِهِ : يَنْبِي لِلسُّلْطَانِ أن لا يُلْحَقَ في تَضْيِيعِ حَقِّ ذَوِي الحَقُوقِ ، فَإِنَّ عاقِبَةَ ذلكَ رَدِيئَةٌ حتى مَمَّنَ لا يَتَوَقَّعُ^٢ أذاهُ . والنَّاسُ في ذلكَ رَجُلَانِ : رجلٌ طَبَعُهُ الشَّرَاسَةُ فهو كالحَيَّةِ إن وطَّئها الواطئُ فلم تَلْدَغُهُ^٣ لم يكن جديراً أن يَغْرَهُ ذلكَ منها فيعودَ إلى وطئها ثانيةً فَتَلْدَغُهُ . ورجلٌ أصْلُ طَباعِهِ السَّهْوَةُ فهو كالصَّنْدَلِ البَارِدِ الذي أُفْرِطَ في حَكِّهِ صارَ حارًّا مُؤذِيًّا .

ثم إن دِمْنَةَ اسْتَأْنَسَ بالأَسَدِ وخلا به فقالَ له يوماً : رأيتُ المَلِكَ قد أقامَ في مكانٍ واحدٍ لا يَبْرُحُ منه خِلافاً لِمألوفِهِ وهو ، أعظَمُهُ اللهُ ، منيعُ الجانِبِ نافِذُ الأمرِ آمِنُ السَّاحَةِ . فرأيتُ أن أتطاولَ عليه بالاستِفْهَامِ على وجهِ النَّصِيحَةِ ، فَإِنَّ الأُمُورَ الحَقِيَّةَ لا يُظْهَرُها إلا البَحْثُ عنها ، فإذا أَظْهَرْتُ أُجِبتُ الفِكرَةَ فيها .

فبينما هما في هذا الحديثِ إذ خارَ شَتْرَبَةُ خُواراً شديداً فَهَيَّجَ الأَسَدَ وَكَرِهَ أن يُخْبِرَ دِمْنَةَ بما نالَهُ . وَعَلِمَ دِمْنَةُ أن ذلكَ الصَّوْتِ قد أدخلَ على الأَسَدِ رِيبةً وَهَيْبَةً ، فسألَهُ : هل رابَ المَلِكُ^٤ سَماعُ هذا الصَّوْتِ ؟ قالَ : لم يَرِني شيءٌ سوى ذلكَ وهو الذي حَبَسَني هذه المُدَّةَ في مكاني . وقد صَحَّ^٥ عندي من طريقِ القِيَّاسِ أن جُنَّةً صاحِبِ هذا الصَّوْتِ المُنْكَرِ الذي لم أَسْمَعُهُ قَطُّ

٤ أُجِبتُ : أُدِيرتُ .

٥ رابَ : الرِيبةُ الشكُّ .

٦ صَحَّ : ثَبِتَ .

١ يدوي : يمرضُ .

٢ لا يَتَوَقَّعُ : لا يَنْتَظِرُ .

٣ تَلْدَغُهُ : تَلْسَمُهُ .

عظيمة لأن صوته تابع لبدنه . فإن يكن كذلك فليس لنا معه قرار ولا مقام .
 قال ديمته : ليس الملكُ بحقيقٍ أن يدع مكانه لأجل صوت . فقد قالت
 العلماء : ليس من كل الأصوات تجب الهيبة .
 قال الأسد : وما مثل ذلك ؟

مثل الثعلب والطبل

قال ديمته : زعموا أن ثعلباً أتى أجمته فيها طبلٌ معلقٌ على شجرةٍ وكلما
 هبت الريحُ على قضبان تلك الشجرة حركتها فصررت الطبلُ فسمع له صوتٌ
 عظيمٌ باهرٌ . فتوجه الثعلبُ نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوتِهِ . فلما أتاه
 وجدته ضحماً فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم . فعالجه حتى شقه ،
 فلما رآه أجوف لا شيء فيه قال : لا أدري لعل أفسل الأشياء أجهرها^٢
 صوتاً وأعظمها جثّة .

وإنما صررت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذي راعنا^٣ لو وصلنا
 إليه لوجدناه أيسر مما في أنفسنا . فإن شاء الملكُ بعثني وأقام بمكانه حتى آتته
 بيان هذا الصوت . فوافق الأسدُ قوله فأذن له في الذهاب نحو الصوت .
 فانطلق ديمته إلى المكان الذي فيه شترته . فلما فصل ديمته من عند الأسدِ
 فكر الأسدُ في أمرِهِ وندم على إرسال ديمته حيث أرسله وقال في نفسه : ما
 أصبت في اثباتي ديمته وإطلاعي على سرِّي وقد كان يباني مطروحاً . فإن الرجلَ
 الذي يحضرُ باب الملك إذا كان قد أطيلت جفوتُهُ^٤ من غير جرم كان منه أو

١ أفسل : أضعف .
 ٢ أجهرها : أعلاها .
 ٣ راعنا : أفرعنا .
 ٤ فصل : خرج .
 ٥ جفوته : نقيض المواصله والموانسة .

كَانَ مَبِغِيًّا عَلَيْهِ^١ عِنْدَ سُلْطَانِهِ . أَوْ كَانَ عِنْدَهُ مَعْرُوفًا بِالشَّرِّ وَالْحِرْصِ . أَوْ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ ضَرٌّْ وَضِيقٌ فَلَمْ يَنْعَشْهُ^٢ . أَوْ كَانَ قَدْ اجْتَرَمَ جُرْمًا فَهُوَ يَخَافُ الْعُقُوبَةَ مِنْهُ . أَوْ كَانَ يَرْجُو شَيْئًا يَضُرُّ الْمَلِكَ وَلَهُ مِنْهُ نَفْعٌ . أَوْ يَخَافُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَنْفَعُهُ ضَرًّا . أَوْ كَانَ لَعَدُوُّ الْمَلِكِ سَلِيمًا وَلَسَلِيمِهِ حَرْبًا . أَوْ كَانَ قَدْ حِيلَ^٣ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا فِي يَدَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ . أَوْ بَاعَدَهُ . أَوْ طَرَدَهُ . فَلَيْسَ السُّلْطَانُ بِمُحِقِّ أَنْ يَجْعَلَ فِي الْأَسْتِرْسَالِ إِلَى هَؤُلَاءِ وَالثَّقَةِ بِهِمُ وَالِاتِّمَانِ لَهُمْ .

وَإِنَّ دِمَّةَ دَاهِيَةٍ ؛ أَرَبُّ وَقَدْ كَانَ بِيَابِي مَطْرُوحًا مَجْفُوعًا . وَلَعَلُّهُ قَدْ احْتَمَلَ عَلَيَّ بِذَلِكَ ضِغْنًا ، وَلَعَلُّ ذَلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَى خِيَاتِي وَإِعَانَةِ عَدُوِّي وَنَقِصَتِي عِنْدَهُ ، وَلَعَلُّهُ أَنْ يُصَادِفَ صَاحِبَ الصَّوْتِ أَقْوَى سُلْطَانًا مِنِّي فَيَرْعَبَ بِهِ عَنِّي وَيَمِيلَ مَعَهُ عَلَيَّ . وَلَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ أَهْجُمَ عَلَى صَاحِبِ هَذَا الصَّوْتِ بِنَفْسِي . وَلَمْ يَزَلِ الْأَسَدُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَمْثَالِ ذَلِكَ حَتَّى جَعَلَ يَمْشِي وَيَنْظُرُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي سَارَ فِيهَا دِمَّتُهُ . فَلَمْ يَمْشِ غَيْرَ قَلِيلٍ حَتَّى بَصُرَ بِدِمَّةٍ مُقْبِلًا نَحْوَهُ فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِذَلِكَ وَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ .

وَدَخَلَ دِمَّتُهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مَاذَا صَنَعْتَ وَمَاذَا رَأَيْتَ ؟

قَالَ : رَأَيْتُ ثُورًا وَهُوَ صَاحِبُ الْخُورِ وَالصَّوْتِ الَّذِي سَمِعْتُهُ . قَالَ : فَمَا قُوَّتُهُ ؟ قَالَ : لَا شَوْكَةَ لَهُ وَقَدْ دَنَوْتُ مِنْهُ وَحَاوَرْتُهُ مُحَاوَرَةَ الْأَكْفَاءِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِي شَيْئًا .

قَالَ الْأَسَدُ : لَا يَغْتَرُّكَ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَا يَصْفُرُّنَّ عِنْدَكَ أَمْرُهُ ، فَإِنَّ الرِّيحَ

١ مَبِغِيًّا عَلَيْهِ : أَي مَظْلُومًا .

٢ لَمْ يَنْعَشْهُ : أَي لَمْ يَجْبِرْهُ بَعْدَ قَرَرِهِ .

٣ حِيلَ : اعْتَرَضَ .

٤ دَاهِيَةٍ : أَي ذُو مَكْرٍ وَجُودَةٍ رَأَى وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ .

٥ ضِغْنًا : أَي حَقْدًا .

٦ لَا شَوْكَةَ : أَي لَا قُوَّةَ لَهُ وَلَا شَجَاعَةَ .

الشَّدِيدَةَ لَا تَعْبَأُ بِضَعِيفِ الْحَشِيشِ لَكِنَّهَا تَحْطِمُ طَوَالَ النَّخْلِ وَعَظِيمَ الشَّجَرِ
وَتَقْلَعُ الدُّوْحَةَ^٢ الْبَعَايَةَ مِنْ مَوْضِعِهَا .

قَالَ دِمْنَةُ : لَا تَهَابِنَ أَيُّهَا الْمَلِكُ مِنْهُ شَيْئاً وَلَا يَكْبُرُنَّ عَلَيْكَ أَمْرُهُ فَأَنَا عَلَى
ضِعْفِي آتِيكَ بِهِ فَيَكُونُ لَكَ عَبْدًا سَامِعًا مُطِيعًا .
قَالَ الْأَسَدُ : دُونَكَ^٣ مَا بَدَأَ لَكَ . وَقَدْ تَعَلَّقَ أَمَلُهُ بِهِ .

فَانطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الثَّوْرِ فَقَالَ لَهُ غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا مُكْتَرِبٍ : إِنَّ الْأَسَدَ أَرْسَلَنِي
إِلَيْكَ لِأَيَّتِهِ بِكَ وَأَمَرَنِي إِنْ أَنْتَ عَجَلْتَ إِلَيْهِ أَنْ أُؤَمِّنَكَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ
فِي التَّأَخُّرِ عَنْهُ وَتَرْكِكَ لِقَاءِهِ^٤ . وَإِنْ أَنْتَ تَأَخَّرْتَ وَأَحْجَمْتَ^٥ أَنْ أُعَجِّلَ الرَّجْعَةَ
إِلَيْهِ فَأُخْبِرَهُ . قَالَ لَهُ شَتْرَبَةُ : وَمَنْ هَذَا الْأَسَدُ الَّذِي أَرْسَلَكَ إِلَيَّ وَأَيْنَ هُوَ وَمَا
حَالُهُ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : هُوَ مَلِكُ السَّبَاعِ وَهَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا لَهُ وَهُوَ بِمَكَانٍ
كَذَا وَمَعَهُ جُنْدٌ كَثِيرٌ مِنْ جِنْسِهِ .

فَرَعِبَ شَتْرَبَةُ مِنْ ذِكْرِ الْأَسَدِ وَالسَّبَاعِ وَقَالَ : إِنْ أَنْتَ جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ
عَلَى نَفْسِي أَقْبَلْتُ مَعَكَ إِلَيْهِ . فَأَعْطَاهُ دِمْنَةُ مِنَ الْأَمَانِ مَا وَثِقَ بِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ وَالثَّوْرُ
مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ . فَأَحْسَنَ الْأَسَدُ إِلَى الثَّوْرِ وَقَرَّبَهُ وَقَالَ لَهُ :

مَتَى قَدِمْتَ هَذِهِ الْبِلَادَ وَمَا أَقْدَمَكَهَا ؟ فَقَصَّ شَتْرَبَةُ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ . فَقَالَ لَهُ
الْأَسَدُ : اصْحَبْنِي وَالزَّمْنِي فَإِنِّي مُكْرِمُكَ وَمُحْسِنٌ إِلَيْكَ . فَدَعَا لَهُ الثَّوْرُ وَأَثْنَى
عَلَيْهِ وَانصَرَفَ وَقَدْ أَعْجَبَ بِهِ الْأَسَدُ إِعْجَابًا شَدِيدًا لِمَا ظَهَرَ لَهُ مِنْ عَقْلِهِ وَأَدَبِهِ .
ثُمَّ إِنَّهُ قَرَّبَهُ وَأَكْرَمَهُ وَأَيْسَرَ بِهِ وَاتَّسَمَّهُ عَلَى أَسْرَارِهِ وَشَاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ وَلَمْ تَزِدْهُ
الْأَيَّامَ إِلَّا عُجْبًا بِهِ وَرَغْبَةً فِيهِ وَتَقْرِيبًا لَهُ حَتَّى صَارَ أَحْصَى أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مِثْلَهُ .

٤ لقاءه : مقابله .

١ لا تعبا : لا تبالي .

٥ أحجمت : كفت عنه .

٢ اللوحة : الشجرة العظيمة .

٦ أقدمكها : أي ما الذي جعلك تأتيها .

٣ دونك : أي افضل .

فلما رأى دِمْنَهُ أَنَّ الثَّورَ قَدِ اخْتَصَّ^١ بِالْأَسَدِ دُونَهُ وَدُونَ أَصْحَابِهِ وَأَنَّهُ قَدْ صَارَ صَاحِبَ رَأْيِهِ وَخَلَوَاتِهِ وَلَهُوِهِ حَسَدُهُ حَسَدًا عَظِيمًا وَبَلَغَ مِنْهُ عَيْظُهُ كُلَّ مَبْلَغٍ . فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِ كَلِيلَةَ وَقَالَ لَهُ : أَلَا تَعْجَبُ يَا أَخِي مِنْ عَجْزِ رَأْيِي وَصُنْعِي بِنَفْسِي وَنَظْرِي فِيمَا يَنْفَعُ الْأَسَدَ وَأَغْفَلْتُ^٢ نَفْعَ نَفْسِي حَتَّى جَلَبَ بِي الْأَسَدُ ثُورًا غَلَبَنِي عَلَى مِزْلَتِي ! قَالَ كَلِيلَةُ : قَدْ أَصَابَكَ مَا أَصَابَ النَّاسِكَ . قَالَ دِمْنَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

مثل الناسك واللص

قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا أَصَابَ مِنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ كُسُورَةً فَاخْرَجَتْهُ . فَبَصُرَ بِهِ سَارِقٌ فَطَمَعَ فِي الثَّيَابِ وَعَمِلَ عَلَى سَرِقَتِهَا . فَأَتَى النَّاسِكَ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكَ فَاتَعَلَّمْ مِنْكَ . وَأَخَذَ عَنْكَ . فَأَذِنَ لَهُ النَّاسِكُ فِي صُحْبَتِهِ فَصَحِبَهُ مُتَشَبِّهًا بِهِ وَرَفَقَ لَهُ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَمِنَهُ النَّاسِكُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ . فَرَصَدَهُ^٣ حَتَّى إِذَا ظَفَرَ بِهِ وَأَمَكَّتَهُ الْفُرْصَةُ أَخَذَ تِلْكَ الثَّيَابَ فَذَهَبَ بِهَا . فَلَمَّا فَقَدَ النَّاسِكُ ثِيَابَهُ عِلِمَ أَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ أَخَذَهَا فَتَوَجَّهَ فِي طَلَبِهِ . فَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ بِوَعْلَيْنِ يَتَنَاطَحَانِ حَتَّى سَالَتْ دِمَاؤُهُمَا . فَجَاءَ ثَعْلَبٌ يَلْعُقُ فِي تِلْكَ الدَّمَاءِ وَيَتَحَكَّكُ بِهَا وَيُزَاحِمُهُمَا ، فَغَضِبَا مِنْهُ وَأَقْبَلَا عَلَيْهِ يَنْطَاحِيهَا فَقَتَلَاهُ . فَعَجِبَ النَّاسِكُ مِنْ ذَلِكَ وَمَضَى حَتَّى دَخَلَ إِحْدَى الْمُدُنِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا قَرِيًّا^٤ إِلَّا بَيْتَ امْرَأَةٍ فَتَزَلَّ بِهَا وَاسْتَضَافَهَا . وَكَانَتْ لِلْمَرَأَةِ جَارِيَةٌ تُؤَاجِرُهَا . وَكَانَتْ الْجَارِيَةُ قَدْ عَلَقَتْ^٥ رِجْلًا تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ بَعْلًا لَهَا . وَقَدْ أَضْرَّ ذَلِكَ

٤ : يلعق : يشرب بلسانه .

٥ : قرى : ضيافة .

٦ : عقلت : أحبت .

١ : اختص : انفرد به .

٢ : أغفلت : تركت وأهملت .

٣ : رصده : ترقبه .

بمولاتها ولم يكن لها سبيلٌ إلى مُدافَعَتِهِ . فاحتالَ اتِّمَلَهُ في تلك الليلة التي استضافها فيها النَّاسِكُ . ثم إنَّ الرجلَ وافى ^١ فسقتهُ مِنَ الخمرِ حتى سَكِرَ ونامَ . فلما استغرقَ في النَّومِ ونامَ مَنْ في البيتِ عمَدتْ ^٢ لِسُمِّ كانت قد أعدتُهُ في قَصَبَةٍ لَتَنْفُخَهُ في أنفِ الرجلِ . فلما أرادتْ ذلكَ بدَّرتْ ^٣ من أنفِهِ عَطَسَةٌ فعكستِ السُّمَّ إلى حَلْقِ المَرأةِ فوقعتْ مَيِّتَةً . وكلُّ ذلكَ بعينِ النَّاسِكِ وسمِعِهِ .

فلما رأى ذلكَ لم يُصدِّقْ أن طَلَعَ الصِّباحُ حتى خرَّجَ يَبْتغِي منزلاً غيرَهُ ، فاستضافَ رجلاً إسكافاً ، فأتى به امرأتهُ وقالَ لها : انظري إلى هذا النَّاسِكِ وأكرمي مَثواهُ وقومي بِخدمَتِهِ ، فقد دَعاني بعضُ أصدِقائي للشُّربِ عنده . ثم انطلقَ ذاهباً . وكان للمرأةِ ابنةٌ تُريدُ أن تُزوِّجَها لرجلٍ لم يكن زوجها يُريدُهُ . فكانَ الرجلُ يَحْتَلِفُ^٤ إلى البيتِ في غيابِ زوجها والوسيطُ بينهما امرأةٌ حَجَّامٌ ^٥ . فأرسلتِ امرأةَ الإسكافِ إلى امرأةِ الحَجَّامِ تأمرُها بالمَصيرِ ^٦ إليها وتُعرفُ الرجلَ غيابَ زوجها وقالت : إنَّ زوجي قد ذهبَ ليشربَ عند بعضِ أصدِقائِهِ وإن عادَ لا يعودُ إلا سكرانَ فقولِي له يُسرِعِ الكُرَّةَ ^٧ .

ثم إنَّ الرجلَ جاءَ فقعدَ على البابِ يَنْتَظِرُ الإذنَ ، ووافقَ ذلكَ مَجيءَ الإسكافِ سكرانَ فرأى الرجلَ في الظلمةِ وارتابَ به فلم يُكَلِّمهُ ودخَلَ مُغَضِّباً إلى امرأتهِ فأوجعها ضرباً ، ثم أوثقها في أسطوانةٍ ^٨ في المنزلِ وذهبَ فنامَ لا يَعْقِلُ . وجاءتِ امرأةُ الحَجَّامِ تُعلِّمُها أنَّ الرجلَ قد أطلَلَ الجُلوسَ فقالت لها :

-
- ١ وافى : أتى .
 ٢ عمدت : فصلت .
 ٣ بدرت : سبقت وأسرعت .
 ٤ مثواه : مقامه .
 ٥ يحتلف : يأتى .
 ٦ الحجام : هو الذي يعالج المريض بالمهجمة وهي قارورة يقال لها كأس الحمامة .
 ٧ المصير : أي الرجوع .
 ٨ الكرة : الرجعة .
 ٩ اسطوانة : عمود .

انظري إلى ما أنا فيه . فإن شئت وأحسنيت إليّ حلّلتني وربطتلك مكاني حتى أنطلق فأعتذر إليه وأعجل العودة . فأجابتها امرأة الحجام إلى ذلك وحلّتها وانطلقت إلى الرجل وأوتقت هي نفسها مكانها . فاستيقظ الإسكاف قبل أن تعود زوجته . فنادها باسمها فلم تُجبه امرأة الحجام وخافت من الفضيحة أن يُنكر صوتها . ثم دعاها ثانية فلم تُجبه . فامتلاً غيظاً وحنقاً وقام نحوها بالشفرة فجذع^١ أنفها وقال : خذني هذا فأتحنني به صديقك ! وهو لا يشك في أنها امرأته .

ثم جاءت امرأة الإسكاف فرأت صنع زوجها بامرأة الحجام ، فساءها ذلك وأكبرته^٢ وحلّت وثاقها فانطلقت إلى منزلها مجدوعة الأنف وكل ذلك بعين التأسك وسَمِعِهِ .

ثم إن امرأة الإسكاف جعلت تبتهل^٣ وتدعو على زوجها الذي ظلّمها وتقول : اللهم إن كان زوجي قد ظلّمني فأعد عليّ أني صحيحاً . ثم رفعت صوتها ونادت زوجها : أيها الفاجر الظالم قم فانظر كيف صنمك بي وصنع الله بي كيف رحمني وردّ أني صحيحاً كما كان . فقام وأوقد المصباح ونظر فإذا أنف زوجته صحيح . فاستغفر إليها وتاب عن ذنبه واستغفر إلى ربّه .

وأما امرأة الحجام فإنها لما وصلت إلى منزلها تفكرت في طلب العذر عند زوجها وأهلها في جذع أنفها ورفع الالتياس .

فلما كان عند السحر استيقظ الحجام فقال لامرأته : هاتي أدواتي كلّها فلاني أريد المضي إلى بعض الأشراف . فأتته بالموسى . فقال لها : هاتي الأدوات جميعها . فلم تأتبه إلا بالموسى . فعضب حين أطالت التكرار ورماها به فلولت وصاحت : أني أني ! وجلبت^٤ حتى جاء أهلها وأقرباؤها فرأوها على تلك

١ جذع : قطع .

٢ أكبرته : أي رآته أمراً كبيراً .

٣ تبتهل : تضرع إلى الله .

٤ جلبت : صاحت وضجّت .

الحالّة ، فأخذوا الحجّام فانطلقوا به إلى القاضي ، فقال له القاضي : ما حملك على جدع أنف امرأتك ؟ فلم تكن له حجةً يحجّجُ بها . فأمر به القاضي أن يقتصَّ منه^١ . فلما قدّم للقصاص وافي التأسيكُ فتقدّم إلى القاضي وقال له : أيها الحاكم لا يشتبهنّ عليك هذا الأمر ، فإن اللصّ ليس هو الذي سرقتي ، وإن الثعلب ليس الوعلان قتلاه ، وإن المرأة ليس السمُّ قتلها ، وإن امرأة الحجّام ليس زوجها جدع أنفها ، وإنّا نحن فعلنا ذلك بأنفسنا . فسأله القاضي عن التفسير ، فأخبره بالقصة ، فأمر القاضي بإطلاق الحجّام .

قال ديمتة : قد سمعتُ هذا المثل وهو شبيهٌ بأمرى . ولعلمي ما ضرني أحدٌ سوى نفسي ، ولكن ما الحيلة ؟

قال كليلة : أخبرني عن رأيك وما تريدُ أن تعزّم عليه في ذلك .
قال ديمتة : أمّا أنا فليست اليوم أرجو أن تردّد مترتي عند الأسد فوق ما كانت عليه . ولكن ألتيسُّ أن أعود إلى ما كانت حالي عليه . فإنّ أموراً ثلاثة العاقلُ جديرٌ بالنظر فيها والاحتياط لها بجهدِهِ . منها النظرُ فيما مضى من الضرِّ والنفع ، أن يحترسَ من الضرِّ الذي أصابه فيها سلفاً لئلا يعودَ إلى ذلك الضرِّ ، ويلتمسَ النفعَ الذي مضى ويحتالَ لمعاودته . ومنها النظرُ فيما هو مقيمٌ فيه من المنافع والمضارِّ . والاستيقاظُ ممّا ينفعُ ، والهربُ ممّا يضرُّ . ومنها النظرُ في مستقبل ما يرجو من قبل النفعِ وما يخافُ من قبل الضرِّ ليستتيمَّ ما يرجو ويتوقّى ما يخافُ بجهدِهِ .

وإني لما نظرتُ في الأمر الذي به أرجو أن تعودَ مترتي وما غليتُ عليه ممّا كنتُ فيه لم أجدُ حيلةً ولا وجهاً إلا الاحتياطَ لآكلِ العُشبِ هذا حتى أفرّقَ بينه وبين الحياة ، فإنه إن فارقَ الأسدَ عادتْ لي مترتي . ولعلّ ذلك يكونُ خيراً

١ يقتص منه : أي يعاقب .

٢ الاستيقاظ : التنبّه .

لِلأَسَدِ . فَإِنَّ إِفْرَاطَهُ^١ فِي تَقْرِيْبِ الثَّوْرِ خَلِيقٌ أَنْ يَشِيئَهُ وَيَضْرَهُ فِي أَمْرِهِ .
 قَالَ كَلِيلَةُ : مَا أَرَى عَلَى الْأَسَدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ وَمَكَائِهِ مِنْهُ وَمَتْرَلِيهِ عِنْدَهُ
 شَيْئاً وَلَا شَرًّا .

قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّمَا يُؤْتِي السُّلْطَانُ وَيَفْسُدُ أَمْرُهُ مِنْ قِبَلِ سِتَّةِ أَشْيَاءَ : الْحِرْمَانِ
 وَالْفِتْنَةِ وَالْهَوَى وَالْفِظَاطَةَ وَالزَّمَانَ وَالْحُرْقَ . فَأَمَّا الْحِرْمَانُ فَأَنْ يُحْرَمَ مِنْ صَالِحِي
 الْأَعْوَانِ وَالنُّصَحَاءِ وَالسَّاسَةِ^٢ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ^٣ وَالْأَمَانَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ مَنْ
 حَوْلَهُ فَاسِداً مَانِعاً مِنْ وُصُولِ أُمُورِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَحْرِمَ هُوَ أَهْلَ النَّصِيحَةِ
 وَالصَّلَاحِ مِنْ عَنَائِيهِ وَالتَّفَاطِيهِ إِلَيْهِمْ . وَأَمَّا الْفِتْنَةُ فَهِيَ تُحَارِبُ رَعِيَّتَهُ وَوَقُوعُ
 الْخِلَافِ وَالتَّرَاعِ بَيْنَهُمْ . وَأَمَّا الْهَوَى فَالْإِغْرَامُ بِالنِّسَاءِ وَالْحَدِيثِ وَاللَّهْوِ وَالشَّرَابِ
 وَالصَّيْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَأَمَّا الْفِظَاطَةُ فَهِيَ إِفْرَاطُ الشَّدَّةِ حَتَّى يَجْمَعَ^٤ اللِّسَانُ
 بِالشَّتْمِ وَالْيَدُ بِالْبَطْشِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا . وَأَمَّا الزَّمَانُ فَهُوَ مَا يُصِيبُ النَّاسَ مِنْ
 السَّنِينَ^٥ مِنَ الْمَوْتَانِ^٦ وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَالغَزَوَاتِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ . وَأَمَّا الْحُرْقُ
 فَإِعْمَالُ الشَّدَّةِ فِي مَوْضِعِ اللَّيْنِ ، وَاللَّيْنِ فِي مَوْضِعِ الشَّدَّةِ . وَإِنَّ الْأَسَدَ قَدْ أَغْرَمَ
 بِالثَّوْرِ إِغْرَاماً شَدِيداً هُوَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَشِيئَهُ وَيَضْرَهُ فِي أَمْرِهِ .
 قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَيْفَ تُطْلِقُ الثَّوَرَ وَهُوَ أَشَدُّ مِنْكَ وَأَكْرَمُ عَلَى الْأَسَدِ مِنْكَ
 وَأَكْثَرُ أَعْوَاناً ؟

قَالَ دِمْنَةُ : لَا تُنْظَرُ إِلَى صِغَرِي وَضِعْفِي ، فَإِنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ بِالضَّعْفِ وَلَا
 الْقُوَّةِ وَلَا الصَّغَرِ وَلَا الْكِبَرِ فِي الْجِنَّةِ . قَرَبٌ صَغِيرٌ ضَعِيفٌ قَدْ بَلَغَ بِحِيلَتِهِ وَدَهَائِهِ

١ إفراطه : مجاوزته الحد .

٢ الساسة : جمع سائس وهو من يتولى أمر الرعية ويديرها ويحسن النظر إليها .

٣ النجدة : الشدة والبأس .

٤ يجمع : يسرع .

٥ السنين : أي التي فيها شدة وضيق .

٦ الموتان : موت يقع في الماشية .

ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأتوباء . أولم يبلغك أن غراباً ضعيفاً احتال لأسوداً حتى قتلَهُ ؟

قالَ كَلِيلَةُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

مثل الغراب والأسود

قالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرَاباً كَانَ لَهُ وَكْرٌ فِي شَجَرَةٍ عَلَى جَبَلٍ ، وَكَانَ قَرِيباً مِنْهُ جُحْرٌ تُعْبَانِ أَسْوَدٌ . فَكَانَ الْغُرَابُ إِذَا أَفْرَخَ عَمَدَ الْأَسْوَدَ إِلَى فِرَاحِهِ فَأَكَلَهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الْغُرَابِ فَأَحْزَنَهُ . فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِ آوَى وَقَالَ لَهُ : أُرِيدُ مُشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ . قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ الْغُرَابُ : قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْأَسْوَدِ إِذَا نَامَ فَأَنْقُرُ عَيْنَيْهِ فَأَفْقَاهُا لَعْلِي أَسْتَرِيحُ مِنْهُ . قَالَ ابْنُ آوَى : بِئْسَ الْحِيلَةُ الَّتِي احْتَلَّتْ ! فَالْتَمِسْ أَمراً تُصِيبُ فِيهِ بُعَيْتَكَ مِنَ الْأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُغَرَّرَ بِنَفْسِكَ^٣ وَتُخَاطِرَ بِهَا . وَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مَثَلُكَ مَثَلُ الْعُلْجُومِ^٤ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَ السَّرْطَانِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ . قَالَ الْغُرَابُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

مثل العلجوم والسرطان

قالَ ابْنُ آوَى : زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُوماً عَشَّشَ فِي أَجْمَةٍ كَثِيرَةِ السَّمَكِ . فَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى مَا فِيهَا مِنَ السَّمَكِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ . فَعَاشَ بِهَا مَا عَاشَ ثُمَّ هَرَمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَبِداً فَأَصَابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ . فَجَلَسَ حَزِيناً يَلْتَمِسُ الْحِيلَةَ فِي

١ الاسود : حية عظيمة .

٣ تغرر بنفسك : أي تعرضها للهلكة .

٢ بلغ ذلك : أي اشتد الأمر عليه .

٤ العلجوم : طائر أبيض .

أمره . فمرَّ به سرَّطانُ فرأى حالتهُ وما هو عليه مِنَ الكآبةِ والحُزنِ . فدنا منه وقال له : ما لي أراك أيُّها الطائرُ هكذا حزيناَ كثيراً ؟

قالَ العُلجومُ : وكيفَ لا أحرُّنُ وقد كنتُ أعيشُ من صيدٍ ما ههُنا من السمكِ ، وإني رأيتُ اليومَ صيَّادينِ قد مرَّ بهذا المكانِ فقالَ أحدهُما لصاحبهِ : إنَّ ههُنا سمكاً كثيراً أفلا نصيدهُ أولاً ؟ فقالَ الآخرُ : إني قد رأيتُ في مكانٍ كذا سمكاً أكثرَ من هذا السمكِ فلتبدأُ بذلكَ فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأقنيناهُ . وقد عِلِمْتُ أنَّها إذا فرغنا ممَّا نَمَّ^١ انتهيا إلى هذه الأجمةِ فاصطادا ما فيها . فإذا كانَ ذلكَ فهو هلاكي ونفادُ مدَّتي .

فانطلقَ السَّرطانُ إلى جماعةِ السمكِ فأخبرهنَّ بذلكَ . فأقبلنَ على العُلجومِ فاستشرنهُ وقلنَ له : إنا أتيناكَ لتُشيرَ علينا ، فإنَّ ذا العقلَ لا يدعُ مُشاورةَ عدوِّهِ ، وبقاؤك ببقائنا . قالَ العُلجومُ : أمَّا مكابرةُ^٢ الصيَّادينِ فلا طاقةَ لي بها . ولا أعلمُ حيلةً إلا المصيرَ إلى غديرٍ قريبٍ من هنا فيه سمكٌ ومياهٌ كثيرةٌ وقصبٌ . فإن استطعتنَّ الانتقالَ إليه كانَ فيه صلاحُكنَّ وخِصْبُكنَّ^٣ .

فقلنَ له : ما يَمُنُّ علينا بذلكَ غيرُكَ . فجعلَ العُلجومُ يَحْمِلُ في كلِّ يومٍ سمكتينِ حتى ينهيَ بهما إلى بعضِ التلالِ فيأكلهُما . حتى إذا كانَ ذاتَ يومٍ جاءَ لأخذِ السمكتينِ فجاءهُ السَّرطانُ فقالَ له : إني أيضاً قد أشفقتُ^٤ من مكاني هذا واستوحشتُ منه ، فاذهبْ بي إلى ذلكَ الغديرِ . فقالَ له : حبًّا وكرامةً^٥ . واحتَمَلهُ وطارَ به ، حتى إذا دنا مِنَ التلِّ الذي كانَ يأكلُ السمكَ فيه نظَرَ السَّرطانُ فرأى عِظامَ السمكِ بمجموعةٍ هناكَ فعِلِمَ أنَّ العُلجومَ هو

١ نَمَّ : أي من الذي هناك .

٢ مكابرة : معاندة .

٣ الخصب : رفاة العيش .

٤ أشفقت : خفت .

٥ حبًّا وكرامةً : الحبُّ الحرَّة والكرامة غطاؤها قيل ان أحدهم طلب من آخر حبًّا أي جرَّة فقال له حبًّا وكرامة فذهب مثلاً .

صاحِبُهَا وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِذَا لَقِيَ الرَّبْلُ عَدُوَّهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّ فِيهَا هَالِكٌ سِوَا قَاتِلٍ أَمْ لَمْ يُقَاتِلْ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُعَاتِلَ عَنْ نَفْسِهِ كَرَمًا وَحِفَظًا ، وَلَا يُمَكِّنُهُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى يَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحِيلَةِ فِي قِتَالِهِ . لِأَنَّهُ قَدْ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى التَّلَفِ فَلَعَلَّ خِلَاصَهُ فِي ذَلِكَ الْقِتَالِ ، وَالْهَلَاكُ وَاقَعَ بِهِ كَيْفَ كَانَ . فَلَمْ يَزَلْ يَحْتَالُ عَلَى الْعُلُجُومِ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ عُنُقِهِ فَاهْوَى بِكَلْبَتَيْهِ^٢ عَلَيْهَا فَعَصَرَهَا فَمَاتَ وَتَخَلَّصَ السَّرَطَانُ إِلَى جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبِرَهُنَّ بِذَلِكَ .

وإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ الْحِيلَةِ مَهْلِكَةٌ لِلْمُحْتَالِ . وَلِكُنِّي أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ إِنْ أَنْتَ قَدَّرْتَ عَلَيْهِ كَانَ فِيهِ هَلَاكُ الْأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهْلِكَ بِهِ نَفْسَكَ وَتَكُونَ فِيهِ سَلَامَتَكَ . قَالَ الْغُرَابُ : وَمَا ذَلِكَ ؟ قَالَ أَبُو آوَى : تَنْطَلِقُ فَتَبْصُرُ فِي طَيْرَانِكَ لَعَلَّكَ أَنْ تَنْظُرَ بِشَيْءٍ مِنْ حُلِيِّ النِّسَاءِ فَتَخْطِفُهُ وَلَا تَزَالُ طَائِرًا وَاقِعًا بِحَيْثُ لَا تَقْوَى الْعُيُونُ . فَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ تَبِعُوكَ تَأْتِي جُحْرَ الْأَسْوَدِ فَتَرْمِي بِالْحُلِيِّ عِنْدَهُ . فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَخَذُوا حُلِيِّهِمْ وَأَرَاكَ مِنَ الْأَسْوَدِ .

فَانطَلَقَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا فِي السَّمَاءِ ، فَوَجَدَ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ الْعُظَمَاءِ عَلَى شَاطِئِ نَهْرِ تَغْسِيلٍ وَقَدْ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا وَحُلِيِّهَا نَاحِيَةً ، فَانْقَضَ^٣ وَاخْتَطَفَ مِنْ حُلِيِّهَا عِقْدًا وَطَارَ بِهِ . فَتَبِعَهُ النَّاسُ ، وَلَمْ يَزَلْ طَائِرًا وَاقِعًا بِحَيْثُ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الْأَسْوَدِ فَالْقَى الْعِقْدَ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ . فَلَمَّا أَوْأَخَذُوا الْعِقْدَ وَقَتَلُوا الْأَسْوَدَ .

وإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْحِيلَةَ تُجْزِي^٤ مَا لَا تُجْزِي الْقُوَّةُ . قَالَ كَلْبَةُ : إِنَّ الثَّوْرَ لَوْ لَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ شِدَّتِيهِ رَأَيْتَهُ لَكَانَ كَمَا تَقُولُ . وَلَكِنْ لَهُ مَعَ

٣ انقض: سقط بسرعة .

٤ تجزى: تغي .

١ حقيقاً: أي الأولى به .

٢ بكلبتيه: أي بظفريه .

سِدَّتِيهِ وَقَوْتِهِ حُسْنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلَ فَمَاذَا تَسْتَطِيعُ لَهُ ؟
 قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الثَّوْرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ فِي قَوْتِهِ وَرَأْيِهِ وَلَكِنَّهُ مُقِرٌّ لِي بِالْفَضْلِ
 وَأَنَا خَلِيقٌ أَنْ أَصْرَعَهُ كَمَا صَرَعْتَ الْأَرْنَْبُ الْأَسَدَ .
 قَالَ كَلْبِيَّةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

مثل الأرنب والأسد

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةَ الْمِيَاهِ وَالْعُشْبِ . وَكَانَ فِي
 تِلْكَ الْأَرْضِ مِنَ الْوَحُوشِ فِي سَعَةِ الْمِيَاهِ وَالْمَرَعَى شَيْءٌ كَثِيرٌ . إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
 يَنْفَعُهُ ذَلِكَ لِحَوْفِهَا مِنَ الْأَسَدِ . فَاجْتَمَعَتْ وَأَتَتْ إِلَى الْأَسَدِ فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّكَ
 لَتَصِيبُ مَثَا الدَّابَّةَ بَعْدَ الْجُهْدِ وَالتَّعَبِ . وَقَدْ رَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَأَمْنٌ
 لَنَا . فَإِنَّ أَنْتَ أَمْتَنَّا وَلَمْ تُخَفِنَا فَلَكَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ دَابَّةٌ نُرْسِلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي
 وَقْتِ غَدَائِكَ . فَرَضِي الْأَسَدُ بِذَلِكَ وَصَالِحَ الْوَحْشِ عَلَيْهِ وَوَقِينَ لَهُ بِهِ .
 ثُمَّ إِنَّ أَرْنَْبًا أَصَابَهَا الْقُرْعَةُ وَصَارَتْ غَدَاءَ الْأَسَدِ . فَقَالَتْ لِلْوَحُوشِ :
 إِنَّ أَنْتُمْ رَقَقْتُمْ^٢ بِي فِيهَا لَا يَضُرُّكُمْ رَجَوْتُ أَنْ أُرِيحَكُنَّ مِنَ الْأَسَدِ . فَقَالَتْ
 الْوَحُوشُ : وَمَا الَّذِي تُكَلِّفِينَا مِنَ الْأُمُورِ ؟ قَالَتْ : تَأْمُرُنَ الَّذِي يَنْطَلِقُ بِي إِلَى
 الْأَسَدِ أَنْ يُمَهِّلَنِي رَيْثًا أَبْطِئُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْإِبْطَاءِ . فَقُلْنَ لَهَا : ذَلِكَ لَكَ .
 فَانْطَلَقَتِ الْأَرْنَْبُ مُتَبَايِطَةً حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَقْتَ الَّذِي كَانَ يَتَعَدَّى فِيهِ الْأَسَدُ .
 ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَحَدَاها رَوِيدًا وَقَدْ جَاعَ ، فَفَضِبَ وَقَامَ مِنْ مَكَانِهِ نَحْوَهَا فَقَالَ
 لَهَا : مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا رَسُولُ الْوَحُوشِ إِلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَنِي وَمَعِيَ
 أَرْنَْبٌ لَكَ فَتَبِعَنِي أَسَدٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيقِ فَأَخَذَهَا مِنِّي وَقَالَ : أَنَا أَوْلَى بِهَذِهِ

١ أصرعه : أهلكه .

٢ رققن : عاملني بالرفق .

الأرض وما فيها مِنَ الوحشِ . فقلتُ له : إن هذا غداءُ الملكِ أرسلتَ به
الوحشُ إليه فلا تَغصِبْهُ . فسَبِكَ وشتَمَكَ ، فأقبلتُ مُسرِعَةً لأخبرِكَ .

فقالَ الأسدُ : انطَلِقِي معي فأريني مَوْضِعَ هذا الأسدِ . فانطَلقتِ الأرنَبُ
إلى جُبٍّ^١ فيه ماءٌ غامِرٌ^٢ صافٍ . فاطلَّعتُ فيه وقالتُ : هذا المكانُ . فاطلَّعَ
الأسدُ فرأى ظِلَّهُ وظِلَّ الأرنَبِ في الماءِ ، فلم يَشْكُ في قولِها ووَثَبَ على
الأسدِ لِيُقَاتِلَهُ ففرَّقَ في الجُبِّ . فانقلبتِ^٣ الأرنَبُ إلى الوحوشِ فأعلَّنتِ^٤
صَنِيعَها بالأسدِ .

قالَ كَلْبِيَّةٌ : إن قَدَرْتَ على هلاكِ الثورِ بشيءٍ ليسَ فيه مَضَرَّةٌ للأسدِ
فشأنكَ . فإنَّ الثورَ قد أضُرَّ بي وبك وبغيرنا مِنَ الجُنْدِ . وإن أنت لم تَقْدِرِ
على ذلكِ إلا بهلاكِ الأسدِ ، فلا تُقدِّمِ عليه فإنَّهُ عَدُوٌّ مِنِّي ومنكَ .

ثم إن دِمَتَهُ تَرَكَ الدُّخُولَ على الأسدِ أياماً كثيرةً . ثم أتاهُ على نَحْلَةٍ منه ،
فقالَ له الأسدُ : ما حَبَسَكَ عَنِّي ؟ منذُ زمانٍ لم أَرَكَ . ألا لِحَيْرٍ كانَ
انقِطَاعُكَ . قالَ دِمَتَهُ : ليكنَ خيراً أيُّها الملكُ . قالَ الأسدُ : وهل حَدَثَ
أمرٌ ؟ قالَ دِمَتَهُ : حَدَثَ ما لم يكنِ الملكُ يُريدُهُ ولا أحدٌ من جُنْدِهِ . قالَ :
وما ذاكُ ؟ قالَ : كلامٌ فَظِيعٌ . قالَ : أخبريني به .

قالَ دِمَتَهُ : إنَّ كلَّ كلامٍ يكرَهُهُ سامِعُهُ لا يَجسُرُ عليه قائلُهُ وإن كانَ
ناصِحاً مُشْفِقاً إلا إذا كانَ المَقولُ له عاقِلاً ، فإنَّ اتَّفَقَ ذلكِ حَمَلَ القَوْلِ على
مَحْمِلِ المَحَبَّةِ وَعَلِمَ ما فيه مِنَ التَّصِيحَةِ لأنَّ ما كانَ فيه من نَفْعٍ فهو له .
وإنَّك أيُّها الملكُ لَدُو فَضِيلَةٍ ورأيكَ بِذلكِ على أَنَّهُ بوجِعَتِي أن أقولَ ما
تَكَرَّهُ . وإني وإتقُ بك أَنك تُعرفُ نُصْحِي وإيثاري إِيَّاكَ على نَفْسِي . وإنَّهُ
ليعرضُ^٥ لي أَنك غيرُ مُصدِّقِي فيما أُخبرُكَ به . ولكِنِّي إذا تَذَكَّرْتُ وتَفَكَّرْتُ أنَّ

٣ انقلبت : رجعت .

٤ يعرض : يظهر .

١ جب : بئر .

٢ غامر : كثير .

نُفوسنا معاشر الوحوش مُتعلِّقةٌ بك لم أجدُ بدءاً من أداء^١ التُّصحح الذي يلزمُني وإن أنت لم تسألني أو خِفتُ أن لا تقبلهُ مِنِّي . فإنه يُقالُ من كَمَّ السُّلطانَ نصيحتُهُ والأطباءَ مَرَضُهُ والإخوانَ رأيه فقد خانَ نفسه .

قالَ الأسدُ : فما ذاك ؟ قالَ دِمْنَةُ : حَدَّثْتِي الأَمِينُ الصَّدوقُ عِنْدِي أَنَّ شَرَبَةَ خِلا برُؤوسِ جُنْدِكَ وَقَالَ لهُم : إني قد خَبِرْتُ^٢ الأسدَ وبلوتُ^٣ رأيه ومكيدتهُ وقوتهُ ، فاستبانَ لي أن ذلك يؤولُ^٤ منه إلى ضَعْفٍ وعجزٍ وسيكونُ لي وله شأنٌ مِنَ الشُّونِ .

فلما بَلَغْتِي ذلك عَلِمْتُ أَنَّ شَرَبَةَ خَوَّانٌ عَدَّارٌ ، وَأَنَّكَ أَكْرَمَتُهُ الكَرَامَةُ كُلُّهَا وجعلتهُ نَظيرَ نَفْسِكَ فهو يَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُكَ وَأَنَّكَ مَتى زُلْتَ عَن مَكَانِكَ كَانَ لَهُ مِثْلُكَ وَلَا يَدْعُ جُهْداً إِلَّا بَلَغَهُ فَيْك . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إِذَا عَرَفَ المَلِكُ مِنْ أَحَدٍ رَعِيَّتَهُ أَنَّهُ قَدْ سَاوَاهُ فِي المِثْرَةِ والحَالِ فَلْيَصْرَعُهُ . فَإِنْ هُوَ لَمْ يَقْعَلْ بِهِ ذَلِكَ كَانَ هُوَ المَصْرُوعَ . وَشَرَبَةُ أَعْلَمُ بِالأُمُورِ وَأَبْلَغُ فِيهَا . وَالعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْتَالُ لِلأَمْرِ قَبْلَ تَأْمِيهِ وَوَقُوعِهِ . فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ وَأَنْ لَا تَسْتَدْرِكُهُ . فَإِنَّهُ يُقَالُ : الرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ حَازِمٌ وَأَحْزَمٌ مِنْهُ وَعَاجِزٌ . فَالْحَازِمُ مَنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ الأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ لَهُ وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ شِيعاً^٥ وَلَمْ تَمَيَّ بِهِ^٦ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا المَخْرَجَ مِنْهُ . وَأَحْزَمٌ مِنْ هَذَا المِقْدَامُ ذُو العُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الاِبْتِلَاءَ^٧ قَبْلَ وَقُوعِهِ فَيُعْظِمُهُ إِعْظَاماً وَيَحْتَالُ لَهُ حَيْلَةً حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ فَيَحْسِمُ^٨ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلى بِهِ وَيُدْفَعُ الأَمْرَ قَبْلَ وَقُوعِهِ . وَأَمَّا العَاجِزُ فَهُوَ فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ^٩ حَتَّى يَهْلِكَ . وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مِثْلَ السَّمَكَاتِ الثَّلَاثِ . قَالَ الأسدُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

١ أداء : إيصال .

٢ خبرت : امتحنت .

٣ بلوت : جرّيت .

٤ يؤول : يرجع .

٥ شيعاً : متفرقاً .

٦ تمي : تعجز .

٧ الابتلاء : المحنة .

٨ يحسم : تقصير .

مثل السمكات الثلاث

قَالَ دِمْتَهُ : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ فِيهِ ثَلَاثٌ مِنَ السَّمَكِ : كَيْسَةٌ
 وَأَكَيْسٌ مِنْهَا وَعَاجِزَةٌ . وَكَانَ ذَلِكَ الْغَدِيرُ بَنَجْوَةَ مِنَ الْأَرْضِ لَا يَكَادُ يَقْرَبُهُ
 أَحَدٌ . وَبِقَرَبِهِ نَهْرٌ جَارٍ . فَأَتَّفَقَ أَنَّهُ اجْتَازَ بِذَلِكَ النَّهْرِ صَيَّادَانِ فَأَبْصَرَا الْغَدِيرَ
 فَتَوَاعَدَا أَنْ يَرْجِعَا إِلَيْهِ بِشَيْبَا كَيْهَا فَيَصِيدَا مَا فِيهِ مِنَ السَّمَكِ . فَسَمِعَتِ السَّمَكَاتُ
 قَوْلَهُمَا . فَأَمَّا أَكَيْسُهُنَّ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهُمَا ارْتَابَتْ^٢ بِهِمَا وَتَحَوَّفَتْ مِنْهُمَا فَلَمْ
 تُعْرَجْ^٣ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الْمَاءُ مِنَ النَّهْرِ إِلَى
 الْغَدِيرِ فَجَبَتْ بِنَفْسِهَا . وَأَمَّا الْكَيْسَةُ الْأُخْرَى فَلِإِنَّهَا مَكَتَتْ مَكَانَهَا وَتَهَاوَنْتْ فِي
 الْأَمْرِ حَتَّى جَاءَ الصَّيَّادَانِ . فَلَمَّا رَأَتْهُمَا وَعَرَفَتْ مَا يُرِيدَانِ ذَهَبَتْ لِتَخْرُجَ مِنْ
 حَيْثُ يَدْخُلُ الْمَاءُ فَلِذَا بِهِمَا قَدْ سَدَّ ذَلِكَ الْمَكَانَ فَحَيِّتِيذِي قَالَتْ : قَرَطْتُ^٤ وَهَذِهِ
 عَاقِبَةُ التَّفْرِيطِ فَكَيْفَ الْحِيلَةُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ؟ وَقَلْبًا تَنْجَحُ حِيلَةُ الْعَجَلَةِ
 وَالْإِرْهَاقِ^٥ . غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَقْنَطُ^٦ مِنْ مَنَافِعِ الرَّأْيِ وَلَا يَأْسُ عَلَى حَالِهِ وَلَا
 يَدْعُ الرَّأْيَ وَالْجَهْدَ . ثُمَّ إِنَّهَا تَهَاوَنْتْ فَطَفَّتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ مُنْقَلِبَةً عَلَى ظَهْرِهَا
 تَارَةً وَتَارَةً عَلَى بَطْنِهَا . فَأَخَذَهَا الصَّيَّادَانِ وَطَنَّاها مَيْتَةً فَوَضَعَاها عَلَى الْأَرْضِ
 بَيْنَ النَّهْرِ وَالْغَدِيرِ فَوُتِبَتْ إِلَى النَّهْرِ فَجَبَتْ . وَأَمَّا الْعَاجِزَةُ فَلَمْ تَزَلْ فِي إِقْبَالِ
 وَإِدْبَارِ حَتَّى صِيدَتْ .

قَالَ الْأَسَدُ : قَدْ فَهِمْتُ ذَلِكَ وَلَا أَظُنُّ الثَّوَرَ يَعْشِي وَلَا يَرْجُو لِي
 الْعَوَائِلَ ، وَكَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَمْ يَرَمْ مَتِي سِوَهُ قَطُّ وَلَمْ أَدْعُ خَيْرًا إِلَّا فَعَلْتُهُ مَعَهُ

- | | |
|---|-----------------------------------|
| ٤ قَرَطْتُ : قَصَرْتُ . | ١ كَيْسَةٌ : حَسَنَةُ التَّائِي . |
| ٥ الْإِرْهَاقُ : التَّأَخُّرُ . | ٢ ارْتَابَتْ : شَكَّتْ . |
| ٦ لَا يَقْنَطُ : أَي لَا يَقْطَعُ الْأَمَلَ . | ٣ لَمْ تُعْرَجْ : لَمْ تَقَفْ . |

ولا أُمِينَةٌ إِلَّا بَلَّغْتُهُ رِأَاسًا !

قال دِمْنَةُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ إِكْرَامِكَ لَهُ وَتَبْلِيغِكَ رِأَاسَهُ كُلَّ مَتْرَلَةٍ خَلَا مَتْرَلَتِكَ وَإِنَّهُ مُتَطَلِّعٌ إِلَيْهَا . فَإِنَّ اللَّئِيمَ لَا يَزَالُ نَافِعًا نَاصِحًا حَتَّى يُرْفَعَ إِلَى الْمَتْرَلَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ . فَإِذَا بَلَّغَهَا اشْرَأَبْتَ^١ نَفْسَهُ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَلَا سِيمًا أَهْلُ الْخِيَانَةِ وَالْفُجُورِ . فَإِنَّ اللَّئِيمَ الْفَاجِرَ لَا يَخْدُمُ السُّلْطَانَ وَلَا يَنْصَحُ لَهُ إِلَّا مِنْ فَرْقٍ^٢ أَوْ حَاجَةٍ ، فَإِذَا اسْتَعْنَى وَذَهَبَتِ الْهَيْبَةُ وَالْحَاجَةُ عَادَ إِلَى جَوْهَرِهِ . كَذَنَّبَ الْكَلْبُ الَّذِي يُرْبَطُ لَيْسَتْ قِيمَ فَلَ يَزَالُ مُسْتَوِيًّا مَا دَامَ مَرْبُوطًا فَإِذَا حُلَّ انْحَنَى وَتَعَوَّجَ كَمَا كَانَ .

وَأَعْلَمَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ نَصِاحَتِهِ مَا يَنْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْصَحُونَ لَهُ لَمْ يَحْمَدْ غَيْبٌ^٣ رَأْيِهِ . كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَدْعُ مَا يَصِفُ لَهُ الطَّيِّبُ وَيَعْبُدُ لِمَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ . وَحَقٌّ عَلَى مُوَازِرِ^٤ السُّلْطَانِ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّحْضِيضِ^٥ لَهُ عَلَى مَا يَزِيدُ بِهِ سُلْطَانَهُ قُوَّةً وَزِينَةً وَالْكَفَّ عَمَّا يَضُرُّهُ وَيَشِينُهُ . وَخَيْرُ الْإِخْوَانِ الْأَعْوَانِ أَقْلُهُمْ مَدَاهِنَةً^٦ فِي النَّصِيحَةِ . وَخَيْرُ الْأَعْمَالِ أَحْمَدُهَا عَاقِبَةٌ . وَخَيْرُ النَّسَاءِ الْمَوَافِقَةُ لَبْعِلْهَا . وَخَيْرُ الشَّاءِ مَا كَانَ عَلَى أَفْوَاهِ الْأَخْيَارِ . وَأَفْضَلُ الْمُلُوكِ مَنْ لَا يُخَالِطُهُ بَطْرٌ^٧ وَلَا يَسْتَكْبِرُ عَنْ قَبُولِ النَّصِيحَةِ . وَخَيْرُ الْأَخْلَاقِ أَعْوَنُهَا عَلَى الْوَرَعِ^٨ .

وقد قيل : لو أن امرأة تَوَسَّدَ النَّارَ وافتَرَشَ الْحَيَاتَ كَانَ أَحَقَّ أَنْ يَهَيْتُهُ النُّومُ مِنْ يُحْسُ مِنْ صَاحِبِهِ بَعْدَ وَاوَةٍ يُرِيدُهُ بِهَا وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ . وَأَعْجَزُ الْمُلُوكِ آخِذُهُمْ بِالْهُوَيْنَاءِ وَأَقْلُهُمْ نَفْرًا فِي مُسْتَقْبَلِ الْأُمُورِ وَأَشْبَهُهُمْ بِالْفِيلِ الْمَاهِجِ الَّذِي

- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| ١ اشْرَأَبْتَ : ارتفعت . | ٥ التحضيض : الحث . |
| ٢ فرق : خوف . | ٦ مداينة : غشاً وتديساً . |
| ٣ غيب : عاقبة . | ٧ بطر : طغيان بالنعمة . |
| ٤ موازر : معاون . | ٨ الورع : التقوى . |

لا يَلْتَفِتُ إلى شيءٍ . فإن أَحزَنَهُ أمرُ تَهَاوَنَ به^١ وإن أَضَاعَ الأمورَ حَمَلَ ذلكَ على قُرْنائِهِ .

قالَ الأَسَدُ : لقد أَغْظَتَ في القَوْلِ وقولُ النَّاصِحِ مَقْبُولٌ مَحْمُولٌ . وإن كانَ شَتْرَبَهُ مُعَادِيًّا لي كما تقولُ فَإِنَّه لا يَسْتَطِيعُ أن يَصُرُّني ولا أن يَفُتَّ في ساعِدِي^٢ ، وكيفَ يَقْدِرُ على ذلكَ وهو آكِلُ عُشْبٍ وأنا آكِلُ لَحْمٍ ؟ وإِنَّا هو لي طَعامٌ وليسَ عليَّ مِنْهُ مَخَافَةٌ . ثم ليسَ إلى العَدْرِ به سَبِيلٌ بعد الأمانِ الذي جَعَلْتَهُ له وبعد إِكرامِي له وثَنائي عليه . وإن غَيَّرْتُ ما كانَ مِنِّي وبدَلْتَهُ فقد سَهَّيْتُ رأْيِي وجَهَلْتُ نَفْسِي وَعَدَّرْتُ بِدِمَّتِي ونَقَضْتُ^٣ عَهْدِي .

قالَ دِمْتَةُ : لا يَغْرُنْكَ قولُكَ هو لي طَعامٌ وليسَ عليَّ مِنْهُ مَخَافَةٌ . فإن شَتْرَبَهُ إن لم يَسْتَطِيعْ بِنَفْسِهِ احتالَ لك من قِبَلِ غَيْرِهِ . ويُقالُ إنَّ اسْتِضَافَكَ ضَيْفٌ سَاعَةٌ من نهارٍ وأنت لا تَعْرِفُ أخلاقَهُ فلا تَأْمَنُهُ على نَفْسِكَ ولا تَأْمَنُ أن يُصَيِّبَكَ مِنْهُ أو بسببِهِ ما أَصابَ القَمَلَةَ مِنَ البُرغوثِ .

قالَ الأَسَدُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

مثل القملة والبرغوث

قالَ دِمْتَةُ : زَعَمُوا أَنَّ قَمَلَةً لَزِمَتْ فِراشَ رَجُلٍ مِنَ الأَغنياءِ دَهراً فكانت تُصَيِّبُ مِنْ دَمِهِ وهو نائمٌ لا يَشْعُرُ وتَدِبُ دُبِيًّا رَقيقاً . فمَكَتَتْ كَذَلِكَ حيناً حتى اسْتِضَافَهَا لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيالي بُرغوثٌ . فقالت له : بِتِ اللَّيْلَةَ عِنْدَنَا في دَمِ طَيِّبٍ وفِراشٍ لَيِّنٍ . فأقامَ البُرغوثُ عِنْدَها حتى إذا أوى الرَّجُلُ إلى فِراشِهِ وَثَبَ

١ تهاون به : استخفقه واستزأ به .

٢ يفت في ساعدي : يضحني .

٣ نقضت : أبطلته .

عليه البرغوثُ فلدغهُ لدغَةً أيقظتهُ وأطارتِ النومَ عنه ، فقامَ الرجلُ وأمرَ أن يُفتشَ فراشهَ فَنظِرَ فلم يرَ إلا القملةَ فأخذتُ فقُصِعتُ^١ وفرَّ البرغوثُ .
 وإنما ضربتُ لك هذا المثلَ لتعلمَ أن صاحبَ الشرِّ لا يسلمُ من شرِّه أحدٌ . وإن هو ضعفَ عن ذلك جاء الشرُّ بسبيهِ . وإن كنتَ لا تخافُ من شترَبَةٍ فحَفْ غَيْرُهُ من جُنْدِكَ الذينَ قد حرَّشَهُم عليك^٢ وحَمَلَهُم على عداوتِكَ .

فوقَ في نفسِ الأسدِ كلامُ ديمتهُ فقالَ : فما الذي ترى إذن وبماذا تُشيرُ؟
 قالَ ديمتهُ : إنَّ الضرسَ المأكولَ لا يزالُ صاحِبُهُ منه في ألمٍ وأذى حتى يَقلعهُ . والطعامَ الذي قد عَقِنَ في البطنِ الراحةُ في قَدْفِهِ . والعدوُّ المُخيفَ دواؤُهُ قتلهُ . قالَ الأسدُ : لقد تَرَكْتَنِي أكرهُ مُجاوَرَةَ شترَبَةٍ لِأَيِّ . وأنا مُرسِلٌ إليه وذاكِرٌ له ما وَقَع في نفسي منه . ثم أمرُهُ باللُّحاقِ حيثُ أحبُّ .
 فكَرِهَ ديمتهُ ذلكَ وَعَلِمَ أنَّ الأسدَ متى كَلِمَ شترَبَةٍ في ذلكَ وَسَمِعَ منه جواباً عَرَفَ باطلَ ما أتى هو به وأطَلَعَ على غَدْرِهِ وكَذْبِهِ ولم يَخَفَ عليه أمرُهُ .
 فقالَ للأسدِ : أمَّا إرسالكُ إلى شترَبَةٍ فلا أراهُ لك رأياً ولا حَزْماً . فليَنظُرِ المَلِكُ في ذلكَ فإنه لا يزالُ لك في نفسِكَ الخِيارُ ما دامَ لا يَعْلَمُ أنَّ أمرَهُ قد وَصَلَ إليك . فإنه متى عَلِمَ ذلكَ خِفتُ أن يُعاجِلَ المَلِكُ بالمُكابَرَةِ . وهو إن قاتَلَكَ قاتَلَكَ مُستَعِداً وإن فارقَكَ فارقَكَ فراقاً يَلِيكَ^٣ منه النَّقصُ ويَلزِمُكَ منه العارُ .
 معَ أنَّ ذَوِي الرَّأيِ مِنَ المُلوكِ لا يُعْلِنونَ عُقوبَةَ مَنْ لم يُعْلِنَ ذَنْبَهُ . ولكنَّ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِنْدَهُم عُقوبَةٌ . فليَذنبِ العَلانيَّةَ عُقوبَةُ العَلانيَّةِ . وليَذنبِ السِّرَّ عُقوبَةُ السِّرِّ .
 قالَ الأسدُ : إنَّ المَلِكَ إذا عاقَبَ أحداً عن ظَنَّةٍ ظَنَّها من غيرِ تيقُنٍ

١ قصعت : أي قتلت بالظفر .

٢ حرَّشهم عليك : اغرامهم بك .

٣ يليك : يلحقك .

٤ ظنَّه : نهمه .

لَجْرِمِهِ فَنَفْسَهُ عَاقَبَ وَإِيَّاهَا ظَلَمَ وَكَانَ نَاقِصَ الْبَصِيرَةِ .

قَالَ دِمْتَةُ : أَمَا إِذَا كَانَ هَذَا رَأْيَ الْمَلِكِ فَلَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكَ شَتْرَبَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْكَ عِرَّةٌ أَوْ عَفْلَةٌ . فَلِإِنِّي لَا أَحْسَبُ الْمَلِكَ حِينَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا سَيَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ هَمَّ بِعَظِيمَةٍ . وَمِنْ عِلَامَاتِ ذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى هَيْئَتَهُ مُتَغَيِّرَةً ، وَتَرَى أَوْصَالَهُ تُرْعَدُ وَتَرَاهُ مُلْتَفِتًا يَمِينًا وَشِبَالًا ، وَتَرَاهُ يُصَوِّبُ قَرْنِيَهُ فِعْلَ الَّذِي هَمَّ بِالنُّطَاحِ وَالْقِتَالِ .

قَالَ الْأَسَدُ : سَأَكُونُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ وَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتَ عَلِمْتُ أَنَّ مَا فِي أَمْرِهِ شَكٌّ .

فَلَمَّا فَرَّخَ دِمْتَةُ مِنْ تَحْرِيشِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَلْتَمِسُ وَأَنَّ الْأَسَدَ سَيَتَحَدَّرُ مِنَ الثَّوْرِ وَيَتَهَيَّأُ لَهُ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ الثَّوْرَ لِيُغْرِبَهُ بِالْأَسَدِ . وَأَحَبُّ أَنْ يَكُونَ إِيْتَانُهُ مِنْ قِبَلِ الْأَسَدِ حِمَاةً أَنْ يَبْلُغَهُ ذَلِكَ فَيَتَأَذَى بِهِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَلَا آتَى شَتْرَبَةَ فَنَظَرُ إِلَى حَالِهِ وَأَمْرِهِ وَأَسْمَعَ كَلَامَهُ لَعَلِّي أَنْ أُطَّلِعَ عَلَى سِرِّهِ فَأُطَّلِعَ الْمَلِكُ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى مَا يَظْهَرُ لِي مِنْهُ ؟ فَأَذِنَ لَهُ الْأَسَدُ فِي ذَلِكَ . فَاذْهَبْ فَدَخَلْ عَلَى شَتْرَبَةَ كَالْكَيْبِ الْحَزِينِ . فَلَمَّا رَأَى الثَّوْرَ رَحَّبَ بِهِ وَقَالَ : مَا كَانَ سَبَبُ انْقِطَاعِكَ عَنِّي فَلِإِنِّي لَمْ أَرَكَ مِنْذُ أَيَّامٍ ، أَسَلَامَةٌ هُوَ ؟ قَالَ دِمْتَةُ : وَمَتَى كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّلَامَةِ مَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَأَمْرَهُ بِيَدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يُوَثِّقُ بِهِ وَلَا يَنْفِكُ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ حَتَّى مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ وَيَأْمَنُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ !

قَالَ شَتْرَبَةُ : وَمَا الَّذِي حَدَّثَ ؟ قَالَ دِمْتَةُ : حَدَّثَ مَا قُدِّرُ وَهُوَ كَائِنٌ . وَمَنْ ذَا الَّذِي غَالَبَ الْقَدَرَ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا جَسِيمًا مِنَ الْأُمُورِ فَلَمْ يَبْطُرْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَلَغَ مَنَاهُ فَلَمْ يَغْتَرَّ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي تَبِعَ هَوَاهُ فَلَمْ يَجْهَسْ ؟

١ ترعد : تضطرب وتهتز .

٢ لم يفتخر : أي فلم يفتخر ولم يندفع .

وَمَنْ ذَا الَّذِي حَدَّثَ النَّسَاءَ فَلَمْ يُصَبِّ ١؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي طَلَّبَ مِنَ اللَّثَامِ ٢ فَلَمْ يُحْرَمَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي خَالَطَ الْأَشْرَارَ فَسَلِمَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي صَحِبَ السُّلْطَانَ فَدَامَ لَهُ مِنْهُ الْأَمْنُ وَالْإِحْسَانُ؟ وَلَقَدْ صَدَّقَ الَّذِي قَالَ: مَثَلُ السُّلْطَانِ فِي قَلْبِهِ وَفَاتِحِهِمْ لِيَمَنْ صَحِبَهُمْ وَسَخَاءِ أَنْفُسِهِمْ بِمَنْ فَقَدُوا مِنْ قُرْنَانِهِمْ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْخَانِ كُلِّمَا فَقَدَ وَاحِدًا جَاءَ آخَرُ.

قَالَ شَتْرَبَةُ: إِنْ أَسْمَعُ مِنْكَ كَلَامًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَأَيْتَ مِنْ الْأَسَدِ رَائِبٌ وَهَالِكٌ مِنْهُ أَمْرٌ.

قَالَ دِمْنَةُ: أَجَلٌ لَقَدْ رَأَيْتَ مِنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ هُوَ فِي أَمْرِ نَفْسِي.
قَالَ شَتْرَبَةُ: فِي نَفْسِ مَنْ رَأَيْتَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ تَعَلَّمُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَتَعَلَّمُ حَقَّكَ عَلَيَّ وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ أَيَّامَ أَرْسَلْتَنِي الْأَسَدُ إِلَيْكَ. فَلَمْ أَجِدْ بُدْأًا مِنْ حِفْظِكَ وَإِطْلَاعِكَ عَلَى مَا أَطَّلَعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ.

قَالَ شَتْرَبَةُ: وَمَا الَّذِي بَلَغَكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: حَدَّثَنِي الْخَبِيرُ الصَّدُوقُ الَّذِي لَا مِرْيَةَ ٣ فِي قَوْلِهِ أَنَّ الْأَسَدَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ: قَدْ أَعْجَبَنِي سِمْنُ الثَّوْرِ وَلَيْسَ لِي إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةٌ فَأَنَا آكِلُهُ وَمُطْعِمٌ أَصْحَابِي مِنْ لَحْيِهِ. فَلَمَّا بَلَغَنِي هَذَا الْقَوْلُ وَعَرَفْتُ عُذْرَهُ وَسَوْءَ عَهْدِهِ أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ لِأَقْضِيَ حَقَّكَ وَتَحْتَالَ أَنْتَ لِأَمْرِكَ.

فَلَمَّا سَمِعَ شَتْرَبَةُ كَلَامَ دِمْنَةَ وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الْأَسَدِ ظَنَّ أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَّقَهُ وَنَصَحَ لَهُ. وَرَأَى أَنَّ الْأَمْرَ شَبِيهُ بِمَا قَالَ دِمْنَةُ. فَاهْتَمَّهُ ذَلِكَ وَقَالَ: مَا كَانَ لِلْأَسَدِ أَنْ يَغْدُرَ بِي وَلَمْ آتِ إِلَيْهِ ذَنْبًا وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ جُنْدِهِ مِنْذُ صَحِبْتُهُ، وَلَا أَظُنُّ الْأَسَدَ إِلَّا قَدْ حُمِلَ عَلَيَّ بِالْكَذِبِ

١ لم يصب : أي فلم تحمل به المصائب . ٣ لا مريه : أي لا شك .
٢ اللثام : البخلاء الأذنياء . ٤ حمل علي : أي اغروه ليوقع بي .

وشبه^١ عليه أمرى ، فإنَّ الأسدَ قد صَحِبَهُ قَوْمٌ سَوَاءٌ وَجَرَّبَ مِنْهُمْ الكَذِبَ
 وأموراً تُصَدِّقُ إذا بَلَغَتْهُ عن غيرِهِمْ . فإنَّ صُحْبَةَ الأَشْرَارِ ربما أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا
 سوءَ ظَنٍّ بالأَخْيَارِ وَحَمَلَهُ ما يَخْتَرِيهِ مِنْهُمْ على الخَطْلِ في حقِّ غيرِهِمْ ، كخَطْلِ
 البَطَّةِ التي زَعَمُوا أَنَّها رَأَتْ في الماءِ ضَوْءَ كوكَبٍ فَظَنَّتْهُ سَمَكَةً فَحَاوَلَتْ أَنْ
 تَصِيدَها . فلَمَّا جَرَّبَتْ ذلكَ مِراراً عَلِمَتْ أَنَّهُ ليسَ بشيءٍ يُصَادُ فَتَرَكَتْهُ . ثم
 رَأَتْ من عَدَدِ ذلكَ اليَوْمِ سَمَكَةً . فَظَنَّتْ أَنَّها مثلُ الذي رَأَتْهُ بالأَمْسِ فَتَرَكَتْها
 ولم تَطْلُبْ صَيْدَها .

فإنَّ كانَ الأسدُ قد بَلَغَهُ عَنِّي كَذِبُ فَصَدَّقَهُ عَلَيَّ وَسَمِعَهُ فِي ما جَرى على
 غَيْرِي يَجْرِي عَلَيَّ . وإنَّ كانَ لم يَبْلُغْهُ شيءٌ وَأَرَادَ السُّوءَ بي من غيرِ عِلَّةٍ فإنَّ
 ذلكَ لَمِنَ أعْجَبِ الأمورِ . وقد كانَ يُقالُ : إنَّ مِنَ العَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ
 رِضَى صَاحِبِهِ ولا يَرْضَى . وأعْجَبُ من ذلكَ أَنْ يَلْتَمِسَ رِضاهُ فَيَسْخَطَ . فإذا
 كانَتْ المَوْجِدَةُ^٢ عن عِلَّةٍ كانَ الرِّضَى مَوْجوداً والعَفْوُ مأمولاً . وإذا كانتَ عن
 غيرِ عِلَّةٍ انْقَطَعَ الرَّجاءُ . لأنَّ العِلَّةَ إذا كانتِ المَوْجودَةُ في وُروْدِها^٣ كانَ
 الرِّضَى مأمولاً في صُدورِها . وقد نَظَرْتُ فلا أَعْلَمُ بَيْنِي وبينَ الأسدِ جُرْماً لا
 كَبيرَ ذَنْبٍ ولا صَغيرَهُ . ولعمري لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَطالَ صُحْبَةَ صَاحِبٍ أَنْ
 يَحْتَرِسَ في كلِّ شيءٍ من أمرِهِ ولا أَنْ يَتَحَفَّظَ من أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَبيرَةً أو صَغيرَةً
 يَكْرَهُها صَاحِبُهُ . ولكنَّ الرَّجُلَ ذا العَقْلِ والوفاةِ إذا سَقَطَ عِنْدَهُ صَاحِبُهُ سَقَطَتْ
 نَظَرُها وَعَرَفَ قَدْرَ مَبْلَغِ خَطِئِهِ عَمداً كانَ أو خَطأً . ثم يَنْظُرُ هل في الصَّفْحِ
 عنهُ أمرٌ يُخافُ ضَرَرَهُ وشَيْئُهُ فلا يُؤاخِذُ صَاحِبَهُ بشيءٍ يَجِدُ فيه إلى الصَّفْحِ

١ شبه : التيس .

٢ الموجدة : الغضب .

٣ الورد : بلوغ الماء والقرب منه من غير دخول وفيه يحصل دخول فيه والصدور خلافه وكلاهما
 هنا على الاستعارة والضمير لليلة .

عنه سيلاً .

فإن كان الأسد قد اعتقد عليّ ذنباً فليست أعلمه إلا أنني خالفته في بعض رأيه بطراً مني ونصيحة له . فلعلمه أن يكون قد أنزل أمرى على الجراءة عليه والمخالفة له . ولا أجِدُ لي في هذا المحضِرِ إثماً ما . لأنني لم أخالفه في شيء إلا ما قد ندرَ عند مخالفتِهِ الرُّشدَ^١ والمنفعة والدين ، ولم أجاهر بشيء من ذلك على رؤوس جنديه وعند أصحابه ولكن كنتُ أخلوه وأكلمته سراً كلامَ الهائب^٢ المؤقر . وعلمتُ أنه من التمس الرُّخص^٣ من الإخوان عند المشاورة ، ومن الأطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبهة فقد أخطأ متابع الرأي وازداد فيا وقع فيه من ذلك تورطاً وحملَ الوزر^٤ .

وإن لم يكن هذا فعله أن يكون ذلك من بعض سكرات السلطان فإن صحبة السلطان خطيرة . وإن صُحِبَ بالسَّلامَةِ والثقة والمودة وحسن الصحبة فربما عثر مصاحبه العترة فلا يتعش ولا يقال عثرته . وإن لم يكن هذا فبعض ما أوتيت من الفضل قد جعل لي فيه الهلاك ، وبعض المحاسن آفة لصاحبها . فإن الشجرة اللذيذة الثمر ربما كان أذاها في حملها فلويت أغصانها وهصرت^٥ أطرافها حتى تتكسر . والطاوس الذي ذنبه أفضله يُنسل فيولمه . والفرس المطهم الجري ربما ركب حتى ينقطع . والبلبل الحسن الصوت يُحبس دون غيره من الطير . وإن لم يكن هذا ولا هذا فهو إذن من مواقع القضاء والقدر الذي لا يدفع . والقدر هو الذي يسلب الأسد قوته وشِدته ويدخله القبر . وهو الذي يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل

١ الرشد : الاستقامة على طريق الحق .

٢ الهائب : اسم فاعل من هابه إذا اجله وخافه .

٣ الرخص : جمع رخصة وهي اليسر والسهولة .

٤ الوزر : الإثم .

٥ هصرت : عطفت .

الهاجج . وهو الذي يُسَلِّطُ على الحيَّة ذاتِ الحُمَّةِ مَن يَتَرَعُ حُمَّتَهَا وَيَلْعَبُ بِهَا .
وهو الذي يُصَيِّرُ العَاجِزَ حَازِمًا وَيُثَبِّطُ^١ السَّهْمَ المُنطَلِقَ وَيُوسِّعُ على المَقْتَرِ^٢
وَيُشَجِّعُ الجَبَانَ وَيُجَبِّنُ الشُّجَاعَ عِنْدَمَا تَعْتَرِيهِ^٣ المَقَادِيرُ بِالعِلَلِ الَّتِي انْفَقَتْ
لَهَا .

قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ إِرَادَةَ الأَسَدِ بِكَ لَيْسَتْ مِنْ تَحْرِيشِ الأَشْرَارِ وَلَا سَكْرَةِ
السُّلْطَانِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ . وَلَكِنَّهَا العَدْرُ وَالْفُجُورُ مِنْهُ فَإِنَّهُ فَاجِرٌ خَوَّانٌ عَدَّارٌ
لِطَعَامِهِ حَلَاوَةٌ وَآخِرُهُ سُمٌّ مُمِيتٌ .

قَالَ شَتْرَبَةُ : فَأَرَانِي قَدْ اسْتَلَذَذْتُ الحَلَاوَةَ إِذْ ذُقْتُهَا وَقَدْ انْتَهَيْتُ إِلَى
آخِرِهَا الَّذِي هُوَ المَوْتُ . وَلَوْلَا الحَيْنُ مَا كَانَ مُقَامِي عِنْدَ الأَسَدِ وَهُوَ آكِلُ
لَحْمٍ وَأَنَا آكِلُ عُشْبٍ . فَأَنَا فِي هَذِهِ الوِرْطَةِ كَالنَّحْلَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ^٤
التَّيْلُوفِ^٥ إِذْ تَسْتَلِذُّ رِيحَهُ وَطَعْمَهُ فَتَحْبِسُهَا تِلْكَ اللَّذَّةُ عَنِ الحَيْنِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ
تَطِيرَ فِيهِ . فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ يَنْضَمُّ عَلَيْهَا فَتَرْتَبِكُ فِيهِ وَتَمُوتُ . وَمَنْ لَمْ يَرْضَ مِنْ
الدُّنْيَا بِالكِفَافِ الَّذِي يُغْنِيهِ وَطَمَّحَتْ عَيْنُهُ إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ وَلَمْ يَتَّخِذْ
عَاقِبَتَهُ كَانَ كَالذُّبَابِ الَّذِي لَا يَرْضَى بِالشَّجَرِ وَالرِّبَاحِينَ وَلَا يُغْنِيهِ ذَلِكَ حَتَّى
يَطْلُبَ المَاءَ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ أُذُنِ الفَيْلِ فَيَضْرِبُهُ الفَيْلُ بِأُذُنِهِ فَيُهْلِكُهُ . وَمَنْ يَبْذُلُ
وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ لِمَنْ لَا يَشْكُرُهُ فَهُوَ كَمَنْ يَبْذُرُ فِي السَّبَاحِ^٦ . وَمَنْ يُشِرُّ عَلَى
المُعْجَبِ كَمَنْ يُشَاوِرُ المَيْتَ أَوْ يُسَارُّ الأَصَمَّ .

قَالَ دِمْنَةُ : دَعَّ عَنْكَ هَذَا الكَلَامَ وَاحْتَلَّ لِنَفْسِكَ . قَالَ شَتْرَبَةُ : بَأَيِّ
شَيْءٍ أَحْتَالُ لِنَفْسِي إِذَا أَرَادَ الأَسَدُ أَكْلِي مَعَ مَا عَرَّفْتَنِي مِنْ رَأْيِ الأَسَدِ وَسِوَاهُ

١ يثبط : يعوق .

٢ المقتتر : المقتتر .

٣ تعتربه : نصيبه .

٤ نور : زهر .

٥ التيلوفر : ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة ومتى ساوى سطح الماء أورق وأزهر .

٦ السباح : من الأرض ما لم يحرث ولم يعمر .

أخلاقه؟ وأءأ أنه لو لم يُرذ بي إلا خيراً ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكه لقدروا على ذلك . فإنه إذا اجتمع المكره الظلمة على البريء الصالح كانوا خُلُقَاءً أن يهلكوه وإن كانوا ضُعَفَاءً وهو قَوِيٌّ . كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمَل حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخبائنة .
قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

مثل الذئب والغراب وابن آوى والجمَل

قال شترية : زعموا أن أسداً كان في أجمهٍ مُجاورةٍ لطريق من طرق الناس ، وكان له أصحابٌ ثلاثة : ذئبٌ وغرابٌ وابن آوى . وإن رُعاةً مروا بذلك الطريقٍ ومعهم جِالٌ . فتخلفَ منها جمَلٌ فدخَلَ تلك الأجمهَ حتى انتهى إلى الأسد . فقال له الأسدُ : من أين أقبلت ؟ قال : من موضعٍ كذا . قال : فما حاجتك ؟ قال : ما يأمرني به الملكُ . قال : تُقيمُ عندنا في السعةِ والأمنِ والخصبِ . فأقامَ الأسدُ والجمَلُ معه زماناً طويلاً .

ثم إنَّ الأسدَ مضى في بعضِ الأيامِ لطلبِ الصيدِ ، فلقيَ فيلاً عظيماً فقاتله قتالاً شديداً وأفلتَ منه مُثَقلاً مُشْحَناً بالجراحِ يسيلُ منه الدَّمُ ، وقد خدشه الفيلُ بأنْيابه . فلما وصلَ إلى مكانه وَقَعَ لا يستطيعُ حراكاً ولا يقدرُ على طلبِ الصيدِ . فلبثَ الذئبُ والغرابُ وابنُ آوى أياماً لا يجدونَ طعاماً لأنهم كانوا يأكلونَ من فضلاتِ الأسدِ وطعامه . فأصابهمُ وأصابه جوعٌ شديدٌ وهزالٌ . وعرفَ الأسدُ منهم ذلك فقال : لقد جهدتُمُ واحتججتُمُ إلى ما تأكلونَ . فقالوا : لا تُهمنا أنفسنا . لكننا نرى الملكَ على ما نراه فليتنا نجدُ ما

١ مشخناً : أي مبالغاً بجراحه .

يَأْكُلُهُ وَيُصَلِّحُهُ . قَالَ الْأَسَدُ : مَا أَشْكُ فِي نَصِيحَتِكُمْ . وَكُنْ ائْتَشِرُوا لِعَلَّكُمْ تُصَيِّبُونَ صَيْدًا تَأْتُونِي بِهِ فَيُصَيِّبُنِي وَيُصَيِّبُكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ .

فَخَرَجَ الذَّبُّ وَالغَرَابُ وَابْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ فَتَنَحَّوْا وَاتَّمَرُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا : مَا لَنَا وَهَذَا الْآكِلُ الْعُشْبِ الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ مِنْ شَأِنِنَا وَلَا رَأْيُهُ مِنْ رَأِينَا ، أَلَا تُزَيِّنُ لِلْأَسَدِ فَيَأْكُلُهُ وَيُطْعِمُنَا مِنْ لَحْمِهِ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : هَذَا مِمَّا لَا نَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ لِلْأَسَدِ لِأَنَّهُ قَدْ أَمَّنَ الْجَمَلَ وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ . قَالَ الْغَرَابُ : أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَ الْأَسَدِ . ثُمَّ انْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : هَلْ أَصَبْتَ شَيْئًا ؟ قَالَ الْغَرَابُ : إِنَّمَا يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِرُ . وَأَمَّا نَحْنُ فَلَا سَعْيَ لَنَا وَلَا بَصَرَ لَنَا مِنْ الْجُوعِ . وَلَكِنْ قَدْ وَفَّقَنَا إِلَى أَمْرٍ وَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ إِنْ وَاقَفْنَا الْمَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ . قَالَ الْأَسَدُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ الْغَرَابُ : هَذَا الْجَمَلُ آكَلُ الْعُشْبِ الْمَتَمَرِّغُ بَيْنَنَا مِنْ غَيْرِ مَنَفَعَةٍ لَنَا مِنْهُ وَلَا رَدِّ عَائِدَةٍ وَلَا عَمَلٍ يُعْقِبُ مَصْلَحَةً .

فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ذَلِكَ غَضِبَ وَقَالَ : مَا أَخْطَأَ رَأْيَكَ وَمَا أَعْجَزَ مَقَالَكَ وَأَبْعَدَكَ عَنِ الْوَفَاءِ وَالرَّحْمَةِ ! وَمَا كُنْتُ حَقِيقًا أَنْ تَجَرِّئَ عَلَيَّ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ وَتَسْتَبِيلَنِي بِهَذَا الْخِطَابِ مَعَ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَنِّي قَدْ أَمَنْتُ الْجَمَلَ وَجَعَلْتُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِي . أَوَلَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَّصِدْ مُتَّصِدٌ بِصَدَقَةٍ هِيَ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ أَمْنِ نَفْسٍ خَائِفَةٍ وَحَقِّنْ دَمًا مَهْدورًا ؟ أُمَّتُهُ وَلَسْتُ بِغَادِرٍ بِهِ وَلَا خَافِرٍ لَهُ ذِمَّةً .

قَالَ الْغَرَابُ : إِنِّي لِأَعْرِفُ مَا يَقُولُ الْمَلِكُ وَلَكِنَّ النَّفْسَ الْوَاحِدَةَ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْبَيْتِ ، وَأَهْلُ الْبَيْتِ تُفْتَدَى بِهِمُ الْقَبِيلَةُ ، وَالْقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْمِصْرِ ، وَأَهْلُ الْمِصْرِ فِدَى الْمَلِكِ . وَقَدْ نَزَلَتْ بِالْمَلِكِ الْحَاجَةُ وَأَنَا أَجْعَلُ لَهُ

١ عائلة : معروف .

٢ خافر : ناقض .

٣ المصر : المدينة والضعف .

من ذمته مخرجاً على أن لا يتكلف الملك ذلك ولا يلبه بنفسه ولا يأمر به أحداً . ولكننا نحتال بحيلة لنا وله فيها صلاح وظفر .

فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب . فلما عرف الغراب إقرار الأسد أتى صاحبيه فقال لهما : قد كلمت الأسد في أكله الجمل على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد فنذكر ما أصابه ونترجع له اهتماماً منا بأمره وحرصاً على صلاحه . ويعرض كل واحد منا نفسه عليه نجملأ لياكله فيرد الآخراين عليه ويسفها رأيه ويثبتنا الصرر في أكله . فإذا جاءت نوبة الجمل صوبنا رأيه فهلك وسلمنا كلنا ورضي الأسد عنا .

ففعلا ذلك وتقدموا إلى الأسد ، فقال الغراب : قد احتجت أيها الملك إلى ما يقوتك . ونحن أحمق أن نهب أنفسنا لك فإننا بك نعيش فإذا هلكت فليس لأحد منا بقاء بعدك ولا لنا في الحياة من خيرة . فليأكلني الملك فقد طبت بذلك نفساً . فأجابته الذئب وابن آوى أن اسكت فلا خير للملك في أكلك وليس فيك شيع .

قال ابن آوى : لكن أنا أشيع الملك فليأكلني فقد رصيت بذلك وطبت نفساً . فرد عليه الذئب والغراب بقولها : إنك لميتن قدر .

قال الذئب : إني لست كذلك فليأكلني الملك فقد سمحت بذلك وطابت به نفسي . فاعترضه الغراب وابن آوى وقالوا : قد قالت الاطباء من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب .

فظن الجمل أنه إذا عرض نفسه على الأكل التمسوا له عذراً كما التمس بعضهم لبعض الأعداء فيسلم ويرضى الأسد عنه بذلك وينجو من المهالك . فقال : لكن أنا في للملك شيع وري ولحمي طيب هني وبطني نظيف فليأكلني الملك ويطعم أصحابه وخدمته فقد رصيت بذلك وطابت نفسي به . فقال الذئب وابن آوى والغراب : لقد صدق الجمل وكرم وقال ما عرف . ثم

إنهم وثبوا عليه فمزقوه .

وإنما صرَبْتُ لك هذا المَثَل لتعلمَ أنه إن كان أصحابُ الأسدِ قد اجتمعوا على هلاكِي فلنِي لستُ أقدرُ أن أمتنعَ منهم ولا أحتسِرَ وإن كان رأيُ الأسدِ فيَّ على غيرِ ما هم عليه من الرأي . فإنَّ ذلك لا يتفعلي ولا يُغني عني شيئاً . وقد يُقالُ خيرُ السُّلَاطِينِ مَنْ أشبَهَ النَّسْرَ وحوَلَهُ الجِيفُ لا مَنْ أشبَهَ الجِيفَةَ وحوَلَهَا النَّسْرُ . ولو أنَّ الأسدَ لم يكن في نفسه لي إلَّا الخيرُ والرَّحمةُ لغيرتهُ كثرَةُ الأقاويلِ . فإنها إذا كثرتْ لم تكفْ دونَ أن تُذهبَ الرِّقَّةَ والرَّافَةَ . ألا ترى أنَّ الماءَ ليسَ كالقَوْلِ ، وأنَّ الحَجَرَ أشدُّ منَ الإنسانِ ؟ والماءُ إذا دام انحِدَارُهُ على الحَجَرِ لم يزلْ به حتى يثقبهُ ويؤثرُ فيه . وكذلك القَوْلُ في الإنسانِ .

قالَ دِمْنَةُ : فاذا تُريدُ أن تصنعَ الآنَ ؟ قالَ شَرَبَةُ : ما أرى إلَّا الاجتهادَ والمُجاهدَةَ بالقتالِ ، فإنه ليسَ للمُصلِّي في صَلَاتِهِ ولا للمُحتسِبِ^١ في صَدَقَتِهِ ولا للورعِ في ورَعِهِ مِنَ الأجرِ ما للمُجاهِدِ عن نفسه إذا كانت مُجاهدتهُ على الحقِّ .

قالَ دِمْنَةُ : لا ينبغي لأحدٍ أن يُخاطرَ بنفسِهِ وهو يَسْتَطِيعُ غيرَ ذلك . ولكنَّ ذا الرأيِ جاعِلُ القتالِ آخِرَ الحِيلِ وباديُ قِبَلِ ذلك بما استطاعَ من رِفقي وتمَحَلِّ^٢ . وقد قيلَ : لا تحقرنَّ العَدُوَّ والضعيفَ المُهينَ ولا سِيِّمًا إذا كانَ ذا حيلةٍ ويقدرُ على الأعوانِ . فكيفَ بالأسدِ على جِراءَتِهِ وشِدَّتِهِ ! فإنَّ مَنْ حَفَرُ عَدُوَّهُ لضعفه أصابَهُ ما أصابَ وَكَيْلَ البحرِ مِنَ الطَّيْطُوى .

قالَ شَرَبَةُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

١ المحتسب : المتصدق لوجه الله .

٢ تمحل : احتيال .

مثل وكيل البحر والطيطوي

قال ديمته : زعموا أن طائراً من طيور البحر يقال له الطيطوي كان وطنه على ساحل البحر ومعه زوجة له . فلما جاء أوان إفراجها قالت الأنثى للذكر : لو التمسنا مكاناً حريزاً^١ غير هذا نفرخ فيه فلني أخاف من البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا . فقال لها : ما أراه يحيل علينا فإن وكيل البحر يخافني أن أنتقم منه ، فأفرخي في مكانك فإنه موافق لنا والماء والزهر متا قريب . قالت له : يا غافل ما أشد عنادك وتصلبك ! أما تذكر وعيده وتهدده إياك ؟ ألا تعرف نفسك وقدرك في وعيد من لا طاقة لك به ؟ فأبى أن يطيعها . فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له : إن من لم يسمع قول التاصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين . قال الذكر : وكيف كان ذلك ؟

مثل السلحفاة والبطتين

قالت الأنثى : زعموا أن غديراً كان عنده عشب وكان فيه بطتان . وكان في الغدير سلحفاة بينها وبين البطتين مودة وصداقة . فاتفق أن غيض^٢ ذلك الماء . فجاءت البطتان لوداع السلحفاة وقالتا : السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه . فقالت : إننا بين نقصان الماء على مثلي التي كأني السفينة لا أفير على العيش إلا بالماء . فأما أنتما فتقديران على العيش حيث

١ حريزاً : حصياً منيعاً .

٢ غيض : نقص .

كُتْمًا . فَاذْهَبَا بِمَعَكُمْ . قَالَتَا : نَعَمْ . قَالَتْ : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حَمَلِي ؟ قَالَتَا :
 نَأْخُذُ بِطَرْفِي عُوْدٍ وَتَقْبِضِينَ بِفِيكَ عَلَى وَسَطِهِ وَنَطِيرُ بِكَ فِي الْجَوِّ . وَإِنَّا إِذَا
 سَمِعْتِ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ أَنْ تَنْطِقِي . ثُمَّ أَخَذَتَاهَا فَطَارَتَا بِهَا فِي الْجَوِّ . فَقَالَ
 النَّاسُ : عَجَبٌ سُلْحَفَاةٌ بَيْنَ بَطْطَيْنِ قَدْ حَمَلَتَاهَا ! فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ :
 فَقَا اللَّهُ أَعْيَبْتُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ . فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاها بِالطَّلْقِ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ
 فَاتَتْ .

قَالَ الذَّكْرُ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ فَلَا تُخَافِي وَكِيلَ الْبَحْرِ .
 فَلَمَّا مَدَّ الْمَاءَ دَنَا وَكِيلُ الْبَحْرِ فَذَهَبَ بِفِرَاحِهَا . فَقَالَتِ الْأُنْثَى : قَدْ
 عَرَفْتُ فِي بَدءِ الْأَمْرِ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ وَمَا أَصَابَنَا إِنَّا هُوَ بِتَقْرِيطِكَ ١ . قَالَ الذَّكْرُ :
 قَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَنَا عَلَى قَوْلِي وَسَوْفَ تَرِينَ صُنْعِي بِهِ وَإِنْتِقَامِي مِنْهُ .
 ثُمَّ مَضَى إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فَقَالَ لَهُنَّ : إِنُّكُنَّ أَخَوَاتِي وَنِقَاتِي فَأَعِنِّي .
 قُلْنَ : مَاذَا تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ قَالَ : نَجْتَمِعْنَ وَتَذْهَبُنَا مَعِي إِلَى سَائِرِ الطَّيْرِ فَنَشْكُو
 إِلَيْهِنَّ مَا لَقِينَا مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ وَنَقُولُ لَهُنَّ إِنُّكُنَّ طَيْرٌ مِثْلُنَا فَأَعِنَّا . فَقَالَتْ لَهُ
 جَمَاعَةُ الطَّيْرِ : إِنَّ الْعَنْقَاءَ بِنْتَ الرِّيحِ هِيَ سَيِّدَتُنَا وَمَلِكَتُنَا . فَاذْهَبْ بِنَا إِلَيْهَا حَتَّى
 نَصْبِحَ بِهَا فَتُظَهِّرَ لَنَا فَنَشْكُو إِلَيْهَا مَا نَأْكُ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ وَنَسْأَلُهَا أَنْ تَنْتَقِمَ لَنَا
 مِنْهُ بِقُوَّةِ مُلْكِهَا .

ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْهَا مَعَ الطَّيْطَوَى فَاسْتَعْنَتْهَا ٢ وَصَحْنَ بِهَا فَرَأَتْ لَهُنَّ .
 فَأَخْبَرَتْهُنَّ بِقِصَّتِهِنَّ وَسَأَلَتْهُنَّ أَنْ تَطِيرَ مَعَهُنَّ إِلَى مُحَارَبَةِ وَكِيلِ الْبَحْرِ . فَأَجَابَتْهُنَّ
 إِلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيلُ الْبَحْرِ أَنَّ الْعَنْقَاءَ قَدْ قَصَدَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الطَّيْرِ خَافَ مِنْ
 مُحَارَبَةِ مَلِكٍ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ ، فَردَّ فِرَاحَ الطَّيْطَوَى وَصَالِحَهُ فَرَجَعَتِ الْعَنْقَاءُ عَنْهُ .

١ بتقريطك : بتقريبك .

٢ استعنتها : أي طلبت مساعدتها .

وإنما حَدَّثْتُكَ بهذا الحديثِ لتَعْلَمَ أَنَّ القِتَالَ مَعَ الأسدِ لا أَرَاهُ لك رَأياً .
قالَ شَتْرَبَةُ : فما أنا بمُقَاتِلِ الأسدِ ولا ناصِبٍ له العَدَاوَةَ سِراً ولا عَلايَةَ ولا
مُتَغَيِّرٍ له عَمَّا كُنْتُ عليه حتى يبدو لي منه ما أُتَخَوِّفُ فَأُغَالِبُهُ .

فَكَرِهَ دِمْنَةُ قَوْلَهُ وَعَلِمَ أَنَّ الأسدَ إن لم يَر مِنَ الثَّورِ العِلاماتِ التي كانَ
ذَكَرَها له أَتَهَمُهُ وأَسَاءَ به الظَّنُّ . فقالَ لَشَتْرَبَةَ : اذْهَبِ إلى الأسدِ فَسَتَعْرِفُ
حينَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ما يُريدُ مِنكَ .

قالَ شَتْرَبَةُ : وكيفَ عَرِفْتُ ذلكَ ؟ قالَ دِمْنَةُ : سَتَرَى الأسدَ حينَ تَدْخُلُ
عليه مُقْعِياً^١ على ذَنْبِهِ رَافِعاً صَدْرَهُ إِلَيْكَ ماداً بَصَرَهُ نَحْوَك قد صَرَّ^٢ أُذُنِيهِ وَفَقَّرَ
فَاهُ واستَوَى للوَبَةِ . قالَ : إن رأيتُ هذه العِلاماتِ مِنَ الأسدِ عَرَفْتُ
صِدْقَكَ في قَوْلِكَ .

ثم إنَّ دِمْنَةَ لَمَّا فَرَّغَ من تَحْرِيشِ الأسدِ على الثَّورِ والثَّورِ على الأسدِ تَوَجَّهَ
إلى كَلْبَةٍ . فلَمَّا التَقِيَ قالَ كَلْبَةٌ : إلامَ اتَّهَى عَمَلُكَ الذي كُنْتَ فيه ؟ قالَ
دِمْنَةُ : قَريبٌ مِنَ الفِراغِ على ما أَحَبُّ وَتُحِبُّ .

ثم إنَّ كَلْبَةَ وَدِمْنَةَ انطَلَقا جَمِيعاً لِيَحْضُرَا قِتَالَ الأسدِ والثَّورِ وَيَنْظُرَا ما
يَجْرِي بَيْنَها وما يُؤوَلُ إليه أَمْرُهُما . وجاءَ شَتْرَبَةُ فَدَخَلَ على الأسدِ فَرَأَهُ مُقْعِياً
كما وَصَفَهُ له دِمْنَةُ فقالَ : ما صاحِبُ السُّلْطانِ إلا كصاحِبِ الحَيَّةِ التي في
صَدْرِهِ لا يَدْرِي متى تَهَيِّجُ عليه .

ثم إنَّ الأسدَ نَظَرَ إلى الثَّورِ فَرَأى الدَّلالاتِ التي ذَكَرَها له دِمْنَةُ فلم يَشْكُ
أَنَّهُ جاءَ لِقِتالِهِ . فَوابَهُ وَنَشأتَ بَيْنَها الحَرْبُ واشتَدَّ قِتالُ الثَّورِ والأسدِ وطالَ
وَسالَتْ بَيْنَها الدِّماءُ .

فلَمَّا رَأى كَلْبَةُ أَنَّ الأسدَ قد بَلَغَ مِنَ القِتالِ ما بَلَغَ قالَ لِدِمْنَةَ : أَيُّها

١ مقْعياً : أي جالساً على استه ناصباً فخذبه كجلوس الكلب .

٢ صرَّ : نصب .

الفلس^١ ، ما أنكر جهلتك وأسوأ عاقبتك في تدبيرك ! قال ديمته : وما ذلك ؟ قال كليله : جرح الأسد وهلك الثور . وإن أحرق الحرق من حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال وهو يجد إلى غير ذلك سبيلاً . وإنما الرجل إذا أمكنته الفرصة من عدوه يتركه مخافة التعرض له بالمجاهرة ورجاء أن يقدر عليه بدون ذلك . وإن العاقل يدبر الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها ، فما رجا أن يتم له منها أقدم عليه ، وما خاف أن يتعذر عليه منها انحرف عنه . ولم يلتفت إليه . وإني لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا ، فإنك قد أحسنت القول ولم تحسن العمل . أين معاهدتك إياي أنك لا تضير بالأسد في تدبيرك ؟ وقد قيل : لا خير في القول إلا مع العمل . ولا في الفقه إلا مع الورع . ولا في الصدقة إلا مع التيبة . ولا في المال إلا مع الجود . ولا في الصدق إلا مع الوفاء . ولا في الحياة إلا مع الصحة . ولا في الأمن إلا مع السرور . وقد شرطت أمراً لا يقدر عليه إلا العاقل الرفيق .

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش ويزيد الأحمق طيشاً . كما أن النهار يزيد كل ذي بصير نظراً ويزيد الخفاش سوء النظر . فلو العقل لا يبتر من مترلة أصابها وإن تعاطم أمره وقدره ، ويكون عند ذلك كالجبل الذي لا تحركه الرياح الشديدة . والسخيف كالعشب يحركه أدنى ريح .

وقد أذكرني أمرك شيئاً سمعته . فإنه يقال إن السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراء سوء متعوا خيره فلا يقدر أحد أن يدنو منه . ومثله في ذلك مثل الماء الطيب الذي فيه التماسيح لا يقدر أحد أن يتناوله وإن كان إلى الماء محتاجاً . وإنما الملك زبته أن يكون جنوده ووزراؤه ذوي صلاح فيسدون^٢ أحوال الناس وينظرون في صلاحهم . وأنت يا ديمته أردت أن لا يدنو من

١ الفلس : الضعيف الرذل الذي لا مروءة له .

٢ يسدون : يقومون .

الأسدِ أحدُ سواك . وهذا أمرٌ لا يصحُّ ولا يتمُّ أبداً وذلك للمثلِ المَضروبِ :
 إنَّ البحرَ بأمواجِهِ والسُّلطانَ بأصحابِهِ . ومنَ الحُمتِ الحِرصُ على التماسِ
 الإخوانِ بغيرِ الوفاءِ لهم ، والتماسِ الآخرةِ بالرِّياءِ . ومودَّةُ النساءِ بالعلَّةِ .
 ونفعِ النَّفسِ بصرِّ الغيرِ . وما عِظتي وتاديبِي لِإِنَّاكَ إِلا كما قالَ الرجلُ للطَّائرِ : لا
 تلتَمِسُ تقويمَ ما لا يَسْتقيمُ ولا تُعالجُ تاديبَ ما لا يَتأدَّبُ . قالَ دِمتهُ : وكيفَ
 كانَ ذلكَ ؟

مثل الرجل والطائر

قالَ كَليلةٌ : زَعَموا أَنَّ جماعةً مِنَ القِرَدَةِ كانوا ساكِنينَ في جَبَلٍ .
 فَالتَمَسوا في ليلَةٍ بارِدَةٍ ذاتِ رِياحٍ وأمطارٍ ناراً فلم يَجِدوا . فَرَأوا يَراعةً^١ تطيرُ
 كأنها شِراةُ نارٍ فَظنُّوها ناراً وَجمَعوا حَطَباً كثيراً فَالقوهُ عليها وجعلوا يَنفُخُونَ
 بأفواهِهِم وَيَتروِّحُونَ^٢ بأيديهِم طَمَعاً في أن يُوقِدوا ناراً يَصطَلون^٣ بها مِنَ البَرَدِ .
 وكانَ قريباَ منهم طائرٌ على شَجَرَةٍ يَنظُرُونَ إليه وَيَنظُرُ إليهِم وقد رأى ما صَنَعوا
 فَجَعَلَ يُناديهِم ويقولُ : لا تَتَّبِعُوا فَإِنَّ الذي رَأيتُموهُ ليسَ بنارٍ .

فلَمَّا طالَ ذلكَ عليه عَزَمَ على القُربِ منهم لِيَنهاهُمَ عَمَّا هم فيه . فَمَرَّ به
 رجلٌ فَعرَفَ ما عَزَمَ عليه فقالَ له : لا تَلتَمِسُ تقويمَ ما لا يَسْتقيمُ ، فَإِنَّ
 الحَجَرَ الصُّلبَ الذي لا يَنقَطِعُ لا تُجربُ عليه السُّيوفُ ، والعُودَ الذي لا
 يَنحِي لا تُعمَلُ منه القُوسُ ، فلا تَتَّعِبُ . فأبى الطَّائرُ أن يُطيعَهُ وتقدَّم إلى
 القِرَدَةِ لِيُعرِّفَهُم أَنَّ اليراعةَ ليستَ بنارٍ ، فتناوَلَهُ بعضُ القِرَدَةِ فَضَرَبَ به الأرضَ

١ يراعة : ذبابة تطير بالليل كأنها نار وتعرف عند بعض العامة بسراج الليل .
 ٢ يتروِّحون : يجلبون الريح كما يفعل بالمروحة .
 ٣ يصطلون : يتدفأون .

فات . فهذا مثلكَ معي في ذلك . ثم قد غَلَبَ عليك الخبُّ^١ والفُجورُ^٢ وهما
 خلَّتَا^٣ سوء ، والخبُّ شرُّهما عاقِبَةً . ولهذا مَثَلٌ . قال دِمْنَةُ : وما ذلكَ المَثَلُ ؟

مثل الخب والمغفل

قال كَلْبَةُ : زَعَمُوا أَن خَبًّا وَمُتَمَلًّا اشْتَرَكَا فِي تِجَارَةٍ وَسَافَرَا . فَبَيْنَا هُمَا فِي
 الطَّرِيقِ تَخَلَّفَ الْمُغْفَلُ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ فَوَجَدَ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ فَأَخَذَهُ .
 فَأَحْسَ بِهِ الْخَبُّ فَرَجَعَا إِلَى بَلَدِيهِمَا حَتَّى إِذَا ذَنُوبَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَعَدَا لِاقْتِسَامِ الْمَالِ .
 فَقَالَ الْمُغْفَلُ : خُذْ نِصْفَهُ وَأَعْطِنِي نِصْفَهُ . وَكَانَ الْخَبُّ قَدْ قَرَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ
 يَذْهَبَ بِالْأَلْفِ جَمِيعِهَا ، فَقَالَ : لَا نَقْتَسِمُ لِإِنَّ الشَّرِيكَةَ وَالْمُقَاوَضَةَ أَقْرَبُ إِلَى
 الصَّفَاءِ وَالْمُخَالَطَةِ . وَلَكِنْ آخُذْ نَفَقَةً وَتَأْخُذْ مِثْلَهَا وَتَدْفِنُ الْبَاقِيَّ فِي أَصْلِ هَذِهِ
 الشَّجَرَةِ فَهُوَ مَكَانُ حَرِيرٍ ، وَذَلِكَ أَكْتَمُ لِأَمْرِنَا . فَإِذَا احْتَجْنَا جِئْنَا أَنَا وَأَنْتَ
 فَنَأْخُذُ حَاجَتَنَا مِنْهُ وَلَا يَعْلَمُ بِمَوْضِعِنَا أَحَدٌ . فَأَخَذَا مِنْهَا بَسِيرًا وَدَفَنَا الْبَاقِيَّ فِي
 أَصْلِ الشَّجَرَةِ وَدَخَلَا الْبَلَدَ .

ثم إنَّ الخبَّ خَالَفَ الْمُغْفَلَ إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَهَا وَسَوَّى الْأَرْضَ كَمَا
 كَانَتْ . وَجَاءَ الْمُغْفَلُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ لِلْخَبِّ : قَدْ احْتَجْتُ إِلَى نَفَقَةٍ فَانْطَلِقْ بِنَا
 نَأْخُذْ حَاجَتَنَا . فَقَامَ الْخَبُّ مَعَهُ وَذَهَبَا إِلَى الْمَكَانِ فَحَفَرَا فَلَمْ يَجِدَا شَيْئًا . فَأَقْبَلَ
 الْخَبُّ عَلَى وَجْهِهِ يَلْطِمُهُ وَيَقُولُ : لَا تَغْتَرَّ بِصُحْبَةِ صَاحِبِي . خَالَفْتَنِي إِلَى الدَّنَانِيرِ
 فَأَخَذْتَهَا . فَجَعَلَ الْمُغْفَلُ يَحْلِفُ وَيَلْعَنُ آخِذَهَا وَلَا يَزْدَادُ الْخَبُّ إِلَّا شِدَّةً فِي
 اللَّطْمِ وَقَالَ : مَا أَخَذَهَا غَيْرَكَ ، وَهَلْ شَعَرَ بِهَا أَحَدٌ سِوَاكَ ؟

ثم طَالَ بَيْنَهُمَا ذَلِكَ ، فَتَرَفَعَا إِلَى الْقَاضِي ، فَاقْتَصَّ الْقَاضِي قِصَّتَهُمَا .

١ الخبُّ : الحث والحداق والغش .

٢ الفجور : المعصية والكذب .

٣ خلَّتَا : خصلتا .

فَادْعَى الْحَبُّ أَنْ الْمُعْقَلُ أَخَذَهَا وَجَحَدَ الْمُعْقَلُ . فَقَالَ لِلْحَبِّ : أَلَيْكَ عَلَى دَعْوَاكَ بَيْنَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَتِ الدَّنَانِيرُ عِنْدَهَا تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْمُعْقَلُ قَدْ أَخَذَهَا . وَكَانَ الْحَبُّ قَدْ أَتَى أَبَاهُ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ وَطَلَّبَ إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ فَيَتَوَارَى فِي الشَّجَرَةِ بِحَيْثُ إِذَا سُئِلَ أَجَابَ . فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : رَبُّ مُتَحِيلٍ أَوْقَعَهُ تَحِيلُهُ فِي وَرَطَةِ عَظِيمَةٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْخِلَاصِ مِنْهَا . فَلْيَأْكَلْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَكَ مِثْلَ الْعُلْجُومِ . قَالَ الْحَبُّ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

مثل العُلْجُومِ والحِيةِ وابنِ عَرَسٍ

قَالَ أَبُوهُ : زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُومًا جَاوَرَ حِيَّةً فَكَانَ كَلَّمَا أَفْرَخَ جَاءَتْ إِلَى عَشِيهِ وَأَكَلَتْ فِرَاحَهُ . فَفَرَعَ^٢ فِي ذَلِكَ إِلَى السَّرَطَانِ فَقَالَ لَهُ السَّرَطَانُ : إِنَّ بَقْرِيكَ جُحْرًا يَسْكُنُهُ ابْنُ عَرَسٍ وَهُوَ يَأْكُلُ الْحَيَاتِ . فَاجْمَعْ سَمَكًا كَثِيرًا وَفَرِّقْهُ مِنْ جُحْرِ ابْنِ عَرَسٍ إِلَى جُحْرِ الْحِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا بَدَأَ فِي أَكْلِ السَّمَكِ انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الْحِيَّةِ فَأَكَلَهَا . فَفَعَلَ وَكَانَ كَذَلِكَ . ثُمَّ تَدَرَّجَ ابْنُ عَرَسٍ مِنْ جُحْرِ الْحِيَّةِ فِي طَلَبِ غَيْرِهَا حَتَّى بَلَغَ إِلَى جُحْرِ الْعُلْجُومِ فَأَكَلَهُ أَيْضًا وَفِرَاحَهُ جَمِيعًا . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَّيَّبَتْ فِي الْحَيْلِ وَيَتَدَبَّرَهَا وَيَنْظُرَ فِيهَا أَوْقَعَتْهُ حِيلَتُهُ فِي أَشَدِّ مَمَّا يَحْتَالُ لَهُ . قَالَ الْحَبُّ : قَدْ فَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ وَلَكِنْ لَا تَحْخَفْ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَسِيرٌ حَقِيرٌ . وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى طَاوَعَهُ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَدَخَلَ جَوْفَ الشَّجَرَةِ .

ثُمَّ إِنَّ الْقَاضِيَّ لَمَّا سَمِعَ مِنَ الْحَبِّ حَدِيثَ شَهَادَةِ الشَّجَرَةِ أَكْبَرَهُ وَانْطَلَقَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَالْحَبُّ وَالْمُعْقَلُ مَعَهُ حَتَّى وَافَى الشَّجَرَةَ فَسَأَلَهَا عَنِ الْخَبْرِ .

١ جمعد : أنكر .

٢ فرع : التجأ .

فقال الشيخ من جوفها : نعم ، المُعْقَلُ أَخَذَهَا . فلَمَّا سَمِعَ القَاضِي ذلك اشتدَّ تَعَجُّبُهُ وجَعَلَ يَطُوفُ بِالشَّجَرَةِ حتَّى بَانَ لَهُ حَرَقٌ فِيهَا ، فَتَأَمَّلَهُ فلم يَرِ فِيهِ شَيْئاً ، فدَعَا بِحَطَبٍ وأَمَرَ أَنْ تُحَرَّقَ الشَّجَرَةُ ، فَأَضْرَمَتْ حَوْلَهَا النَّيرانُ ، فَاسْتَوَاتَ أَبُو الحَبِّ عِنْدَ ذلك فَأَخْرِجَ وَقَدِ اشْرَفَ عَلَى الهَلَاكِ . فَسَأَلَهُ القَاضِي عَنِ القِصَّةِ فَأخْبَرَهُ بِالحَبْرِ . فَأَوَقَعَ بِالحَبِّ ضَرْباً وَبِأَيِّهِ صَفَعاً وَأَرْكَبَهُ مَشهوراً وَعَرَّمَ الحَبَّ الدَّنَانِيرَ فَأَخَذَهَا وَأَسْلَمَهَا المُعْقَلُ .

وَإِنَّا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعَلَّمَ أَنَّ الحَبَّ وَالخَدِيعَةَ رِجَالاً كَانُوا صَاحِبِيهَا هُوَ المَغْبُونُ . وَإِنَّكَ يَا دِمَّةُ جَامِعٌ لِلحَبِّ وَالخَدِيعَةِ وَالفُجُورِ . وَإِنِّي أَخشى عَلَيْكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ مَعَ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَاجٍ مِنَ العُقُوبَةِ لِأَنَّكَ ذُو لَوْنَيْنِ وَلسَانَيْنِ . وَإِنَّا عُدُوبَةُ مَاءِ الأَنهَارِ مَا لَمْ تَبْلُغْ إِلَى البِحَارِ . وَصَلَاحُ أَهْلِ البَيْتِ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمُ المُفْسِدُ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَشْبَهُ بِكَ مِنَ الحَيَّةِ ذَاتِ اللِّسَانَيْنِ الَّتِي فِيهَا السُّمُّ فَإِنَّهُ قَدْ يَجْرِي مِنَ لِسَانِكَ كَسُمِّهَا . وَإِنِّي لَمْ أَزَلْ لِدَلكِ السُّمِّ مِنَ لِسَانِكَ خَافِئاً وَلِيَا يَحُلُّ بِكَ مُتَوَقِّعاً . وَالمُفْسِدُ بَيْنَ الإِخْوَانِ وَالأَصْحَابِ كَالحَيَّةِ الَّتِي يُرِيهَا الرَّجُلُ وَيَطْعِمُهَا وَيَمْسَحُهَا وَيُكْرِمُهَا ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ اللَّدَغِ . وَقَدْ يُقَالُ الزَّمْ ذَا العَقْلِ وَذَا الكَرَمِ وَذَا الأَصْلِ الطَّيِّبِ وَاسْتَرَسِلْ إِلَيْهِمْ وَإِنَّكَ وَمُقَارَفَتَهُمْ . وَاصْحَبِ الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ عَاقِلاً كَرِيماً أَوْ عَاقِلاً غَيْرَ كَرِيمٍ أَوْ كَرِيماً غَيْرَ عَاقِلٍ . فَالعَاقِلُ الكَرِيمُ كَامِلٌ وَالعَاقِلُ غَيْرُ الكَرِيمِ اصْحَبُهُ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَحْمُودِ الخَلِيقَةِ . وَاحذَرْ مِنْ سِوَةِ أَخْلَاقِهِ وَانْتَفِعْ بِعَقْلِهِ . وَالكَرِيمُ غَيْرُ العَاقِلِ الزَّمَةُ وَلَا تَدْعُ مُوَاصَلَتَهُ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَحْمَدُ عَقْلَهُ . وَانْتَفِعْ بِكَرَمِهِ وَانْفَعُهُ بِعَقْلِكَ . وَالفِرَارُ كُلُّ الفِرَارِ مِنَ اللَّئِيمِ الأَحْمَقِ . وَإِنِّي بِالفِرَارِ مِنْكَ لَجَدِيرٌ . وَكَيْفَ يَرِجُو إِخْوَانُكَ عِنْدَكَ كَرَمًا وَوُدًّا وَقَدْ صَنَعْتَ بِمِلِكِكَ الَّذِي أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ مَا صَنَعْتَ ؟ وَإِنَّ مَثَلَكَ مَثَلُ التَّاجِرِ الَّذِي قَالَ : إِنَّ أَرْضاً تَأْكُلُ

جرذانها مئة من^١ حديداً ليس بمُسْتَنْكَرٍ لِبُرَاتِهَا^٢ أن تَخْطِيفَ الْفَيْلَةَ . قال دِمْنَةُ :
وكيف كان ذلك؟

مثل التاجر والأرض التي تأكل جرذانها الحديد

قال كَلَيْلَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بَارِضٍ كَذَا تاجرٍ فَأَرَادَ المَخْرُوجَ إِلَى بعضِ
الوجوه^٣ لا يتغاء الرزقِ . وكان عِنْدَهُ مئةٌ مِنْ حديدًا ، فأودَعَهَا رجلاً من إخوانِهِ
وذهبَ في وجهِهِ . ثمَّ قَدِمَ بعدَ ذلكَ بِمُدَّةٍ فجاءَ وَالتَمَسَ الحديدَ فقالَ لَهُ : قد
أكلتُهُ الجِرذَانُ . فقالَ : قد سَمِعْتُ أن لا شيءَ أَقْطَعُ من أنيابِها للحديدِ . ففَرِحَ
الرجلُ بِتصديقِهِ على ما قالَ وادَّعى .

ثمَّ إِنَّ التَّاجِرَ خَرَجَ فَلَقِيَ ابناً للرجلِ فأخذهُ وَذهبَ به إلى منزله . ثمَّ رَجَعَ
إليه الرجلُ مِنَ العَدِ فقالَ له : هل عندكَ عِلْمٌ مِنْ ابني؟ فقالَ له التَّاجِرُ : إني
لمَّا خَرَجْتُ من عندِكَ بِالأمسِ رأيتُ بازياً قد اختطفَ صبيًّا صِفَتُهُ كذا ولعلَّهُ
ابنُكَ . فلَطَمَ الرجلُ رأسَهُ وقالَ : يا قومُ هل سَمِعْتُمْ أو رأيتُمْ أَنَّ البُرَاةَ تَخْطِيفُ
الصَّيَّانَ؟ فقالَ : نعم . وإنَّ أرضاً تأكلُ جرذانها مئةٌ مِنْ حديدًا ليسَ بِعَجَبٍ
أن تَخْطِيفَ بُرَاتِهَا الفَيْلَةَ . قالَ لَهُ الرجلُ : أنا أكلتُ حديدَكَ وهذا ثَمَنُهُ فاردُّهُ
عليَّ ابني .

وإنَّا ضَرَبْتُ لكَ هذا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ عَدَرَ بِمَلِكِهِ وصاحبِ نِعْمَاهُ

١ من : المن رطلان .

٢ بزاتها : جمع باز وهو من جوارح الطير .

٣ الوجوه : النواحي .

فليس بعجب أن يغلز بغيره . وإذا صاحب أحد صابراً وعذر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع . فلا شيء أضيع من مودة تُمنح من لا وفاء له ، وحياء^١ يسطنح عند من لا شكر له ، وأدب يُحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه ، وسر يُستودع من لا يحفظه . وإن الشجرة المرة لو طليت بالعسل لم يجدها ذلك شيئاً . وإن صُحبة الأخيار ثورتُ الخير وصُحبة الأشرار ثورتُ الشر . كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيباً وإذا مرت بالثين حملت نتناً . وقد طال وتقل كلامي عليك .

فانتهى كليلته من كلامه إلى هذا المكان وقد فرغ الأسد من الثور . ثم فكر في قتله بعد أن قتله وذهب عنه الغضب وقال : لقد فجعتي^٢ شترته بنفسه وكان ذا عقل ورأي وخلق كريم . ولا أدري لعله كان بريئاً أو مكنوباً عليه . فحزن وندم على ما كان منه . وتبين ذلك في وجهه وبصره ديمته فترك محاوره كليلته وتقدم إلى الأسد فقال له : ليهنتك الظفر ، إذ أهلك الله أعداءك ، فما يحزنك أيها الملك ؟ قال : أنا حزين على عقل شترته ورأيه وأدبه . قال له ديمته : لا ترحمه أيها الملك فإن العاقل لا يرحم من يخافه ، وإن الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكبره ثم قربه وأدناه لما يعلم عنده من الغناء^٣ والكفاءة فعل الرجل المتكاريه على اللواء الشنيع رجاء منفعتيه . وربما أحب الرجل وعز عليه فأقصاه وأهلكه مخافة ضرره . كالذي تلذعه الحية في إصبعه فيقطعها ويتبرأ منها مخافة أن يسري سُمها إلى بدنه .

فرضي الأسد بقول ديمته . ثم علم بعد ذلك بكذبه وفجوره فقتله شر

قتله .

١ حياء : عطاء .

٢ فجعتي : أوجعتي بفقده .

٣ الغناء : المنفعة .

باب الفحص عن أمر دمنة

قال دَبشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدْبَا الْفَيْلَسُوفِ : قد حَدَّثْتَنِي عَنِ الْوَاشِي الْمَاهِرِ الْمُحْتَالِ كَيْفَ يُفْسِدُ بِالنَّمِيمَةِ الْمَوَدَّةَ الثَّابِتَةَ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينِ . فَحَدَّثْتَنِي إِنْ رَأَيْتَ بِمَا كَانَ مِنْ حَالِ دِمْنَةَ وَإِلَامَ آلِ مَالَهُ بَعْدَ قَتْلِ شَتْرَبَةَ وَمَا كَانَ مِنْ مَعَاذِيرِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ وَأَصْحَابِهِ حِينَ رَاجَعَ الْأَسَدُ رَأْيَهُ فِي الثَّوْرِ وَأَدْخَلَ النَّمِيمَةَ عَلَى دِمْنَةَ وَمَا كَانَتْ حُجَّتُهُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا .

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنْ وَجَدْتُ فِي حَدِيثِ دِمْنَةَ أَنَّ الْأَسَدَ حِينَ قَتَلَ شَتْرَبَةَ نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ وَذَكَرَ قَدِيمَ صُحْبَتِهِ وَجَسِيمَ خِدْمَتِهِ وَأَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ وَأَخْصَهُمْ مِثْلَهُ لَدَيْهِ وَأَقْرَبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ يُوَاصِلُ لَهُ الْمَشُورَةَ دُونَ خَوَاصِّهَا . وَكَانَ مِنْ أَخْصَ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ بَعْدَ الثَّوْرِ الثَّمِيرُ . فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَمْسَى الثَّمِيرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْأَسَدِ فَحَرَّجَ مِنْ عِنْدِهِ جَوْفَ اللَّيْلِ يُرِيدُ مِثْلَهُ فَاجْتَازَ عَلَى مِثْلِ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةَ . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ سَمِعَ كَلِيلَةَ يُعَاتِبُ دِمْنَةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ وَيَلُومُهُ فِي النَّمِيمَةِ وَاسْتِعْمَالِهَا مَعَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ فِي حَقِّ الْخَاصَّةِ . وَعَرَفَ الثَّمِيرُ عِصْيَانَ دِمْنَةَ وَتَرَكَ الْقَبُولَ مِنْهُ فَوَقَّفَ يَسْتَمِعُ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا . فَكَانَ فِيهَا قَالَ كَلِيلَةُ لِدِمْنَةَ : لَقَدْ ارْتَكَبْتَ مَرَكَبًا صَعْبًا وَدَخَلْتَ مَدْخَلًا ضَيِّقًا وَجَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ جَنَائَةً مُؤَبِّقَةً^٢ وَعَاقِبْتَهَا وَخِيمَةً . وَسَوْفَ يَكُونُ مَصْرَعُكَ شَدِيدًا إِذَا انْكَشَفَ لِلْأَسَدِ أَمْرُكَ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ وَعَرَفَ عُدْرَكَ وَمِحَالَكَ^٣ وَبَقِيَتْ لَا نَاصِرَ لَكَ .

١ خواصه : المقربين من رجال دولته .

٢ موبقة : مهلكة .

٣ محالك : أي طلبك الأمر بالحيل والمكر .

فِيَجْتَمِعُ عَلَيْكَ الْهَوَانُ وَالْقَتْلُ غِشَاةً شَرَّكَ وَحَدْرًا مِنْ عَوْنِكَ . فَلَسْتُ بِمُتَّخِذِكَ
بَعْدَ الْيَوْمِ خَلِيلًا وَلَا مُفَشِي لَكَ سِرًّا . لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدِ قَالُوا : تَبَاعَدْ مِنْ لَا
رَغْبَةَ لَكَ فِيهِ . وَأَنَا جَدِيرٌ بِمُبَاعَدَتِكَ وَالنَّاسِ الْخُلَاصِ لِي مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ
الْأَسَدِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ .

فَلَمَّا سَمِعَ النَّيْرُ هَذَا مِنْ كَلَامِهَا قَفَلَ رَاجِعًا فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ الْأَسَدِ فَأَخَذَتْ عَلَيْهَا
الْعُهُودَ وَالْمَوَائِقَ أَنَّهَا لَا تَبُوحُ بِمَا يُسْرُ إِلَيْهَا . فَعَاهَدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ . فَأَخْبَرَهَا
بِمَا سَمِعَ مِنْ كَلَامِ كَلْبَةَ وَدِمْنَةَ . فَلَمَّا أَصْبَحَتْ دَخَلَتْ عَلَى الْأَسَدِ فَوَجَدَتْهُ
كَثِيبًا حَزِينًا مَهْمُومًا لَهَا وَرَدَّ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِ شَتْرَبَةَ ، فَقَالَتْ لَهُ : مَا هَذَا الِهِمُّ
الَّذِي أَخَذَ مِنْكَ وَعَلَبَ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : يُحْزِنُنِي قَتْلُ شَتْرَبَةَ إِذَا تَذَكَّرْتُ صُحْبَتَهُ
وَمُوَاطَأَتَهُ مَعِي وَمَا كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ مُؤَامَرَتِهِ وَأَسْكُنُ إِلَيْهِ فِي مُشَاوَرَتِهِ وَأَقْبَلُ مِنْ
مُنَاصِحَتِهِ . قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : إِنْ كُنْتَ تَرَى أَنَّ لَكَ فِي قَتْلِهِ فَرْجًا لَا يَنْبَغِي لَكَ
أَنْ تَحْزَنَ وَإِلَّا فَقَلْبُكَ يَشْهَدُ أَنَّ عَمَلَكَ الَّذِي عَمِلْتَهُ لَمْ يَكُنْ صَوَابًا وَلَا عَدْلًا .
لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدِ قَالُوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ فَفَكَّرْ فِي نَفْسِكَ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُكَ لَهُ سَلِيمًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَكَ كَذَلِكَ .

فَانظُرِ الْآنَ وَابْحَثْ فِي ذَاتِ نَفْسِكَ هَلْ تَرَى ضَمِيرَكَ يَشْهَدُ لَكَ أَنَّ الَّذِي
فَعَلْتَهُ بِالثَّوْرِ كَانَ عَدْلًا أَمْ ظُلْمًا ؟

فَقَالَ الْأَسَدُ : إِنْ صَحَّ مَا تَقُولِينَ فَلَايَ لَمْ أَقْتُلِ الثَّوْرَ إِلَّا ظُلْمًا لِأَنِّي قَدِ بَحَثْتُ
فِي نَفْسِي كَمَا تَقُولِينَ فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا مَا يَدُلُّ عَلَى بَرَاءَةِ شَتْرَبَةَ وَقَتْلِهِ ظُلْمًا وَبَغْيًا
مَكْنُوبًا عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْرَارِ . وَإِنَّ كَثْرَةَ الْبَحْثِ عَنِ الْأُمُورِ تَحِقُّ الْحَقَّ وَتُبْطِلُ
الْبَاطِلَ . وَإِنَّ حَدِيثَكَ لَيَدُلُّ عَلَى مَكْنُونِ أَمْرٍ . أَقْبَلَعَكَ شَيْءٌ عَنِ هَذَا الْأَمْرِ ؟
فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : إِنَّ أَشَدَّ مَا شَهِدَ امْرُؤٌ عَلَى نَفْسِهِ . وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ ،

كَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى قَتْلِ الثَّوْرِ بِلا عِلْمٍ وَلَا يَقِينٍ ؟ ولولا ما قالتِ العلماءُ من إِذَاعَةِ
الأسرارِ وما فيها مِنَ الإثمِ والشُّنارِ لَذَكَرْتُ لَكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا عَلِمْتُ . فَإِنَّ
العلماءَ قد قالوا : إِنَّ أَحْمَدَ النَّاسِ عَاقِبَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَكْثَمُهُمُ لِلسَّرِّ .
قالَ الأَسَدُ : إِنَّ أقْوالَ العلماءِ لها وُجوهٌ كَثيرةٌ وَمَعانٍ مُختلفةٌ . فَإِنَّهُمْ قد
قالوا أَيْضاً : مَنْ اطَّلَعَ عَلَى ذُنُوبِ المُذنبينَ فَكَتَمَها عَنِ السُّلطانِ فلم يُعاقبوا على
ذُنُوبِهِمْ عَوْقِبَ هُوَ يَوْمَ القِيامَةِ . وَإِنَّ الَّذي أَطَّلَعَ عَلَى هَذَا السَّرِّ العَظيمِ لم
يُطَّلِعْ عَلَيْهِ إِلا لِتُعَلِّمَنِي بِهِ ، فَأُطَّلِعَنَّ عَلَى ما أسَرَ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ وَأَخْبِرَنِي بِهِ
وَلَا تَطْلُبْهُ عَنِّي .

فَأخْبَرْتَهُ بِمَجْمِيعِ ما أَلْفاهُ إِلَيْها التُّمْرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْبِرَهُ بِاسْمِهِ وَقالتَ : إِنِّي لم
أَجْهَلُ قَوْلَ العلماءِ فِي تَعْظيمِ العُقُوبَةِ وَتَشديدِها وما يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ مِنَ العارِ
فِي إِذَاعَةِ الأسرارِ . وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِما فِيهِ المَصْلَحَةُ لَكَ . فقد قالتِ
العلماءُ : إِنَّ فسادَ عامَّةِ الأشياءِ يَكُونُ مِنْ حائِثينَ : إِحداها إِفشاءُ السَّرِّ ،
والأخرى تَرْكُ عِقُوبَةِ مَنْ يَسْتَوْجِبُ العُقُوبَةَ . وَإِيفاءُ السَّرِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُبْقَى
عَلَى هَذَا الحائِثِ دِمنَةٌ الَّذي أَدْخَلَ الفَسادَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الثَّوْرِ بِمَكْرِهِ وَفُجورِهِ . فلو
كُنِمَ امرؤٌ لَنجا مِنَ العِقابِ عَلَى فِعْلِهِ وَلَخيفَ مِنْهُ أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الفَعْلَةِ مِنْ عَمَلِهِ .
وقد أمرَ العلماءُ بِالعَفْوِ عَنِ الجانيِ وَالصَّفْحِ عَنِ المُذنبِ . وَلَكِنَّهُمْ قد نَهَوْا عَنِ
اغْتِيارِ الجُرْمِ العَظيمِ وَالذَّنْبِ الكَثيرِ .

فلَمَّا قَضَتْ أُمُّ الأَسَدِ هَذَا الكلامَ صَحَّ عِنْدَ الأَسَدِ ما فَعَلَ دِمنَةٌ .
فاسْتَدعى أَصحابَهُ وَجُنْدَهُ فَأَدْخَلوا عَلَيْهِ . ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُوتَى بِدِمنَةٍ . فلَمَّا حَضَرَ دِمنَةٌ
نَكَسَ الأَسَدُ رَأْسَهُ إِلى الأَرْضِ مِليًّا . فالتَقَّتْ دِمنَةٌ إِلى بَعْضِ الحاضِرِينَ
فقالَ : ما الَّذي حَدَّثَ وَعَلامَ اجْتَمَعْتُمْ وَما الَّذي أَحزَنَ المَلِكَ ؟ فالتَقَّتْ أُمُّ

الأسد إليه وقالت له : أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين . ولن يدعك بعد اليوم حياً .

قال ديمته : وما حدث من أمري حتى وجب به قتلي ؟
قالت : إنه قد بان للملك كذبك وفجورك وخديعتك في قتل الثور من غير ذنب كان منه ، فليست حقيقاً أن تُترك بالحياة طرفة عين .

قال ديمته : ما ترك الأول للآخر شيئاً لأنه يقال : أشد الناس في توقي الشر بصيئه الشر قبل المستسلم له . فلا يكونن الملك وخاصته وجوده المثل السوء . ولقد صدق من قال : كلما ازداد الإنسان في الخير اجتهاداً كان الشر إليه أسرع . وقد قيل : من صحب الأشرار وهو يعلم حالهم كان أذاه من نفسه . ولذلك انقطعت التساكن بأنفسها عن الخلق ، واختارت الوحدة على المخاطبة ، وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها . ومن يجزي بالخير خيراً وبالإحسان إحساناً إلا الله ؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس كان حقيقاً أن يحظى بالجرمان إذ يخطئ الصواب في خلوص العمل لغير الله وطلب الجزاء من الناس . ولكن عاقبة ما ينبغي أن يعاقب به الفجار يصاب به الأخيار . وهذا الأمر شبيه بشأني لأنتي حملتي حب الملك ونصحي له وإشفاقي عليه أن أطلعته على سر عذوه الخائن . وإن الملك قد شاهد منه ذلك عياناً وظهرت له منه العلامات التي ذكرتها له . أفهذا جزائي منه أن أقتل ؟

فلما سمع الأسد ذلك من كلام ديمته أمر أن يخرج من عنده حتى ينظر في أمره ليجتهد بالفحص عنه لئلا يعود إلى العجلة والتدامة . فعند ذلك سجد ديمته للأسد شكراً له ودعا له وقال : أيها الملك لا تعجل في قتلي ولا تسمع في كلام الأشرار . وليبحث الملك عن أمري حتى يتبين له صديقي . وقد قالت الحكماء : إن النار أخفيت في الحجارة فلا تُستخرج منها إلا بالمعالجة والقدح . ولو كنت أعلم لنفسي ذنباً فيما بيني وبين الملك لم أقم بين يديك . وأنا أرغب إلى

الملك إن كان في شك من أمري أن يأمر بالنظر فيه ويكون من يتولى ذلك لا تأخذه في الله لومة لائم ، وإلا فلا ملجأ لي في ذلك إلا الله وهو الذي يعلم سراير العباد وما تكن صدورهم . وإن أحق ما رغبت فيه رعية الملك هو محاسن الأخلاق ومواقف الصواب وجميل السير . وإن الباطل قد يتلبس بالحق حتى يتشابهها كما أصاب الخازن الذي فضح سره بالتلبس عليه . قال الأسد : وكيف كان ذلك ؟

مثل الخازن الذي فضح سره بالتلبس عليه

قال ديمته : زعموا أنه كان في بعض المدن تاجر ، وكان له خازن^١ لبيت ماله . وإن الخازن أراد اختلاس شيء من المال فلم يستطع لأن التاجر كان إذا دخل الخازن بيت المال أقفل عليه الباب ، فإذا أراد الخروج أتى ففتح له وفتشه قبل أن يخرج . وكان إلى جنب التاجر رجل مصور ماهر ، وكان هو للخازن صديقاً . فقال له الخازن يوماً : هل لك أن تواطئني على الاختلاس من هذا المال ؟ قال : نعم . قال : وما الحيلة ولا سبيل لي إلى الخروج إليك ولا سبيل لك إلى الدخول إلي ؟ وذكر له حاله مع التاجر . قال المصور : أو ما لبيت المال كوة إلى الخارج تناولني منها شيئاً في الظلام ؟ قال : بلى ، ولكن أخشى أن يرانا أحد . قال : فأنا أمر قريباً من الكوة إذا ابتدأ الظلام فأصفي لك أو أوميء إليك فترمي لي بصره فأخذها ولا يشعر بنا . فرضي الخازن بذلك وأعجبه وأقاما عليه حيناً .

١ يتلبس : يختلط .

٢ خازن : أمين يتولى حفظ ماله .

ثم إنَّ الحازنَ قالَ ذاتَ يومٍ للمُصَوِّرِ : إنَّ استَطَعْتَ أن تَحْتَالَ بِحِيلَةٍ أَعْلَمُ
بها مَجِيئَكَ من غيرِ صَفَرٍ ولا إِيْماءٍ ولا ما يُرتابُ به من فِعْلِكَ وَفِعْلي ، فإني قد
تَخَوَّفْتُ أن يُحِسَّ بنا أحدٌ . قالَ المُصَوِّرُ : عندي مِنَ الحِيلَةِ ما سألتَ . إنَّ
عندي مِئْلاةً^١ فيها من تهاويلِ الصُّورِ^٢ وتأثيلِ الصَّنْعَةِ فإني ألبسُها حينَ مَجِيئِي
وأترأى لكَ فيها .

ثم إنَّ المُصَوِّرَ لبَسَ المِئْلاةَ وترأى له فرمى له بالصُّرَّةَ فتناولها . ولم
يزالَ على ذلكَ حتى بَصُرَ بهما في تلكَ الحالَةِ جارٍ للمُصَوِّرِ . وكانَ بينه وبين
خادمِ المُصَوِّرِ صِدْاقَةً . فطلَّبَ المِئْلاةَ منه وقالَ : أريدُ أن أريها صديقاً لي
لأسرَّهُ بذلكَ ، وأسرِعُ الكُرَّةَ بِرَدِّها قَبْلَ أن يَعْلَمَ بِذلكَ مولاكَ . فأعطاهُ
إياها . ولَمَّا أتى الليلَ أسرَعَ فلبسها ومرَّ من حيثُ كانَ يَمُرُّ المُصَوِّرُ . فلَمَّا رآه
الحازنُ لم يَشْكُ في مَجِيئِهِ فرمى له بالصُّرَّةَ فتناولها وانطلقَ فرَجَعَ بالمِئْلاةِ إلى
خادمِ المُصَوِّرِ فدفعها إليه فوضَعها موضِعها .

وكانَ المُصَوِّرُ عن بيتِهِ غائِباً . فلَمَّا عادَ إلى منزله لبَسَ المِئْلاةَ على عادَتِهِ
وترأى للحازنِ ، فعجِبَ من رُجوعِهِ ولم يكنْ لديه ما يرمي به ، وانصَرَفَ
المُصَوِّرُ بلا شيءٍ . ثم تلاقيا بعد ذلكَ فقالَ له المُصَوِّرُ : لِمَ لم ترمِ لي
بالصُّرَّةِ ؟ قالَ : أو لم تَمُرَّ قَبْلَ مُرورِكَ ورَمَيْتُ لكَ بها ؟ فرَجَعَ المُصَوِّرُ إلى
منزله فدعا خادمَهُ وتَوَعَّدَهُ بالقتلِ أو يُخبرُهُ بالحقيقَةِ ، فأخبرَهُ بالقِصَّةِ فأخذَ
المِئْلاةَ فأحرقها .

وإِنَّا ضَرَبْتُ لكَ هذا المَثَلَ إرادةً أن لا يَعجَلَ المَلِكُ في أمرِي بِشُبُهَةِ .
ولستُ أقولُ هذا كراهَةً للموتِ ، فإنَّهُ وإن كانَ كَرِهاً لا مَنجِي منه وكلُّ حَيٍّ
هالِكٌ . وإنَّ العُلَماءَ قد قالوا : مَن اقترَفَ خَطِيئَةً أو إثمًا ثم أسلَمَ نفسَهُ إلى

١ مِئْلاة : كساء يلتف به .

٢ تهاويلِ الصور : زيتها .

الْقَتْلِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَى ذَلِكَ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَأَنْجَاهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ . وَلَوْ كَانَتْ لِي مِثَّةُ نَفْسٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَوَى الْمَلِكِ فِي إِتْلَافِهِنَّ طَيِّبٌ لَهُ بِذَلِكَ نَفْسًا .

فَقَالَ بَعْضُ الْجُنْدِ : لِمَ يَنْطِقُ بِهَذَا لِحُبِّهِ الْمَلِكَ وَلَكِنْ لِحَلَاصِ نَفْسِهِ وَالتَّاسِرِ الْعُدْرِ لَهَا .

فَقَالَ لَهُ دِمْنَةُ : وَيَلَيْكَ ! وَهَلِ عَلَيَّ فِي التَّاسِرِ الْعُدْرِ لِنَفْسِي عَيْبٌ ؟ وَهَلِ أَحَدٌ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ . وَإِذَا لَمْ يَلْتَمَسْ لَهَا الْعُدْرَ فَمَنْ يَلْتَمِسُهَا ؟ لَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَمْتَلِكُ كَيْفَانَهُ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ . وَلَقَدْ عَرَفَ مَنْ سَمِعَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تُحِبُّ لِأَحَدٍ خَيْرًا وَأَنَّكَ عَدُوٌّ لِنَفْسِكَ فَمَنْ سِوَاهَا بِالْأُولَى . فَمِثْلُكَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْبَهَائِمِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمَلِكِ وَأَنْ يَكُونَ بِيَابِهِ .

فَلَمَّا أَجَابَهُ دِمْنَةُ بِذَلِكَ خَرَجَ مُكْتَبِيًّا حَزِينًا مُسْتَحْيِيًّا . فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ لِدِمْنَةَ : لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ أَيُّهَا الْمُحْتَالُ فِي قِلَّةِ حَيَاتِكَ وَكَثْرَةِ فِحْتِكَ وَسُرْعَةِ جَوَابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ ! قَالَ دِمْنَةُ : لِأَنَّكَ تَنْظُرِينَ إِلَيَّ بَعَيْنِ وَاحِدَةٍ وَتَسْمَعِينَ بِأُذُنِ وَاحِدَةٍ مَعَ أَنَّ شَقَاوَةَ جَدِّي^١ قَدْ زَوَتْ^٢ عَنِّي كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى لَقَدْ سَعَوْا إِلَى الْمَلِكِ بِالنَّمِيمَةِ عَلَيَّ .

وَإِنِّي أَرَى كُلَّ شَيْءٍ قَدْ تَنَكَّرَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ لَا يَنْطِقُونَ بِالْحَقِّ . وَصَارَ مِنْ بِيَابِ الْمَلِكِ لاسْتِخْفَافِهِمْ بِهِ وَطَوْلِ كِرَامَتِهِ إِيَاهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ وَالتَّعَمُّةِ لَا يَدْرُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَنْبَغِي لَهُمُ الْكَلَامُ وَلَا مَتَى يَجِبُ عَلَيْهِمُ السُّكُوتُ .

قَالَتْ : أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْحَيْثُ مَعَ عِظَمِ ذَنْبِهِ كَيْفَ يَجْعَلُ نَفْسَهُ

١ جَدِّي : حَظِي .

٢ زَوَتْ : مَنَعَتْ .

بَرِيئاً كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ؟ قَالَ دِمْتَهُ : إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ غَيْرَ أَعْمَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ، كَالَّذِي يَضَعُ الرَّمَادَ مَوْضِعاً يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَ فِيهِ الرَّمْلَ وَيَسْتَعْمِلَ فِيهِ السَّرَجِينَ^١ . وَالرَّجُلُ الَّذِي يَلْبَسُ لِيَاسَ الْمَرْأَةِ . وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْبَسُ لِيَاسَ الرَّجُلِ . وَالضَّيْفِ الَّذِي يَقُولُ أَنَا رَبُّ الْبَيْتِ . وَالَّذِي يَنْطِقُ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ بِمَا لَا يُسْأَلُ عَنْهُ . وَإِنَّمَا الْحَيِّثُ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْأُمُورَ وَلَا أَحْوَالَ النَّاسِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الشَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ .

قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : أَتُظَنُّ أَيُّهَا الْغَادِرُ الْمُحْتَالُ بِقَوْلِكَ هَذَا أَنَّكَ تَخْدَعُ الْمَلِكَ وَلَا يَسْجُتُكَ ؟

قَالَ دِمْتَهُ : الْغَادِرُ هُوَ الَّذِي لَا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ مَكْرَهُ . وَإِذَا اسْتَمَكَّنَ مِنْ عَدُوِّهِ قَتَلَهُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ .

قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : أَيُّهَا الْغَادِرُ الْكَذُوبُ أَتُظَنُّ أَنَّكَ نَاجٍ مِنْ عَاقِبَةِ كَذِبِكَ وَأَنْ مِحَالِكَ هَذَا يَنْفَعَكَ مَعَ عِظَمِ جُرْمِكَ ؟

قَالَ دِمْتَهُ : الْكَذُوبُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ وَيَأْتِي بِمَا لَمْ يَقُلْ وَلَمْ يَفْعَلْ . وَأَمَّا أَنَا فَكَلَامِي حَقٌّ وَالْمَلِكُ يَعْلَمُ أَنِّي لَوْ كُنْتُ كَاذِباً لَمْ يَكُنْ لِي جُرْأَةٌ أَنْ أَتَكَلَّمَ هَذَا الْكَلَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، لِأَنَّهُ قَدْ قِيلَ : لَيْسَ أَشْجَعُ مِنْ بَرِيءٍ وَأَذْلَقُ لِسَاناً مِنْ ذِي حَقٍّ .

قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : الْعُلَمَاءُ مِنْكُمْ هُمُ الَّذِينَ يُوَضِّحُونَ أَمْرَهُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ . ثُمَّ نَهَضَتْ فَحَرَجَتْ . فَدَفَعَ الْأَسَدُ دِمْتَهُ إِلَى الْقَاضِي فَأَمَرَ الْقَاضِي بِسَجْنِهِ فَأَلْتَمَى فِي عُنُقِهِ غُلًّا^٢ وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى السُّجْنِ .

فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أُخْبِرَ كَلِيلَةُ أَنَّ دِمْتَهُ فِي السُّجْنِ . فَأَتَاهُ مُسْتَخْفِياً . فَلَمَّا

١ السَّرَجِينَ : الزَّيْلُ .

٢ غُلٌّ : طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ قَدْ مِنْ جِلْدٍ .

رأه وما هو عليه من ضيق القيود وحرَج^١ المكان بكى وقال : ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا لاستمالك الخديعة والمكر وإضرابك عن العظة والنصح . ولكن لم يكن لي بُدٌ فيما مضى من إنظارك والتَّصيحَةَ لك والمُسارعة إليك في خلوص الرغبة فيك . فإنه لكلِّ مقام مقالٌ ولكلِّ موضعٍ مجالٌ . ولو كنتُ قصرتُ في عِظتك حين كنتَ في عافيةٍ لكنتُ اليومَ شريكك في ذنبك . غير أنَّ العُجبَ دخلَ منك مدخلاً فهُرَّ رأيتُ وغلبَ على عقلك . وكنتُ أُضربُ نت الأمثال كثيراً وأذكرُك قولَ العلماء . وقد قالتِ العلماءُ : إنَّ المُحتالَ يموتُ قَبْلَ أَجَلِهِ .

قال ديمته : قد عرفتُ صدقَ مقالِك . وقد قالتِ العلماءُ : لا تَجزعَ مِنَ العذابِ إذا وَقفتَ منك على خطيئةٍ . ولأنَّ تُعذَّبَ في الدنيا بجُرمِك خيرٌ من أن تُعذَّبَ في الآخرةِ بجَهَنمَ مع الإثمِ .
قال كليلته : قد فهمتُ كلامك . ولكنَّ ذنبك عظيمٌ وعقابُ الأسدِ شديدٌ أليمٌ .

وكان يقربها في السجنِ فهدُّ مُعتقلاً يسمعُ كلامها ولا يريانه . فعرفَ مُعاتبته كليلته لديمته على سوء فعله وما كان منه وأنَّ ديمته مُفرٌّ بسوءِ عمله وعظيمِ ذنبه ، فحفظَ المُحاورةَ بينها وكتَمها ليشهدَ بها إن سئلَ عنها .
ثم إنَّ كليلته انصرفتُ إلى منزله ودخلتُ أمَّ الأسدِ حين أصبحتُ على الأسدِ فقالت له : يا سيِّدَ الوحوشِ حُوشيتَ^٢ أن تنسى ما قلتُ بالأمسِ وأنتَ أمرتَ به لوقتِهِ وأرضيتَ به رَبَّ العبادِ . وقد قالتِ العلماءُ : لا يَنبغي للإنسانِ أن يتوانى في الجِدِّ للتقوى ، بل لا يَنبغي أن يُدافعَ عن ذنبِ الأثيمِ .
فلما سمِعَ الأسدُ كلامَ أمِّه أمرَ أن يحضُرَ الثَميرُ وهو صاحبُ القضاء . فلما

١ حرج : ضيق .

٢ حوشيت : نزهت

حَضَرَ قَالَ لَهُ وَاللَّجَّوَسُ الْعَادِلُ : اجْلِسَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ وَنَادِيَا فِي الْجُنْدِ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ أَنْ يَحْضُرُوا وَيَنْظُرُوا فِي حَالِ دِمْنَةٍ وَيَبْحَثُوا عَنْ شَأْنِهِ وَيَفْخَصُوا عَنْ ذَنْبِهِ وَيُبَيِّنُوا قَوْلَهُ وَعُدْرَهُ فِي كُتُبِ الْقَضَاءِ وَارْفَعَا إِلَيَّ ذَلِكَ يَوْمًا فَيَوْمًا .

فَلَمَّا سَمِعَ النَّيْرُ ذَلِكَ وَاللَّجَّوَسُ الْعَادِلُ ، وَكَانَ هَذَا اللَّجَّوَسُ عَمَّ الْأَسَدِ ، قَالَا : سَمِعَا وَطَاعَةً لِمَا أَمَرَ الْمَلِكُ ! وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِلَا بِمُقْتَضَى مَا أَمَرَهُمَا بِهِ . حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي جَلَسُوا فِيهِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ أَمَرَ الْقَاضِي أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةٍ ، فَأَتِيَ بِهِ ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْجَمَاعَةَ حُضُورًا .

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَكَانُ نَادَى سَيِّدُ الْجَمْعِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَيُّهَا الْجَمْعُ إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدَ السَّبَاعِ لَمْ يَزَلْ مِنْذُ قَتْلِ شَتْرَبَةَ خَائِرًا النَّفْسِ كَثِيرَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَتَلَ شَتْرَبَةَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَأَنَّهُ أَخَذَهُ بِكَذِبِ دِمْنَةٍ وَنَمِيمَتِهِ . وَهَذَا الْقَاضِي قَدْ أَمَرَ أَنْ يَجْلِسَ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ وَيَبْحَثَ عَنْ شَأْنِ دِمْنَةٍ . فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَمْرِ دِمْنَةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَلْيَقُلْ ذَلِكَ وَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْجَمْعِ وَالْأَشْهَادِ لِيَكُونَ الْقَضَاءُ فِي أَمْرِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ . فإِذَا اسْتَوْجَبَ الْقَتْلَ فَالْتَّبِثُ فِي أَمْرِهِ أَوْلَى ، وَالْعَجَلَةَ مِنَ الْهَوَى ، وَمُتَابِعَةَ الْأَصْحَابِ عَلَى الْبَاطِلِ ذُلًّا .

فَعِنْدَهَا قَالَ الْقَاضِي : أَيُّهَا الْجَمْعُ اسْمَعُوا قَوْلَ سَيِّدِكُمْ وَلَا تَكْتُمُوا مَا عَرَفْتُمْ مِنْ أَمْرِهِ . وَاعْتَبِرُوا فِي تَجَنُّبِ السُّتْرِ عَلَيْهِ ثَلَاثَ خِصَالٍ . أَمَّا إِحْدَاهُنَّ وَهِيَ أَمْنُهُنَّ فَلَا تَرُدُّرُوا فِعْلَهُ وَلَا تَعُدُّوهُ يَسِيرًا . فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْخَطَايَا قَتْلُ الْبَرِيءِ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ بِالْكَذِبِ وَالنَّمِيمَةِ . وَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْكَذَّابِ الَّذِي أَتَاهُمُ الْبَرِيءُ بِكَذِبِهِ وَنَمِيمَتِهِ شَيْئًا فَسَتَرَ عَلَيْهِ فَهُوَ شَرِيكُهُ فِي الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ . وَالثَّانِيَةُ أَنَّهُ إِذَا اعْتَرَفَ الْمُذْنِبُ بِذَنْبِهِ كَانَ أَسْلَمَ لَهُ . وَالْأُخْرَى

١ الجوّاس : المحقق ، وهو مبالغة من جاس الشيء إذا طلبه بالاستقصاء .

٢ خائر : مضطرب ومرتبك .

بالملك وجنوده أو يعفوا عنه ويصفحوا . والثالثة ترك مراعاة أهل الذم والفجور وقطع أسباب مواصلتهم ومودتهم عن الخاصة والعامه . فمن علم من أمر هذا المحتال شيئاً فليتكلم به على رؤوس الأشهاد من حصر ليكون ذلك حجة عليه . وقد قيل إنه من كتم شهادة ميت أجم يلجام من نار يوم القيامة ، فليقل كل واحد منكم ما علم .

فلما سمع ذلك الجمع كلامه أمسكوا عن القول . فقال ديمته : ما يسكنكم ؟ تكلموا بما علمتم واعلموا أن لكل كلمة جواباً . وقد قالت العلماء : من يشهد بما لم ير ويقل ما لا يعلم يصبه ما أصاب الطبيب الذي قال لها لا يعلمه إني أعلمه . قالت الجماعة : وكيف كان ذلك ؟

مثل الطبيب والجاهل

قال ديمته : زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفق وعلم . وكان ذا فطنة فيما يجري على يده من المعالجات . فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره . وكان للملك تلك المدينة ابنٌ وحيدٌ ، فأصابه مرضٌ ، فجاء بهذا الطبيب . فلما حضر سأل الفتى عن وجعه وما يجد ، فأخبره ، فعرف داءه ودواؤه وقال : لو كنت أبصر لجمعت الأخلاط على معرفتي بأجناسها ولا أتي في ذلك بأحدٍ غيري .

وكان في المدينة رجلٌ جاهلٌ فبلغه الخبر فأتاهم وادعى علم الطب وأعلمهم أنه خبيرٌ بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير ، عارفٌ بطبائع الأدوية المركبة والمفردة . فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية فيأخذ من أخلاط

١ الأخلاط : الأدوية المركبة من أجزاء .

الدَّوَاءُ حَاجَتُهُ . فَلَمَّا دَخَلَ الْجَاهِلُ الْخِزَانَةَ وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ الْأَدْوِيَّةُ وَلَا يَدْرِي مَا هِيَ وَلَا لَهَا بِهَا مَعْرِفَةٌ أَخَذَ فِي جُمْلَةٍ مَا أَخَذَ مِنْهَا صُرَّةً فِيهَا سُمٌّ قَاتِلٌ لَوْقَتِهِ وَدَافَهُ^١ بِالْأَدْوِيَّةِ وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ بِجِنْسِيهِ . فَلَمَّا تَمَّتْ أَخْلَاطُ الْأَدْوِيَّةِ سَقَى الْفَتَى مِنْهُ فَاتَ لَوْقَتِهِ . فَلَمَّا عَرَفَ الْمَلِكُ ذَلِكَ دَعَا بِالْجَاهِلِ فَسَقَاهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّوَاءِ فَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ .

وَأَنَا ضَرَبْتُ لَكُمْ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمُوا مَا يَدْخُلُ عَلَى الْمَقَاتِلِ وَالْعَامِلِ مِنَ الذَّلَّةِ بِالشَّبَهَةِ^٢ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْحَدِّ . فَمَنْ خَرَجَ مِنْكُمْ عَنْ حَدِّهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ ذَلِكَ الْجَاهِلِ وَنَفْسُهُ الْمَلُومَةُ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : رُبَّمَا جُرِّيَ الْمُتَكَلِّمُ بِقَوْلِهِ ، وَالْكَلَامُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَانظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ .

فَتَكَلَّمْتُ سَيِّدَ الْخِزَانِيِّرِ لِإِدْلَالِهِ وَتَبَيُّهُ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ ، فَقَالَ : يَا أَهْلَ الشَّرَفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ اسْمَعُوا مَقَاتِي وَعُوا بِأَحْلَامِكُمْ^٣ كَلَامِي . فَالْعُلَمَاءُ قَالُوا فِي شَأْنِ الصَّالِحِينَ إِنَّهُمْ يُعْرَفُونَ بِسِيَاهُمْ^٤ . وَأَنْتُمْ مَعَاشِرَ ذَوِي الْاِقْتِدَارِ بِحُسْنِ صُنْعِ اللَّهِ لَكُمْ وَتَمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ تُعْرَفُونَ الصَّالِحِينَ بِسِيَاهُمْ وَصُورِهِمْ وَتَخْبُرُونَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ بِالشَّيْءِ الصَّغِيرِ . وَهَهُنَا أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْخَبِيثِ دِمْنَةً وَتُخْبِرُ عَنْ شَرِّهِ فَاطْلُبُوهَا عَلَى ظَاهِرِ جِسْمِهِ لِتَسْتَيْقِنُوا وَتَسْكُنُوا إِلَى ذَلِكَ .

قَالَ الْقَاضِي لِسَيِّدِ الْخِزَانِيِّرِ : قَدْ عَلِمْتُ وَعِلْمَ الْجَمَاعَةِ الْحَاضِرُونَ أَنَّكَ عَارِفٌ بِمَا فِي الصُّورِ مِنْ عِلْمَاتِ السُّوءِ ، فَفَسَّرْ لَنَا مَا تَقُولُ وَأَطْلِعْنَا عَلَى مَا تَرَى فِي صُورَةِ هَذَا الْخَبِيثِ .

فَأَخَذَ سَيِّدُ الْخِزَانِيِّرِ يَدُهُ دِمْنَةً وَقَالَ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ كَتَبُوا وَأَخْبَرُوا أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ عَيْنُهُ الْيُسْرَى أَصْفَرَ مِنْ عَيْنِهِ الْيُمْنَى وَهِيَ لَا تَرَالُ تَخْتَلِجُ وَكَانَ أَنْفُهُ مَائِلًا

١ دافه : خطه .
٢ الشبهة : ما بين الخطأ والصواب .
٣ أحلامكم : عقولكم .
٤ سياهم : أي بعلاماتهم الحسنة .

إلى جنبه الأيمن فهو خبيثٌ جامعٌ للخبيثِ والفجورِ . وكان ديمته على هذه الصفة .

فلما سمع ديمته ذلك قال : من ههنا تقيسون الكلام وتتركون العلم ، فاسمعوا مني ما أقوله لكم وتدبروا بقولكم فقد وعيتم ما قال هذا . فإن كان يزعم أن ما في جسمي من هذه العلامات هو الدليل على صدق ما رُميتُ به فلاني إذن أكون قد وسيتُ بسياتِ وعلاماتِ اضطرتني إلى الإثمِ فعملتُ بها ما عملتُ . ففي ذلك براءةٌ لي وعذرٌ مما عملته .
ثم التفت إلى سيد الخنازير وقال : فقد بان لمن حصر قلة عقلك ، وما مثلك في ذلك إلا مثلُ رجلٍ قال لامرأته : انظري إلى عُريكِ وبعد ذلك انظري إلى عُري غيرِكِ . قيل له : وكيف كان ذلك ؟

مثل الرجل وامراتيه

قال ديمته : زعموا أن مدينةً أغارَ عليها العدو فقتلَ وسبى وغنمَ وانطلقَ إلى بلادِهِ . فاتفقَ أنه كان مع جنديٍّ مما وقعَ في قسمةِ رجلٍ حرَّاثٍ ومعه امرأتانِ له ، وكان هذا الجنديُّ يُسيءُ إليهم في الطعامِ واللباسِ . فذهبَ الحرَّاثُ ذاتَ يومٍ ومعه امرأتهُ يحتطبونَ للجنديِّ وهم عُرأةٌ . فأصابَتْ إحدى المرأتينِ في طريقها خرقَةً باليةً فاستترتْ بها ، ثم قالت لزوجها : ألا تنظرُ إلى هذه القبيحةِ كيف لا تستحي وتستبر؟ قال لها زوجها : لو بدأتِ بالنظرِ إلى نفسكِ وأنَّ جسمكِ كله عارٍ لما عبرتِ صاحبكِ بما هو بعينه فيك . وشأنك عجبٌ أيها القذيرُ ذو العلاماتِ الفاضحةِ القبيحةِ . ثم العجبُ

١ ما رميت : اتهمت .

من جُرأتِكَ على طَعَامِ الْمَلِكِ وَقِيَامِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَعَ مَا بِجَسْمِكَ مِنَ الْقَدْرِ
وَالْقُبْحِ ، وَمَعَ مَا تَعْرِفُهُ أَنْتَ وَبِعَرَفِهِ غَيْرُكَ مِنْ عُيُوبِ نَفْسِكَ . أَتَتَكَلَّمُ فِي
النَّفْسِ الْجِسْمِ الَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ ؟ وَلَسْتُ أَنَا وَحْدِي أَطَّلِعُ عَلَى عَيْبِكَ لَكِنَّ
جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ . وَقَدْ كَانَ يَحْجِزُنِي عَنْ إِظْهَارِهِ مَا بَيْنِي
وَبَيْنَكَ مِنَ الصَّدَاقَةِ . فَأَمَّا إِذْ قَدْ كَذَبْتَ عَلَيَّ وَبَهْتَنِي فِي وَجْهِهِ وَقُمْتَ
بِعِدَاوَتِي فَقُلْتَ مَا قُلْتَ فِيَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَعَلَى رُؤُوسِ الْحَاضِرِينَ فَلَانِي أَقْتَصِرُ عَلَى
إِظْهَارِ مَا أَعْرِفُ مِنْ عُيُوبِكَ وَتَعْرِفُهُ الْجَمَاعَةُ . وَحَقٌّ عَلَى مَنْ عَرَفَكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ
أَنْ يَمْنَعَ الْمَلِكُ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ إِيَّاكَ عَلَى طَعَامِهِ . فَلَوْ كُفِّتَ أَنْ تَعْمَلَ الزَّرَاعَةَ لَكُنْتَ
جَدِيداً بِالْخِذْلَانِ^١ فِيهَا . فَالْأُخْرَى بِكَ أَنْ لَا تَدْنُو إِلَى عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَأَنْ لَا
تَكُونَ دَبَّاعاً وَلَا حَجَّاماً لِعَامِي^٢ فَضْلاً عَنْ خَدَمَةِ الْمَلِكِ .

قَالَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ : أُولَى تَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَتَلْقَانِي بِهَذَا الْمَلْقَى !
قَالَ دِمْنَةُ : نَعَمْ ، وَحَقًّا قُلْتُ فِيكَ وَإِيَّاكَ أَعْنِي أَيُّهَا الْأَعْرَجُ الْمَكْسُورُ
الَّذِي فِي وَرِكِهِ النَّاسُورُ^٢ الْأَفْدَعُ^٣ الرَّجُلُ الْمَنْفُوخُ الْبَطْنِ الْأَفْلَحُ^٤ الشَّفَتَيْنِ
السَّيِّئِ الْمَنْظَرِ وَالْمَخْبِرِ^٥ .

فَلَمَّا قَالَ دِمْنَةُ ذَلِكَ تَغَيَّرَ وَجْهُ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ وَاسْتَعَبَّرَ وَاسْتَحْيَا وَتَلَجَّجَ
لِسَانَهُ وَاسْتَكَانَ وَفَتَرَ نَشَاطَهُ . فَقَالَ دِمْنَةُ حِينَ رَأَى انْكِسَارَهُ وَبُكَاءَهُ : إِنَّمَا
يَنْبَغِي أَنْ يَطُولَ بُكَاءُكَ إِذَا اطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى قَدْرِكَ وَعُيُوبِكَ فَغَزَلَكَ عَنْ طَعَامِهِ

١ الخذلان : الحية .

٢ الناسور : هو عرق غير في باطنه فساد كلما برىء أعلاه رجع غيراً أي فاسداً والغبر المندمل على فساد .

٣ الأفدع : من به فدع وهو اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم إلى أنسيها .

٤ الأفلح : المشقوق .

٥ المخبر : خلاف المظهر أي قبيح الظاهر والباطن .

وحال بينك وبين خدمته وأبعدك عن حضرته .

ثم إنَّ شعهرًا كان الأسدُ قد جربَهُ فوجدَ فيه أمانةً وصِدْقاً فرتبَهُ في خدمتهِ وأمرَهُ أن يحفظَ ما يجري بينهم ويطلعَهُ عليه . فقامَ الشعهرُ فدخلَ على الأسدِ فحدثَهُ بالحديثِ كلَّهُ على جليتهِ . فأمرَ الأسدُ بعزلِ سيِّدِ الخنازيرِ عن عمَلِهِ وأمرَ أن لا يدخلَ عليه ولا يرى وجهَهُ . وأمرَ ديمتهُ أن يُردَّ إلى السِّجْنِ وقد مضى من النَّهارِ أكثرُهُ وجميعُ ما جرى وقالوا وقال كُتِّبَ وختمَ عليه بخاتمِ الشَّيرِ ورجعَ كلُّ واحدٍ منهم إلى منزلهِ .

ثم إنَّ شعهرًا يُقالُ له رَوزِبُهُ كانَ بينَهُ وبين كليلَةَ إخاءٍ ومودَّةٍ وكانَ عندَ الأسدِ وجيهاً وعليه كريمةً . واتفقَ أن كليلَةَ أخذَهُ الوجدُ إشفاقاً من أن يلتطخَ بشيءٍ من أمرِ أخيه وحذراً عليه ، وكانَ به مَرَضٌ فهاجَ به مَرَضُهُ وماتَ . فانطلقَ هذا الشعهرُ إلى ديمتهُ فأخبرَهُ بموتِ كليلَةَ فبكى وحزنَ وقال : ما أصنعُ بالدُّنيا بعد مُفارقةِ الأخِ الصَّفيِّ ؟ واحرق قلباهُ ! إنَّ الإنسانَ إذا ابتليَ ببيِّلَةٍ أتاهُ الشرُّ من كلِّ جانبٍ واكتنَفَهُ الهَمُّ والحزنُ من كلِّ مكانٍ . ولكن أحمدُ اللهَ تعالى إذ لم يمُتْ كليلَةُ حتى أبقى لي من ذوي قرابتي أخاً مثلكَ . فلاني قد وثقتُ بنعمةِ اللهِ تعالى وإحسانِهِ إليَّ فيما رأيتُ من اهتمامِكَ بي ومُراعاةِكَ لي . وقد عَلِمْتُ أنَّكَ رجالي ورُكُنِي فيما أنا فيه . فأريدُ من إنعامِكَ أن تنطلقَ إلى مكانِ كذا فتنظرَ إلى ما جمَعْتُهُ أنا وأخي بحيلَتينا وسعِينا ومشيئةِ اللهِ تعالى فتأتيني به .

ففعَلَ الشعهرُ ما أمرَهُ به ديمتهُ . فلما وَضَعَ المالَ بين يديه أعطاهُ شطْرَهُ وقالَ له : إنَّكَ على اللُّحُولِ والخُرُوجِ على الأسدِ أقدَرُ من غيرِكَ . ففترغَ لشأني واصرفِ اهتمامَكَ إليَّ واسمعْ ما أذكرُ به عندَ الأسدِ إذا رُفِعَ إليه ما

١ اکتفه : أحاط به .

يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُصُومِ . وَمَا يَبْلُو مِنْ أُمَّ الْأَسَدِ فِي حَقِّي وَمَا تَرَى مِنْ مُتَابِعَةِ الْأَسَدِ لَهَا وَمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهَا فِي أَمْرِي وَاحْفَظْ ذَلِكَ كُلَّهُ . فَأَخَذَ الشَّعْهَرُ مَا أَعْطَاهُ دِمْنَةً وَانصَرَفَ عَنْهُ عَلَى هَذَا الْعَهْدِ . فَانطَلَقَ إِلَى مَتْرَلِهِ فَوَضَعَ الْمَالَ فِيهِ . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ بَكَرَ مِنَ الْعَدِ فَجَلَسَ . حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ النَّهَارِ سَاعَتَانِ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فِي الدُّخُولِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَوَضَعُوا الْكِتَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَلَمَّا عَرَفَ قَوْلَهُمْ وَقَوْلَ دِمْنَةَ دَعَا بِأُمِّهِ فَقَرَأَ عَلَيْهَا ذَلِكَ . فَلَمَّا سَمِعَتْ مَا فِي الْكِتَابِ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا : إِنَّ أَنَا أَغْلَطْتُ فِي الْقَوْلِ فَلَا تَلْمَنِي ، فَإِنَّكَ لَسْتَ تَعْرِفُ ضَرْكَهُ مِنْ نَفْعِكَ . أَلَيْسَ هَذَا مِمَّا كُنْتُ أَنهَاكَ عَنْ سَمَاعِهِ لِأَنَّهُ كَلَامُ هَذَا الْهَجْرِمِ الْمُسِيءِ إِلَيْنَا الْعَادِرِ بِدِمْنَتِنَا ! ثُمَّ إِنَّهَا خَرَجَتْ مُغْضَبَةً وَذَلِكَ بَعَيْنِ الشَّعْهَرِ الَّذِي آخَاهُ دِمْنَةً وَبَسْمِعِهِ . فَخَرَجَ فِي إِثْرِهَا مُسْرِعًا حَتَّى أَتَى دِمْنَةَ فَحَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ . فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهُ إِذْ جَاءَ فَيْجُ الْأَسَدِ فَانطَلَقَ بِدِمْنَةَ إِلَى الْمَجْمَعِ عِنْدَ الْقَاضِي .

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْ الْقَاضِي اسْتَفْتَحَ سَيِّدُ الْمَجْلِسِ فَقَالَ : يَا دِمْنَةُ قَدْ أَنْبَأَنِي عَنْ خَبْرِكَ الْأَمِينُ الصَّادِقُ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْحَصَ عَنْ شَأْنِكَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا . لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا سَبِيلاً إِلَى الْآخِرَةِ وَمِصْدَاقاً لَهَا لِأَنَّهَا دَارُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ الدَّالِّينَ عَلَى الْخَيْرِ الْهَادِينَ إِلَى الْجَنَّةِ الدَّاعِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ ثَبَتَ شَأْنُكَ عِنْدَنَا وَأَخْبَرْنَا عَنْكَ مَنْ وَثِقْنَا بِقَوْلِهِ . إِلَّا أَنْ سَيِّدَنَا أَمَرَنَا بِالْعَوْدِ إِلَى أَمْرِكَ وَالْفَحْصِ عَنْ شَأْنِكَ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ ظَاهِراً بَيْنَنَا . قَالَ دِمْنَةُ : أَرَأَيْتَ أَيُّهَا الْقَاضِي لَمْ تَتَّعُدِ الْعَدْلَ فِي الْقَضَاءِ . وَلَيْسَ فِي عَدْلِ الْمُلُوكِ دَفْعُ الْمَظْلُومِينَ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ إِلَى قَاضٍ غَيْرِ عَادِلٍ . بَلَى الْمُخَاصِمَةُ لَهُمُ وَالذُّوْدُ عَنْ حُقُوقِهِمْ . فَكَيْفَ تَرَى أَنْ أُقْتَلَ وَلَمْ أُخَاصِمْ وَتُعَجَّلَ ذَلِكَ مُوَافَقَةً

١ فيج : رسول .

لهواك ولم تمضِ بعدُ ثلاثة أيامٍ ! ولكن صدقَ الذي قالَ إنَّ الذي تَعوَّدَ عَمَلَ
البرِّ هَيِّنٌ عليه عَمَلُهُ وإنَّ أَضْرَبَ به .

قالَ القاضي : إِنَّا نَجِدُ في كُتُبِ الْأَوْلِيَاءِ أَنَّ الْقَاضِيَّ الْعَدْلَ يَنْبَغِي له أَنْ
يَعْرِفَ عَمَلَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ لِجِازِيِ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ .
فَإِذَا ذَهَبَ إِلَى هَذَا أَزْدَادَ الْمُحْسِنُونَ حِرْصًا عَلَى الْإِحْسَانِ وَالْمُسِيئُونَ اجْتِنَابًا
لِلذُّنُوبِ . وَالرَّأْيُ إِلَيْكَ يَا دِمَّةُ أَنْ تَنْظُرَ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ وَتَعْرِفَ بِذَنْبِكَ وَتُقِرَّ
به وَتَتُوبَ . فَلَأَنَّ يُعَاقَبَ الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ .

فَأَجَابَهُ دِمَّةُ : إِنَّ صَالِحِي الْقَضَاةِ لَا يَقْطَعُونَ بِالظَّنِّ وَلَا يَعْمَلُونَ به لَا فِي
الْخَاصَّةِ وَلَا فِي الْعَامَّةِ لِإِعْلَامِهِمْ أَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . وَأَتَمَّ إِن ظَنَنْتُمْ
أَنِّي مَجْرَمٌ فِيمَا فَعَلْتُ فَلِئِنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكُمْ وَعِلْمِي بِنَفْسِي يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ
وَعِلْمُكُمْ بِي غَايَةُ الشَّكِّ . وَإِنَّمَا قُبِحَ أَمْرِي عِنْدَكُمْ أَنِّي سَعَيْتُ بِغَيْرِي ، فَمَا
عُنْدِي عِنْدَكُمْ إِذَا سَعَيْتُ بِنَفْسِي كَاذِبًا عَلَيْهَا فَاسَلَّمْتُهَا إِلَى الْقَتْلِ وَالْعَطَبِ عَلَى
مَعْرِفَةِ مَنِّي بِبِرَائَتِي وَسَلَامَتِي مِمَّا قُرِفْتُ^١ به ؟ وَنَفْسِي أَعْظَمُ الْأَنْفُسِ عَلَيَّ حُرْمَةً
وَأَوْجِبُهَا حَقًّا . فَلَوْ فَعَلْتُ هَذَا بِأَقْصَاكُمْ وَأَدْنَاكُمْ لِمَا وَسَعَيْتُ^٢ فِي دِينِي وَلَا
حَسَنَ بِي فِي مُرُوءَتِي وَلَا حَقًّا لِي أَنْ أَفَعَلَهُ فَكَيْفَ أَفَعَلَهُ بِنَفْسِي ؟

فَاكْفُفْ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ نَصِيحَةً فَقَدْ أَخْطَأْتَ
مَوْضِعَهَا . وَإِنْ كَانَتْ خَدِيعَةً فَإِنَّ أَقْبَحَ الْخِدَاعِ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ . مَعَ أَنَّ
الْخِدَاعَ وَالْمَكْرَ لَيْسَا مِنْ أَعْمَالِ صَالِحِي الْقَضَاةِ وَلَا ثِقَاتِ الْوَلَاةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ
قَوْلَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الْجُهَالُ وَالْأَشْرَارُ سِتَّةً^٣ يَقْتَدُونَ بِهَا لِأَنَّ أُمُورَ الْقَضَاءِ يَأْخُذُ
بِصَوَابِهَا أَهْلُ الصَّوَابِ وَيَخْطِئُهَا أَهْلُ الْخَطِئِ وَالْبَاطِلِ وَالْقَلِيلُ الْوَرَعِ . وَأَنَا خَائِفٌ

١ قرئت : عبت واتهمت .

٢ وسعني : أي لما جاز لي .

٣ ستة : طريقة .

عليك أيها القاضي من مقاتلك هذه أعظم الرزايا والبلايا . وليس من البلاء والمصيبة أنك لم تزل في نفس الملك والجند والخاصة والعامّة فاضلاً في رأيك مقنعاً في عقلك مريضاً في حكمك وعفافك وفضلك . وإنما البلاء كيف أنسيته ذلك في أمري . أو ما بلغك عن العلماء أنهم قالوا : من ادعى علم ما لا يعلم وشهد على الغيب أصابه ما أصاب البازيار ؟ قال القاضي : وكيف كان ذلك ؟

مثل البازيار

قال ديمته : زعموا أنه كان في بعض المدن رجل من المرابيه^١ مذكور . وكانت له امرأة ذات جمال وعفاف . وكان للرجل بازيار خبير بعلاج البراة وسياستها . وكان هذا البازيار عند هذا الرجل بمكان خليلي بحيث أدخله داره وجعله كواحد من أهلها . فاتفق أن وقعت كلمة من البازيار فتسخطت لها زوجة مولاه ونفرت . فقضب وعمل على أن يكيدها بمكيده .

فخرج يوماً إلى الصيد على عادته فأصاب فرخي بيغاء فأخذها وجاء بها إلى منزله وربأها . فلما كبر فرق بينها وجعلها في قفصين وعلم أحدهما أن يقول : رأيت رية في بيت مولاي ، وعلم الآخر أن يقول : أما أنا فلا أقول شيئاً . ثم أدبها على ذلك حتى اتقناه وخذقاه في ستة أشهر . فلما بلغ الذي أراد منها حملها إلى مولاه . فلما رآها أعجبه ونطقاً بين يديه فأطرباه . إلا أنه لم يعلم ما يقولان لأن البازيار كان قد علمها بلغة البلخيين . وإن المرزبان أعجب بها إعجاباً شديداً وحظي البازيار عنده بذلك خطوة

١ البازيار : حامل البازي ويقال له البازدار أيضاً .

٢ المرابيه : جمع مرزيان وهو رئيس الفرس .

كريمة . فأمر امرأته بالاحتياطِ عليها والاحتفاظِ بها . ففعلتِ المرأةُ ذلك .
فاتفقَ أنه بعدَ مدَّةٍ قديمٍ على الرجلِ قومٌ من عظماءِ بلخٍ فتأتقَ لهم في
الطعامِ والشرابِ وجمَعَ من أصنافِ الفواكِه والتَّحْفِ شيئاً كثيراً . وحضَرَ
القومُ . فلما فرغوا من الطعامِ وشرَّعوا في الحديثِ أشارَ المرزبانُ إلى البازيارِ
أن يأتيَ بالبيغاءِ فأحضَرها . فلما وُضِعتا بين يديه صاحتا بما كانتا علَّمتاهُ ،
فرَفَرَأُوليكَ العُظَمَاءُ ما قالتا ، فنظَرَ بعضهم إلى بعضٍ ونكسوا رؤوسَهُم
حياءً وخجلاً وجعلَ يغمزُ بعضهم بعضاً . فقال الرجلُ : ما أعلمُ ما تقولانِ
ولكنِّي يُعجِبُنِي ذلكَ منها . وسألَهُم عما تقولانِ فامتنعوا أن يقولوا ما قالتا .
فألحَّ عليهم وأكثرَ السؤالَ عما قالتا . فقالوا : إننا تقولانِ كذا وكذا وليسَ من
شأننا أن نأكلَ من بيتٍ يُعملُ فيه الفُجورُ .

فلما قالوا ذلكَ سألَهُم الرجلُ أن يكلموها بلسانِ البلخيَّةِ بغيرِ ما نطقتا به
ففعلوا ذلك فلم يجدوها تعرفانِ غيرَ ما تكلمتا به . وبأن لهم وللجاعةِ براءةُ
البيتِ ممَّا رُميَ به ووضَحَ كذِبُ البازيارِ . فأمرَ بالبازيارِ أن يدخلَ عليه وكانَ
على يديه بازٌ أشهبٌ^١ . فصاحتُ به امرأةُ المرزبانِ من داخلِ البيتِ : أيها
العدوُّ لنفسِهِ أنتَ رأيتَ في البيتِ ما ذكرتَ وعلمتَ به البيغاءِينِ ؟ قالَ :
نعم ، أنا رأيتُ فيه مثلَ ما تقولانِ . فوثبَ البازي إلى وجههِ ففَقَأَ عَيْنَهُ
بمخالبِهِ . فقالتِ المرأةُ : بحقٍّ أصابكَ هذا ، إنهُ لجزاءٌ من الله تعالى لشهادتِكَ
بما لم تَرَهُ عَيْنَكَ

وإنما ضربتُ لك هذا المثلَ أيها القاضي لتزدادَ علماً بوخامةِ عاقبةِ
الشَّهادَةِ بالكذِبِ في الدنيا والآخرةِ . فلما سمِعَ القاضي ذلكَ من لَفِظِ دِمَّةٍ
نَهَضَ فَرَفَعَهُ إلى الأسدِ على وجهِهِ^٢ ، فنظَرَ فيه الأسدُ فدعا أمَّهُ فعرَّضَهُ عليها .

١ أشهب : أي يياضه غلب على سواده .

٢ رفعه على وجهه : أي على حكه بدون مبالاة .

فَقَالَتْ حِينَ تَدَبَّرْتُ^١ كَلَامَ دِمْنَةَ : لَقَدْ صَارَ اهْتِمَامِي بِمَا أَتَحَوَّفُ مِنْ اِحْتِيَالِ دِمْنَةَ
لَكَ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ حَتَّى يَفْتَلِكَ أَوْ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَمْرَكَ أَعْظَمَ مِنْ اهْتِمَامِي بِمَا
سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَيْكَ فِي الْغَيْشِ^٢ وَالسَّعَايَةِ^٣ حَتَّى قَتَلْتَ صَدِيقَكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ .
فَوَقَعَ قَوْلُهَا فِي نَفْسِهِ ، فَقَالَ لَهَا : أَخْبِرْنِي عَنِ الَّذِي أَخْبَرَكَ عَنِ دِمْنَةَ بِمَا
أَخْبَرَكَ فَيَكُونُ حُجَّةً لِي فِي قَتْلِي دِمْنَةَ . فَقَالَتْ : لِأَكْرَهُ إِفْشَاءَ سِرِّ مَنْ
اسْتَكْتَمْنِيهِ فَلَا يَهْتِنِي سُرُورِي بِقَتْلِ دِمْنَةَ إِذَا تَذَكَّرْتُ أَنِّي اسْتَظْهَرْتُ^٤ عَلَيْهِ
بُرْكَوْبٍ^٤ مَا نَهَتْ عَنْهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ . وَلَكِنِّي أَطَالِبُ الَّذِي
اسْتَوْدَعْنِيهِ أَنْ يَحْلِفَنِي مِنْ ذِكْرِهِ وَيَقُومَ هُوَ بِعَلْمِهِ وَمَا سَمِعَ مِنْهُ .

ثُمَّ انصَرَفَتْ وَأَرْسَلَتْ إِلَى الثَّيْرِ وَذَكَرَتْ لَهُ مَا يُحَقُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّرْتِيبِ
لِلْأَسَدِ وَحُسْنِ مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الْحَقِّ وَإِخْرَاجِ نَفْسِهِ مِنَ الشَّهَادَةِ الَّتِي لَا يَكْتُمُهَا
مِثْلُهُ مَعَ مَا يُحَقُّ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ الْمَظْلُومِينَ وَتَثْبِيتِ حُجَّةِ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ .
فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالَتْ : مَنْ كَتَمَ حُجَّةً مَيَّبَةً أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَلَمْ تَزَلْ بِهِ
حَتَّى قَامَ فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَشَهِدَ عِنْدَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِ دِمْنَةَ .

فَلَمَّا شَهِدَ الثَّيْرُ بِذَلِكَ ، أَرْسَلَ الْفَهْدُ الْمَسْجُونُ الَّذِي سَمِعَ إِقْرَارَ دِمْنَةَ
وَخَفِظَهُ إِلَى الْأَسَدِ فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي شَهَادَةً . فَأَخْرَجُوهُ فَشَهِدَ بِمَا سَمِعَ مِنْ
إِقْرَارِهِ . فَقَالَ لَهَا الْأَسَدُ : مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَقُومَا بِشَهَادَتِكُمَا وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَمْرَنَا
وَاهْتِمَامَنَا بِالْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةَ ؟ فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ شَهَادَةَ
الْوَاحِدِ لَا تُوجِبُ حُكْمًا فَكِرْهْتُ التَّعَرُّضَ لِغَيْرِ مَا يَمْضِي بِهِ الْحُكْمُ . حَتَّى إِذَا
شَهِدَ أَحَدُنَا قَامَ الْآخَرُ . فَقَبِلَ الْأَسَدُ قَوْلَهَا وَأَمَرَ بِدِمْنَةَ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصَلَّبَ عَلَى
رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ . وَنَادَى الْمُنَادِي : هَذَا جِزَاءُ مَنْ يَسْعَى بَيْنَ الْمُلُوكِ وَيَبِينُ

١ تدبَّرت : تأملت .

٢ استظَّهَرْتُ : استعنت .

٣ السَّعَايَةُ : الهَيْمَةُ وَالْوَشَايَةُ .

٤ رُكُوبٌ : ارْتِكَابٌ .

أجنادهم وِبِطَانَتِهِمْ^١ بِالكَذِبِ وَالبُهْتَانِ .
فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَرَادَ مَنَفَعَةَ نَفْسِهِ بِضَرِّ غَيْرِهِ بِالخِلَابَةِ^٢
والمَكْرِ فَإِنَّهُ سَيُجْزَى عَلَى خِلَابَتِهِ وَمَكْرِهِ .

١ بطانة الرجل : أي خاصته الذي يعرفه سره ثقة بمودته .
٢ الخلابة : أي بالخدومة باللسان .

باب الحامة المطوقة

قال دَبشليمُ المَلِكُ لبيدبا الفيلسوف : قد سمعتُ مثلَ المتحابين كيف قطعَ بينها الكذبُ وإلى ماذا صارَ عاقبةُ أمرِهِ من بعدِ ذلك . فحدّثني إن رأيتَ عن إخوانِ الصّفاء كيف يتبدى تَواضلُهُم ويستمتِعُ بعضهم ببعضٍ . قالَ الفيلسوفُ : إنَّ العاقلَ لا يعدلُ بالإخوانِ شيئاً . فالإخوانُ همُ الأعوانُ على الخيرِ كلُّهُ والمؤاسون عند ما ينوبُ^١ مِنَ المَكروه . ومن أمثالِ ذلك مثلُ الحامةِ المُطوّقةِ والجُرذِ والطّيِّ والغرابِ .
قالَ المَلِكُ : وكيف كان ذلك ؟

مثل الحامة المطوقة

والجرذ والطّي والغراب

قالَ بيدبا : زعموا أَنه كانَ بأرضِ سكاوندجينَ عند مدينةِ داهرَ مكانٌ كثيرُ الصّيدِ يتأبهُ الصّيادون . وكانَ في ذلك المكانِ شجرةٌ كثيرةُ الأغصانِ ملتفةُ الورقِ فيها وكُرُ غرابٍ ، فبينما هو ذاتَ يومٍ ساقطٌ في وكرِهِ إذ بَصَرَ بصيادٍ قبيحِ المنظرِ سَميَ الخلقِ ، وقُبِحَ منظرُهُ يدلُّ على سوءِ مخبرِهِ^٢ ، على عاتقِهِ شبكَةٌ وفي يَدِهِ عصاً ، مقبلاً نحو الشجرةِ . فدُعِرَ منه الغرابُ وقالَ :

١ ينوب : يصيب .

٢ مخبره : تجربته واختباره .

لقد ساقَ هذا الرجلَ إلى هذا المكانِ إمّا حينِي وإمّا حينُ غيري ، فلا بُدَّ منْ
مكاني حتى أنظرَ ماذا يصنعُ .

ثم إنَّ الصيَّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ ونَثَرَ عليها الحَبَّ وكَمَنَ قَريباً منها . فلم
يَلْبَثْ إلا قليلاً حتى مرَّت به حَامَةٌ يُقالُ لها المُطَوِّقَةُ ، وكانت سيدةَ الحمامِ ،
ومعها حَامٌ كثيرٌ . فعميت هي وصاحباتها عن الشَّرِكِ فَوَقَعْنَ على الحَبِّ
بِلَتَقِطَتُهُ فَعَلَقْنَ في الشَّبَكَةِ كُلَّهُنَّ وأقبلَ الصيَّادُ فَرِحاً مسروراً . فجَعَلَتْ كُلُّ حَامَةٍ
تَتَلَجَّجُ^١ في حباتِها وتَلْتَمِسُ الخَلاصَ لِنَفْسِها . قالتِ المُطَوِّقَةُ : لا
تتخاذلنَّ في المَعالِجَةِ ولا تكن نفسُ إحداكنَّ أهُمَّ إليها من نفسِ صاحبتها .
ولكن تَتعاوننَّ جميعاً ونظيرُ كطائرٍ واحدٍ فينجو بعضنا ببعضِ .

فجمَعْنَ أنفسَهُنَّ ووَثِنَ وثبَةً واحدةً فَعَلَقْنَ الشَّبَكَةَ جميعَهُنَّ بتعاونِهنَّ
وعَلَوْنَ بها في الجَوِّ . ولم يَقطعِ الصيَّادُ رِجاءَهُ مِنْهُنَّ وظَنَّ أَنَّهُنَّ لا يُجاوِزْنَ
إلا قَريباً حتى يَقَعْنَ . فقالَ الغرابُ : لا تَبِعَهُنَّ وأنظُرْ ما يكونُ مِنْهُنَّ . فالتَفَقَّتْ
المُطَوِّقَةُ فرأتِ الصيَّادَ يَتَبَعُهُنَّ فقالت للحمامِ : هذا الصيَّادُ جادٌ في طلبِكُنَّ
فإن نحن أخذنا في الفِضاءِ لم يَخَفَ عليه أمرنا ولم يَزَلْ يَتَبَعُنا . وإن نحن
تَوَجَّهنا إلى العُمرانِ خَفِيَ عليه أمرنا وانصَرَفَ . وبمكانِ كذا جُرْدٌ هو لي أخٌ
فلو انتهينا إليه قَطَعَ عَنَّا هذا الشَّرِكُ . فَعَلَقْنَ ذلكَ وأيسَرَ الصيَّادُ مِنْهُنَّ
وانصَرَفَ . وتَبِعَهُنَّ الغرابُ لِيَنظُرَ إليهنَّ لعلَّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْهُنَّ حيلةً تكونُ له عُدَّةً
عند الحاجةِ . فلما انتهتِ الحَامَةُ المُطَوِّقَةُ إلى الجُرْدِ أمرتِ الحمامَ أن
يَقَعْنَ فَوَقَعْنَ .

وكانَ للجُرْدِ مئةُ جُحْرِ أعدَّها للمَخاوِفِ . فنادتُهُ المُطَوِّقَةُ باسمِهِ وكانَ

١ تَلَجَّجَ : تَهَرَّ وتَضَرَّبَ .

اسمُهُ زَيْرُكَ ، فَأَجَابَهَا الْجُرْدُ مِنْ جُحْرِهِ : مَنِ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا خَلِيلَتُكَ الْمُطَوَّقَةُ . فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا الْجُرْدُ يَسْمَى فَقَالَ لَهَا : مَا أَوْقَعَكَ فِي هَذِهِ الْوَرِطَةِ ؟ قَالَتْ لَهُ : أُمُّ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَيَّ مِنْ تَصْيِيهِ الْمُقَادِيرُ وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعْتَنِي فِي هَذِهِ الْوَرِطَةِ . فَقَدْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْقَدَرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمْرًا . وَقَدْ تَنَكَّسِفُ الشَّمْسُ وَيُنْخَسِفُ الْقَمَرُ إِذَا قُضِيَ ذَلِكَ عَلَيْهَا .

إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَرَضِ الْعِقْدِ الَّذِي فِيهِ الْمُطَوَّقَةُ . فَقَالَتْ لَهُ الْمُطَوَّقَةُ : أَبْدَأُ بِقَطْعِ عِقْدِ سَائِرِ الْحَامِ وَبَعْدَ ذَلِكَ أَقْبِلُ عَلَى عِقْدِي . فَأَعَادَتْ عَا لَكَ مِرَارًا وَهُوَ لَا يَلْتَمِعُ إِلَى قَوْلِهَا . فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَكَرَّرَتْ قَا : لَقَدْ كَرَّرْتَ الْقَوْلَ عَلَيَّ كَأَنَّكَ لَيْسَ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ وَلَا لَكَ عَلَيْهَا . فَقَا وَلَا تَرَعِينَ لَهَا حَقًّا . قَالَتْ : إِنِّي أَخَافُ إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِقَطْعِ عِقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتُكْسَلَ عَنْ قَطْعِ مَا بَقِيَ . وَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْ بَدَأْتَ بِهِنِ قَبْلِي وَنَمْتُ أَنَا الْأَخِيرَةَ لَمْ تَرْضَ وَإِنْ أَدْرَكَكَ الْفُتُورُ أَنْ أَبْقَى فِي الشَّرْكِ . قَالَ الْجُرْدُ : هَذَا مِمَّا يَزِيدُ الرَّغْبَةَ فِيكَ وَالْمَوَدَّةَ لَكَ .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَرَضِ الشُّبْكَةِ حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا . فَاظْلَمَّتِ الْمُطَوَّقَةُ وَحَامَهَا مَعَهَا .

فَلَمَّا رَأَى الْغَرَابُ صُنْعَ الْجُرْدِ رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ . فَجَاءَ وَنَادَاهُ بِاسْمِهِ . فَأَخْرَجَ الْجُرْدُ رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ مُصَادَقَتَكَ . قَالَ الْجُرْدُ : لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ تَوَاضُلٌ وَإِنَّا الْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَيَتْرَكَ النَّاسَ مَا لَيْسَ لَهُ إِلَيْهِ سَبِيلٌ كَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُجْرِيَ السُّفْنَ فِي الْبَرِّ وَالْعَجَلَ فِي الْبَحْرِ ، فَإِنَّ أَنْتَ إِلَّا آكِلٌ وَأَنَا طَعَامٌ لَكَ . قَالَ الْغَرَابُ : إِنَّ

١ لا ترعين : أي لا تحفظين .

٢ فإن : حرف تقي بمعنى ما .

أكلي إياك وإن كنت لي طعاماً ممّا لا يُغني عني شيئاً . وإن مودّتك آتس^١ لي ممّا ذكرت . ولست بحقيق إذا جئت أطلب مودّتك أن تُردني خائباً . فإنه قد ظهر لي منك من حسن الخلق ما رغبني فيك وإن لم تكن تلتبس إظهار ذلك . فإن العاقل لا يخفى فضله وإن هو أخفاه كالمسك الذي يكتّم ثم لا يمنعه ذلك من الشرب^٢ الطيب والأرج^٣ الفائح .

قال الجرذ : إن أشدّ العداوة عداوة الجوهري ، وهي عداوتان : منها ما هو متكافي^٤ كعداوة الفيل والأسد فإنه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد . ومنها ما قوته من أحد الجانبين على الآخر كالتي بيني وبين السنور وبينك وبينني . فإن العداوة التي بيننا ليست تضرّك وإنما ضررها علي . فإن الماء لو أطبل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صبّ عليها . وإننا مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها في كمه . والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب^٤ .

قال الغراب : قد فهمت ما تقول وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليقتك وتعرف صدق مقالي ولا تُصعب عليّ الأمر بقولك ليس إلى التواصل بيننا سبيل . فإن العقلاء الكرام لا يتغنون على معروف جزاء . والمودة بين الصالحين سريع اتصالتها بطيء انقطاعها . ومثل ذلك مثل الكوز الذهب بطيء الانكسار سريع الإعادة حين الإصلاح إن أصابه نلم أو كسر . والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالتها . ومثل ذلك مثل الكوز الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى شيء ولا وصل له أبداً . والكريم يودّ الكريم ، واللئيم لا يودّ أحداً إلا عن رغبة أو رهبة . وأنا إلى ودك ومعروفك محتاج

١ آتس : أفضل تفضيل من أنس ضد

٢ متكافي : متائل

٣ استوحش

٤ الأريب : الراضة

لأنك كريمٌ . وأنا مُلازمٌ لبابك غيرُ ذائقٍ طعاماً حتى تُواخيني . واعلم أني لو كنتُ أشاءُ ضركَ لفعلتُ حينَ كنتُ مُحلّقاً فوقَ رأسِكَ عندما كنتُ تقطعُ حبايلَ الحَمامِ .

قالَ الجرذُ : قد قَبِلتُ إِياءَكَ فلَني لم أَرُدُّ أحداً عن حاجَةٍ قَطُّ وإنَّا بَلَوْتُكَ^١ بما بَلَوْتُكَ به إِرَادَةَ التَّوْتُقِ^٢ لِنَفْسِي فإنَّ أُنْتَ عَدَرْتَ بي لم تَقُلْ لَني وَجَدتُ الجرذُ ضَعِيفَ الرَّأيِ سَريعَ الانخِداغِ .

ثم خَرَجَ من جُحرِهِ فَوَقَفَ عِندَ البَابِ ، فَقالَ له العِرابُ : ما يَمَنَعُكَ مِنَ الخُروجِ إِلَيَّ والاسْتِئْناسِ بي ؟ أَوْني نَفْسِكَ بَعْدَ مَتِي رِيبَةٍ ؟

قالَ الجرذُ : إنَّ أَهْلَ الدُّنيا يَتَعَاطَوْنَ فيهِما بَينَهُمُ أَمْرِينَ وَيَتَوَاصِلُونَ عَلَیْهِما ، وَهَما ذَاتُ النَّفْسِ وَذَاتُ اليَدِ . فَالْمُتَبَادِلُونَ ذَاتِ النَّفْسِ هُمُ الْأَصْفِياءُ^٣ . وَأَمَّا الْمُتَبَادِلُونَ ذَاتِ اليَدِ فَهُمُ الْمُتَعَاوِنُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الْإِنْتِفاعَ بِعَعضِهِ . وَمن كانَ يَصْنَعُ المَعروفَ لِبَعْضِ مَنافِعِ الدُّنيا فَلِإِنَّا مِثْلُهُ فِما يَبْذُلُ وَيُعْطِي كَمِثْلِ الصَّيادِ وَالقائِمِ الحَبِّ لِلطَّيْرِ لا يُريدُ بِذلكَ نَفْعَ الطَّيْرِ وإنَّا يُريدُ نَفْعَ نَفْسِهِ . فَتَعَاطِي ذَاتِ النَّفْسِ أَفْضَلُ من تَعَاطِي ذَاتِ اليَدِ . وَإِني وَاثِقٌ بِذاتِ نَفْسِكَ وَمنحَتِكَ من نَفْسِي مِثْلَ ذلكَ . وَليسَ يَمَنَعُنِي مِنَ الخُروجِ إِلَيْكَ سِوَهُ ظَنِّ بِكَ . وَلَكن قَد عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ أَصْحاباً جَوهَرُهُم كَجَوهَرِكَ وَليسَ رَأْيُهُم في كِرايِكَ .

قالَ العِرابُ : إنَّ من عِلامَةِ الصَّدِيقِ أن يَكُونَ لِصَدِيقِ صَدِيقِهِ صَدِيقاً وَلَعَدُوَّ صَدِيقِهِ عَدُوًّا . وَليسَ لي بِصَاحِبٍ ولا صَدِيقٍ مَن لا يَكُونُ لَهُ مُجِيباً . وَإِنَّ يَهُونُ عَلَيَّ قَطيعَةُ مَن كانَ كَذلكَ من جَوهَرِي : فَإِنَّ زَارِعَ الرِّيحانِ إِذا

١ بلوتك : امتحتك .

٢ التوتق : التثبيت والتحفظ .

٣ الأصفياء : الأحياء الصادقون .

رأى بينه عُشْباً يُفْسِدُهُ قَلَمُهُ ورمى به .

ثم إنَّ الجُرْدَ خَرَجَ إلى الغرابِ فَتَصافَحَا وَتصافَيَا وَأَنَسَ كُلُّ واحِدٍ منها بصاحِبِهِ ، حتى إذا مَضَتْ لهما أيامٌ قالَ الغرابُ للجُرْدِ : إنَّ جُحْرَكَ قَرِيبٌ من طريقِ الناسِ وأخافُ أن يَرمِيكَ بعضُ الصَّيَّانِ بِحَجَرٍ . ولي مكانٌ في عُرْلَةٍ ولي فيه صديقٌ مِنَ السُّلَاحِفِ وهو مُخَصَّبٌ مِنَ السَّمَكِ ونحنُ واجِدونَ هناكَ ما نأكلُ فأريدُ أن أنطَلِقَ بِكَ إلى هناكَ لَنَيشَ آمينِ .

قالَ الجُرْدُ : وإني أيضاً كارِهٌ لمكاني هذا ولي أخبارٌ وقِصصٌ سأقصُّها عليكَ إذا انتهينا حيثُ تُريدُ ، فافعلْ ما تشاءُ . فأخذَ الغرابُ بِذَنبِ الجُرْدِ وطارَ به حتى بَلَغَ حيثُ أرادَ . فلَمَّا دَنَا مِنَ العَيْنِ التي فيها السُّلحفاةُ بَصُرَتِ السُّلحفاةُ بغرابٍ ومعه جُرْدٌ فَذُعِرَتِ منه ولم تَعْلَمْ أَنَّهُ صاحِبُها . فناداها فَخَرَجَتِ إليه وسألتهُ : من أينَ أَقْبَلْتَ ؟ فأخبرَها بِقِصَّتِهِ حينَ تَبَعَ الحمامَ وما كانَ من أمرِهِ وأمرِ الجُرْدِ حتى انتهى إليها . فلَمَّا سَمِعَتِ السُّلحفاةُ شَأْنَ الجُرْدِ عَجِبَتِ من عَقْلِهِ ووفائِهِ وَرَحَبَتِ به ووقالت له : ما سَأَلَكَ إلى هذه الأرضِ ؟ قالَ الغرابُ للجُرْدِ : أَقصصُ عليَّ الأَخبارَ التي قُلْتَ إِنَّكَ تُحَدِّثُنِي بها فأخبرني بها معَ جوابٍ ما سألتِ السُّلحفاةُ فإنَّها عندَكَ بِمَزلتِي . فبدأَ الجُرْدُ وقالَ :

كانَ منزلي أوَّلَ أمرِي بمدينَةِ ماروتَ في بيتِ رجلٍ ناسِكٍ ، وكانَ خالِياً مِنَ الأهلِ والعيالِ . وكانَ يُؤْتِي في كلِّ يومٍ بِجَونَةٍ مِنَ الطَّعامِ فيأكلُ منها حاجتَهُ ويُعَلِّقُ الباقي . وكنتُ أرصدُ النَّاسِكَ حتى يَخْرُجَ وأتِبُ إلى الجَونَةِ فلا أدعُ فيها طعاماً إلا أكلتهُ وَرَمَيْتُ منه إلى الجُرْدانِ . فجهَدَ النَّاسِكُ مراراً أن يُعَلِّقَ الجَونَةَ في مكانٍ لا أنالُهُ فلم يَقْدِرْ على ذلكَ . حتى نَزَلَ به ذاتَ ليلَةٍ ضَيْفٌ فأكَلَا جميعاً ثم أَخَذَا في الحديثِ ، فقالَ النَّاسِكُ للضَّيْفِ : من أيِّ أرضٍ أَقْبَلْتَ وأينَ تُريدُ الآنَ ؟

١ جونة : سلة صغيرة مغطاة بجلد .

وكان الرجل قد جاب الآفاق ورأى عجائب . فأنشأ يحدث الناس عما وطئ من البلاد ورأى من العجائب . وجعل الناس خلال هذا يصفقون يديه ليتفرغوا عن الجونة . فغضب الضيف وقال : أنا أحدثك وأنت تهزأ بحديثي ، فما حملك على أن سألتني ؟ فاعتذر إليه الناس وقال : إنا أصفق يدي لأنفراً جرداً قد تحيرت في أمره ولست أضع في البيت شيئاً إلا أكله . فقال : جرد واحد يفعل ذلك أم سردان كثيرة ؟ فقال الناس : جردان البيت كثيرة لكن فيها جرداً واحداً هو الذي غلبني فما أستطيع له حيلة . قال الضيف : لقد ذكرتني قول الذي قال : لأمر ما باعت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشور . قال الناس : وكيف كان ذلك ؟

مثل السمسم المقشور وغير المقشور

قال الضيف : نزلت مرة على رجل بمكان كذا فتعشينا ثم فرس لي وانقلب على فراشه . فسمعته يقول في آخر الليل لامرأته : إني أريد أن أدعوك غداً رهطاً ليأكلوا عندنا فاصنعي لهم طعاماً . فقالت المرأة : كيف تدعو الناس إلى طعامك وليس في بيتك فضل عن عيالك وأنت رجل لا تبتى شيئاً ولا تدخره ؟ قال الرجل : لا تندمي على شيء أطمعناه وأنفقناه فإن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كماقبة الذئب . قالت المرأة : وكيف كان ذلك ؟

مثل الذئب والرجل والقوس

قال الرجل : زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانصٌ ومعه قوسه ونشابهه . فلم يجاوز غير بعيد حتى رمى ظلياً فحمله ورجع طالباً مترلاً .

فاعترضه خنزير بري فرماه بنشابة فذت فيه فادرکه الخنزير وضربه بأنيابه
ضربة أطارت من يده القوس ووقعا ميتين . فأتى عليهم ذئب فقال : هذا
الرجلُ والطَّيُّ والخنزيرُ يكفيني أكلهم مُدة . ولكن أبدأ بهذا الوترِ فأكله
فيكون قوتَ يومي وأدخِر الباقي إلى غدٍ فما وراءه . فعالج الوترَ حتى قطعهُ .
فلما انقطع طارت سية^١ القوسِ فضربت حلقه فمات .

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلمي أن الجمع والادخار وخيم العافية .
فقلت المرأة : نعيماً قلت وعندنا من الأرز والسَّمِيسِمِ ما يكفي سنَّةَ نَفَرٍ أو
أكثر . فأنا غادية على صنعِ الطعامِ فادعُ من أحببت .

وأخذتِ المرأة حين أصبحت سيمسماً وقشرته وبسطته في الشمس ليحف
وقالت لغلامٍ لهم : أطردُ عنه الطيرَ والكلابَ . وتفرغتِ المرأة لصنعها .
وتغافل الغلام عن السيمسِمِ فجاء كلبُ فعات فيه فاستقدرته المرأة وكرِهت أن
تصنع منه طعاماً . فذهبت به إلى السوقِ فأخذت به مقايضةً سيمسماً غير
مقشورٍ مثلاً بمثلٍ وأنا واقفٌ في السوقِ . فقال رجلٌ : لأمرٍ ما باعت هذه
المرأة سيمسماً مقشوراً بغير مقشورٍ .

وكذلك قولي في هذا الجرذ الذي ذكرت أنه على غيرِ علةٍ ما يقدرُ على ما
شكوت منه . فالتمس لي فأساً لعلِّي أحفرُ جحره فأطلع على بعض شأنه .
فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأساً فأتى بها الضيفَ وأنا حينئذٍ في جحرٍ غير
جحري أسمعُ كلامها وفي جحري كيسٌ فيه مئة دينارٍ لا أدري من وضعها ،
فاحفرُ الضيفَ حتى انتهى إلى الدنانيرِ فأخذها وقال للناسك : ما كان هذا
الجرذُ يقوى على الثوبِ حيث كان يئبُ إلا بهذه الدنانيرِ ، فإن المالَ جعلَ
قوةً وزيادةً في الرأي والثمكُن . وسترى بعد هذا أنه لا يقدرُ على الثوبِ
حيث كان يئبُ .

١ سية : طرف .

فلما كان من الغد اجتمعت الجردان التي كانت معي فقالت : قد أصابنا الجوع وأنت رجاؤنا . فانطلقتُ ومعِي الجردانُ إلى المكانِ الذي كنتُ أئبُ منه إلى الجونةِ فحاولتُ ذلكَ مراراً فلم أقدِرُ عليه . فاستبانَ للجردانِ نقصُ حالي فسمِعَتُهُنَّ يَقلُنَ : انصرفنِ عنه ولا تَطْمَعنِ فيما عندهُ فإننا نرى له حالاً لا نحسبُهُ إلا قد احتاجَ معها إلى من يعولُهُ فتركنتي ولحقتنِ بأعدائي وجفوتني وأخذنِ في غيبي^١ عند من يُعاديني ويحسدُنِي . وأصبحنِ كأنهنَّ لم يعرفنني وكأني لم أكن عليهنَّ رئيساً قطُ .

قلتُ في نفسي : ما الإخوانُ ولا الأعوانُ ولا الأصدقاءُ إلا بالمالِ . ووجدتُ من لا مالَ له إذا أرادَ أمراً قعدَ به العدمُ^٢ عما يُريدهُ . كالماءِ الذي يبقى في الأوديةِ من مطرِ الشتاءِ لا يَمُرُّ إلى نهرٍ ولا يجري إلى مكانٍ إلى أن يفسدَ وينشفَ ولا يبتقعَ به . ووجدتُ من لا إخوانَ له لا أهلَ له . ومن لا ولدَ له لا ذكْرَ له . ومن لا مالَ له لا عقلَ له ولا دنيا ولا آخرةَ له . لأنَّ من نزلَ به الفقرُ لا يجدُ بدءاً من تركِ الحياءِ . ومن ذهبَ حياؤهُ ذهبَ سرورهُ . ومن ذهبَ سرورهُ مَقتَ نفسه . ومن مَقتَ نفسه كثرَ حزنُهُ . ومن كثرَ حزنُهُ قلَّ عقلُهُ وارتبكتُ في أمرِهِ . ومن قلَّ عقلُهُ كان أكثرَ قوله وعمَلِهِ عليه لا له . ومن كان كذلكَ فأحربه أن يكونَ أنكدَ الناسِ حظاً في الدنيا والآخرةِ . ثم إنَّ الرجلَ إذا افتقرَ قطعَهُ أقاربهُ وإخوانُهُ وأهلُ وُدِّهِ ومَقْتوهُ ورَفْضوهُ وأهانوهُ واضطرَّهُ ذلكَ إلى أن يَلتمِسَ مِنَ الرِّزْقِ ما يُغرِّرُ فيه بنفسِهِ ويُفسدُ فيه آخرتهُ فيخسرُ الدارينِ جميعاً . وإنَّ الشجرةَ الثابتةَ في السَّبَّاحِ ، المأكولةَ من كلِّ جانبٍ ، كحالِ الفقيرِ المحتاجِ إلى ما في أيدي الناسِ .

ووجدتُ الفقرَ رأسَ كلِّ بلاءٍ وجالياً إلى صاحبهِ كلِّ مَقتٍ ومعدنٍ

١ أخذن في غيبي : ذمتي في غيابي .

٢ العدم : الفقر .

التَّمِيمَةَ . ووجدتُ الرجلَ إذا افتقرَ أثمُهُ مَنْ كَانَ لَهُ مُؤْتَمِنًا وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنُّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَنًا . فَإِنْ أَذْنَبَ غَيْرُهُ كَانَ هُوَ لِلتَّهْمَةِ مَوْضِعًا . وَليْسَ مِنْ خَلْقٍ هِيَ لِلغَنِيِّ مَدْحٌ إِلَّا وَهِيَ لِلفَقِيرِ ذَمٌّ . فَإِنْ كَانَ شُجَاعًا قِيلَ أَهْوَجُ . وَإِنْ كَانَ جَوَادًا . سُمِّيَ مُبْدِرًا . وَإِنْ كَانَ حَلِيمًا سُمِّيَ ضَعِيفًا . وَإِنْ كَانَ وَقورًا سُمِّيَ بَلِيدًا . وَإِنْ كَانَ صَموتًا سُمِّيَ عَيًّا^١ . وَإِنْ كَانَ لَسِينًا سُمِّيَ مِهذَارًا . فَالمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الحَاجَةِ التي تُنحَوِّجُ صَاحِبِهَا إِلَى المَسْأَلَةِ^٢ وَلَا سِيَّما مَسْأَلَةَ الأَشِيْحَاءِ وَالثَّامِ . فَإِنَّ الكَرِيمَ لو كَلَّفَ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي فَمِّ الأَفْمَى فيُخْرِجَ مِنْهُ سُمَّا فيَتَلَعُهُ كَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ البَخِيلِ اللَّئِيمِ . حَتَّى لَقَدْ جَاءَ فِي قَدِيمِ الأَقَاوِيلِ أَنَّ مَنْ ابْتُلِيَ بِمَرَضٍ فِي جَسَدِهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ مِنَ الحَاجَةِ وَالفَقْرِ .

وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّيْفُ حِينَ أَخَذَ الدَّنَائِرَ فِقَاسَمَهَا التَّاسِيكَ جَعَلَ التَّاسِيكَ نَصِيْبَهُ فِي خَرِيْطَةٍ^٣ عِنْدَ رَأْسِهِ لَمَّا جَنَّ^٤ اللَّيْلُ . فَطَمِعْتُ أَنْ أُصِيبَ مِنْهَا شَيْئًا فَارَدَّهُ إِلَى جُحْرِي وَرَجَوْتُ أَنْ يَزِيدَ ذَلِكَ فِي قُوَّتِي أَوْ يُرَاجِعَنِي بِسَبِيهِ بِعَظْمِ أَصْدِقَائِي . فَانطَلَقْتُ إِلَى التَّاسِيكَ وَهُوَ نَائِمٌ حَتَّى انْتَهَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَوَجَدْتُ الضَّيْفَ يَقْظَانَ وَبِيَدِهِ قَضِيبٌ فَضَرَبَنِي عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً مُوجِعَةً فَانقَلَبْتُ رَاجِعًا إِلَى جُحْرِي . فَلَمَّا سَكَنَ عَنِّي الأَلَمُ هَيَّجَنِي الحِرْصُ وَالشَّرُّهُ فَخَرَجْتُ طَمَعًا كَطَمَعِي الأَوَّلِ . وَإِذَا الضَّيْفُ يَرْصُدُنِي فَضَرَبَنِي بِالقَضِيبِ ضَرْبَةً أَسَالَتْ مِنِّي الدَّمَ فَتَحَامَلْتُ عَلَى نَفْسِي وَتَقَلَّبْتُ ظَهْرًا لِبَطْنِي إِلَى جُحْرِي فَخَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيَّ . فَأَصَابَنِي مِنَ الوَجَعِ مَا بَعْضُ إِلَيَّ المَالِ حَتَّى لَا أَسْمَعُ بِذِكْرِهِ إِلَّا تَدَاخَلَنِي مِنْ ذِكْرِ المَالِ رَعْدَةٌ وَهَيْبَةٌ .

١ عَيًّا : عاجزاً غير قادر على التلطف .

٢ نحوج إلى المسألة : الطلب على سبيل التكرم .

٣ خريطة : وعاء من جلد أو غيره . ٤ جن : أظلم .

ثم تَذَكَّرْتُ فَوَجَدْتُ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَسُوقُهُ الْبَصِيرُ وَالشَّرُّهُ لِأَنَّهَا لَا يَزَالُ يَدْخُلَانِ صَاحِبَهُمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ . وَالْأَشْيَاءُ لَا تَنْفَدُ وَلَا تَنْتَهِي وَلَا يَزَالُ صَاحِبُ الدُّنْيَا فِي بَيْلَةٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ . وَوَجَدْتُ رُكُوبَ الْأَهْوَالِ وَتَجَسُّمَ الْأَسْفَارِ الْبَعِيدَةِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ بَسْطِ الْيَدِ إِلَى السُّخِيِّ بِالْمَالِ فَكَيْفَ بِالشُّحِّحِ بِهِ . وَلَمْ أَرَ كَالرُّضِيِّ شَيْئًا . وَوَجَدْتُ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا : لَا عَقْلَ كَالْتَدْبِيرِ ، وَلَا وَرَعَ كَالْكَفِّ الْأَذَى ، وَلَا حَسَبًا كَحُسْنِ الْخُلُقِ ، وَلَا غِنَى كَالرُّضِيِّ . وَأَحَقُّ مَا صَبَّرَ الْإِنْسَانَ عَلَى الشَّيْءِ نَفْسَهُ . وَأَفْضَلُ الْبِرِّ الرَّحْمَةُ . وَرَأْسُ الْمَوَدَّةِ الْاسْتِرْسَالُ . وَرَأْسُ الْعَقْلِ مَعْرِفَةُ مَا يَكُونُ مِمَّا لَا يَكُونُ . وَقَالُوا : الْحَرَسُ خَيْرٌ مِنَ اللُّسَانِ الْكَذُوبِ . وَالضَّرُّ وَالْفَقْرُ خَيْرٌ مِنَ التَّعَمُّعِ وَالسَّعَةِ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ .

فَصَارَ أَمْرِي إِلَى أَنْ رَضِيتُ وَقَبِيتُ وَانْتَقَلْتُ مِنْ بَيْتِ النَّاسِكِ إِلَى الْبَرِيَّةِ . وَكَانَ لِي صَدِيقٌ مِنَ الْحَامِ فَسَيَقَتْ^٢ إِلَيَّ بِصَدَاقَتِهِ صَدَاقَةَ الْغُرَابِ . وَالتَّمَّتْ إِلَى السُّلْحَفَاءِ فَقَالَ : ثُمَّ ذَكَرَ لِي الْغُرَابُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِيْتَانَكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ آتِيكَ مَعَهُ . وَكَرِهْتُ الْوَحْدَةَ فَلِئِنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيَا يَعْدِلُ صُحْبَةَ الْإِخْوَانِ وَلَا عَمَّ فِيهَا يَعْدِلُ الْبُعْدَ عَنْهُمْ . وَجَرَّبْتُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُتَمَسِّسِ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ الْكَفَافِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ يَسِيرٌ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ إِذَا أُعِينَ بِصِحَّةٍ وَسَعَةٍ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَهَيْتَ لَهُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا لَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْحَاجَةَ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ إِلَّا مَا لِعَیْرِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ حَسْبُ .

فَلَمَّا فَرَعَ الْجُرْدُ مِنْ كَلَامِهِ أَجَابَتْهُ السُّلْحَفَاءُ بِكَلَامِ رَقِيقِي وَقَالَتْ : قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكَ وَمَا أَحْسَنَ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ . إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُكَ تَذَكَّرُ بَقَايَا أُمُورٍ هِيَ

١ حسب : كرم .

٢ سيق : نسيب .

في نفسك من حيث قلة .الك وسوء حالك واغترابك عن موطنك . فاطرح ذلك عن قلبك وأعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل . وأن المريض الذي قد عليم دواء مرضه إن لم يتداو به لم يُغنِ علمه به شيئاً ولم يجد لذائمه راحة ولا خفة . فاستعمل رأيك ولا تحزن لقلّة المال . فإن الرجل ذا المروءة قد يُكرّم على غير مال كالأسد الذي يُهاب وإن كان رايضاً ، والغني الذي لا مروءة له يُهان وإن كان كثير المال كالكلب لا يُحفلُ به وإن طوق وخلخل بالذهب . فلا تكبرنّ عليك عُربتك فإن العاقل لا عُربة له كالأسد الذي لا يُنقلب إلا معه قوته .

فلتحسين تمهّدك لنفسك ، فإنك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك من كل مكان كما يطلب الماء انحداره . وإنما جعل الفضل للحازم البصير . وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه . وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظلّ الغمامة^٢ في الصيف ، وخبلة الأشرار ، وعشيق النساء ، والثيل الكاذب ، والمال الكثير ، فالعاقل لا يحزن لقلّته ، ولكن ماله عقله وما قدّم من صالح عمله . فهو واثق أنه لا يسلب ما عمل ولا يؤاخذ بشيء لم يعمل . وهو خليق أن لا يفعل عن أمر آخرته ، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة وليس بينه وبين أحد أجل معلوم . وأنت عن موعظتي غني بما عندك من العلم . ولكن رأيت أن أفضي من حقك فانت أخونا وما قبلنا مبدول لك . فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ ومردودها عليه وإطافها إياه فرح بذلك وقال : لقد سررتي وأنعمت علي وأنت جديرة أن تُسرّي نفسك بمثل ما سررتي . وإن أولى أهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال ربه من إخوانه وأصدقائه من الصالحين معموراً . ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم

١ تمهّدك : تفقدك .

٢ الغمامة : السحابة .

وَيَسْرُونَهُ وَيَكُونُ مِنْ وِرَاءِ أُمُورِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ بِالْمَرَصَادِ . فَإِنَّ حُسْنَ النَّاءِ لَا يَزَالُ صَاحِبُهُ فِي عَاقِبَتِهِ حَيْثَا تَوَجَّهَ . فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا عَثَرَ لَا يُقْبِلُ عَثْرَتَهُ وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَّا الْكَرِيمُ كَالْفِيلِ إِذَا وَجَلَ لَا تُخْرِجُهُ إِلَّا الْفَيْلَةُ .

فبينما الغرابُ في كلامِهِ والثلاثةُ مُستأنسونَ بعضهم ببعضٍ إذ أقبلَ نحوهم ظمِّيُّ يَسْمَى مَدْعُورًا . فذُعِرَتِ مِنْهُ السُّلْحَفَاءُ فَنَاصَتْ فِي الْمَاءِ . وَدَخَلَ الْجُرْدُ بَعْضَ الْأَجْحَارِ . وَطَارَ الْغَرَابُ فَوَقَعَ عَلَى شَجْرَةٍ . وَانْتَهَى الظَّمِّيُّ إِلَى الْمَاءِ فَشَرِبَ مِنْهُ يَسِيرًا ثُمَّ وَقَفَ خَائِفًا يَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمَالًا . ثُمَّ إِنَّ الْغَرَابَ حَلَقَ فِي السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلظَّمِّيِّ طَالِبٌ ، فَتَنَظَّرَ فَلَمْ يَرِ شَيْئًا ، فَنَادَى الْجُرْدُ وَالسُّلْحَفَاءُ فَخَرَجَا . فَقَالَتِ السُّلْحَفَاءُ لِلظَّمِّيِّ حِينَ رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ وَلَا يَقْرُبُهُ : اشْرَبْ إِنْ كَانَ بِكَ عَطَشٌ وَلَا تَخَفْ فَإِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْكَ . فَدَنَا الظَّمِّيُّ فَرَحِبَتْ بِهِ السُّلْحَفَاءُ وَحَيَّتْهُ وَقَالَتْ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟

قَالَ : كُنْتُ بِهَذِهِ الصَّحَارَى رَاتِمًا^١ . فَلَمْ تَزَلِ الْأَسَاوِرَةُ^٢ تَطْرُدُنِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى رَأَيْتُ الْيَوْمَ شَيْحًا فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصًا . قَالَتْ : لَا تَخَفْ فَإِنَّا لَمْ نَرِ هُنَا قَانِصًا قَطُّ ، وَنَحْنُ فِي هَذَا الْمَكَانِ جَمْعِيْعُونَ نَتَحَدَّثُ وَتَتَأَنَسُّ ، وَنَحْنُ نَبْذُلُ لَكَ وَدُنَا وَمَكَانَنَا ، وَالْمَاءَ وَالْمَرْعىَ كَثِيرًا عِنْدَنَا ، فَارْعَبْ فِي صُحْبَتِنَا .

فَأَقَامَ الظَّمِّيُّ مَعَهُمْ . وَكَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ وَيَتَسَاقَطُونَ الْأَحَادِيثَ وَالْأَخْبَارَ . فَبَيْنَمَا الْغَرَابُ وَالْجُرْدُ وَالسُّلْحَفَاءُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْعَرِيشِ إِذْ غَابَ الظَّمِّيُّ . فَتَوَقَّعُوهُ سَاعَةً فَلَمْ يَأْتِ . فَلَمَّا أَبْطَأَ أَشْفَقُوا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ عَنَتٌ^٣ . فَقَالَ الْجُرْدُ وَالسُّلْحَفَاءُ لِلْغَرَابِ : أَنْظُرْ هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِينَا

١ راتماً : آكلًا وشاربًا ما شاء في خصب وسعة .
٢ الأساور : جمع اسوار وهو الجيد الرمي بالسهم .
٣ عنت : وقوع في أمر شاق .

شيئاً؟ فحلَّقَ الغرابُ في السماءَ فنظَرَ فإذا الظُّيُّ في الحَبَائِلِ مُمْتَنَصاً^١ .
فانقَضَ مُسْرِعاً فأخبرَهما بذلكَ . فقالتِ السُّلْحَفَةُ والغرابُ للجُرَذِ : هذا أمرٌ لا
يُرجى فيه عُيْرُكَ فأغثَ أحاك . فسَمَى الجُرَذُ مُسْرِعاً فأتى الظُّيُّ فقالَ لَهُ : كيف
وَقَعْتَ في هذه الوِرْطَةِ وأنتَ مِنَ الأكياسِ ؟

قالَ الظُّيُّ : ما يُغني حَذَرَ من قَدَرٍ ولا يُجدي الكَيْسُ مَعَ المقاديرِ شيئاً .
فبينما هما في الحديثِ إذ واقتهما السُّلْحَفَةُ فقالَ لها الظُّيُّ : ما أصبَتْ
بمَجِيئِكَ إلينا فإنَّ القانِصَ لو انتهى إلينا وقَطَعَ الجُرَذُ الحَبَائِلَ سَبَقْتُهُ عَدَواً ،
وللجُرَذِ أبحارٌ كثيرةٌ ، والغرابُ يَطِيرُ وأنتَ ثَقِيلَةٌ لا سَميَ لكِ ولا حَرَكَةَ
وأخافُ عليكِ القانِصَ . قالتَ : لا عَيْشَ بعدَ فِراقِ الأحيَّةِ . وإذا فارقَ
الأليفُ أليفَهُ فقد سَلِبَ قِوَادَهُ وحَرِمَ سرورَهُ وعُشِيَ على بَصَرِهِ .

فلم يَنْتَه كَلامُها حتى وافى القانِصُ ووافقَ ذلكَ فَرَاغَ الجُرَذِ من قَطْعِ
الشُّرْكِ . فنجى الظُّيُّ بنفسِهِ ، وطارَ الغرابُ مُحَلِّقاً ، ودَخَلَ الجُرَذُ بعضَ
الأبحارِ ، ولم يَبْقَ غيرُ السُّلْحَفَةِ . ودنا الصَّيَّادُ فوجدَ حياثِلَهُ مُقَطَّعَةً . فنظَرَ
يَمِيناً وشِمالاً فلم يَجِدْ غيرَ السُّلْحَفَةِ تَدِبُ فأخذَها ورَبَطَها . فلم يَلْبَثِ الغرابُ
والجُرَذُ والظُّيُّ أن اجتمعوا فنظروا القانِصَ قد رَبَطَ السُّلْحَفَةَ ، فاشتدَّ حُزْنُهُم
وقالَ الجُرَذُ : ما أَرانا نُجاوِزُ عَقَبَةَ مِنَ البلاءِ إلا صيرنا إلى أشَدِّ منها . ولقد
صَدَقَ الذي قالَ : لا يَزَالُ الإنسانُ مُسْتَمِرّاً في إقبالِهِ ما لم يَعْتُرْ ، فإذا عَثَرَ
لَجَّ^٢ به العِثارُ وإن مشى في جَدَدِ^٣ الأرضِ . وحذري على السُّلْحَفَةِ خبيرِ
الأصدقاءِ التي خَلَّتْها لَيْسَتْ للمُجازاةِ ولا لالتِباسِ مكافأةٍ ولكنها خِلَّةُ الكَرَمِ
والشُّرْفِ . خِلَّةٌ هي أَفْضَلُ من خِلَّةِ الوالِدِ لَوَلَدِهِ . خِلَّةٌ لا يُزِيلُها إلا المَوْتُ .

١ ممتنصاً : مصطاداً .

٢ لجَّ : تَمادى .

٣ جدد الأرض : الأرض الغليظة المستوية وعليها قوهم في المثل من سلك الجدد أمن العثار .

وَيَحُوحُّ لِهَذَا الْجَسَدِ الْمُؤَكَّلِ بِهِ الْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَزَالُ فِي تَسْرُّنٍ وَتَقَلُّبٍ وَلَا يَدُومُ لَهُ شَيْءٌ وَلَا يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ كَمَا لَا يَدُومُ لِلطَّالِعِ مِنَ النُّجُومِ طُلُوعٌ وَلَا لَلْأَيْلِ مِنْهَا أَقْوَالٌ . لَكِنْ لَا يَزَالُ الطَّالِعُ مِنْهَا آفِلًا وَالْأَيْلُ طَالِعًا . وَكَمَا تَكُونُ آلَامُ الْكُلُومِ وَانْتِقَاضُ الْجِرَاحَاتِ كَذَلِكَ حَالِي أَنَا الَّذِي ذَكَرَنِي هَذَا الْبَلَاءُ سَابِقَ أَحْوَالِي كَالْجُرْحِ الْمُنْدَمِلِ نُصِيْبُهُ الضَّرْبَةُ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ آهَانُ أَلَمِ الضَّرْبَةِ وَأَلَمِ الْجُرْحِ . وَأَخْلِقُ بَيْنَ فَقْدِ إِخْوَانِهِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ بِهِمْ أَنْ لَا يَزَالُ مُنْقَصِمًا^٢ الظَّهْرِ حَزِينِ النَّفْسِ .

فَقَالَ الظَّمِيُّ وَالْغَرَابُ لِلْجُرْدِ : إِنَّ حَدَرْنَا وَحَدَرَكْ وَكَلَامَكْ وَإِنْ كَانَ بَلِيغًا لَا يُغْنِي عَنِ السُّلْحَفَةِ شَيْئًا . وَإِنَّهُ كَمَا يُقَالُ إِنَّمَا النَّاسُ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَذُو الْأَمَانَةِ عِنْدَ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ وَالْأَهْلُ وَالْوَالِدُ عِنْدَ الْفَاقَةِ وَالْإِخْوَانُ عِنْدَ النَّوَابِيبِ قَالَ الْجُرْدُ : أَرَى مِنْ الْحَيْلَةِ أَنْ تَذَهَبَ أَيُّهَا الظَّمِيُّ فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنَ الْقَانِصِ كَأَنَّكَ جَرِيحٌ وَيَقَعُ الْغَرَابُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ بِأَكْمَلُ مِنْكَ . وَأَسْمَى أَنَا فَأَكُونُ قَرِيبًا مِنَ الْقَانِصِ مُرَاقِبًا لَهُ لَعَلَّهُ يَرْمِي مَا مَعَهُ مِنَ الْآلَةِ وَيَدْعُ السُّلْحَفَةَ وَيَقْصِدُكَ طَامِعًا فَيْكَ رَاجِبًا تَحْصِيْلَكَ . فَإِذَا دَنَا مِنْكَ فَفَرَّ عَنْهُ رَوِيْدًا بِحَيْثُ لَا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُ فَيْكَ وَأَمْكِنُهُ مِنْ أَحْذِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ حَتَّى يُبْعِدَ عَنَّا . وَانْحُ مِنْ هَذَا النَّحْوِ مَا اسْتَطَعْتَ . فَلِي أَرْجُو أَلَّا يَنْصَرِفَ إِلَّا وَقَدْ قَطَعْتَ الْحَبَائِلَ عَنِ السُّلْحَفَةِ وَأَنْجُو بِهَا .

فَفَعَلَ الظَّمِيُّ وَالْغَرَابُ مَا أَمَرَهُمَا بِهِ الْجُرْدُ وَتَبِعَهُمَا الْقَانِصُ . فَاسْتَطَرَدَ لَهُ^٣ الظَّمِيُّ حَتَّى أْبَعَدَهُ عَنِ الْجُرْدِ وَالسُّلْحَفَةِ ، وَالْجُرْدُ مُقْبِلٌ عَلَى قَطْعِ الْحَبَائِلِ حَتَّى قَطَعَهَا وَنَجَا بِالسُّلْحَفَةِ . وَعَادَ الْقَانِصُ بِجَهْدٍ لَاجِبًا فَوَجَدَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً .

١ المندمل : الذي برئ .

٢ منقسم : منكسر .

٣ استطرد له : أظهر له الانهزام مكيدة .

٤ لاغياً : تبعاً جداً .

فَفَكَّرَ فِي أَمْرِهِ مَعَ الظَّمِيِّ فَظَنَّ أَنَّهُ خَوْلَطًا فِي عَقْلِهِ ، وَفَكَّرَ فِي الظَّمِيِّ وَالغَرَابِ
الَّذِي كَانَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ وَيَقْرِيضُ حَبَائِلَهُ ، فَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْأَرْضِ وَقَالَ : هَذِهِ
أَرْضُ جِنٍّ أَوْ سَحَرَةٍ . فَرَجَعَ مُوَلِّيًا لَا يَلْتَمِسُ شَيْئًا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ . وَاجْتَمَعَ
الغَرَابُ وَالظَّمِيُّ وَالْجُرْدُ وَالسَّلْحَفَةُ إِلَى عَرِيشِهِمْ سَالِمِينَ آمِنِينَ كَأَحْسَنِ مَا
كَانُوا عَلَيْهِ .

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْخَلْقُ مَعَ صَغَرِهِ وَضَعْفِهِ قَدْ قَدَّرَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ مَرَابِطِ
الْهَلَكَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى بِمَوَدَّتِهِ وَخُلُوصِهَا وَثَبَاتِ قَلْبِهِ عَلَيْهَا وَاسْتِمْتَاعِ بَعْضِهِ
بِبَعْضٍ ، فَالْإِنْسَانُ الَّذِي قَدْ أُعْطِيَ الْعَقْلَ وَالْفَهْمَ وَالْأَلْهَمَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَمُنِحَ التَّمْيِيزَ
وَالْمَعْرِفَةَ أَوْلَى وَأَحْرَى بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّعَاوُدِ .
فَهَذَا مِثْلُ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَاتِّلَافِهِمْ فِي الصُّحْبَةِ .

١ خولط في عقله : اضطرب واختل .

باب البوم والغربان

قال دَبشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ
وَتَعَاوَنِهِمْ . فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الْعَدُوِّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَرَّبَهُ وَإِنْ أَظْهَرَ تَضَرُّعاً
وَمَلَقاً^١ . وَأَخْبِرْنِي عَنِ الْعَدُوِّ هَلْ يَصِيرُ صَدِيقاً وَهَلْ يُؤْتَقُ مِنْ أَمْرِهِ بِشَيْءٍ ،
وَكَيْفَ الْعَدَاوَةُ وَمَا ضَرَرُهَا ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَصْنَعَ إِذَا طَلَبَ عَدُوَّهُ
مُصَالَحَتَهُ .

قال الْفَيْلَسُوفُ : مَنْ اغْتَرَّ بِالْعَدُوِّ الَّذِي لَا يَزَالُ عَدُوًّا أَصَابَهُ مَا أَصَابَ
البومَ مِنَ الْغُرْبَانِ . قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قالَ يَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الدَّوْحِ
فِيهَا وَكُرُ أَلْفِ غُرَابٍ وَعَلَيْهِنَّ وَالِ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ . وَكَانَ عِنْدَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَهْفٌ
فِيهِ أَلْفُ بَوْمَةٍ وَعَلَيْهِنَّ وَالِ مِنْهُنَّ . فَخَرَجَ مَلِكُ البومِ لِبَعْضِ عَدَوَاتِهِ
وَرَوْحَاتِهِ وَفِي نَفْسِهِ الْعَدَاوَةُ لِلْمَلِكِ الْغُرْبَانِ وَفِي نَفْسِ الْغُرْبَانِ وَمِلِكِهَا مَثَلُ ذَلِكَ
لِلبومِ . فَأَغَارَ مَلِكُ البومِ فِي أَصْحَابِهِ عَلَى الْغُرْبَانِ فِي أَوْكَارِهَا فَقَتَلَ وَسَبَى
مِنهَا خَلْقاً كَثِيراً . وَكَانَتِ الْغَارَةُ لَيْلاً . فَلَمَّا أَصْبَحَتِ الْغُرْبَانُ اجْتَمَعَتْ إِلَى مَلِكِهَا
فَقُلْنَ لَهُ : قَدْ عَلِمْتَ مَا لَقِينَا اللَّيْلَةَ مِنْ مَلِكِ البومِ وَمَا مِثاً إِلَّا مَنْ أَصْبَحَ قَتِيلاً
أَوْ جريحاً أَوْ مَكْسُورَ الْجَنَاحِ أَوْ مَتَوَفَّ الرِّيشِ أَوْ مَهْلُوبٌ^٢ الذَّنْبِ . وَأَشَدُّ مَا
أَصَابَنَا ضَرًّا جَرَأَتُهُنَّ عَلَيْنَا وَعِلْمُهُنَّ بِمَكَانِنَا ، وَهِنَّ عَائِدَاتٌ إِلَيْنَا غَيْرُ مُنْقَطِعَاتٍ
عَنَّا لِعِلْمِهِنَّ بِمَكَانِنَا . فَلَمَّا نَحْنُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ فَانظُرْ لَنَا وَلِنَفْسِكَ .

١ ملقاً : تودُّداً .

٢ مهلوب : متوفى الملب وهو شعر الذنب .

وكان في الغربان خمسة مُعترفٌ لمن بحسن الرأي يُسندُ اليهنَّ في الأمور وتلقى اليهنَّ مقاليدُ الأحوال . وكان الملكُ كثيراً ما يشاورهنَّ في الأمور ويأخذُ آراءهنَّ في الحوادثِ والتَّوازُلِ^١ . فقالَ الملكُ للأوَّلِ منَ الخمسةِ : ما رأيك في هذا الأمرِ؟ قالَ : رأيٌ قد سبقتنا إليه العلماءُ وذلكَ أنهم قالوا : ليسَ للعدوِّ الحقيقِ الذي لا طاقةَ لك به إلا الهربُ منه . قالَ الملكُ للثاني : ما رأيك أنت في هذا الأمرِ؟ قالَ : ما رأى هذا من الهربِ . قالَ الملكُ : لا ارى لكما ذلكَ رأياً أن نرحلَ عن أوطاننا ونُخْلِيا لعدوِّنا من أوَّلِ نكبةٍ أصابتنا منه ، ولا يَبغِي لنا ذلكَ فنكونَ به لهم عوناً علينا . ولكن نَجْمعُ أمرنا ونستعِدُّ لعدوِّنا ونذكي نارَ الحربِ فيما بيننا وبين عدوِّنا ونَحترِسُ مِنَ الغرَّةِ إذا أقبلَ إلينا فنلقاهُ مُستعِدِّينَ ونُقاتِلُهُ قِتالاً غيرَ مُراجِعِينَ فيه ولا حامِينَ^٢ منه . وتلقى أطرافنا أطرافَ العدوِّ ونَتَحَرَّزُ^٣ بِحُصُوننا ونُدافعُ عدوِّنا بالأناةِ^٤ مرَّةً وبالجلادِ^٥ أخرى حيثُ نُصيبُ فرصتاً وبُغيَّتنا وقد ثبنا عدوِّنا عنَّا .

ثم قالَ الملكُ للثالثِ : ما رأيك أنت؟ قالَ : لا أرى ما قالَ رأياً ، ولكن ثبُّ العيونِ ونَبعثُ الجواسيسَ ونُرسلُ الطلائعَ بيننا وبين عدوِّنا فنعلَمُ هل يُريدُ صلحنا أم يُريدُ حربنا أم يُريدُ الفديَةَ . فإن رأينا أمره أمرَ طامعٍ في مالٍ لم نكره الصلحَ على خراجٍ نُؤدِّيه إليه في كلِّ سنةٍ ندفعُ به عن أنفسنا ونطمئنُّ في أوطاننا . فإن من آراء الملوكِ إذا اشتدَّت شوكةُ عدوِّهم فخافوا على أنفسهم وبلادهم أن يجعلوا الأموالَ جنةً^٦ البلادِ والملكِ والرعيَّةِ .

١ التوازل : الشدائد .

٢ لا حامين : أي غير آفنين ولا يداخلنا عار بذلك .

٣ نتحرزُ : نتحفظ .

٤ الأناة : الرفق والانتظار .

٥ الجلاد : المضاربة بالسيف .

٦ جنة : ستره .

قَالَ الْمَلِكُ لِلرَّابِعِ : فَمَا رَأَيْتَ فِي هَذَا الصُّلْحِ ؟ قَالَ : لَا أَرَاهُ رَأْيًا بَلْ أَنْ
تُفَارِقَ أَوْطَانَنَا وَنَصِيرَ عَلَى الْعُرْبَةِ وَشِدَّةَ الْمَعِيشَةِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُضِيعَ أَحْسَابَنَا^١
وَنُخْضَعَ لِلْعَدُوِّ الَّذِي نَحْنُ أَشْرَفُ مِنْهُ . مَعَ أَنَّ الْيَوْمَ لَوْ عَرَّضْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لَمَا
رَضِينَ مَنَا إِلَّا بِالشُّطْطِ^٢ . وَيُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ : قَارِبُ عَدُوِّكَ بَعْضَ الْمُقَارَبَةِ
لِتَنَالَ حَاجَتَكَ وَلَا تُقَارِبُهُ كُلَّ الْمُقَارَبَةِ فَيَجْتَرِي عَلَيْكَ وَيُضْعِفُ جُنْدَكَ وَتَذِلُّ
نَفْسَكَ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَشْبَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي الشَّمْسِ إِذَا أَمَلَتْهَا قَلِيلًا ; إِذَا
ظَلَّمَهَا ، وَإِذَا جَاوَزَتْ بِهَا الْحَدَّ فِي إِمَالَتِهَا^٣ نَقَصَ الظِّلَّ . وَليْسَ عَدُوْنَا رَاضِيًا
مَنَا بِالذُّونِ فِي الْمُقَارَبَةِ . فَالرَّأْيُ لَنَا وَلِكَ الْمُحَارَبَةِ .

قَالَ الْمَلِكُ لِلخَامِسِ : مَا تَقُولُ أَنْتَ وَمَاذَا تَرَى ؟ الْقِتَالُ أَمْ الصُّلْحُ أَمْ
الْجَلَاءُ عَنِ الْوَطَنِ ؟ قَالَ : أَمَّا الْقِتَالُ فَلَا سَبِيلَ لِلْمَرَّةِ إِلَى قِتَالٍ مَنْ لَا يَقْوَى
عَلَيْهِ . وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ نَفْسَهُ وَعَدُوَّهُ وَقَاتِلَ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ حَمَلَ
نَفْسَهُ عَلَى حَفْنِهَا . مَعَ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَسْتَصْغِرُ عَدُوًّا . فَإِنَّ مَنْ اسْتَصْغَرَ عَدُوَّهُ
اغْتَرَّ بِهِ وَمَنْ اغْتَرَّ بِعَدُوِّهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ . وَأَنَا لِلْيَوْمِ شَدِيدُ الْهَيْبَةِ وَإِنْ أَضْرَبَنَ
عَنْ قِتَالِنَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَهَابُهَا قَبْلَ ذَلِكَ . فَإِنَّ الْحَازِمَ لَا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ عَلَى كُلِّ
حَالٍ . فَإِنْ كَانَ بَعِيدًا لَمْ يَأْمَنُ سَطْوَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ مُكْتَبًا^٤ لَمْ يَأْمَنُ وَثْبَتَهُ ، وَإِنْ
كَانَ وَحِيدًا لَمْ يَأْمَنُ مَكْرَهُ . وَأَحْزَمُ الْأَقْوَامِ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ كَرِهَ الْقِتَالَ لِأَجْلِ
الثَّقَفَةِ فِيهِ . فَإِنَّ مَا دُونَ الْقِتَالِ الثَّقَفَةُ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ . وَالْقِتَالُ
الثَّقَفَةُ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ . وَرَبِّمَا اكْتَفَى عَنْهُ بِالثَّقَفَةِ الْبَسِيرَةَ
وَالكَلَامِ اللَّيِّنِ .

فَلَا يَكُونَنَّ الْقِتَالُ لِلْيَوْمِ مِنْ رَأْيِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ . فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَ مَنْ لَا يَقْوَى
عَلَيْهِ فَقَدْ عَرَّرَ بِنَفْسِهِ . فَإِذَا كَانَ الْمَلِكُ مُحَصِّنًا لِلْأَسْرَاءِ مُتَّخِرًا لِلْوُرَرَاءِ مَهِيًا

١ أحسابنا : مفاجرنا .

٢ الشطط : مجاوزة الحد .

٣ إمالتها : أي إمالتك إياها .

٤ مكتبا : قريبا .

في أعينِ الناسِ بعيداً من أن يُقدَّرَ عليه كانَ خليقاً أن لا يُسَلَبَ صحیحَ ما
أتى من الخيرِ . وأنتَ أيها الملكُ كذلكَ والمَلِكُ يزدادُ برأيِ وُزرائِهِ بصيرةً كما
يزيدُ البحرُ بمُجاوِرِهِ مِنَ الأنهارِ .

وقد استشرتني في أمرِ جوابك مني عنه في بعضه عليّ وقد أجبتك به ،
وفي بعضه سريّ . وللأسرارِ منازلُ منها ما يدخلُ فيه الرهطُ ، ومنها ما
يُستعانُ فيه بالقومِ ، ومنها ما يدخلُ فيه الرجلانِ . ولستُ أرى لهذا السرِّ على
قدرِ مترلته أن يُشاركَ فيه إلا أربعَ آذانٍ ولسانانِ .

فنهضَ الملكُ من ساعتِهِ وخلا به فاستشارهُ . فكانَ أوّلُ ما سألهُ عنه
المَلِكُ أنه قالَ : هل تعلمُ ابتداءَ العداوةِ ما بيننا وبين اليومِ ؟ قالَ : نعم ،
كلمةٌ تكلمَ بها عُرابٌ . قالَ المَلِكُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

مثل الغراب والكراكي

قالَ الغرابُ : زَعَموا أن جاعةً مِنَ الكراكي^١ لم يكنْ لها ملكٌ . فأجمعتْ
أمرها على أن تُملكَ عليها ملكَ اليومِ . فبينما هي في مَجْمَعِها إذ وَقَعَ لها
عُرابٌ . فقالت : لو جاءنا هذا الغرابُ لاستشرناه في أمرنا . فلم يلبثنَ دونَ أن
جاءهنَّ الغرابُ فاستشرنهُ . فقالَ : لو أن الطيرَ بادَتْ مِنَ الأقاليمِ وَقَدَّ
الطاووسُ والبَطُّ والنعامُ والحمامُ مِنَ العالمِ لَمَا اضطررْتُنَّ إلى أن تُملِكْنَ عليكنَّ
اليومَ التي هي أقبَحُ الطيرِ منظرًا وأسوأها خلقًا وأقلها عقلًا وأشدُّها غضبًا وأبعدها
من كلِّ رَحمةٍ . معَ عَماها وما بها مِنَ العشا^٢ في الثَّهارِ وتنتِ رائحتها حتى لا
يُطبقُ طائرٌ أن يَتَقَرَّبَ منها . وأشدُّ من ذلكَ وأقبَحُ أمورِها سفهها^٣ وسوء

١ الكراكي : جمع كركي وهو طائر يقرب من الأوز .

٢ العشا : ضعف البصر .

٣ سفهها : خفتها وطيشها .

أخلاقها . إلا أن تَرينَ أن تُملِكَنها وتُكُنْ أُنْتِ تَدبِّرِنَ الأمورَ دونها برأيِكُنْ وعُقولِكُنْ . فإنَّ وُزراءَ المَلِكِ إذا كانوا صالحينَ وكانَ يُطِيعُهُمُ في آرائِهِمُ لم يَضُرَّ في مُلكِهِ كونهُ جاهِلاً واستقامَ أمرُهُ . كما فَعَلَتِ الأَرنبُ التي زَعَمَتَ أَنَّ القَمَرَ مَلِكُها وَعَمِلَتْ برأيِها . قالَتِ الطَّيْرُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

مثل الأرنب وملك القبيلة

قالَ الغرابُ : زَعَموا أَنَّ أرضاً من أراضي القِبيلةِ تَتَابَعَتْ عليها السَّنونُ وأجَدَبَتْ^١ وقلَّ ماؤها وغارتْ عُيونُها وذوى^٢ نَبْثُها وَيَسَّ شجرُها . فأصابَ القِبيلةَ عَطشٌ شديدٌ . فشكَّونَ ذلكَ إلى ملكِهمُ فأرسلَ المَلِكُ رُسُلَهُ ورُوادَهُ في طَلَبِ الماءِ في كلِّ ناحيةٍ . فَرَجَعَ إليه بعضُ الرُّسُلِ فقالَ له : إني قد وَجَدْتُ بمكانٍ كذا عَيْناً يُقالُ لها عَيْنُ القَمَرِ كَثيرةُ الماءِ . فتوجَّهَ مَلِكُ القِبيلةِ بأصحابِهِ إلى تلكِ العَيْنِ ليشْرَبَ منها هو وقِبيلَتُهُ . وكانتِ العَيْنُ في أرضٍ للأَرانبِ فوطِئَنَ الأَرانبُ في أجحارِهِنَّ فأهلَكَنَ مِنْهُنَّ كثيراً . فاجتَمَعَتِ الأَرانبُ إلى ملكِها فقلنَ له : قد عَلِمَتْ ما أصابنا مِنَ القِبيلةِ . فقالَ : لِيُخْضِرْ مَنْكُنَّ كلُّ ذِي رأيٍ رأياً .

فَتَقَدَّمَتْ أَرنبٌ مِنَ الأَرانبِ يُقالُ لها فَيروزُ ، وكانَ المَلِكُ يَعْرِفُها بحُسنِ الرأيِ والأدبِ . فقالتَ : إن رأى المَلِكُ أن يَبْعَثَنِي إلى القِبيلةِ ويُرْسِلَ معي أَميناً لِيَسْمَعَ وَيَرى ما أقولُ وَيَرَفَعَهُ إلى المَلِكِ . فقالَ لها المَلِكُ : أنتِ أَمينةٌ ونَرَضِي بقولِكَ فانطَلِقي إلى القِبيلةِ وبلِّغي عَنِّي ما تُريدِينَ . واعلمي أَنَّ الرُّسولَ برأيِهِ وعقلِهِ ولينِهِ وَفَضْلِهِ يُخْبِرُ عن عَقْلِ

١ أجديت : أعلت .

٢ ذوى : ذبل .

الرَّسُولِ . فَعَلَيْكَ بِاللَّيْنِ وَالرَّفْقِ وَالْحِلْمِ وَالتَّائِي . فَإِنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي يُلَيِّنُ الصُّدُورَ إِذَا رَفِقَ وَيُخَشِّنُ الصُّدُورَ إِذَا خَرِقَ^١ .

ثُمَّ إِنَّ الْأَرْنَباَ انْطَلَقَتْ فِي لَيْلَةِ قَمَرَاءَ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى الْفَيْلَةِ . وَكَرِهَتْ أَنْ تَدْنُوَ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ يَطَّانَهَا بِأَرْجُلَيْهَا فَيَقْتُلْنَهَا وَإِنْ كُنَّ غَيْرَ مُتَعَمِّدَاتٍ فَأَشْرَفَتْ عَلَى الْجَبَلِ وَنَادَتْ مَلِكَ الْفَيْلَةِ وَقَالَتْ لَهُ : إِنَّ الْقَمَرَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ وَالرَّسُولُ غَيْرُ مَلُومٍ فِيهَا يُبْلَغُ وَإِنْ أَغْلَظَ فِي الْقَوْلِ .

قَالَ مَلِكُ الْفَيْلَةِ : فَمَا الرِّسَالَةُ ؟ قَالَتْ : يَقُولُ لَكَ أَنَّهُ مَنْ عَرَفَ فَضْلَ قُوَّتِهِ عَلَى الضَّعْفَاءِ فَاعْتَرَّ فِي ذَلِكَ بِالْأَقْوِيَاءِ قِيَاسًا لَهُمْ عَلَى الضَّعْفَاءِ كَانَتْ قُوَّتُهُ وَبِالْأَعْيُنِ عَلَيْهِ . وَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ فَضْلَ قُوَّتِكَ عَلَى الدُّوَابِّ فَعَرِّكَ ذَلِكَ فَعَمِدَتْ إِلَى الْعَيْنِ الَّتِي تُسَمَّى بِاسْمِي فَشَرِبَتْ مِنْهَا وَرَنَّقَتْهَا^٢ فَأَرْسَلَنِي إِلَيْكَ فَأَنْذِرْكَ أَنْ لَا تَعُودَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَنَّهُ إِنْ فَعَلْتَ يُعْشِيَّ عَلَى بَصْرِكَ وَيُبْلِفُ نَفْسَكَ . وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ رِسَالَتِي فَهَلِّمْ إِلَى الْعَيْنِ مِنْ سَاعَتِكَ فَإِنَّهُ مُوَافِيكَ بِهَا . فَعَجِبَ مَلِكُ الْفَيْلَةِ مِنْ قَوْلِ الْأَرْنَباَ فَانْطَلَقَ إِلَى الْعَيْنِ مَعَ فَيْرُوزِ الرَّسُولِ . فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا رَأَى ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهَا فَقَالَتْ لَهُ فَيْرُوزُ الرَّسُولِ : خُذْ بِخُرْطُومِكَ مِنَ الْمَاءِ فَاغْسِلْ بِهِ وَجْهَكَ وَاسْجُدْ لِلْقَمَرِ . فَأَدْخَلَ الْفَيْلُ خُرْطُومَهُ فِي الْمَاءِ فَتَحَرَّكَ فَخَيَّلَ إِلَى الْفَيْلِ أَنَّ الْقَمَرَ ارْتَعَدَ . فَقَالَ : مَا شَأْنُ الْقَمَرِ ارْتَعَدَ ؟ أَتَرَبُّهُ غَضِبَ مِنْ إِدْخَالِي خُرْطُومِي فِي الْمَاءِ ؟ قَالَتْ فَيْرُوزُ الْأَرْنَباَ : نَعَمْ . فَسَجَدَ الْفَيْلُ لِلْقَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى وَتَابَ إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعَ وَشَرَطَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ فَيْلَتِهِ .

قَالَ الْغَرَابُ : وَمَعَ مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الْبَوْمِ فَإِنَّ فِيهَا الْخَيْبَ وَالْمَكْرَ وَالْحَدِيدَةَ ، وَشَرَّ الْمَلُوكِ الْمُخَادِعِ . وَمَنْ ابْتُلِيَ بِسُلْطَانِ مُخَادِعٍ وَخَدَمَهُ أَصَابَهُ

١ خرق : جهل وحقق .

٢ رنقتها : كذبتها .

ما أصابَ الأرنَبَ والصَّفَرِدَا حينَ احتَكَمَا إلى السُّورِ . قالتِ الكَراكيُّ :
وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

مثل الأرنب والصفرد والنور

قالَ الغرابُ : كانَ لي جارٌ مِن الصَّفارِدَةِ في أصلِ شجرَةٍ قَريبَةٍ من
وكرِي . وكانَ يُكثِرُ مُواصلَتِي . ثمَ فَقَدْتُهُ فلمَ أَعْلَمُ أينَ غابَ . وطالَت عَينُهُ
عَني . فجاءتْ أرنَبٌ إلى مكانِ الصَّفَرِدِ فسَكَّتُهُ . فَكَهِتُ أنَ أُحاصِمَ الأرنَبَ
فَلَبِثْتُ فيهَ زماناً .

ثمَ إنَ الصَّفَرِدَ عادَ بعدَ زمانٍ فأَتى منزلهُ فَوَجَدَ فيهَ الأرنَبَ فقالَ لها : هذا
المكانُ لي فانتَقِلي مِنه . قالتِ الأرنَبُ : المَسكينُ لي وتحتَ يَدِي وأنتَ مُدَّعٍ
له . فإنَ كانَ لكَ حَقٌّ فاستعدي^٢ عليَّ . قالَ الصَّفَرِدُ : القاضيَ مَنَّا قَريبٌ فَهَلُمَّي
بنا إليه . قالتِ الأرنَبُ : وَمَنِ القاضي ؟ قالَ الصَّفَرِدُ : إنَّ بساحِلِ البَحرِ
سِئوراً مُتَعَبِّداً يَصومُ النَّهارَ وَيَقومُ اللَّيلَ كُلَّهُ ولا يُوذِي دابَّةً ولا يُهريقُ^٣ دَماً .
عَيشُهُ مِنَ الحَشيشِ ومَمَّا يَقذِفُهُ إليهَ البَحرُ . فإنَ أَحَببَتِ تَحَاكَمنا إليهَ وَرَضينا بهِ .
قالتِ الأرنَبُ : ما أَرْضاني بهِ إذا كانَ كما وَصَفْتَ ! فانطَلَقا إليهِ . فَتَبِعَتْهُما
لأنظَرَ إلى حُكومَةِ الصَّوامِ القَوامِ . ثمَ إنَّها ذَهَبا إليهِ فلَمَّا بَصَرَ السُّورَ بالأرنَبِ
والصَّفَرِدِ مُقْبِلينِ نحوهِ انتَصَبَ قائِماً يُصَلِّي وأظهِرَ الخُشوعَ والتَّنسُّكَ . فَعَجِبَ لِمَا
رأى مِن حالِهِ ودَنوا مِنهَ هائِبينِ له^٤ وسَلَّما عليهِ وسألاهُ أنَ يَقضِيَ بينهما . فأمرَها
أنَ يَقصَّا عليهِ القِصَّةَ ففَعَلَا . فقالَ لها : قدَ بَلَغَني الكَبيرُ وَثَقُلْتُ أُذُناي فادنوا

١ الصَّفَرِدُ : طائرٌ مِن خَشاشِ الطيرِ تَكنيه العامَّةُ أبا المَليحِ يَضربُ بهِ المَثَلُ في الجَبنِ .

٢ استعد : استعن .

٣ يهريق : يريقُ أي يَسفِكُ .

٤ هائِبينَ له : أي معظَمينَ إياهِ .

مَتَى فَاسْمِعَانِي مَا تَقُولَانِ . فَذَنُوا مِنْهُ وَأَعَادَا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ وَسَأَلَاهُ الْحُكْمَ .
 فَقَالَ : قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتُمَا وَأَنَا مُبْتَدِلُكُمْ بِالنَّصِيحَةِ قَبْلَ الْحُكُومَةِ . فَأَنَا
 أَمْرُكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَنْ لَا تَطْلُبَا إِلَّا الْحَقَّ . فَإِنَّ طَالِبَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُفْلِحُ وَإِنْ
 قُضِيَ عَلَيْهِ ، وَطَالِبَ الْبَاطِلِ مَخْصُومٌ وَإِنْ قُضِيَ لَهُ . وَلَيْسَ لَصَاحِبِ الدُّنْيَا
 مِنْ دُنْيَاهُ شَيْءٌ لَا مَالٌ وَلَا صَدِيقٌ سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُقَدِّمُهُ . فَلَوْ الْعَقْلُ
 حَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ سَعِيهِ فِي طَلَبِ مَا يَبْقَى وَيَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ غَدًا وَأَنْ يَمَقَّتَ
 بِسَعِيهِ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا . فَإِنَّ مِثْرَةَ الْمَالِ عِنْدَ الْعَاقِلِ بِمِثْرَةِ
 الْمَدْرَا ، وَمِثْرَةَ النَّاسِ عِنْدَهُ فِيمَا يُحِبُّ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَيَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ
 بِمِثْرَةِ نَفْسِهِ .

ثُمَّ إِنَّ السُّنُورَ لَمْ يَزَلْ يَقْصُصُ عَلَيْهِمَا مِنْ جِنْسِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ حَتَّى أَنْسَا إِلَيْهِ
 وَأَقْبَلَا عَلَيْهِ وَذَنُوا مِنْهُ فَوَثَبَ عَلَيْهِمَا فَفَقَّتَهُمَا .

قَالَ الْغَرَابُ : ثُمَّ إِنَّ الْيَوْمَ تَجَمَّعَ مَعِ مَا وَصَفْتُ لَكُنَّ مِنَ الشُّومِ سَائِرِ
 الْعُيُوبِ ، فَلَا يَكُونَنَّ تَمْلِكُ الْيَوْمِ مِنْ رَأْيِكُنَّ .

فَلَمَّا سَمِعَتِ الْكِرَاكِيُّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْغَرَابِ أَضْرَبْنَ عَنْ تَمْلِكِ الْيَوْمِ .
 وَكَانَ هُنَاكَ يَوْمٌ حَاضِرٌ قَدْ سَمِعَ مَا قَالُوا فَقَالَ لِلْغَرَابِ : لَقَدْ وَثَرْتِي^١ أَعْظَمَ
 التَّرَوِّ وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَلَفَ مِنِّي إِلَيْكَ سِوَى أَوْجَبَ هَذَا . وَبَعْدُ فَاَعْلَمُ أَنَّ الْفَأْسَ
 يُقَطَّعُ بِهَا الشَّجَرُ فَيَعُودُ يَنْبُتُ ، وَالسَّيْفُ يَقَطُّعُ اللَّحْمَ ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَنْدَمِلُ .
 وَاللِّسَانُ لَا يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ وَلَا تُوسَى^٢ مَقَاطِعُهُ . وَالتَّصْلُ مِنْ السَّهْمِ يَغِيبُ فِي
 اللَّحْمِ ثُمَّ يُتْرَعُ فَيَخْرُجُ . وَأَشْبَاهُ التَّصْلِ مِنَ الْكَلَامِ إِذَا وَصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ
 تُتْرَعْ وَلَمْ تُسْتَخْرَجْ . وَلِكُلِّ حَرِيْقٍ مُطْفِئٌ . فَلِلنَّارِ الْمَاءُ ، وَلِلسَّمِّ الدَّوَاءُ ،

١ المرر : التراب المتلبد .

٢ وثرقتي : أصبني بعداوة وحقد .

٣ توستى : تداوى .

وللحُزْنِ الصَّبْرُ ، وللعِشْقِ الفُرْقَةُ . ونازُ الحِقْدِ لا تَخْبُو أبداً . وقد غَرَسْتُمْ
معاشرَ الغِرابِ بيننا وبينكم شَجَرَ الحِقْدِ والعَدَاوَةِ والبَغْضَاءِ .
فلَمَّا قَضَى البومُ مِقالَتَهُ وَلى مُغْضَباً فأخْبِرَ مِلكَ البومِ بما جَرى وبِكلِّ ما
كانَ من قَوْلِ الغِرابِ .

ثم إنَّ الغِرابَ نَدِمَ على ما فَرَطَ مِنْهُ وقالَ : واللهِ لَقَدْ خَرِقتُ في قَوْلِي
الذي جَلَبْتُ بِهِ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ على نَفْسِي وقَوْمِي ، وَلَيْتَنِي لم أَخْبِرِ الكِراكيَّ
بِهذِهِ الحَالِ ولم أُعَلِّمها بِهَذَا الأَمْرِ . ولعلَّ أَكْثَرَ الطَّيْرِ قد رَأى أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ
وعَلِمَ أَضْعافَ ما عَلِمْتُ فَمَنَعَهَا مِنَ الكَلَامِ بِمِثْلِ ما تَكَلَّمْتُ اتِّقاءً ما لم أَتَّ
والنَّظَرَ فيما لم أَنْظُرْ فِيهِ من حِذارِ العَوَاقِبِ . ولا سِيَّما إِذا كانَ الكَلَامُ أَفْطَحَ كَلَامِ
يَلْقَى مِنْهُ سَامِعُهُ وَقائِلُهُ المَكْرُوهَ مِمَّا يُورِثُ الحِقْدَ والصَّغِينَةَ . فلا يَنْبَغِي أن
تُسَمَّى أَشْباهُ هَذَا الكَلَامِ كَلَاماً وَلَكِنْ سِهاماً . وإنَّ الكَلَامَ الرَّدِيءَ هو الذي
يَرْمِي صاحِبَهُ في الحِقْدِ والعَدَاوَةِ . والعَاقِلُ إِذا كانَ واثِقاً بِقُوَّتِهِ وفَضيلِهِ لا يَنْبَغِي
أنْ يَحْمِلَهُ ذلِكَ على أنْ يَجْلِبَ العَدَاوَةَ على نَفْسِهِ اتِّكالاً على ما عِنْدَهُ مِنَ الرِّايِ
والقُوَّةِ . كما أَنَّهُ وإنْ كانَ عِنْدَهُ التَّرياقُ لا يَنْبَغِي لهُ أنْ يَشْرَبَ السِّمَّ اتِّكالاً على
ما عِنْدَهُ .

وصاحِبُ العَمَلِ وإنْ قَصَرَ بِهِ القَوْلُ في مُسْتَقْبَلِ الأَمْرِ كانَ فَضْلُهُ بَيِّناً
واضِحاً في العاقِبَةِ والِاخْتِيارِ . وصاحِبُ حُسْنِ القَوْلِ وإنْ أَعْجَبَ النَّاسَ مِنْهُ
حُسْنُ صِفَتِهِ للأُمُورِ لم تُحْمَدْ مَعْبَةً أَمْرُهُ . وأنا صاحِبُ القَوْلِ الذي لا عاقِبَةَ لهُ
مَحْمُودَةٌ . أُوليسَ مِنْ سَقَمِي اجْتِرايَ على التَّكَلُّمِ في أَمْرٍ لم أَسْتَشِرْ فِيهِ أَحداً
ولم أَعْمَلْ فِيهِ رَياً؟ وَمَنْ لم يَسْتَشِرِ النُّصَحاءَ والأولِياءَ وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ
تَكَرُّرِ النَّظَرِ والرُّويَّةِ لم يَنْغَبِطْ بِمَوَاقِعِ رَأْيِهِ . فما كانَ أَغْنايَ عَمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي
هذا وما وَقَعْتُ فِيهِ مِنَ الهَمِّ !

١ مَعْبَةٌ : عاقِبَةٌ .

وعاتبَ الغرابُ نسيحةً بهذا الكلامِ وأشباهِهِ وَذَهَبَ .
 هذا ما سألتني عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين اليوم . وأما القتالُ فقد
 عَلِمْتَ رأيي فيه وكراهيَ له . ولكن عندي من الرأيِ والحيلةِ غيرَ القتالِ ما
 يكونُ فيه الفرجُ إن شاء اللهُ تعالى . فإنه رُبَّ قومٍ قد احتالوا بأرائِهِمْ حتى
 ظفروا بما أرادوا . ومن ذلك حديثُ الجماعةِ الذين ظفروا بالناسِكِ وأخذوا
 عريضَهُ^١ . قالَ الملكُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

مثل الجماعة والناسك وعريضه

قالَ الغرابُ : زَعَمُوا أَنَّ ناسِكاً اشترى عريضاً ضَخماً لِيَجْعَلَهُ قُرْباناً ،
 فانطلقَ به يَقودُهُ ، فَبَصُرَ به قومٌ مِنَ المَكْرَةِ ، فاثَمَرُوا بينهم أن يأخذوه من
 النَّاسِكِ . فعرضَ له أحدُهُمْ فقالَ له : أيُّها النَّاسِكُ ما هذا الكلبُ الذي
 معكَ ؟ ثمَّ عَرَضَ له الآخرُ فقالَ لصاحِبِهِ : ما هذا ناسِكاً لأنَّ النَّاسِكِ لا يَقودُ
 كلباً . فلم يَزَالوا معَ النَّاسِكِ على هذا ومثله حتى لم يَشْكُ أنَّ الذي يَقودُهُ كلبٌ
 وأنَّ الذي باعَهُ إِيَّاهُ سَحَرَ عَيْنَيْهِ . فأطلقَهُ من يَدِهِ فأخذَهُ الجماعةُ المُحتالونَ
 ومَضُوا به .

وإِنَّا ضَرَبْتُ لك هذا المَثَلَ لما أرجو أن نُصِيبَ من حاجتِنَا بالرِّفقِ
 والحيلةِ . وإني أريدُ مِنَ الملكِ أن يَنْقُرني^٢ على رؤوسِ الأَشْهادِ وَيَتَيْفَ ريشي
 وَذَنبِي ثمَّ يَطْرَحني في أصلِ هذه الشجرةِ وَيَرْتَحِلَ الملكُ وجنودُهُ إلى مكانٍ
 كذا . فإني أرجو أني أصبِرُ وأُطَلِّعُ على أحوالِهِمْ ومَوَاضِعِ تَحْصِينِهِمْ وَأَبوابِهِمْ
 فَأُخَادِعُهُمْ وَأَيُّ إِلْجَمٍ لَتَهْجَمَ عَلَيْهِمْ وَنَالَ مِنْهُمْ عَرَضْنَا إن شاء اللهُ تعالى .

١ العريض من المزر : ما أتى عليه سنة وتناول الثبت بعرض شدقه .

٢ ينقرني : يعينني ويضربني .

قَالَ الْمَلِكُ : أَتَطِيبُ نَفْسُكَ لَذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . وَكَيْفَ لَا تَطِيبُ نَفْسِي
لَذَلِكَ وَفِيهِ أَعْظَمُ الرَّاحَاتِ لِلْمَلِكِ وَجُنُودِهِ ! . فَفَعَلَ الْمَلِكُ بِالْغَرَابِ مَا ذَكَرَ ثُمَّ
ارْتَحَلَ عَنْهُ .

فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ أَقْبَلَ مَلِكُ الْبَوْمِ وَجُنْدُهُ لِيُوقِعَ بِالْغُرَبَانِ ، فَلَمْ يَجِدْهُمْ ،
وَهُمْ بِالْانْصِرَافِ . فَجَعَلَ الْغَرَابُ يَتَنُّ وَيَهْمِسُ حَتَّى سَمِعَتْهُ الْبَوْمُ وَرَأَيْتُهُ يَتَنُّ
فَأَخْبِرَنَ مَلِكَهُنَّ بِذَلِكَ . فَقَصَّدَ نَحْوَهُ لِيَسْأَلَهُ عَنِ الْغُرَبَانِ . فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَمَرَ بَوْمًا
أَنْ يَسْأَلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ وَأَيْنَ الْغُرَبَانُ ؟ فَقَالَ : أُمَّا اسْمِي ففَلَانٌ . وَأُمَّا مَا
سَأَلْتَنِي عَنْهُ فإني أَحْسَبُكَ تَرَى أَنَّ حَالِي حَالُ مَنْ لَا يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ . فَقِيلَ لِلْمَلِكِ
الْبَوْمِ : هَذَا وَزَيْرُ مَلِكِ الْغُرَبَانِ وَصَاحِبُ رَأْيِهِ فَسَأَلَهُ بِأَيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بِهِ مَا
صُنِعَ . فَسُئِلَ الْغَرَابُ عَنْ أَمْرِهِ فَقَالَ : إِنَّ مَلِكَنَا اسْتَشَارَ جِاعَتَنَا فَيَكُنُّ ،
وَكَنتُ يَوْمَئِذٍ بِمَحْضَرٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْغُرَبَانُ مَا تَرَوْنَ فِي ذَلِكَ ؟
فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ الْبَوْمِ لِأَنَّهُنَّ أَشَدُّ بَطْشًا وَأَحَدٌ قَلْبًا مِنَّا .
وَلَكِنْ أَرَى أَنْ نَلْتَمِسَ الصُّلْحَ ثُمَّ نَبْذَلَ الْفِدْيَةَ فِي ذَلِكَ فَإِنْ قَبِلَتْ الْبَوْمُ ذَلِكَ
مِنَّا وَإِلَّا هَرَبْنَا فِي الْبِلَادِ . وَإِذَا كَانَ الْقِتَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَوْمِ كَانَ خَيْرًا لَهِنَّ وَشَرًّا
لَنَا . فَالْصُّلْحُ أَفْضَلُ مِنَ الْخُصُومَةِ . وَأَمَرْتُهُنَّ بِالرُّجُوعِ عَنِ الْحَرْبِ وَضَرَبْتُ
لَهُنَّ الْأَمْثَالَ فِي ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُنَّ إِنَّ الْعَدُوَّ الشَّدِيدَ لَا يُرَدُّ بِأَسُهُ مِثْلَ الْخُضُوعِ
لَهُ . أَلَا تَرَيْنَ إِلَى الْحَشِيشِ كَيْفَ يَسْلَمُ مِنْ عَاصِفِ الرِّيحِ لِلْيِينِ وَمَيْلِهِ مَعَهَا
حَيْثُ مَالَتْ وَالشَّجَرُ الْعَاقِي يُكْسِرُ بِهَا وَيُحْطَمُ ؟

فَعَصَيْتَنِي فِي ذَلِكَ وَزَعَمْنَ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ الْقِتَالَ وَأَنَّهُمَّنِّي فِيمَا قُلْتُ وَقُلْنَ :
إِنَّكَ قَدْ مَالَتْ الْبَوْمَ عَلَيْنَا . وَرَدَدْنَ قَوْلِي وَنَصِيحَتِي وَعَدَبْنِي بِهَذَا الْعَذَابِ
وَتَرَكْنِي الْمَلِكُ وَجُنُودَهُ وَارْتَحَلَ وَلَا عِلْمَ لِي بِهِنَّ بَعْدَ ذَلِكَ .

فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكُ الْبَوْمِ مَقَالََةَ الْغَرَابِ قَالَ لِبَعْضِ وُزَرَائِهِ : مَا تَقُولُ فِي

الغراب وما ترى فيه ١ قال : ما أرى إلا المعاجلة له بالقتل فإن هذا أفضل
عُدِدَ الغرaban ، وفي قتله لنا راحة من مكروهه ، وفقدته على الغراب شديد . فإذا
قُتِلَ ثُلٌّ ١ مُلْكُهُمْ وَتَقَوُّضٌ ٢ وما أراه إلا فتحاً قد أرسله الله إليك . ويقال :
مَنْ ظَفِرَ بالسَّاعَةِ التي فيها يَنْجَحُ الْعَمَلُ ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس
بِحكيم ، فإن الأمور مرهونة بأوقاتها . ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك
فأغفله فاته الأمر . وهو خَلِيقٌ أن لا تعود الفرصة ثانية . ومن وجد عدوه
ضعيفاً ولم يُنجز قتله ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه .

قال الملك لوزير آخر : ما ترى أنت في هذا الغراب ؟ قال : أرى أن لا
تقتله لأنه قد لقي من أصحابه ما تراه فهو خَلِيقٌ أن يكون دليلاً لك على
عوراتهم ومُعِيناً لك على ما فيه هلاكهم . وإنَّ العَدُوَّ الدَّلِيلَ الذي لا ناصر له
أهلٌ لأن يُؤمَّنَ ولا سِيماً المُسْتَجِيرِ الخائف . والعَدُوُّ إذا صدرت منه المنفعة
ولو كان غير مُتعمِّدٍ لها أهلٌ لأن يُصَفَّحَ عنه بسببها . كالتاجر الذي عطف على
سارقٍ لاصطلاحه مع امرأته بسببه . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

مثل التاجر وامرأته والسارق

قال الوزير : زعموا أنه كان تاجرٌ كثير المال والمتاع . وكان بينه وبين
امرأته وحشة ٣ . وإنَّ سارقاً تسور بيت التاجر فدخل فوجدته نائماً ووجد
امرأته مستيقظة فذعرت من السارق ووثبت إلى التاجر فالتزمته وأيقظته ولم
يكن يجري بينهما كلام . فاستيقظ التاجر وتكألاً وانحلت الوحشة من بينهما .
ثم بصّر بالسارق فقال : أيها السارق أنت في جِلٍّ مما أخذت من مالي

٣ وحشة : نفور .

٤ تسور : أي صعد على الخائط .

١ ثل : أذهب .

٢ تقوض : اتهم .

ومتاعي ولك الفضل بما أضلحت بيننا . قال ملك اليوم لوزير من وُزرائه : ما تقول في أمر الغراب ؟ قال : أرى أن تستبقيه وتحسين إليه فإنه خَلِيقٌ أن ينصحك . والعاقِلُ يرى مُعاداة بعض أعدائه بعضاً ظفراً حسناً . ويرى اشتغال بعض أعدائه ببعض خلاصاً لنفسه منهم ونجاةً كنجاة النَّاسِكِ مِنَ اللَّصِّ والشَّيْطَانِ حينَ اختلفا عليه . قال الملكُ : وكيف كان ذلك ؟

مثل الناسك واللص والشیطان

قال الوزير : زعموا أن ناسكاً أصاب من رجلٍ بقرةً حلوباً فانطلقَ بها يقودها إلى منزله . فعرض له لصٌ أراد سرقتها وتبعه شيطانٌ يريدُ اختطافه وقد تزيّاً بزِيِّ إنسانٍ . فقال الشيطانُ للصِّ : من أنت ؟ قال : أنا اللصُّ أريدُ أن أسرق هذه البقرةَ مِنَ النَّاسِكِ إذا نامَ ، فمن أنت ؟ قال : أنا الشيطانُ أريدُ أن أختطفه إذا نامَ وأذهبَ به .

فانتهاها على هذا إلى المنزلِ ، فدخلَ النَّاسِكُ منزله ودخلا خلفه وأدخلَ البقرةَ فربطها في زاويةِ المنزلِ وتعمشى ونامَ . فأقبلَ اللصُّ والشيطانُ ياتمرانِ فيه واختلفا على من يبدأ بشغله أولاً . فقال الشيطانُ : إن أنت بدأت بأخذِ البقرةِ ربياً استيقظَ وصاحَ واجتمعَ الناسُ فلا أقدرُ على أخذه . فانتظرتني ربياً آخذهُ وشأنك وما تُريدُ .

فأشفقَ اللصُّ إن بدأ الشيطانُ باختطافه أن يستيقظَ فلا يقدرُ على أخذِ البقرةِ . فقال : لا بل أنظرتني أنت حتى آخذَ البقرةَ وشأنك وما تُريدُ . قال الشيطانُ : رويداً حتى يستغرقَ الناسُ في النومِ فنظفرَ بهما جميعاً .

فلم يزالا في المُجادلةِ هكذا حتى نادى اللصُّ : أيها النَّاسِكُ انتبه فهذا الشيطانُ يريدُ اختطافك . ونادى الشيطانُ : أيها النَّاسِكُ انتبه فهذا اللصُّ يريدُ أن يسرقَ بقرتك . فانتبه النَّاسِكُ وجيرانه بأصواتها وهربَ الحيثانِ .

فقال الوزيرُ الأوَّلُ الذي أشارَ بِقَتْلِ الغرابِ : أَظُنُّ أَنَّ الغرابَ قد خَدَعَكُنَّ ووَقعَ كَلامُهُ في نَفسِ العَبيِّ مَنكُنَّ مَوقِعَهُ فترَدَدَن أَن تَصعِنَ الرأْيَ غيرَ مَوضِعِهِ . فَهَلَّا مَهلاً أَيُّها المَلِكُ عَن هَذا الرأْيِ ولا تُكَونَنَّ لِما تُسَمِعُ أَشدَّ تَصديقاً مَنكَ لِما تَرى ، كَالرجلِ الذي كَذَّبَ بِما رَأى وَصدَّقَ بِما سَمِعَ وانخَدَعَ بِالمُحالِ . قالَ المَلِكُ : وَكيفَ كانَ ذلكَ ؟

مثل الرجل الذي انخدع بالمجال

قالَ الوَوزيرُ : زَعَموا أَنه كانَ رَجُلٌ نائِماً وَحدَهُ إِحدى اللَّيالي في بَيتِهِ . وَإِذا لُصُوصٌ قد دَخَلوا عَلَيهِ البَيتَ وَأَخَذوا في جَمعِ ما فِيهِ مِنَ المَتاعِ حَتى أَفضُوا إِلى حَيْثُ هُوَ نائِماً . فَانْتَبَهَ عَلَيهِم وَخافَ أَن يَقومَ إِلَيهِم حِذارَ أَن يَطُشُوا بِهِ . وَكانَ لِلحُجْرَةِ التي هُوَ فِيها بابٌ آخَرٌ إِلى الطَريقِ . فَقالَ في نَفسِهِ : الرأْيُ أَن لا أَشعِرُهُم بِانْتِباهِي وَلا أَذعِرُهُم حَتى يَفرَغوا مِمَّا يُريدونَ أَخذَهُ وَيُخرِجُوهُ إِلى حَيْثُ يُريدونَ احتِمالَهُ . فَأَخرُجُ مِنَ البابِ الآخِرِ وَأَدعو الجيرانَ فَتَفتَحُهاهُم وَنُوقِعُ بِهِم .

فَلَبِثَ عَلَي فِراشِهِ مُتَناوِماً حَتى فَرَغَ اللُصُوصُ مِمَّا أَرادوا جَمعَهُ وَخَرَجوا يُريدونَ حَمَلَهُ . فَهَمَّ الرَجُلُ بِالقِيامِ فَشَعروا بِحَرَكَتِهِ مِنه فَهَمَسَ إِلَيهِم رَئيسُهُم أَن قِفوا وَلا تَرِتاَعوا وَتعالُوا نَحتَلْ لَه بِحِيلَةٍ نَخدَعُهُ بِها وَلا يَذهَبُ تَعَبُنا ضَياعاً . وَأنا الآنَ رافِعُ صَوتِي وَمُخاطِبُكُم بِشَيءٍ فَصَوِّبوا فِيهِ رَأْيِي وَأجيبوني إِلَيهِ . قالوا : نَعَم . فَرَفَعَ اللُصُّ صَوتَهُ بِحَيْثُ يَسَمِعُ الرَجُلُ وَقالَ لِأَصحابِهِ : إِنِّي أرى هَذا الأَحوالَ ثَقيلَةً شاقَّةً وَما أرى قِيمَتَها تَبي بِحَمَلِها وَالمُخاطِرَةَ فِيها . وَقد ظَهَرَ لي أَنَّ هَذا الرَجُلَ سَيُّءُ الحَوالِ ، وَقد أَخَدتَني عَلَيهِ الشَّفَقَةُ وَالرَّافَةُ ،

١ أفضوا : وصلوا .

وراجعتُ رأيي فيه فرأيتُ أن نَدَعَ له مَتَاعَهُ فَإِنَّهُ يُحَسَبُ عَلَيْنَا سَرِقَةً وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ يَسْتَحِقُّ الْعَنَاءَ وَلَا لَنَا فِيهِ كَثِيرٌ فَائِدَةٌ . وَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ بَعْضِ مَشَاهِيرِ اللَّصُوصِ يَقُولُ : مَنْ عَفَّ عَنْ مَتَاعِ فَقِيرٍ فَلَمْ يَسْرِقْهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ غَفَرَ لَهُ ذَلِكَ سَرِقَةً مِثَّةً عَنِّي . وَإِنَّ أَوْلَى السَّرِقَةِ وَأَحْلَاهَا سَرِقَةُ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا سِيَّمَا ذَوِي الْبُخْلِ وَالْحِرْصِ مِنْهُمْ الَّذِينَ مَا يَبِيتُهُمْ وَخَزَائِنُهُمْ إِلَّا مَدَافِنٌ لِأَمْوَالِهِمْ حَسَبُواهَا فَلَا انْتَفَعُوا بِهَا وَلَا تَرَكَوْهَا لِلنَّاسِ . فَهَلُمَّ بِنَا إِلَى أَحَدِ هَؤُلَاءِ وَدَعُوا هَذَا الْحُطَّامَ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ وَاعْتَنِمُوا أَجْرَ هَذَا الرَّجُلِ الْمِسْكِينِ . فَقَالُوا كُلُّهُمْ : صَدَقْتَ وَأَحْسَنْتَ ! وَتَظَاهَرُوا أَنَّهُمْ يَفْكَوْنَ الْأَحْيَالَ وَخَرَجُوا وَكُنْمُوا يَنْتَظِرُونَ نَوْمَ الرَّجُلِ .

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُمْ وَثِقَ بِهِ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَاعْتَقَدَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا فَسَكَنَ وَنَامَ . وَلَيْتَ اللَّصُوصُ حَتَّى أَيْقَنُوا أَنَّهُ قَدْ نَامَ فَتَارُوا إِلَى الْأَحْيَالِ فَاحْتَمَلُوهَا وَفَازُوا بِهَا .

وَإِنَّا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ إِرَادَةً أَنْ لَا تَكُونَ كَذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي كَذَّبَ بِمَا رَأَى وَصَدَّقَ بِمَا سَمِعَ ، فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْمَلِكُ إِلَى قَوْلِهِ وَأَمَرَ بِالْغَرَابِ أَنْ يُحْمَلَ إِلَى مَنَازِلِ الْبُومِ وَيُكْرَمَ وَيُسْتَوْصَى بِهِ خَيْرًا .

ثُمَّ إِنَّ الْغَرَابَ قَالَ لِلْمَلِكِ يَوْمًا وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْبُومِ وَفِيهِنَّ الْوَزِيرُ الَّذِي أَسَارَ بِقَتْلِهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ قَدْ عَلِمْتَ مَا جَرَى عَلَيَّ مِنَ الْغِرْبَانِ وَإِنَّهُ لَا يَسْتَرِيحُ قَلْبِي دُونَ الْأَخْذِ بِتَأْرِي مِنْهُنَّ . وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي ذَلِكَ فإِذَا بِي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا رُمْتُ لِأَنِّي غَرَابٌ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا : مَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يُحْرِقَهَا فَقَدْ قَرَّبَ لِلَّهِ اعْظَمَ الْقَرْبَانَ لَا يَدْعُو عِنْدَ ذَلِكَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ . فَإِنَّ رَأْيَ الْمَلِكِ أَنْ يَأْمُرَنِي فَأُحْرِقَ نَفْسِي وَأَدْعُو رَبِّي أَنْ يُحَوِّلَنِي يَوْمًا فَأَكُونَ أَشَدَّ عِدَاوَةً لِلْغِرْبَانِ وَأَقْوَى بِأَسَأَ عَلَيْهِنَّ لَعَلِّي أَنْتَقِمُ مِنْهُنَّ .

فَقَالَ الْوَزِيرُ الَّذِي أَسَارَ بِقَتْلِهِ : مَا أَشْبَهَكَ فِي خَيْرٍ مَا تُظْهِرُ وَشَرًّا مَا تُضْمِرُ

بِالْحَمْرَةِ الطَّيِّبَةِ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ الْمُنْفَعِ فِيهَا السُّمُّ . أَرَأَيْتَ لَوْ أَحْرَقْنَا جِسْمَكَ
بِالنَّارِ أَنْ جَوْهَرَكَ وَطَبَعَكَ مُتَغَيِّرٌ؟ أَوَلَيْسَتْ أَخْلَاقُكَ تَدُورُ مَعَكَ حَيْثُ دُرْتَ
وَتَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْلِكَ وَطَبِيتِكَ؟ كَالْفَأْرَةِ الَّتِي خَيْرَتْ فِي الْأَزْوَاجِ بَيْنَ
الشَّمْسِ وَالرِّيحِ وَالسَّحَابِ وَالْجَبَلِ فَلَمْ تَزَلْ تَتَخَيَّرُهُمْ حَتَّى رَجَعْتَ إِلَى أَصْلِهَا
وَتَزَوَّجْتَ الْجُرْدَ . قِيلَ لَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ .

مثل الفأرة التي خيرت بين الأزواج

قال : زعموا أنه كان ناسيك^١ مستجاب الدعوة . فبينما هو ذات يوم
جالس على ساحل البحر إذ مرّت به جدأة^٢ في رجلها درص^٢ فأرة . فوقعت
منها عند الناسيك وأدركتها لها رحمة فأخذها ولفها في ورقة وذهب بها إلى
منزله . ثم خاف أن تشقّ على أهله ترييتها فدعا ربه أن يحولها جارية
فتحوّلت جارية حسناء . فانطلق بها إلى امرأته فقال لها : هذه ابنتي فاصنعي
معهما صنيعك بولدي .

فلما كبرت قال لها الناسيك : يا بنية اختاري من أحببت حتى أزوجك
إياه . فقالت : أمّا إذا خيرتني فإني أختار زوجاً يكون أقوى الأشياء . فقال
الناسيك : لعلك تُريدين الشمس . ثم انطلق إلى الشمس فقال : أيها الخلق
العظيم لي جارية وقد طلبت زوجاً يكون أقوى الأشياء فهل أنت متزوّجها؟
فقالت الشمس : أنا أدلك على من هو أقوى مني ، السحاب الذي يعطيني
ويردّ جرم شعاعي ويكسيف أشعة أنوارني .

فذهب الناسيك إلى السحاب فقال له ما قال للشمس . فقال

١ جدأة : طائر يصطاد الجرذان ويعرف عند العامة بالشوحة .

٢ درص : ولد الفأرة .

السَّحَابُ : وأنا أدُّلِكَ على مَنْ هو أقوى مِنِّي ، فاذهَبْ إلى الرِّيحِ التي تُقبِلُ
بي وتُدبِرُ وتذهبُ بي شرقاً وغرباً .

فجاءَ النَّاسِكُ إلى الرِّيحِ فقالَ لها كقولِهِ للسَّحابِ . فقالتَ : وأنا أدُّلِكَ
على مَنْ هو أقوى مِنِّي وهو الجبَلُ الذي لا أقدرُ على تحريكِهِ .

فمضى إلى الجبَلِ فقالَ له القولَ فأجابَهُ الجبَلُ وقالَ له : أنا أدُّلِكَ على
مَنْ هو أقوى مِنِّي ، الجرذُ الذي لا أستطيعُ الامتناعَ منه إذا خرَّقني واتَّخذني
مَسْكِناً .

فانطلقَ النَّاسِكُ إلى الجرذِ فقالَ له : هل أنت مُتزوِّجٌ هذه الجاريةُ ؟
فقالَ : وكيف أتزوِّجُها ومَسكني ضيقٌ ؟ وإنما يتزوِّجُ الجرذُ الفأرةَ . فدعا
النَّاسِكُ رَبَّهُ أن يُحوِّلها فأرةً كما كانت وذلك يرضى الجاريةَ ، فأعادها اللهُ إلى
عُنصرِها الأولِ فانطلقتْ معَ الجرذِ .

فهذا مثلكَ أيُّها المُخادِعُ . فلم يَلتفتْ ملكُ البومِ إلى ذلك القولِ ورفقَ
بالغرابِ ولم يزدَدْ له إلا إكراماً . حتى إذا طابَ عيشُهُ ونبتَ ريشُهُ واطلَعَ على
ما أرادَ أن يطلَعَ عليه راغاً رَوْعَةً فأتى أصحابَهُ بما رأى وسمعَ ، فقالَ
للملِكِ : إني قد فرغتُ ممَّا كنتُ أريدُ ولم يبقَ إلا أن تسمعَ وتطيعَ . قالَ
له : أنا والجنْدُ تحتَ أمركَ فاحتكمُ كيف شئتَ .

قالَ الغرابُ : إنَّ البومَ بمكانٍ كذا في جبَلٍ كثيرِ الحطبِ . وفي ذلك
الموضعِ قطعُ مِنَ العنَمِ معَ رجلٍ راغٍ ونحنُ مُصيبون^٢ هناكَ ناراً ونلقبها في
أثقابِ البومِ ونَقْدِفُ عليها من يابسِ الحطبِ وتزوِّجُ عليها ضرباً بأجنحتينا
حتى تضطرمَّ النارُ في الحطبِ فمَنْ خرجَ منهنَّ احترقَ ومن لم يخرجْ ماتَ
بالدُّخانِ موضِعَهُ .

١ راغ : مال بجيلة .

٢ مصيبون : واجدون .

فَفَعَلَ الْغِرْبَانُ ذَلِكَ فَأَهْلَكَنَ الْيَوْمَ قَاطِبَةً وَرَجَعْنَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِنَّ سَالِمَاتٍ
أَمِنَاتٍ .

ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ الْغِرْبَانِ قَالَ لِذَلِكَ الْغَرَابِ : كَيْفَ صَبَرْتَ عَلَىٰ صُحْبَةِ الْيَوْمِ
وَلَا صَبِرَ لِلْأَخْيَارِ عَلَىٰ صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ؟ قَالَ الْغَرَابُ : إِنَّ مَا قُلْتَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ
لِكَذَلِكَ . فَإِنَّهُ يُقَالُ : لَدَعُ النَّارَ أَيْسَرُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ وَالْإِقَامَةَ
مَعَهُمْ . وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا أَنَاهُ الْأَمْرُ الْفَطْعُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَخَافُ مِنْ عَدَمِ
نَحْمَلِهِ الْجَائِحَةَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ
أَنْ يُعْقِبَهُ صَبْرُهُ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ وَكَثِيرَ الْخَيْرِ ، فَلَمْ يَجِدْ لِذَلِكَ أَلْمًا وَلَمْ تَكْرَهُ نَفْسُهُ
الْحُضُوعَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ حَتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ فَيَعْتَبِطَ بِخَاتِمَةِ أَمْرِهِ وَعَاقِبَةِ صَبْرِهِ .
فَقَالَ الْمَلِكُ : أَخْبِرْنِي عَنْ عُقُولِ الْيَوْمِ . قَالَ الْغَرَابُ : لَمْ أَجِدْ فِيهِنَّ
عَاقِلًا إِلَّا الَّذِي كَانَ يَحْتُمُّهُ عَلَى قَتْلِي وَكَانَ حَرَّصَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ مِرَارًا فَكُنَّ
أَضْعَفَ شَيْءٍ رَأْيًا فَلَمْ يَنْظُرْنَ فِي أَمْرِي وَيَذْكُرْنَ أَنِّي قَدْ كُنْتُ ذَا مِزَلَّةٍ فِي الْغِرْبَانِ
وَأَنِّي أَعَدُّ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ . وَلَمْ يَتَخَوَّنَ مَكْرِي وَحِيلَتِي وَلَا قِبْلَانَ مِنَ النَّاصِحِ
الشَّفِيقِ وَلَا أَحْفَيْنَ دُونِي أَسْرَارُهُنَّ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ
يُحَصِّنَ أُمُورَهُ مِنْ أَهْلِ النَّيْمَةِ وَلَا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى مَوَاضِعِ سِرِّهِ . وَقَدْ
قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ عَدُوِّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْمَاءِ الَّذِي يَشْرَبُهُ
وَيَغْتَسِلُ بِهِ ، وَالْفِرَاشِ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ ، وَالْحُلَّةِ الَّتِي يَلْبَسُهَا ، وَالذَّابَّةِ الَّتِي
يَرْكَبُهَا ، وَلَا يَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا الثَّقَةَ الْأَمِينَ السَّالِمَ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ وَيَكُونُ
بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُ . لِأَنَّ عَدُوَّهُ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ نِقَاتِهِ .
فَرُبَّمَا كَانَ أَحَدُهُمْ لِعَدُوِّهِ صَدِيقًا فَيَصِلُ الْعَدُوُّ إِلَى مُرَادِهِ مِنْهُ .

فَقَالَ الْمَلِكُ : مَا أَهْلَكَ الْيَوْمَ فِي نَفْسِي إِلَّا الْبَغْيُ وَضَعْفُ رَأْيِ الْمَلِكِ
وَمُؤَافَقَتُهُ وَزُرَاءُ السُّوءِ . فَقَالَ الْغَرَابُ : صَدَقْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَلْبًا ظَفِيرٌ أَحَدٌ

١ الجائحة : المصيبة العظيمة التي تهلك الناس .

بغنى ولم يطع . وقلماً حرص الرجل على النساء ولم يفتضح . وقل من أكثر
 من الطعام ولم يمرض . وقل من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في
 المهالك . وكان يقال : لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء . ولا الحب في
 حسن الصديق . ولا السئي الآداب في الشرف . ولا الشحيح في البر . ولا
 الحريص في قلة الذنوب . ولا الملك المختال المتهاون بالأمور الضعيف
 الوزراء في ثبات ملكه وصلاح رعيته .

قال الملك : لقد احتملت مشقة شديدة في تصنعك لليوم وتصرعك
 إليهن . قال الغراب : إنه من احتمل مشقة يرجو نفعها ونحى عن نفسه
 الأنفة^١ والحمية^٢ ووطنها على الصبر حيد غب^٣ رأيه . وإنه يقال : لو
 أن رجلاً حمل عدوه على عنقه وهو يرجو هلاكه وراحته منه لكان ذلك عنده
 خفيفاً حيناً كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره وشجع بذلك
 وعاش . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

مثل الأسود وملك الضفادع

قال الغراب : زعموا أن أسوداً من الحيات كبر وضعف بصره وذهبت
 قوته فلم يستطع صيداً ولم يقدر على طعام . وإنه انساب يلتمس شيئاً يعيش
 به حتى انتهى إلى عين كثيرة الضفادع قد كان يأتيها قبل ذلك فيصيب من
 ضفادعها رزقه . فرمى نفسه قريباً منهن مظهرًا للكآبة والحزن . فقال له
 أحدها : ما لي أراك أيها الأسود كئيباً حزيناً ؟ قال : ومن أخرى بطول

١ الأنفة : عزة النفس .

٢ الحمية : النخوة والمروءة والحماسة .

٣ غب : عاقبة .

الحزنِ مني ؟ وإنما كان أكثرَ معيشتي مما كنتُ أصيبُ مِنَ الضَّفادِعِ فابْتُئْتُ
ببلاءِ حُرْمَتِ عليٍّ الضَّفادِعُ من أجلِهِ حتى إني إذا التَّقَيْتُ ببعضِها لا أقدرُ على
إمساكِه .

فانطلقَ الضَّفدَعُ إلى ملكِ الضَّفادِعِ فبَشَّرَهُ بما سَمِعَ مِنَ الأسودِ . فأتى
ملكُ الضَّفادِعِ إلى الأسودِ فقالَ له : كيف كان أمرُكَ ؟ قالَ : سَعَيْتُ منذُ
أيامٍ في طَلَبِ ضِفدَعٍ وذلكَ عندَ المساءِ فاضطَّررْتُه إلى بيتِ ناسِكٍ ودَخَلْتُ
في أثرِهِ في الظُّلْمَةِ ، وفي البيتِ ابنُ النَّاسِكِ ، فأصَبْتُ إصْبَعَهُ فَظَنَنْتُ أَنَّها
الضَّفدَعُ فَلَدَغَتْهُ فَاتَ . فَخَرَجْتُ هَارِباً . فَتَبِعَنِي النَّاسِكُ في أثري ودَعَا عليٍّ
ولَعَنَنِي وقالَ : كما قَتَلْتَ ابْنَ البريِّ ظُلماً وتَعَدَّيَا أدعو عليكَ أن تَذِلَّ وتَصِيرَ
مَرْكَباً لملكِ الضَّفادِعِ فلا تَسْتَطِيعَ أخذَها ولا أكلَ شيءٍ منها إلا ما يَتَّصِدُقُ به
عليكَ ملكُها . فَأَتَيْتُ إِيكَ لَتَرْكَبَنِي مُعِيراً بذلكَ راضياً به .

فَرَغِبَ ملكُ الضَّفادِعِ في رُكوبِ الأسودِ وظَنَّ أنَّ ذلكَ فخرٌ له وشرفٌ
ورِفْعَةٌ . فزَكِيَهُ واستطابَ ذلكَ . فقالَ له الأسودُ : قد عَلِمْتَ أَيُّها الملكُ أَني
مَحْرُومٌ فاجعَلْ لي رِزقاً أَعِيشُ به . قالَ ملكُ الضَّفادِعِ : لَعَمري لا بُدَّ لكَ
من رِزقٍ يَقُومُ بِكَ إذا كنتَ مَرْكَبِي . فَأَمَرَ له بِضِفْدَعَيْنِ يُؤَخِّدَانِ في كُلِّ يَوْمٍ
ويُدْفَعَانِ إليه . فعاشَ بذلكَ ولم يَضُرَّهُ خُضُوعُهُ للعدُوِّ الذَّلِيلِ بل انتَفَعَ بذلكَ
وصارَ له رِزقاً ومعيشَةً .

وكذلكَ كانَ صَبْرِي على ما صَبَرْتُ عليه التَّيَّاساً لهذا النَّفْعِ العَظِيمِ الذي
اجتَمَعَ لنا فيه الأَمْنُ والطَّفَرُ وهلاكُ العَدُوِّ والرَّاحَةُ منه . وَوَجَدْتُ صَرَعَةَ اللِّينِ
والرَّفِقِ أَسْرَعَ وأشدَّ استِئصالاً للعدُوِّ من صَرَعَةِ المَكابِرَةِ والعِنَادِ . فَإِنَّ النَّارَ لا
تَزِيدُ بِجِدَّتِها وَحَرَّها إذا أَصَابَتِ الشَّجَرَةَ على أن تُحْرِقَ ما فوقَ الأرضِ منها .
والماءُ بليتهِ وَبَرَدِهِ يَسْتَأْصِلُ ما تحتَ الأرضِ منها . ويُقالُ : أربعةُ أشياءَ لا

١ صرعة : أي اهلاهِ .

يُسْتَقَلُّ قَلِيلُهَا : النَّارُ وَالْمَرَضُ وَالْعَدُوُّ وَالِدَيْنُ .

قَالَ الْغَرَابُ : وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَأَذِيهِ وَسَعَادَةِ جَدِّهِ . وَإِنَّ
كَانَ يُقَالُ : إِذَا طَلَّبَ اثْنَانِ أَمْرًا ظَفَرَ بِهِ مِنْهَا أَفْضَلُهَا مُرْوَةً . فَإِنْ اعْتَدَلَا فِي
الْمُرْوَةِ فَأَشَدُّهُمَا عَزْمًا . فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي الْعَزْمِ فَأَسْعَدُهُمَا جَدًّا . وَكَانَ يُقَالُ :
مَنْ حَارَبَ الْمَلِكَ الْحَازِمَ الْأَرِيْبَ الْمُتَضَرِّعَ الَّذِي لَا تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ وَلَا تُدْهِشُهُ
الصَّرَّاءُ كَانَ هُوَ دَاعِي الْحَتْفِ إِلَى نَفْسِهِ . وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِثْلَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
الْعَالِمُ بِفُرُوضِ الْأَعْمَالِ وَمَوَاضِعِ الشَّدَّةِ وَاللَّيْنِ وَالغَضَبِ وَالرُّضَى وَالْمُعَاجَلَةِ
وَالْأَنَاقَةِ النَّاطِرُ فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَعَدِيهِ وَعَوَاقِبِ أَعْمَالِهِ .

قَالَ الْمَلِكُ لِلْغَرَابِ : بَلْ بَرَأَيْكَ وَعَقَلِكَ وَنَصِيحَتِكَ وَيُمْنِ طَالِعِكَ كَانَ
ذَلِكَ . فَإِنَّ رَأْيَ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ الْعَاقِلِ الْحَازِمِ أْبْلَغُ فِي هَلَاكِ الْعَدُوِّ مِنَ الْجُنُودِ
الْكَثِيرَةِ مِنْ ذَوِي الْبَأْسِ وَالتَّجْدَةِ وَالْعَدَدِ وَالْعُدُوِّ . وَإِنَّ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِكَ
عِنْدِي طَوْلَ لَيْثِكَ^٢ بَيْنَ ظَهْرَانِي^٣ الْيَوْمِ تَسْمَعُ الْكَلَامَ الْغَلِيظَ ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ بَيْنَهُنَّ
بِكَلِمَةٍ .

قَالَ الْغَرَابُ : لَمْ أَزَلْ مُتَمَسِّكًا بِأَذْيِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَصْحَبَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ
بِالرَّفْقِ وَاللَّيْنِ وَالْمُبَالَغَةِ وَالْمَوَاتَاةِ^٤ .

قَالَ الْمَلِكُ : أَصْبَحْتُ وَقَدْ وَجَدْتُكَ صَاحِبَ الْعَمَلِ وَوَجَدْتُ غَيْرَكَ مِنَ
الْوَزَرَاءِ أَصْحَابَ أَقَاوِيلَ لَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ . فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكَ مِثَّةً
عَظِيمَةً لَمْ نَكُنْ قَبْلَهَا نَجِدُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا التُّومِ وَلَا الْفَرَارِ . وَكَانَ
يُقَالُ : لَا يَجِدُ الْمَرِيضُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَالتُّومِ حَتَّى يَبْرَأَ . وَلَا الرَّجُلُ الشَّرِيهَ
الَّذِي قَدْ أَطْمَعَهُ سُلْطَانُهُ فِي مَالِهِ وَعَمَلِهِ فِي يَدِهِ حَتَّى يُنْجِزَهُ لَهُ . وَلَا الرَّجُلُ
الَّذِي قَدْ أَلْحَ عَلَيْهِ عَدُوُّهُ وَهُوَ يَخَافُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً حَتَّى يَسْتَرِيحَ مِنْهُ قَلْبُهُ .

٣ ظهрани : أي في وسطهم .

٤ المواتاة : الملاينة والمواقفة .

١ الأريب : الحاذق بكل عمل .

٢ لبيك : اقامتك .

وَمَنْ وَضَعَ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ عَنِ يَدَيْهِ أَرَّاحَ نَفْسَهُ . وَمَنْ أَمِنَ عَدُوَّهُ نَلَّحَ صَدْرَهُ .
قَالَ الْغَرَابُ : أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّكَ أَنْ يُمَتِّعَكَ بِسُلْطَانِكَ وَأَنْ
يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ صَلَاحَ رَعِيَّتِكَ وَيُشْرِكَهُمْ فِي قُرَّةِ الْعَيْنِ بِمُلْكِكَ . فَإِنَّ الْمَلِكَ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مُلْكِهِ قُرَّةَ عُيُونٍ رَعِيَّتِهِ فَمَثَلُهُ مَثَلُ زَنْمَةِ الْعَتْرِ الَّتِي يَمُصُّهَا الْجَدْيُ
وَهُوَ يَحْسِبُهَا حَلْمَةً الصَّرْعِ^٢ . فَلَا يُصَادِفُ فِيهَا خَيْرًا .

قَالَ الْمَلِكُ : أَيُّهَا الْوَزِيرُ الصَّالِحُ كَيْفَ كَانَتْ سِيرَةُ الْيَوْمِ وَمِلْكُهَا فِي
حُرُوبِهَا وَفِيهَا كَانَتْ فِيهِ مِنْ أُمُورِهَا ؟

قَالَ الْغَرَابُ : كَانَتْ سِيرَتُهُ سِيرَةَ بَطْرٍ وَأَشْرٍ^٣ وَخِيَلَاءٍ وَعَجْزٍ وَفَخْرٍ مَعَ مَا
فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الدَّمِيمَةِ . وَكُلُّ أَصْحَابِهِ وَوُزَرَائِهِ شَبِيهٌ بِهِ إِلَّا الْوَزِيرَ الَّذِي كَانَ
يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِي فَإِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا أَرِييًا فَيَلْسُوفًا حَازِمًا قَلَمًا يُرَى مَثَلُهُ فِي عُلُوِّ
الْهِمَّةِ وَكَمَالِ الْعَقْلِ وَجُودَةِ الرَّأْيِ .

قَالَ الْمَلِكُ : وَأَيُّ خَصَلَةٍ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَى عَقْلِهِ . قَالَ : خَلْتَانِ إِحْدَاهُمَا رَأْيَهُ
فِي قَتْلِي وَالْأُخْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ صَاحِبَهُ نَصِيحَتَهُ وَإِنْ اسْتَقْلَمَهَا . وَلَمْ يَكُنْ
كَلَامُهُ كَلَامَ عُنْفٍ وَقَسْوَةٍ وَلَكِنَّهُ كَلَامٌ رَفِيقٍ وَلِينٍ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ
عُيُوبِهِ وَلَا يُصْرِّحُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ بَلْ يَضْرِبُ لَهُ الْأَمْثَالَ وَيُحَدِّثُهُ بِعَيْبِ غَيْرِهِ
فَيَعْرِفُ عَيْبَهُ فَلَا يَجِدُ مِلْكُهُ إِلَى الْعَضْبِ عَلَيْهِ سَيْلًا . وَكَانَ مِمَّا سَمِعْتُهُ يَقُولُ
لِلْمَلِكِ أَنَّهُ قَالَ : لَا يَتَّبِعْنِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْفَلَ عَنِ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ جَسِيمٌ لَا يَظْفَرُ بِهِ
مِنَ النَّاسِ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْحَزَمِ . فَإِنَّ الْمَلِكَ عَزِيزٌ فَمَنْ ظَفَرَ بِهِ
فَلْيُحْسِنِ حِفْظَهُ وَتَحْصِيئَهُ . فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ إِنَّهُ فِي قَلَّةِ بَقَائِهِ بِمَثَلِهِ قَلَّةُ بَقَاءِ الظِّلِّ
عَنْ وَرَقِ الثُّيْلُوفِ . وَهُوَ فِي خَفَةِ زَوَالِهِ وَسُرْعَةِ إِقْبَالِهِ وَإِدْبَارِهِ كَالرَّيْحِ . وَفِي

١ زَنْمَةٌ : لِحْمَةٌ تَتَدَلَّى مِنْ عِقْقِ الْعَتْرِ .

٢ الصَّرْعُ : لَذَاتُ الظِّلْفِ كَالثَّدِيِّ لِلْمَرْأَةِ وَالْحَلْفِ لِلنَّاقَةِ .

٣ أَشْرٌ : نَزَقٌ وَاجْتِيَالٌ .

قَلَّةٌ ثَبَاتِهِ كَاللَّيْبِ^١ مَعَ النَّامِ . وَفِي سُرْعَةِ اضْمِحْلَالِهِ كَحَبَابِ الْمَاءِ مِنْ وَقَعِ
الْمَطَرِ .

فَهَذَا مَثَلُ أَهْلِ الْعِدَاوَةِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِمْ وَإِنْ هُمْ أَظْهَرُوا تَوَدُّدًا
وَتَضَرُّعًا .

١ اللّيب : العاقل .

باب القرد والغليم

قال دَبشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدْبَا الْفَيْلَسُوفِ : قد سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَلِذَا ظَفِرَ بِهَا أَضَاعَهَا .
قال الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ طَلَبَ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْإِحْتِافِ بِهَا . وَمَنْ ظَفِرَ بِالْحَاجَةِ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيَامَ بِهَا أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْغَيْلِمَ . قال الْمَلِكُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

قال يَدْبَا : زَعَمُوا أَنَّ قَرْدًا كَانَ مَلِكَ الْقَرْدَةِ يُقالُ لَهُ مَاهِرٌ . وكانَ قد كَبِرَ وَهَرِمَ . فوثبَ عليه قَرْدٌ شابٌّ من بيتِ الْمَلِكَةِ فَتَغَلَّبَ عليه وَأَخَذَ مَكَانَهُ . فخرَجَ هارِبًا على وَجْهِهِ حَتَّى انْتَهَى إلى السَّاحِلِ ، فوجدَ شَجَرَةً من شَجَرِ التَّيْنِ ، فارتقى إليها وجعلها مَقامَهُ . فبينما هو ذاتَ يَوْمٍ يأكلُ من ذلكَ التَّيْنِ إِذ سَقَطَتْ من يَدِهِ تَيْتَةٌ في الماءِ فَسَمِعَ لها صَوْتًا وإيقاعًا . فجعلَ يأكلُ ويرمي في الماءِ ، فأطربَهُ ذلكَ ، فأكثرَ من تطريحِ التَّيْنِ في الماءِ وثُمَّ غَلِمَ كُلَّما وَقَعَتْ تَيْتَةٌ أَكَلَهَا . فلما كَثُرَ ذلكَ ظَنَّ أَنَّ الْقَرْدَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذلكَ لِأَجْلِهِ ، فَرَغِبَ في مُصَادَقَتِهِ وَأَنَسَ إليه وكَلَّمَهُ ، وألِفَ كُلُّ واحدٍ منها صاحِبَهُ .

وطالت غَيَّةُ الْغَيْلِمِ عن زَوْجَتِهِ ، فجزَعَتْ عليه وشكَّتْ ذلكَ إلى جاريةِها وقالتَ : قد خِفتُ أن يكونَ قد عَرَضَ له عارِضٌ سوءٌ فاغتاله . فقالتَ لها : إِنَّ زَوْجَكَ في السَّاحِلِ قد أَلِفَ قَرْدًا وألِفَهُ الْقَرْدُ فهو مُواكِلهُ ومُشارِبُهُ ، وهو الَّذي قَطَعَهُ عنكَ ، ولا يَقْدِرُ أن يُقيمَ عندَكَ حتى تحتالي

١ الغليم : ذكر السلحفاة .

٢ ثم : هناك .

هلاكَ القِرْدِ . قالت : وكيف أصنَعُ ؟ قالت جارتُها : إذا وَصَلَ إليك فَتَمارِضي فإذا سَأَلَكِ عن حالِكِ فقولي إنَّ الأَطِيبَاءَ وَصَفُوا لي قَلْبَ قِرْدٍ .
ثم إنَّ العَيْلِمَ انطَلَقَ بعد مُدَّةٍ إلى منزِلِهِ فوجدَ زوجته سَيِّئَةَ الحالِ مَهْمومَةً ، فقالَ لها : ما لي أراكِ هكذا ؟ فأجابتهُ جارتُها وقالت : إنَّ زوجَكَ مَرِيضَةٌ مِسْكِينَةٌ ، وقد وَصَفَ لها الأَطِيبَاءُ قَلْبَ قِرْدٍ ، وليسَ لها دَوَاءٌ سِوَاهُ .
قالَ العَيْلِمُ : هذا أمرٌ عَسِيرٌ ، من أين لنا قَلْبُ قِرْدٍ ، ونحن في الماءِ ؟ وبقيَ مُتَحَيِّرًا . ثم قالَ في نَفْسِهِ : ما لي قُدْرَةٌ على ذلكِ إلا أن أَعْدُرَ بِحَلِيلِي وصاحِبِي ، وإئمتهُ عندي شديدٌ ، وأشدُّ من ذلكِ هلاكُ زوجتي ، لأنَّ الزَّوجَةَ الصَّالِحَةَ لا يَعدِلُها شيءٌ لأنَّها عَوْنٌ على أمرِ الدُّنيا والآخِرَةِ .
ثم عادَ إلى السَّاحِلِ حزينًا كَثيبًا مُفَكِّرًا في نَفْسِهِ كيف يَصنَعُ . فقالَ له القِرْدُ : يا أخي ما حَبَسَكَ عَنِّي ؟ قالَ له العَيْلِمُ : ما حَبَسَنِي عنكَ إلا حَيَالِي فلم أَعْرِفَ كيف أَكافِئُكَ على إِحسانِكَ إِلَيَّ . وأريدُ أن تُتِمَّ إِحسانَكَ إِلَيَّ بِزِيَارَتِكَ لي في منزلي ، فلني ساكنٌ في جَزِيرَةِ طَيِّبَةِ الفَاكِهَةِ . فاركَبْ ظَهري لَأَسِجَ بِكَ ، فإنَّ أَفضَلَ ما يَلْتَمِسُهُ المَرءُ من أَخِلائِهِ أن يَغشَوْا بِمنزلِهِ وَيَنالُوا من طَعَامِهِ وشَرابِهِ وَيَعْرِفَهُمُ أهْلُهُ وولَدُهُ وجيرانُهُ . وأنتَ لم تَطأْ منزلي ولم تَدُقْ لي طَعَامًا ولا شَرابًا ، وذلكَ مَنقَصَةٌ وعارٌ عليَّ . قالَ له القِرْدُ : وما يُريدُ المَرءُ من خَليلِهِ إلا أن يَبْدُلَ له وُدَّهُ وَيُصْفِيَ له قَلْبَهُ وما سِوى ذلكِ فَفَضولٌ .

قالَ العَيْلِمُ : نعم . غيرَ أنَّ الاجْتِماعَ على الطَّعامِ والشَّرابِ آكَدُ للمَوَدَّةِ والأُنسِ . لأنَّنا نَرى الدُّوَابَّ إذا اعْتَلَفَتْ مَعًا أَلِفَ بَعْضُها بَعْضًا . وكان يُقالُ : لا يَتَّبَعِي للعَاقِلِ أن يَلجُ على إِخوانِهِ في المَسالَةِ ، فإنَّ العِجَلَ إذا أَكثَرَ مَصَّ صَرَخَ أُمُّهُ نَطَحَتْهُ .

١ يغشوا : يأتوا .

فَرِغِبَ الْقِرْدُ فِي الذَّهَابِ مَعَهُ فَقَالَ : حُبًّا وَكَرَامَةً . وَنَزَلَ فَرَكِبَ ظَهَرَ الْعَيْلِمِ فَسَبَّحَ بِهِ . حَتَّى إِذَا تَجَاوَزَ قَلِيلًا عَرَّضَ لَهُ قُبْحُ مَا أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْغَدْرِ ، فَتَكَسَّرَ رَأْسُهُ وَوَقَّفَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : كَيْفَ أَغْدُرُ بِحَلِيلِي لِكَلِمَةٍ قَالَتْهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْجَاهِلَاتِ ؟ وَمَا أُدْرِي لَعَلَّ جَارَتِي قَدْ خَدَعَتْنِي وَكَذَّبَتْ بِمَا رَوَتْ عَنِ الْأَطِبَّاءِ . فَإِنَّ الذَّهَبَ يُجْرَبُ بِالنَّارِ ، وَالرِّجَالُ بِالْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ ، وَالذُّوَابُ بِالْحَمْلِ وَالْجَرِي . وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُجْرَبَ مَكْرَ النِّسَاءِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى كَيْدِهِنَّ وَكَثْرَةِ حِيلِهِنَّ .

فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ : مَا لِي أُرَاكَ مُهْتَمًّا ؟ قَالَ الْعَيْلِمُ : إِنَّمَا هَمِّي لِأَنِّي ذَكَرْتُ أَنَّ زَوْجَتِي شَدِيدَةُ الْمَرَضِ وَذَلِكَ يَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا أُرِيدُ أَنْ أُبْلِغَهُ مِنْ كِرَامَتِكَ وَمُلَاطَفَتِكَ . قَالَ الْقِرْدُ : إِنَّ الَّذِي أَعْرِفُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى كِرَامَتِي يَكْفِيكَ مَوْوَنَةَ التَّكْلِيفِ .

قَالَ الْعَيْلِمُ : أَجَلٌ . وَمَضَى بِالْقِرْدِ سَاعَةً ثُمَّ تَوَقَّفَ بِهِ ثَانِيَةً . فَسَاءَ ظَنُّ الْقِرْدِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : مَا احْتِيَاسُ الْعَيْلِمِ وَإِبْطَاؤُهُ إِلَّا لِأَمْرِ . وَلَسْتُ آمِنًا أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ قَدْ تَمَرَّرَ لِي وَحَالَ عَن مَوَدَّتِي فَأَرَادَ بِي سُوءًا . فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَخْفَى وَأَسْرَعَ تَقَلُّبًا مِنَ الْقَلْبِ . وَقَدْ يُقَالُ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ لَا يَفْعَلَ عَنِ النَّاسِ مَا فِي نَفْسِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَإِخْوَانِهِ وَصَدِيقِهِ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ وَفِي كُلِّ لِحْظَةٍ وَكَلِمَةٍ وَعِنْدَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ . فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِذَا دَخَلَ قَلْبَ الصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ رِيبةً فَلْيَأْخُذْ بِالْحَزْمِ فِي التَّحْفِظِ مِنْهُ . وَلْيَتَفَقَّدْ ذَلِكَ فِي لِحْظَاتِهِ وَحَالَاتِهِ ، فَإِنْ كَانَ مَا يَظُنُّ حَقًّا ظَفِيرًا بِالسَّلَامَةِ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا ظَفِيرًا بِالْحَزْمِ وَلَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ لِلْعَيْلِمِ : مَا يَحْسِبُكَ وَمَا لِي أُرَاكَ مُهْتَمًّا كَأَنَّكَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مَرَّةً أُخْرَى ؟ قَالَ : يُهْمُّنِي أَنَّكَ تَأْتِي مَتْرَلِي فَلَا تَجِدُ أَمْرِي كَمَا أُحِبُّ لِأَنَّ زَوْجَتِي مَرِيضَةٌ . قَالَ الْقِرْدُ : لَا تَنْتَمِّمْ فَإِنَّ الْعَمَّ لَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا . وَلَكِنْ التَّمَسُّ

ما يُصْلِحُ زَوْجَكَ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ . فَإِنَّهُ يُقَالُ : لِيَبْذُلَ ذَوُو الْمَالِ مَالَهُمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ : فِي الصَّدَقَةِ ، وَفِي وَقْتِ الْحَاجَةِ ، وَعَلَى الْبَيْنِ ، وَعَلَى الْأَزْوَاجِ وَلَا سِيَّمَا إِذَا كُنَّ صَالِحَاتٍ . قَالَ الْعَيْلِمُ : صَدَقَتْ . وَقَدْ قَالَتِ الْأَطْيَاءُ : إِنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا قَلْبُ قِرْدٍ .

فَقَالَ الْقِرْدُ فِي نَفْسِهِ : وَسَوْءَ تَاهُ ! لَقَدْ أَدْرَكَنِي الْحِرْصُ وَالشَّرُّ عَلَى كَبِيرٍ سَنِي حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرِّ وَرَطِةٍ . وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ يَعْيشُ الْقَانِعُ الرَّاضِي مُسْتَرِيحًا مُطْمَئِنًّا وَذُو الْحِرْصِ وَالشَّرِّ يَعْيشُ مَا عَاشَ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ ١ . وَإِنِّي قَدْ احْتَجْتُ الْآنَ إِلَى عَقْلِي فِي التَّاسِ الْمَخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ .

ثُمَّ قَالَ لِلْعَيْلِمِ : وَمَا مَنَعَكَ ، أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، أَنْ تُعَلِّمَنِي عِنْدَ مَتْرَلِي حَتَّى كُنْتُ أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِي ؟ فَإِنَّ هَذِهِ سَنَةٌ ٢ فِينَا مَعَاشِرَ ٣ الْقِرْدَةِ إِذَا خَرَجَ أَحَدُنَا لَزِيَارَةِ صَدِيقٍ لَهُ خَلَّفَ قَلْبَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ أَوْ فِي مَوْضِعِهِ لِنَنْظُرُ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حَرَمٍ ٤ الْمَزُورِ وَلَيْسَ قُلُوبُنَا مَعَنَا . قَالَ الْعَيْلِمُ : وَابْنَ قَلْبِكَ الْآنَ ؟ قَالَ : خَلَّفْتُهُ فِي الشَّجَرَةِ . فَإِنْ شِئْتَ فَارْجِعْ بِي إِلَى الشَّجَرَةِ حَتَّى آتِيكَ بِهِ .

فَفَرِحَ الْعَيْلِمُ بِذَلِكَ وَقَالَ : لَقَدْ وَاقَفَنِي صَاحِبِي بِدُونِ أَنْ أَغْدُرَ بِهِ . ثُمَّ رَجَعَ بِالْقِرْدِ إِلَى مَكَانِهِ . فَلَمَّا قَارَبَ السَّاحِلَ وَثَبَ عَنْ ظَهْرِهِ فَارْتَقَى الشَّجَرَةَ . فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى الْعَيْلِمِ نَادَاهُ : يَا خَلِيلِي أَحْمِلْ قَلْبَكَ وَانزِلْ فَقَدْ حَبَسْتَنِي . فَقَالَ الْقِرْدُ : هِيَ هَاتِ ! أَنْظُنُّ أَنِّي كَالجَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ أَوْى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلَا أُذُنَانِ ؟ قَالَ الْعَيْلِمُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

١ نصب : إعياء .

٢ سنة : طريقة .

٣ معاشر : جماعات .

٤ حرم : نساء .

مثل الأسد وابن آوى والحمار

قال القيرد : زعموا أنه كان أسدً في أجمه ، وكان معه ابن آوى يأكل من فضلات طعامه . فأصاب الأسد جرباً وضعف شديداً وجهد فلم يستطع الصيد . فقال له ابن آوى : ما بالك يا سيد السباع قد تغيرت أحوالك ؟ قال : هذا الجرب الذي قد جهدني وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه . قال ابن آوى : ما أيسر هذا ! وقد عرفتُ بمكان كذا حماراً مع قصارٍ يحيلُ عليه ثيابه وأنا آتيك به .

ثم دلف إلى الحمار فأتاه وسلم عليه وقال له : ما لي أراك مهزولاً ؟ قال : لسوء تدبير صاحبي ، فإنه لا يزال يُجيعُ بطني ويُثقلُ ظهري . وما تجتمعُ هاتان الحالتان على جسم إلا أنحلتهُ وأسقمتاه . فقال له : كيف ترضى المقام معه على هذا ؟ قال : ما لي حيلة للهرب منه فلست أتوجهُ إلى جهةٍ إلا أضربُ بي إنساناً فكذبني وأجاعني .

قال ابن آوى : فإنا أدلك على مكانٍ معزولٍ عن الناس لا يمرُّ به إنسانٌ ، خصيبٍ المرعى فيه عانة^٢ من الحمر ترعى آمنة مطمئنة . قال الحمار : وما يحسبُ منها ؟ فانطلق بنا إليها .

فانطلق به نحو الأسد ، وتقدم ابن آوى ودخل الغابة على الأسد فأخبره بمكان الحمار . فخرج إليه وأراد أن يئب عليه فلم يستطع لضعفه وتخلص الحمار منه فأفلت هلعاً على وجهه . فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار

١ قصار : محو الثياب أي مبيضها .

٢ عانة : قطع من الحمير .

قالُ له : يا سيِّدَ السَّبَاعِ أَعْجَزْتَ إلى هذه الغايَةِ ؟ فقالَ له : إن جِئْتِي به مرَّةً أُخرى فلن يَنْجُو مِنِّي أبداً .

فمَضَى ابنُ آوى إلى الحِجَارِ فقالَ له : ما الذي جَرَى عَلَيْكَ ؟ إنَّ أحدَ الحُمُرِ رآكَ غَريباً فَخَرَجَ يَتَلَقَّاكَ مَرْحَباً بِكَ ، ولو ثَبَّتْ لَأَنْسَكَ وَمَضَى بِكَ إلى أصحابِهِ .

فلَمَّا سَمِعَ الحِجَارُ ذلكَ ولم يَكُنْ رأى أَسْداً قَطُّ صَدَّقَ ما قالَهُ ابنُ آوى وأَخَذَ طَريقَهُ إلى الأَسَدِ . فسَبَقَهُ ابنُ آوى إلى الأَسَدِ وأَعْلَمَهُ بِمَكَانِهِ وقالَ له : اسْتَعِدَّ له فقد خَدَعْتُهُ لك فلا يُدْرِكُكَ الضَّعْفُ في هذه التَّوبَةِ . فَإِنَّهُ إنْ أَفَلَتْ لِن يَعودَ مَعِي أبداً والفُرْصُ لا تُصَابُ^١ في كلِّ وقتٍ .

فجاشَ جاشُ الأَسَدِ^٢ لِتَحْرِيزِ ابنِ آوى له وَخَرَجَ إلى مَوْضِعِ الحِجَارِ ، فلَمَّا بَصُرَ به عَاجِلُهُ بِوَبْئِهِ اقْتَرَسَهُ بها . ثم قالَ : قد ذَكَرْتَ الأَطِيبُ أَنَّهُ لا يُؤَكَّلُ إلا بعدَ الاغْتِسَالِ والطَّهْوَرِ . فاحتَفِظَ به حتى أَعوَدَ فأَكَلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ وَأَتْرَكَ ما سِوى ذلكَ قوتاً لك .

فلَمَّا ذَهَبَ الأَسَدُ لِيَغْتَسِلَ عَمَدَ ابنُ آوى إلى الحِجَارِ فأَكَلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ رَجاءً أن يَتَطَيَّرَ^٣ الأَسَدُ مِنْهُ فلا يَأْكُلُ مِنْهُ شَيْئاً .

ثم إنَّ الأَسَدَ رَجَعَ إلى مَكَانِهِ فقالَ لابنِ آوى : أين قَلْبُ الحِجَارِ وَأُذُنَاهُ ؟ قالَ ابنُ آوى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لو كانَ له قَلْبٌ يَعمَلُ به وَأُذُنَانِ يَسمَعُ بِهِما لم يَرجِعْ إِلَيْكَ بَعْدَما أَفَلْتَ وَنَجَا مِنَ الهَلَكَةِ !

وإنما ضَرَبْتُ لك هذا المَثَلُ لِتَعْلَمَ أَنِّي لستُ كَذَلِكِ الحِجَارِ الذي زَعَمَ ابنُ آوى أَنَّهُ لم يَكُنْ له قَلْبٌ ولا أُذُنَانِ . ولكِنَّكَ احتَلْتَ عَلَيَّ وخَدَعْتَنِي فَخَدَعْتِكَ

١ لا تصاب : لا تدرك .

٢ جاش الأسد : حميت نفسه .

٣ يتطير : يتشامم .

بمثل خديعتك واستدركتُ فارطَ أمري . وقد قيلَ : إنَّ الذي يُفسدُهُ الحِلْمُ
لا يُصلِحُهُ إِلَّا العِلْمُ .

قالَ العِلمُ : صدقتَ ! إِلَّا أنَّ الرجلَ الصَّالِحَ يَعْتَرِفُ بِزَلَّتِهِ ، وإذا أذنبَ
ذنباً لم يَسْتَحِ أن يُؤدِّبَ لصدِيقِهِ في قولِهِ وفعلِهِ . وإن وَقَعَ في ورطَةٍ أمكَنَّهُ
التَّخَلُّصُ منها بِحِلمَتِهِ وعَقَلِهِ ، كالرجلِ الذي يَعْتُرُّ على الأرضِ وعليها يَعْتَمِدُ في
نُهوِضِهِ .

فهذا مَثَلُ الرجلِ الذي يَطْلُبُ الحَاجَةَ فإذا ظَفِرَ بها أَضاعَها .

باب الناسك وابن عرس

قال دَبشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قد سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ، فاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الْعَجَلَانِ فِي أَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا نَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ .
قال الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ مُتَّبِعًا لَمْ يَزَلْ نَادِمًا وَيَصِيرُ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ مِنْ قَتْلِ ابْنِ عِرْسٍ وَقَدْ كَانَ لَهُ وَدُودًا . قال الْمَلِكُ :
وكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قال الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا مِنْ التُّسَّاكِ كَانَ بِأَرْضِ جُرْجَانَ .
وكانت له امرأةٌ صَالِحَةٌ لها معه صُحْبَةٌ . فمَكَثَا زَمَانًا لَمْ يُرْزَقَا وَلِدًا . ثم حَمَلَتْ
بعد الْإِيَّاسِ ، فَسُرَّتِ الْمَرْأَةُ وَسَرَّ النَّاسِكُ بِذَلِكَ وَحَمِدَ اللهُ تَعَالَى وَسَأَنَهُ أَنْ
يَكُونَ الْحَمْلُ ذَكَرًا ، وقالَ لزوجَتِهِ : أَبْشِرِي فإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ غَلَامًا فِيهِ
لَنَا مَنَافِعٌ وَقُرَّةٌ عَيْنٍ ، أَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ وَأَحْضِرُ لَهُ جَمِيعَ الْمُؤَدِّينَ .
فقالتِ الْمَرْأَةُ : ما يَحْمِلُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ عَلَى أَنْ تَتَكَلَّمَ بِمَا لَا تَدْرِي أَيُّكُونُ
أَمْ لَا ؟ وَلَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَصَابَهُ ما أَصَابَ النَّاسِكَ الَّذِي أهرَقَ عَلَى رَأْسِهِ السَّمْنَ
وَالْعَسَلَ . قالَ لها : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

مثل الناسك المخدوع

قالت : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا كَانَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ رَجُلٍ تَاجِرٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ رِزْقٌ مِنَ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ . وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْهُ قُوَّتَهُ وَحَاجَتَهُ وَيَرْفَعُ الْبَاقِيَّ وَيَجْعَلُهُ فِي جِرَّةٍ فَيُعَلِّقُهَا فِي وَتِدٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ حَتَّى امْتَلَأَتْ .

فِيهِمَا النَّاسِكُ ذَاتَ يَوْمٍ مُسْتَلْتِي عَلَى ظَهْرِهِ وَالْعُكَّازَةُ فِي يَدِهِ وَالْجِرَّةُ مُعَلَّقَةٌ فَوْقَ رَأْسِهِ تَفَكَّرَ فِي غَلَاءِ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ . فَقَالَ : سَأُبِيعُ مَا فِي هَذِهِ الْجِرَّةِ بِدِينَارٍ وَأَشْتَرِي بِهِ عَشْرَ أَعْتَرٍ فَيَحْبَلَنَ وَيَلْدَنَ فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ مَرَّةً . وَلَا تَلَبْتُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَصِيرَ مَعْرًا كَثِيرًا إِذَا وَلَدَتْ أَوْلَادَهَا .

ثُمَّ حَرَّرَ عَلَى هَذَا التَّحْوِ بِسِنِينَ فَوَجَدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِئَةِ عَتْرِ . فَقَالَ : أَنَا أَشْتَرِي بِهَا مِئَةً مِنَ الْبَقْرِ بِكُلِّ أَرْبَعِ أَعْتَرٍ ثَوْرًا أَوْ بَقْرَةً ، وَأَشْتَرِي أَرْضًا وَبَدْرًا ، وَأَسْتَأْجِرُ أَكْرَةَ^١ وَأَزْرَعُ عَلَى الثِّيرَانِ وَأَنْتَفِعُ بِالْبَابِ الْإِنَاثِ وَنَتَائِجِهَا . فَلَا تَأْتِي عَلَيَّ خَمْسُ سِنِينَ إِلَّا وَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ الزَّرْعِ مَالًا كَثِيرًا . فَأَبَيْ بَيْتًا فَاخِرًا وَأَشْتَرِي إِمَاءً^٢ وَعَبِيدًا وَأَتَزَوَّجُ امْرَأَةً صَالِحَةً جَمِيلَةً فَتَحْمِلُ ثُمَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ سَرِيٍّ^٣ نَجِيبٍ فَأَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ . فَإِذَا تَرَعَرَ أَدَبْتُهُ وَأَحْسَنْتُ تَأْدِيبَهُ . وَأَشَدَّدْتُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ . فَإِنْ قَبِلَ مِنِّي وَإِلَّا ضَرَبْتُهُ بِهَذِهِ الْعُكَّازَةِ . وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْجِرَّةِ فَكَسَّرَهَا فَسَالَ مَا فِيهَا عَلَى وَجْهِهِ .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِكَيْ لَا تَعْجَلَ بِذِكْرِ مَا لَا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ وَمَا لَا تَدْرِي أَيْصِحُّ أَمْ لَا يَصِحُّ . وَلَكِنْ ادْعُ رَبَّكَ وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ . فَإِنَّ

١ أكرة : حرائين .

٢ إماء : جوارى .

٣ سري : صاحب مروءة في شرف .

التصاوير في الحائض إنها هي ما دام بناؤه قائماً فإذا وقع وتهدم لم يُقدَر عليها
فأعْظَمُ النَّاسِكُ بما حَكَتْ زوجته .

ثم إنَّ المرأةَ وَلَدَتْ غلاماً جميلاً ، ففَرِحَ به أبوه . وبعد أيامٍ حانَ لها أن
تَغْتَسِلَ . فقالتِ المرأةُ للنَّاسِكِ : اقمُذْ عند ابْنِكِ حتى أذهبَ إلى الحَمَّامِ
فأغْتَسِلَ وأعودُ .

ثم إنَّها انطلقتْ إلى الحَمَّامِ وخَلَّفَتْ زوجها والغلامَ . فلم يَلْبَثْ أن جاء
رسولُ المَلِكِ يَسْتَدْعِيهِ ولم يَجِدْ مَنْ يُخَلِّفُهُ عند ابْنِهِ غَيْرَ ابنِ عِرْسٍ داجِنٍ عندهُ
كانَ قد ربَّاهُ صغيراً فهو عندهُ عَدِيلٌ^١ ولديه . فترَكَهُ النَّاسِكُ عند الصَّيِّ وأغلقَ
عليها البيتَ وذهبَ مع الرسولِ . فخرَجَ من بعضِ أبحارِ البيتِ حِيَّةٌ سوداءُ
فَدَنَّتْ مِنَ الغلامِ . ففَصَرَبَها ابنُ عِرْسٍ فَوَبَّتْ عليه فقتَلها ثم قَطَعها وامتلأ
فَمُهٌ من دَمِها .

ثم جاء النَّاسِكُ وفتحَ البابَ فالتقاهُ ابنُ عِرْسٍ كالمُشِيرِ له بما صَنَعَ من
قتلِ الحِيَّةِ . فلَمَّا رآهُ مُلوئاً بالدَمِ وهو مدعورٌ طارَ عقلُهُ وظنَّ أَنه قد خنقَ
وَلَدَهُ . ولم يَتَّبِعْ^٢ في أمرِهِ ولم يَتَرَوُ فيه حتى يَعْلَمَ حقيقةَ الحالِ ويعمَلُ بغيرِ ما
ظنَّ من ذلك . ولكن عَجَلَ على ابنِ عِرْسٍ وضربَهُ بِعُكَّازَةٍ كانت في يَدِهِ على
أُمَّ رَأْسِهِ فمات . ودخَلَ النَّاسِكُ فرأى الغلامَ سليماً حياً وعندهُ أسودٌ مُقَطَّعٌ
فلَمَّا عَرَفَ القِصَّةَ وتَبَيَّنَ له سوءُ فِعْلِهِ في العَجَلَةِ لَطَمَ على رَأْسِهِ وقالَ : لَيْتَنِي لم
أرزُقْ هذا الولدَ ولم أَعُدُّ هذا العَدْرَ !

ودخَلتِ امرأتهُ فوجدتهُ على تلكِ الحالِ فقالتَ له : ما شأنك ؟ فأخبرها
بالخَبَرِ من حُسْنِ فِعْلِ ابنِ عِرْسٍ وسوءِ مُكافأَتِهِ له . فقالتَ : هذه ثَمَرَةُ العَجَلَةِ
لأنَّ الأمرَ إذا فَرَطَ مثلُ الكلامِ إذا خَرَجَ والسَّهْمِ إذا مَرَّقَ لا مَرَدُّ له .
فهذا مَثَلٌ مَنْ لا يَتَّبِعُ في أمرِهِ بل يفَعَلُ أغراضَهُ بالسُّرْعَةِ .

١ عديل : يتاب .

٢ مثل : مثل .

باب الجرذ والسنور

• قَالَ دَبشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدْبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ رَجُلٍ كَثُرَ أَعْدَاؤُهُ وَأَحَدَقُوا بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَأَشْرَفَ مَعَهُمْ عَلَى الْهَلَاكِ ، فَالْتَمَسَ النُّجَاةَ وَالْمَخْرَجَ بِمُؤَالَاةِ بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَمُصَالَحَتِهِ فَسَلِمَ مِنَ الْخَوْفِ وَأَمِنَ . ثُمَّ وَفَى لِمَنْ صَالَحَهُ مِنْهُمْ . وَأَخْبِرْنِي عَنْ مَوْضِعِ الصُّلْحِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ .

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْمَوَدَّةَ وَالْعَدَاوَةَ لَا تَثْبُتَانِ عَلَى حَالَةٍ أَبَدًا . وَرَبَّمَا حَالَتِ الْمَوَدَّةُ إِلَى الْعَدَاوَةِ وَصَارَتِ الْعَدَاوَةُ وِلَايَةً^٢ وَصَدَاقَةً . وَلِهَذَا حَوَادِثُ وَعِلَلٌ وَتَجَارِبُ . وَذُو الرَّأْيِ يُحَدِّثُ لِكُلِّ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ رَأْيًا جَدِيدًا . أَمَّا مِنْ قِبَلِ الْعَدُوِّ فَبِالْبَاسِ وَأَمَّا مِنْ قِبَلِ الصَّدِيقِ فَبِالِاسْتِثْنَاءِ . وَلَا تَمْنَعُ ذَا الْعَقْلِ عَدَاوَةُ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ لِعَدُوِّهِ مِنْ مُقَارَبَتِهِ وَالِاسْتِجَادِ بِهِ عَلَى دَفْعِ مَرْهُوبٍ أَوْ جَرٍّ مَرْغُوبٍ . وَمَنْ عَمِلَ فِي ذَلِكَ بِالْحَزْمِ ظَفِرَ بِحَاجَتِهِ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْجُرْذِ وَالسَّنُورِ حِينَ وَقَعَا فِي الْوَرِطَةِ فَتَجَاوَا بِاصْطِلَاحِيهَا جَمِيعًا مِنْ الْوَرِطَةِ وَالشَّدَّةِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ يَدْبَا : زَعَمُوا أَنَّ شَجَرَةً عَظِيمَةً كَانَتْ فِي أَصْلِهَا جُحْرُ سَنُورٍ يُقَالُ لَهُ رُومِيٌّ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جُحْرُ جُرْذٍ يُقَالُ لَهُ فَرِيدُونُ . وَكَانَ الصِّيَادُونَ كَثِيرًا مَا يَتَدَاوَلُونَ ذَلِكَ الْمَكَانَ يَصِيدُونَ فِيهِ الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ . فَاتَى ذَاتَ يَوْمٍ صَيَّادٌ فَتَصَبَّ حِيَالَتُهُ قَرِيبًا مِنْ مَوْضِعِ رُومِيٍّ فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ وَقَعَ فِيهَا . فَخَرَجَ الْجُرْذُ يَدْبُ وَيَطْلُبُ مَا بَأَكْلٍ وَهُوَ حَذِرٌ مِنْ رُومِيٍّ . فَبَيْنَمَا هُوَ يَسْعَى إِذْ بَصُرَ بِهِ فِي

١ مؤالاة : مصادقة .

٢ ولاية : نصرة ومعونة .

الشرك فسر واستبشر . ثم التفت فرأى خلفه ابن عرس يريد أخذه وفي الشجرة يوماً يريد احتطافه . فتحير في أمره وخاف ؛ إن رجع وراهه أخذه ابن عرس ، وإن ذهب يميناً أو شمالاً اختطفه البوم ، وإن تقدم أمامه افترسه السور .

فقال في نفسه : هذا بلاء قد اكتنفتي وشورور تظاهرت^١ علي ، ومحزن قد أحاطت بي . وبعد ذلك فمعي عقلي فلا يفزعني أمري ولا يهولني شأني ولا يلحقني الدهش ولا يذهب قلبي شعاعاً^٢ . فالعقل لا يفرق عند سداد رأيه ولا يعزب^٣ عنه ذهنه على حال . وإنما العقل شبيه بالبحر الذي لا يدرك غوره ، ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجهوده فيهلكه . وتحقق الرجاء لا ينبغي أن يبلغ منه مبلغاً يبطره ويسكره فيعمى عليه أمره . ولست أرى لي من هذا البلاء مخلصاً إلا مصالحة السور ، فإنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بي أو بعضه . ولعلنا إن سمع كلامي الذي أكلمه به ووعى عني صحيح خطابي ومحض صديقي الذي لا خلاف فيه ولا خداع معه ففهمه وطمع في معوتي إياه نخلص جميعاً .

ثم إن الجرود دنا من السور فقال له : كيف حالك ؟ قال له السور : كما تحب في ضنك^٤ وضيق . قال : وأنا اليوم شريكك في البلاء . ولست أرجو لنفسي خلاصاً إلا بالذي أرجو لك فيه الخلاص . وكلامي هذا ليس فيه كذب ولا خديعة . وابن عرس ها هو كامن لي ، والبوم يرصدني ، وكلاهما لي ولك عدو . وإني وإياك وإن كنا مختلفي الطباع لكننا متفقنا الحالة . والذين حالتهم واحدة وطباعهم مختلفة تجمعهم الحالة وإن فرقتهم الطباع . فإن أنت

٤ يعنى عليه : يلتبس .

٥ وعى : حفظ .

٦ ضنك : ضعف .

١ تظاهرت : تعاونت .

٢ شعاعاً : متبديداً من الخوف .

٣ يعزب : أي لا يغيب .

جَعَلَتْ لِي الْأَمَانَ قَطَعْتُ حَبَائِلَكَ وَخَلَّصْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرِطَةِ . فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ تَخَلَّصَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِسَبَبِ صَاحِبِهِ ، كَالسَّفِينَةِ وَالرُّكَّابِ فِي الْبَحْرِ فَالسَّفِينَةُ يَنْجُونَ وَبِهِمْ تَنْجُو السَّفِينَةُ .

فَلَمَّا سَمِعَ السُّورُ كَلَامَ الْجُرْدِ وَعَرَفَ أَنَّهُ صَادِقٌ قَالَ لَهُ : إِنَّ قَوْلَكَ هَذَا لَشَيْءٌ بِالْحَقِّ ، وَأَنَا أَيْضاً رَاغِبٌ فِيمَا أُرْجُو لَكَ وَلِنَفْسِي بِهِ الْخَلَاصَ . ثُمَّ إِنِّي إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ سَأَشْكُرُكَ مَا بَقِيَتْ .

قَالَ الْجُرْدُ : فَلِئِنْ سَادَنُو مِنْكَ فَأَقْطَعُ الْحَبَائِلَ كُلَّهَا إِلَّا حَبْلًا وَاحِدًا أَبْقِيهِ لِأَسْتَوِثِقَ لِنَفْسِي مِنْكَ . وَأَخَذَ فِي تَقْرِيبِ حَبَائِلِهِ . ثُمَّ إِنَّ الْيَوْمَ وَابْنَ عِرْسٍ لَمَّا رَأَى دُنُوَّ الْجُرْدِ مِنَ السُّورِ أَيْسَا مِنْهُ وَانصَرَفَا .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَبْطَأَ عَلَى رُومِي فِي قَطْعِ الْحَبَائِلِ فَقَالَ لَهُ : مَا لِي لَا أَرَاكَ جَادًا فِي قَطْعِ حَبَائِلِي ؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَفِرْتَ بِحَاجَتِكَ فَتَغَيَّرْتَ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ وَتَوَانَيْتَ فِي حَاجَتِي فَمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الصَّالِحِينَ . فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَتَوَانَى فِي حَقِّ صَاحِبِهِ ، وَقَدْ كَانَ لَكَ فِي سَابِقِ مَوَدَّتِي مِنَ الْفَائِدَةِ وَالتُّفْعِ مَا قَدْ رَأَيْتَ . وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تُكَافِئَنِي بِذَلِكَ وَلَا تَذْكَرُ الْعِدَاوَةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ . فَالَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصُّلْحِ حَقِيقٌ أَنْ يُنْسِيكَ ذَلِكَ مَعَ مَا فِي الْوَفَاءِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ وَمَا فِي الْعَدْرِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ . فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَكُونُ إِلَّا شُكُورًا غَيْرَ حَقُودٍ تُنْسِيهِ الْحَلَّةَ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْإِحْسَانِ الْخِلَالَ الْكَثِيرَةَ مِنَ الْإِسَاءَةِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ أَعْجَلَ الْمُقُوبَةِ عُقُوبَةُ الْعَدْرِ . وَمَنْ إِذَا تُضْرِعَ إِلَيْهِ وَسُئِلَ الْعَفْوَ فَلَمْ يَرْحَمْ وَلَمْ يَعْفُ فَقَدْ عَدَرَ .

قَالَ الْجُرْدُ : إِنَّ الصَّدِيقَ صَدِيقَانِ ، طَائِعٌ وَمُضْطَرٌّ ، وَكِلَاهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْمَنْفَعَةَ وَيَحْتَرِسَانِ مِنَ الْمَضْرُورِ . فَأَمَّا الطَّائِعُ فَيُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ وَيُؤْمَنُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ . وَأَمَّا الْمُضْطَرُّ فَمِنْ بَعْضِ الْأَحْوَالِ يُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ وَفِي بَعْضِهَا يُتَحَلَّرُ مِنْهُ . وَلَا يَزَالُ الْعَاقِلُ يَرْتَهِنُ مِنْهُ بَعْضَ حَاجَاتِهِ لِبَعْضِ مَا يَتَّقِي وَيَخَافُ . وَلَيْسَ

غايَةَ التَّوَاصُلِ مِنْ كُلِّ مِنَ الْمُتَوَاصِلِينَ إِلَّا طَلَبَ عَاجِلِ النَّفْعِ وَبُلُوغَ مَأْمُولِهِ .
 وَأَنَا وَافٍ لَكَ بِمَا وَعَدْتُكَ وَمُحْتَرِسٌ مِنْكَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ أَخَافُكَ تَخَوُّفَ
 أَنْ يُصِيبَنِي مِنْكَ مَا الْجَائِي خَوْفُهُ إِلَى مُصَالِحَتِكَ وَالْجَائِكُ إِلَى قُبُولِ ذَلِكَ مِنِّي .
 فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حِينًا . فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ فِي حِينِهِ فَلَا حُسْنَ لِعَاقِبَتِهِ . وَأَنَا قَاطِعٌ
 حِبَائِكَ كُلِّهَا ، غَيْرَ أَنِّي تَارِكٌ عُقْدَةَ أَرْهَيْتُكَ بِهَا وَلَا أَقْطَعُهَا إِلَّا فِي السَّاعَةِ الَّتِي
 أَعْلَمُ أَنَّكَ فِيهَا عَنِّي مَشْغُولٌ وَذَلِكَ عِنْدَ مُعَايِنَتِي الصِّيَادَ .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَطْعِ حِبَائِلِ السُّورِ . فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ وَافَى
 الصِّيَادَ . فَقَالَ لَهُ السُّورُ : الْآنَ جَاءَ وَقْتُ الْجِدِّ فِي قَطْعِ حِبَائِلِي . فَجَهَدَ
 الْجُرْدُ نَفْسَهُ فِي الْقَرَضِ ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ وَتَبَّ السُّورُ إِلَى الشَّجَرَةِ عَلَى دَهْشٍ
 مِنَ الصِّيَادِ ، وَدَخَلَ الْجُرْدُ بَعْضَ الْأَجْحَارِ ، وَجَاءَ الصِّيَادُ فَأَخَذَ حِبَائِلَهُ
 مَقْطَعَةً ثُمَّ انصَرَفَ خَائِبًا .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَرِهَ أَنْ يَدْنُو مِنَ السُّورِ ، فَنَادَاهُ السُّورُ :
 أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّاصِحُ ذُو الْبَلَاءِ الْحَسَنِ عِنْدِي ، مَا مَتَّعَكَ مِنَ الدُّنُو إِلَيَّ
 لِأَجَازِيكَ بِأَحْسَنِ مَا أَسَدَيْتَ إِلَيَّ ؟ هَلُمَّ إِلَيَّ وَلَا تَقْطَعْ إِخَائِي ، فَإِنَّهُ مَنِ
 اتَّخَذَ صَدِيقًا وَقَطَعَ إِخَاءَهُ وَأَضَاعَ صِدَاقَتَهُ حُرِمَ ثَمَرَةَ إِخَائِهِ وَأَيْسَ مِنْ نَفْعِهِ
 الْإِخْوَانُ وَالْأَصْدِقَاءُ . وَإِنَّ يَدَكَ عِنْدِي لَا تُنْسَى ، وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تَلْتَمِسَ
 مُكَافَأَةَ ذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي وَلَا تَخَافَ مِنِّي شَيْئًا . وَاعْلَمْ أَنَّ مَا
 قَبْلِي لَكَ مَبْدُولٌ . ثُمَّ حَلَفَ وَاجْتَهَدَ عَلَى صَدِيقِهِ فَمَا قَالَ .

فَنَادَاهُ الْجُرْدُ : رُبَّ صِدَاقَةٍ ظَاهِرَةٍ بَاطِنُهَا عِدَاوَةٌ كَامِنَةٌ وَهِيَ أَشَدُّ مِنْ
 الْعِدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ . وَمَنْ لَمْ يَحْتَرِسْ مِنْهَا وَقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرْكَبُ نَابَ
 الْفِيلِ الْهَائِجِ ثُمَّ يَغْلِبُهُ التُّعَاسُ فَيَسْتَيْقِظُ تَحْتَ فِرَاسِينَ^٢ الْفِيلِ فَيَدُوسُهُ وَيَقْتُلُهُ .

١ البلاء : الصنيع .

٢ فراسن : جمع فرسن وهو للفيل كالقدم للانسان .

وإِنَّمَا سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَدِيقًا لِمَا يُرْجَى مِنْ صَدِيقِهِ وَنَفْعِهِ . وَسُمِّيَ الْعَدُوُّ عَدُوًّا لِمَا يُخَافُ مِنْ أَعْتِدَائِهِ وَضَرَرِهِ . وَالْعَاقِلُ إِذَا رَجَا نَفْعَ الْعَدُوِّ أَظْهَرَ لَهُ الصَّدَاقَةَ ، وَإِذَا خَافَ ضَرَّ الصَّدِيقِ أَظْهَرَ لَهُ الْعَدَاوَةَ . أَلَا تَرَى تَتَّبِعُ الْبَهَائِمَ أُمَاتِهَا رَجَاءً أَلْبَانِهَا فَإِذَا انْقَطَعَ ذَلِكَ انصَرَفَتْ عَنْهَا ؟ وَرَبَّمَا قَطَعَ الصَّدِيقُ عَنْ صَدِيقِهِ بَعْضَ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنْهُ فَلَمْ يَخَفْ شَرَّهُ لِأَنَّ أَصْلَ أَمْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَدَاوَةً . فَأَمَّا مَنْ كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ عَدَاوَةً جَوْهَرِيَّةً ثُمَّ أَحْدَثَ صَدَاقَةً لِحَاجَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا زَالَتِ الْحَاجَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ زَالَتْ صَدَاقَتُهُ فَتَحَوَّلَتْ وَصَارَتْ إِلَى أَصْلِ أَمْرِهِ . كَالْمَاءِ الَّذِي يَسْخُنُ بِالنَّارِ فَلِذَا رُفِعَ عَنْهَا عَادَ بَارِدًا . وَلَيْسَ مِنْ أَعْدَائِي عَدُوٌّ أَضَرَّ لِي مِنْكَ ، وَقَدْ اضْطَرَّنِي وَإِيَّاكَ حَاجَةً إِلَى مَا أَحَدْنَا مِنْ الْمُصَالِحَةِ . وَقَدْ ذَهَبَ الْأَمْرُ الَّذِي احْتَجَجْتُ إِلَيْهِ وَاحْتَجَجْتُ إِلَيْكَ فِيهِ . وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَهَابِهِ عَوْدُ الْعَدَاوَةِ .

وَلَا خَيْرَ لِلضَّعِيفِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ ، وَلَا لِلذَّلِيلِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْعَزِيزِ . وَلَا أَعْلَمُ لَكَ قَبْلِي حَاجَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ تُرِيدُ أَكْلِي . وَلَا أَعْلَمُ لِي قَبْلَكَ حَاجَةً وَلَيْسَ عِنْدِي بَكَ نِقَّةٌ . فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الضَّعِيفَ الْمُحْتَرَسَ مِنَ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ أَقْرَبُ إِلَى السَّلَامَةِ مِنَ الْقَوِيِّ إِذَا اغْتَرَّ بِالضَّعِيفِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ . وَالْعَاقِلُ يُصَالِحُ عَدُوَّهُ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ وَيُصَانِعُهُ وَيُظْهِرُ لَهُ وُدَّهُ وَيُرِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْاسْتِرْسَالَ إِلَيْهِ إِذْ لَمْ يَجِدْ مِنْ ذَلِكَ بُدًّا . ثُمَّ يُعَجِّلُ الْإِنْصِرَافَ عَنْهُ حِينَ يَجِدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .

وَاعْلَمْ أَنَّ سَرِيعَ الْاسْتِرْسَالِ لَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ . وَالْعَاقِلُ يَتَّقِي لِمَنْ صَالِحَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا يَتَّقِي بِهِ كُلَّ الثَّقَةِ وَلَا يَأْتُمُّهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ الْقُرْبِ مِنْهُ وَيَتَّبِعِي أَنْ يُبْعِدَ عَنْهُ مَا اسْتَطَاعَ . وَأَنَا أُوَدِّكَ مِنْ بَعِيدٍ وَأُحِبُّكَ لَكَ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّلَامَةِ مَا لَمْ أَكُنْ أَحِبُّهُ لَكَ مِنْ قَبْلُ . وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تُجَازِيَنِي عَلَى صَنِيعِي إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى اجْتِمَاعِنَا ، وَالسَّلَامُ .

باب الملك والطائر فنزة

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَبْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ أَهْلِ الثَّرَاتِ الَّذِينَ لَا بُدَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ اتِّقَاءِ بَعْضٍ .
قَالَ يَبْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ كَانَ يُقَالُ لَهُ بَرِيدُونُ ، وَكَانَ لَهُ طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ فَتْرَةٌ ، وَكَانَ لَهُ فَرْخٌ . وَكَانَ هَذَا الطَّائِرُ وَفَرْخُهُ يَنْطِقَانِ بِأَحْسَنِ مَنَطِقٍ . وَكَانَ الْمَلِكُ بِهَا مُعْجَبًا . فَأَمَرَ بِهَا أَنْ يُجَمَّلَا عِنْدَ امْرَأَتِهِ وَأَمَرَهَا بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا . وَاتَّفَقَ أَنَّ امْرَأَةَ الْمَلِكِ كَانَتْ حَامِلًا فَوَلَدَتْ غَلَامًا . فَأَلْفَ الْفَرْخُ الْغَلَامَ وَكِلَاهُمَا طِفْلَانِ يَلْعَبَانِ جَمِيعًا .

وَكَانَ فَتْرَةٌ يَذْهَبُ كُلُّ يَوْمٍ إِلَى الْجَبَلِ فَيَأْتِي بِفَاكِهَةٍ لَا تُعْرَفُ فَيُطْعِمُ ابْنَ الْمَلِكِ شَطْرَهَا وَيُطْعِمُ فَرْخَهُ شَطْرَهَا . فَاسْرَعَ ذَلِكَ فِي نَشَاتِيهَا وَشَبَابِهَا وَبَانَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ فَازْدَادَ لِفَتْرَةَ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا وَمَحَبَّةً .

حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ وَفَتْرَةٌ غَائِبٌ فِي اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ وَفَرْخُهُ فِي حِجْرِ الْغَلَامِ حَدَّثَ مِنَ الْفَرْخِ مَا أَغْضَبَ الْغَلَامَ فَأَخَذَهُ فَضْرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَمَاتَ . ثُمَّ إِنَّ فَتْرَةَ أَقْبَلَ فَوَجَدَ فَرْخَهُ مَقْتُولًا فَصَاحَ وَحَزِنَ وَقَالَ : قُبْحًا لِلْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا وِفَاءَ ! وَيَلُ لِمَنْ ابْتَلَى بِصُحْبَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلَا حُرْمَةَ وَلَا يُحِبُّونَ أَحَدًا وَلَا يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ إِلَّا إِذَا طَعِمُوا فِيهَا عِنْدَهُ مِنْ غَنَاءِ وَاحْتَاجُوا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ فَيَكْرُمُونَهُ لَذَلِكَ . فَإِذَا ظَفَرُوا بِحَاجَتِهِمْ مِنْهُ فَلَا وُدَّ وَلَا إِخَاءَ وَلَا إِحْسَانَ وَلَا غُفْرَانَ ذَنْبٍ وَلَا مَعْرِفَةَ حَقِّ . هُمُ الَّذِينَ أَمْرُهُمْ

١ الثرات : جمع ترة وهي الثار .

٢ حجر : حصى .

مَنِيَّ عَلَى الرِّيَاءِ وَالْفُجُورِ ، وَهُمْ يَسْتَصْفِرُونَ مَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنْ عَظِيمِ الذُّنُوبِ
وَيَسْتَعْظِمُونَ الْيَسِيرَ إِذَا خُولِيََتْ فِيهِ أَمْوَالُهُمْ . وَمِنْهُمْ هَذَا الْكُفُورُ الَّذِي لَا
رَحْمَةَ لَهُ ، الْغَادِرُ بِالْفِيءِ وَأَخِيهِ .

ثُمَّ وَتَبَّ فِي شِدَّةِ حَنَفِيهِ عَلَى وَجْهِ الْغُلَامِ فَفَقَّأَ عَيْنَيْهِ . ثُمَّ طَارَ فَوْقَ عَلَى
شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ .

وَبَلَغَ الْمَلِكُ ذَلِكَ فَجَزَعَ أَشَدَّ الْجَزَعِ ، ثُمَّ طَمِعَ أَنْ يَحْتَالَ لَهُ فِيهِلِكَهُ .
فَرَكِبَ مِنْ سَاعَتِهِ وَتَوَجَّهَ إِلَى نَاحِيَةِ الطَّائِرِ حَتَّى وَقَفَ قَرِيباً مِنْهُ وَنَادَاهُ وَقَالَ
لَهُ : إِنَّكَ آمِنٌ فَانزِلْ يَا فَتْرَةٌ . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْغَادِرَ مَاخُودٌ بِقَدْرِهِ ،
وَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأَهُ عَاجِلُ الْمُعْتُوبَةِ لَمْ يُخْطِئْهُ الْآجِلُ حَتَّى إِنَّهُ يُدْرِكُ الْأَعْقَابَ
وَأَعْقَابَ الْأَعْقَابِ . وَإِنَّ ابْنَكَ غَدَرَ بَابِي فَعَجَّلْتُ لَهُ الْمُعْتُوبَةَ .

قَالَ الْمَلِكُ : قَدْ لَعَمْرِي غَدَرَ ابْنِي بَابِيكَ وَقَدْ تَنَاصَفْنَا جَمِيعاً فَلَيْسَ
لَكَ قِبَلْنَا وَلَيْسَ لَنَا قِبَلَكَ وَتَرَّ مَطْلُوبٌ . فَارْجِعْ إِلَيْنَا آمِناً وَلَا تَخَفْ .

قَالَ فَتْرَةٌ : لَسْتُ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ أَبَداً . فَإِنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قَدِ نَهَوْا عَنْ قُرْبِ
الْمَوْتُورِ^١ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُكَ لُطْفُ الْحَقُودِ وَلِيْنُهُ وَتَكْرِمَتُهُ إِلَّا وَحِشَةً مِنْهُ وَسُوءَ
ظَنٍّ بِهِ . فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ لِلْحَقُودِ الْمَوْتُورِ أَمَاناً هُوَ أَوْتَقَى لَكَ مِنَ الذُّعْرِ مِنْهُ وَلَا
أَجُودُ مِنَ الْبُعْدِ عَنْهُ . وَالْإِتْقَاءُ لَهُ أَوْلَى . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إِنَّ الْعَاقِلَ يَعُدُّ أَبَوَيْهِ
أَصْدِقَاءَ ، وَالْإِخْوَةَ رُفَقَاءَ ، وَالْأَزْوَاجَ أَلْفَاءَ ، وَالْبَنِينَ ذِكْراً وَالْبَنَاتِ
خُصَمَاءَ ، وَالْأَقْرَابَ عُرْمَاءَ ، وَيَعُدُّ نَفْسَهُ فَرِيداً وَحِيداً . وَأَنَا الْفَرِيدُ الْوَحِيدُ
الْعَرِيبُ الطَّرِيدُ^٢ قَدْ تَزَوَّدْتُ مِنْ عِنْدِكُمْ عِيّاً ثَقِيلاً لَا يَحْمِلُهُ مَعِيَ أَحَدٌ ، وَأَنَا
ذَاهِبٌ فَعَلَيْكَ مِنِّي السَّلَامُ .

قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : إِنَّكَ لَوْ لَمْ تُكُنْ قَدِ اجْتَرَيْتَ مَتّاً فِيهَا صَنَعْتَاهُ بِكَ ، أَوْ كَانَ

١ الموتور : من قُتِلَ لَهُ تَحْيِيلٌ فَلَمْ يَدْرِكْ بَدَنَهُ .

٢ الطريد : المنفي والحارب .

صَنِيعُكَ بِنَا مِنْ غَيْرِ ابْتِدَاءٍ مَتَى بِالْعَدْرِ ، كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ . وَأَمَّا إِذْ كُنَّا نَحْنُ
 قَدْ بَدَأْنَاكَ فَمَا ذَنْبُكَ وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثِّقَةِ بِنَا ؟ هَلُمَّ فَارْجِعْ فَلَنْكَ آمِينَ .
 قَالَ فَنَزَرَهُ : أَعْلَمُ أَنَّ الْأَحْقَادَ لَهَا فِي الْقُلُوبِ مَوَاضِعٌ مُمَكِّنَةٌ مُوجِعَةٌ .
 فَالْأَلْسُنُ لَا تَصْدُقُ فِي خَبَرِهَا عَنِ الْقُلُوبِ ، وَالْقَلْبُ أَعْدَلُ شَهَادَةً عَلَى اللِّسَانِ
 مِنَ اللِّسَانِ عَلَى الْقَلْبِ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ قَلْبِي لَا يَشْهَدُ لِلسَّانِكِ بِصِدْقِهِ وَلَا قَلْبِكَ
 لِلسَّانِي .

قَالَ الْمَلِكُ : أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ الصَّغَائِرَ وَالْأَحْقَادَ تَكُونُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ،
 فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ كَانَ عَلَى إِمَانَةٍ الْحَقْدِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيئِهِ ؟
 قَالَ فَنَزَرَهُ : إِنَّ ذَلِكَ لَكَمَا ذَكَرْتَ ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي لِذِي الرَّأْيِ مَعَ ذَلِكَ
 أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الْمَوْتُورَ الْحَقُودَ نَاسٍ مَا وُزِيَ بِهِ أَوْ مَصْرُوفٌ عَنْهُ . وَذُو الرَّأْيِ
 يَتَخَوَّفُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ وَالْحَيْلَ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَدُوِّ لَا يُسْتَطَاعُ بِالشَّدَةِ
 وَالْمُكَابَرَةِ حَتَّى يُصَادَ بِالرَّفْقِ وَالْمُلَائِمَةِ كَمَا يُصْطَادُ الْفَيْلُ الْوَحْشِيُّ بِالْفَيْلِ
 الدَّاجِنِ .

قَالَ الْمَلِكُ : إِنَّ الْعَاقِلَ الْكَرِيمَ لَا يَتْرُكُ إِلْفَهُ وَلَا يَقَطَعُ إِخْوَانَهُ وَلَا يُضَيِّعُ
 الْحِفَاطَ^٢ وَإِنْ هُوَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ . حَتَّى إِنْ هَذَا الْخَلْقُ يَكُونُ فِي أَوْضَعِ
 الدُّوَابِّ مِثْلَهُ . فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّعَّائِينَ يَلْعَبُونَ بِالْكَلابِ ثُمَّ يَذْبَحُونَهَا
 وَيَأْكُلُونَهَا ، وَيَرَى الْكَلْبُ الَّذِي قَدْ أَلْفَهُمْ ذَلِكَ فَيَمْنَعُهُ مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ أَلْفَتَهُ
 لِأَبْنَاهُمْ .

قَالَ فَنَزَرَهُ : إِنَّ الْأَحْقَادَ مَخُوفَةٌ حَيْثُ كَانَتْ . وَأَخُوفُهَا وَأَشَدُّهَا مَا كَانَ فِي
 أَنْفُسِ الْمُلُوكِ . فَإِنَّ الْمُلُوكَ يَدِينُونَ بِالْإِنْتِقَامِ وَيَرُونَ الدَّرَكَ^٣ وَالطَّلَبَ بِالْوَتْرِ

١ وتر : أصيب .

٢ الحفاظ : المراعاة .

٣ الدرك : اللحاق .

مَكْرُمَةً وَفَخْرًا . وَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَغْتَرُّ^١ بِسُكُونِ الْحِقْدِ إِذَا سَكَنَ . فَإِنَّمَا مَثَلُ الْحِقْدِ فِي الْقَلْبِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مُحَرِّكَاً مَثَلُ الْجَمْرِ الْمَكُونِ مَا لَمْ يَجِدْ حَطْباً . فَلَيْسَ يَنْفَكُ الْحِقْدُ مُطْلِعاً إِلَى الْعِلَلِ كَمَا تَبْتغِي النَّارُ الْحَطْبَ . فَإِذَا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعْرَ اسْتِعَارَ النَّارِ فَلَا يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلَامٍ وَلَا لِينٌ وَلَا رِفْقٌ وَلَا خُضُوعٌ وَلَا تَضَرُّعٌ وَلَا مُصَانَعَةٌ وَلَا شَيْءٌ دُونَ تَلْفِ الْأَنْفُسِ وَذَهَابِ الْأَرْوَاحِ . مَعَ أَنَّهُ رُبٌّ وَإِزْرٌ يَطْمَعُ فِي مُرَاجَعَةِ الْمَوْتورِ لِمَا يَرْجُو أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمِ لَهُ وَالذَّفْعِ عَنْهُ . وَلِكُنِّي أَنَا أضعفُ مِنْ أَنْ أَقْدِرَ عَلَى شَيْءٍ يَذْهَبُ بِهِ مَا فِي نَفْسِكَ . وَبَعْدُ فلو كانت نَفْسُكَ لِي عَلَى مَا تَقُولُ مَا كَانَ ذَلِكَ عَنِّي مُعْنِياً أَيْضاً وَلَا أَزَالُ فِي خَوْفٍ وَوَحْشَةٍ وَسَوْءِ ظَنٍّ^٢ مَا اصْطَحَبْنَا^٣ . فَلَيْسَ الرَّأْيُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِلَّا الْفِرَاقُ ، وَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ .

قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً . وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ صَغِيراً وَلَا كَبِيراً يُصِيبُ أَحَدًا إِلَّا بِقَضَاءِ وَقَدَرٍ مَعْلُومٍ . وَكَمَا أَنَّ خَلْقَ مَا يُخْلَقُ وَوِلَادَةَ مَا يُوَلَدُ وَبَقَاءَ مَا يَبْقَى لَيْسَ لِلْخَلَائِقِ مِنْهُ شَيْءٌ ، كَذَلِكَ فَنَاءُ مَا يَفْنَى وَهَلَاكُ مَا يَهْلِكُ . وَلَيْسَ لَكَ فِي الَّذِي فَعَلْتَ بَابِنِي ذَنْبٌ وَلَا لِابْنِي فِيمَا صَنَعَ بَابِنِكَ ذَنْبٌ . إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدْرًا مَقْدُورًا ، وَكِلَانَا لَهُ عِلَّةٌ وَسَبَبٌ فَلَا تُؤَاخِذُ بِمَا أَتَانَا بِهِ الْقَدْرُ .

قَالَ فَتْرَةٌ : إِنَّ الْقَدْرَ لِكَمَا ذَكَرْتَ . لَكِنْ لَا يَمْنَعُ الْحَازِمَ مِنْ تَوْفِي الْمَخَافِ وَالْإِحْتِرَاسِ مِنَ الْمَكَارِهِ . وَإِلَّا كَانَ الْمَرِيضُ غَيْرَ مُصِيبٍ فِي طَلْبِهِ الطَّيِّبِ ، وَكَانَ أَهْلُ الْمَصَائِبِ يَتْرَكُونَ النَّظَرَ فِيهَا فِيهِ الْفَرْجُ لَهُمْ . وَلَا يَنْفَعُ الْحَذَرُ وَالْإِحْتِرَاسُ مَعَ الْقَضَاءِ ، لَكِنَّ الْعَاقِلَ يَجْمَعُ مَعَ التَّصَدِيقِ بِالْقَدْرِ الْأَخْذَ بِالْحَزْمِ وَالْقُوَّةَ لَعَلَّ مَا يَسْتَسَلِمُ إِلَيْهِ لَا يَكُونُ مَقْدُورًا عَلَيْهِ . وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ

٣ ما اصطحبنا : أي مدة اصطحابنا .

١ لا يغتر : لا ينخدع .

٢ استمر : اتقد واشتمل .

تُكَلِّمُنِي بِغَيْرِ مَا فِي نَفْسِكَ . وَالْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَيْرُ صَغِيرٍ . لِأَنَّ ابْنَكَ قَتَلَ ابْنِي
وَأَنَا قَتَلْتُ عَيْنَ ابْنِكَ . وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُشْتَقِي بَقْتَلِي وَتُخْتَلِي^١ عَن نَفْسِي
وَالنَّفْسُ تَأْتِي الْمَوْتَ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : الْفَاقَةُ بَلَاءٌ وَالْحُزْنُ بَلَاءٌ وَقُرْبُ الْعَدُوِّ
بَلَاءٌ وَفِرَاقُ الْأَحْيَةِ بَلَاءٌ وَالسُّقْمُ بَلَاءٌ وَالْهَرَمُ بَلَاءٌ وَرَأْسُ الْبَلَايَا كُلُّهَا الْمَوْتُ .
وَلَيْسَ أَحَدٌ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي نَفْسِ الْمَوْجِعِ الْحَزِينِ مِمَّنْ ذَاقَ مِثْلَ مَا بِهِ . فَأَنَا مِمَّا
فِي نَفْسِي عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ لِلْمَثَلِ الَّذِي عِنْدِي مِنْ ذَلِكَ . وَلَا خَيْرَ لِي فِي
صُحْبَتِكَ . فَإِنَّكَ لَنْ تَتَذَكَّرَ صَنِيعِي بِابْنِكَ وَلَنْ أَتَذَكَّرَ صَنِيعَ ابْنِكَ بِابْنِي إِلَّا
أُحَدِّثَ ذَلِكَ لِقُلُوبِنَا تَغْيِيرًا .

قَالَ الْمَلِكُ : لَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِعْرَاضَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَلَا يَنْسَاهُ
وَيُهْمِلُهُ بَحِثٌ لَا يَذْكُرُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِهِ مَوْجِعٌ .
قَالَ فَرَزْدُ : إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي بَاطِنِ قَدَمَيْهِ قَرْحَةٌ^٢ إِنْ هُوَ حَرَّصَ عَلَى
الْمَشْيِ لَا بُدَّ أَنْ تُنْكَأَ^٣ قَرْحَتُهُ . وَالرَّجُلُ الْأَرْمَدُ الْعَيْنِ إِذَا اسْتَقْبَلَ بِهَا الرِّيحَ
تَعَرَّضَ لِأَنْ تَرْدَادَ رَمْدًا . وَكَذَلِكَ الْوَائِرُ إِذَا دَنَا مِنَ الْمَوْتُورِ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ
لِلْهَلَاكِ .

وَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا إِلَّا تَوَقَّى الْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ وَتَقَدَّرِ الْأُمُورِ
وَقِلَّةِ الْإِتْكَالِ عَلَى الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ وَقِلَّةِ الْإِغْتِرَارِ بِمَنْ لَا يَأْمَنُ . فَإِنَّهُ مَنْ ائْتَكَلَ
عَلَى قُوَّتِهِ فَحَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمَخُوفَ فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِ
نَفْسِهِ . وَمَنْ لَا يُقَدِّرُ لَطَاقَتِهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَحَمَلَ نَفْسَهُ مَا لَا تُطِيقُ وَلَا تُحْمِلُ
فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ . وَمَنْ لَمْ يُقَدِّرْ لِقَمَّتِهِ وَعَظْمَهَا فَوْقَ مَا يَسَعُ قُوَّةُ فَرْبَمَا عَصَّ بِهَا
فَاتَ . وَمَنْ اغْتَرَّ بِكَلَامِ عَدُوِّهِ وَانْخَدَعَ لَهُ وَضَيَّعَ الْحَزْمَ فَهُوَ أَعْدَى لِنَفْسِهِ مِنْ

١ تختلي : تخدعي .

٢ قرحة : جراحة متقدمة .

٣ تنكأ : تفسر .

عَدُوهُ . وليسَ لأحدٍ اشْطَرَّ في القَدَرِ الذي لا يدري ما يأتيهِ منه ولا ما يُصَرَفُ
 عنه . ولكن عليه العَمَلُ بالحَزْمِ والأخذُ بالقُوَّةِ ومُحاسبَةُ نَفْسِهِ في ذلك .
 والعاقِلُ لا يَتَّقُ بأحدٍ ما اسْتَطَاعَ ولا يُقِيمُ على خَوْفٍ يَجِدُ عنه مَذْهَباً . وأنا
 كثيرُ المَذاهِبِ وأرجو أن لا أذْهَبَ وَجْهاً إلا أَصَبْتُ فيه ما يُغْنيني . فإنَّ خِلالاً
 خَمْساً مَن تَرَوْدَهُنَّ كَفَيْتُهُ في كلِّ وَجْهِ وآتَسْتُهُ في كلِّ غُرْبَةٍ وَقَرِينٍ له البَعِيدِ
 وأكسَبْتُهُ المعاشَ والإخوانَ . أولاهُنَّ كَفُّ الأذى . والثانيةُ حُسْنُ الأَدَبِ .
 والثالثةُ مُجانَبَةُ الرِّبِّبِ . والرابعةُ كَرَمُ الخُلُقِ . والخامسةُ الثُّبُلُ في العَمَلِ .
 وإذا خافَ الإنسانُ على نَفْسِهِ شيئاً طابَتْ نَفْسُهُ عن المَالِ والأهلِ والوَلَدِ
 والوطنِ ، فإنه يَرجو الخَلْفَ من ذلك كُلِّهِ ولا يَرجو عن النَفْسِ خَلْفاً . وشَرُّ
 المَالِ ما لا إنفاقَ منه . وشَرُّ الأزواجِ التي لا تُؤاتي بَعْلها . وشَرُّ الوَلَدِ العاصي
 اتعاقُ لِوالِدَيْهِ . وشَرُّ الإخوانِ الخاذِلُ لأخيه عند التَّكَبُّاتِ والشَّدائِدِ والذي
 يحصي السَّيِّئاتِ وَيَتْرُكُ الحَسَناتِ . وشَرُّ الملوِكِ الذي يَخافُهُ البَرِيُّ ولا
 يُواظِبُ على حِفْظِ أهلِ مملكتِهِ . وشَرُّ البلادِ بلادٌ لا خِصْبَ فيها ولا أَمَنَ .
 وإنَّهُ لا أَمَنَ لي عندكَ أيُّها المَلِكُ ولا طَمَأنينَةٌ لي في جِوارِكِ . ثمَّ ودَّعَ المَلِكُ
 وطارَ .

فهذا مَثَلُ ذَوِي الأوتارِ^١ الذين لا يَنبغي لِبعضِهِم أن يَتَّقَ بِيَعْضِي .

١ الأوتار : الثارات .

باب الأسد وابن آوى والناسك

قال دَبشليمُ المَلِكُ لبيدبا الفيلسوفِ : قد سَمِعْتُ هذا المَثَلَ ، فاضْرِبْ لي مَثَلَ المَلِكِ الَّذِي يُرَاجِعُ مَنْ أَصَابَتْهُ مِنْهُ عُقُوبَةٌ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ أَوْ جَفَوَةٌ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ .

قالَ الفيلسوفُ : إنَّ المَلِكَ لو لم يُرَاجِعْ مَنْ أَصَابَتْهُ مِنْهُ جَفَوَةٌ عَنْ ذَنْبٍ أَوْ عَنْ غَيْرِ ذَنْبٍ ، ظَلِمَ أَوْ لَمْ يُظَلِّمْ ، لِأَضْرَ ذلكَ بِالأمُورِ . وَلَكِنَّ المَلِكَ حَقِيقٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي حَالِ مَنْ ابْتَلَى بِذلكَ وَيَخْتَرُ ما عِنْدَهُ مِنَ المَنَافِعِ . فَإِنْ كانَ مِمَّنْ يُوثِقُ بِهِ فِي رَأْيِهِ وَأَمَانَتِهِ فَإِنَّ المَلِكَ حَقِيقٌ بِالْحِرْصِ عَلَى مُرَاجَعَتِهِ . فَإِنَّ المَلِكَ لا يُسْتَطَاعُ ضَبْطُهُ إِلَّا مَعَ ذَوِي الرَأْيِ وَهُمْ الوُزَرَاءُ والأَعْوانُ ، وَلا يُنْتَفَعُ بِالوُزَرَاءِ والأَعْوانِ إِلَّا بِالمُودَّةِ والنَّصِيحَةِ ، وَلا مُودَّةٌ وَلا نَصِيحَةٌ إِلَّا لَدَوِي الرَأْيِ والعَفَافِ .

وأَعْمالُ السُّلْطانِ كَثِيرَةٌ ، وَالَّذِينَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ مِنَ العُمَالمِ والأَعْوانِ كَثِيرُونَ . وَمَنْ يَجْمَعُ مِنْهُمْ ما ذَكَرْتُ مِنَ النَّصِيحَةِ والعَفَافِ قَلِيلٌ . فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَرُ وُزَرَاءَهُ وَذَوِي رَأْيِهِ وَيَرى ما عِنْدَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الرَأْيِ والتَّدْبِيرِ وَما يَنْطَوِي عَلَيْهِ . فَإِذا اسْتَقَرَّ ذلكَ عِنْدَهُ جَعَلَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ ما يَصْلُحُ أَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ وَيُدَبَّرَهُ . وَأَنْ لا يُوجِّهَ إِلى الأَعْمالِ إِلَّا مَنْ يَثِقُ بِدِينِهِ وَأَمَانَتِهِ وَعِفَّتِهِ . ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذلكَ إنْفِادُ مَنْ يَثِقُ بِهِ لِلْكَشْفِ عَنِ أَعْمالِهِمْ وَتَفْقِيدُ أُمُورِهِمْ بِالسَّرِّ الحَفِيِّ حَتَّى لا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسانُ مُجْسِنٍ وَلا إِساءَةُ مُسِيءٍ . فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذلكَ تَهَاوَنَ المُحْسِنُ واجْتَرَأَ المُسِيءُ وَفِي عَرَضِ ذلكَ تَهْلِكُ الرَعِيَّةُ وَيَفْسُدُ

المَلِكُ . والمَثَلُ في ذلك مَثَلُ الأَسَدِ وابنِ آوى النَّاسِكِ . قالَ المَلِكُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

قالَ الفيلسوفُ : زَعَموا أَنَّ ابنَ آوى كانَ يَسْكُنُ في بعضِ الدَّحَالِ . وكانَ مُتْرَهِّدًا مُتَعَفِّفًا معَ بناتِ آوى وذئابِ ونَعالِبِ ، ولم يكنِ يَصْنَعُ ما يَصْنَعْنَ ولا يُغَيِّرُ كما يُغَيِّرْنَ ولا يُهْرِيقُ دَمًا ولا يأْكُلُ لَحْمًا ولا يَظَلِمُ طَرَفَةً عَيْنٍ . فمَخاصِمتُهُ تلكَ السَّبَّاعِ وَقُلْنَ : نحنُ لا نَرى سِيرَتَكَ ولا رَأْيَكَ الذي أنتَ عليه من تَرَهِّدِكَ معَ أَنَّ تَرَهِّدَكَ لا يُغني عنكَ شيئًا . وأنتَ لا تَسْتَطِيعُ أنَ تكونَ إلَّا كأحدِنا نَسعى مَعنا وَتَفْعَلُ فِعْلَنا . وأيُّ شيءٍ يُشِبُّكَ كَفِّكَ عَنِ الدِّمَاءِ وعن أَكْلِ اللِّحْمِ ؟

قالَ ابنُ آوى : إِنَّ صُحْبَتِي إِيَّاكَ لا تُؤْتِمُّني إذا لم أُوْتِمَّ نَفْسي . لأنَّ الآثامَ لَيسَت من قِبَلِ الأَماكينِ والأَصحابِ ولكنَّها من قِبَلِ القُلُوبِ والأَعْمالِ . ولو كانَ صاحِبُ المَكانِ الصَّالِحِ يَكونُ عَمَلُهُ فيهِ صالِحًا وصاحِبُ المَكانِ السَّيِّئِ يَكونُ عَمَلُهُ فيهِ سَيِّئًا كانَ حينئذٍ مَن قَتَلَ النَّاسِكَ في مِحرابِهِ^٢ لم يَأْتِمَّ وَمَن اسْتَحْيَاهُ^٣ في مَعْرَكَةِ القِتالِ أَيْمًا . وإني إنا صَحِيتُكَ نَفْسي ولم أَصْحَبِكَ بَقَلْبِي وأَعْمالي لأنِّي أَعْرِفُ ثَمَرَةَ الأَعْمالِ فلزِمْتُ حالي . وإنا صَحِيتُكَ مَوَدَّةً مِنِّي لَكُنْ . فإنَ كانتِ صُحْبَتِي تُضُرُّكَنَّ فالأَماكينُ والمَواضِعُ كَثِيرَةٌ .

وَبَيَّتَ ابنُ آوى على حالِهِ تلكَ واشتَهَرَ بِالنُّسكِ والتَّرَهِّدِ حَتى بَلَغَ ذلكَ أَسَدًا كانَ مَلِكًا تلكَ النَّاحِيَةِ . فَرَغِبَ فيهِ لِمَا بَلَغَهُ عَنهُ مِنَ العَفافِ والتَّراهَةِ والزُّهْدِ والأَمَانَةِ . فأرْسَلَ إِلَيْهِ يَسْتَدْعِيهِ . فلَمَّا حَضَرَ كَلِمَتُهُ وَأَنَسَهُ فَوَجَدَهُ في جَميعِ أُمُورِهِ على عَرَضِهِ . ثمَ دَعاهُ بَعْدَ أَيامٍ إلى صُحْبَتِهِ وقالَ لَهُ : تَعَلَّمُ أَنَّ

١ الدَّحَالُ : جَمع دَحَل وهو ثَقَبٌ فيه ضَيْقٌ واسفلُهُ مَتسَعٌ .

٢ مِحرابِهِ : عِرْقَتُهُ .

٣ اسْتَحْيَاهُ : اسْتَفْهَاهُ حَيًّا .

عُمَالِي كَثِيرٌ وَأَعْوَانِي جَمٌّ غَفِيرٌ وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ إِلَى الْأَعْوَانِ مُحْتَاجٌ . وَقَدْ بَلَغَنِي
عَنْكَ عَفَافٌ وَأَدَبٌ وَعَقْلٌ وَدِينٌ . وَقَدْ اخْتَبَرْتُكَ فَوَجَدْتُكَ كَذَلِكَ فَازْدَدْتُ
فِيكَ رَغْبَةً . وَأَنَا مُؤَلِّيكَ مِنْ عَمَلِي جَسِيماً وَرَافِعُكَ إِلَى مِثْرَلَةٍ شَرِيفَةٍ وَجَاعِلُكَ
مِنْ خَاصَّتِي .

قَالَ ابْنُ آوَى : إِنَّ الْمُلُوكَ أَحْقَاءُ بِاخْتِيَارِ الْأَعْوَانِ فِيمَا يَهْتَمُونَ بِهِ مِنْ
أَعْمَالِهِمْ وَأُمُورِهِمْ مِنْ لَهْمِ الْخَيْرَةِ بِذَلِكَ . وَهَمَّ أُخْرَى أَنْ لَا يُكْرِهُوا عَلَى
ذَلِكَ أَحَدًا ، فَإِنَّ الْمُكْرَةَ لَا يَسْتَطِيعُ الْمُبَالِغَةَ فِي الْعَمَلِ ، وَإِنِّي لِعَمَلِ
السُّلْطَانِ كَارٍ وَلَيْسَ لِي بِهِ تَجْرِبَةٌ وَلَا بِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ . وَأَنْتَ مَلِكُ السَّبَاعِ
وَعِنْدَكَ مِنْ أَجْنَاسِ الْوُحُوشِ عَدَدٌ كَثِيرٌ فِيهِمْ أَهْلُ نَبْلِ وَقُوَّةٍ وَلَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ
حِرْصٌ وَعِنْدَهُمْ بِهِ وَبِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ . فَإِنَّ اسْتَعْمَلْتَهُمْ أَغْنَوْا عَنْكَ^١ وَاعْتَبَطُوا
لِأَنْفُسِهِمْ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ الْأَسَدُ : دَعَّ عَنْكَ هَذَا فَلِئِنْ غَيْرَ مُعْفِكَ مِنَ الْعَمَلِ .

قَالَ ابْنُ آوَى : إِنَّمَا يُقَدِّمُ عَلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ غَيْرَ هَائِبٍ رَجُلَانِ لَسْتُ
بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا : إِمَّا مُصَانِعٌ يَبَالُ حَاجَتَهُ بِفُجُورِهِ وَيَسْلُمُ بِمُصَانَعَتِهِ ، وَإِمَّا هَيِّنٌ
لَا يَحْسُدُهُ أَحَدٌ . وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْدُمَ السُّلْطَانَ بِالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ غَيْرِ خَالِطٍ
ذَلِكَ بِمُصَانَعَتِهِ فَقَلَّ أَنْ يَسْلَمَ عَلَى ذَلِكَ . لِأَنَّهُ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ عَدُوُّ السُّلْطَانِ
وَصَدِيقُهُ بِالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ . أَمَّا الصِّدِيقُ فَيُنَافِسُهُ فِي مِثْرَلَتِهِ وَيَبْغِي عَلَيْهِ
وَيُعَادِيهِ لِأَجْلِهَا وَيَبْشِي عَلَيْهِ كَذِبًا . فَإِذَا لَقِيََتِ الْوِشَايَةُ أُذُنًا وَاعِيَةً مِنَ الْمَلِكِ
كَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهُ . وَأَمَّا عَدُوُّ السُّلْطَانِ فَيَضْطَلُّ^٢ عَلَيْهِ لِتَصِيحَّتِهِ لِسُلْطَانِهِ
وَإِغْنَائِهِ عَنْهُ فَيَعْمَلُ عَلَى هَلَاكِهِ وَيَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِيبَ الْمَنُونِ . فَإِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ
هَذَانِ الصَّنْفَانِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ .

١ اغنوا عنك : نفرك .

٢ يضطلفن : يحمق .

قال الأسدُ : لا يكوننَّ بغيُّ أصحابي عليك وحسدُهُم إِيَّاكَ وعداؤُهُ
أعدائي لك ممَّا يعرضُ في نفسك ، فأنت معي وأنا أكفيك ذلك وأبلغُ بك
من درجاتِ الكرامةِ والإحسانِ على قدرِ هِمَّتِكَ .

قال ابنُ آوى : إن كانَ الملكُ يُريدُ الإحسانَ إليَّ فليدعني في هذه البريةِ
أعيشُ آمناً قليلَ الهَمِّ راضياً بعيشي من الماءِ والعُشبِ . فإني قد عَلِمْتُ أنَّ
صاحبَ السُّلطانِ يصلُ إليه من الأذى والخوفِ في ساعةٍ واحدةٍ ما لا يصلُ إلى
غيره في طولِ عمره ، وأنه يتصلُّ إليه التَّفْعُ ساعةً واحدةً ثم هو في الخوفِ
سرمداً . وإنَّ قليلاً من العيشِ في أمنٍ وطُمأنينةٍ خيرٌ من كثيرٍ من العيشِ في
خوفٍ ونَصَبٍ .

قال الأسدُ : قد سمعتُ مقاتلَكَ فلا تخفُ شيئاً ممَّا أراك تخافُ منه ،
ولستُ أجدُ بداً من الاستِعاثةِ بك في أمري .

قال ابنُ آوى : أمَّا إذا أبى الملكُ إلا ذلك فليجعلَ الملكُ لي عهداً إن
بغى عليَّ أحدٌ من أصحابي ممن هو فوقِي مَخَافَةً على مترليِّه أو ممن هو دوني
ليُنازعني على مترليِّه فذكرَ عندَ الملكِ منهم ذا كِرِّ بلسانهِ أو على لسانِ غيره ما
يُريدُ به تحريشَ الملكِ عليَّ أن لا يعجلَ في أمري وأن يتثبتَ فيما يُرْفَعُ إليه
ويذكرُ عندهُ من ذلك ويفحصَ عنه ثم ليصنعَ ما بدا له . فإذا وثقتُ منه
بذلك أعتتهُ بنفسِي فيما يُجِبُّ إطاعةً له وعمِلتُ له فيما أولاني بتصحيحهِ واجتهادِ
وحرصتُ على أن لا أجعلَ له على نفسي سبيلاً .

قال الأسدُ : لك عليَّ ذلك وزيادةً . ثم ولأه خزانتهُ واختصَّ به دونَ
أصحابي وزادَ في كرامتِهِ .

فلمَّا رأى أصحابُ الأسدِ ذلك غاظَهُم وساءَهُم ، فأجمعوا كيدَهُم ،
وأنفقوا كلَّهُم على أن يُحرشوا عليه الأسدُ .

وكانَ الأسدُ قد استطابَ لِحماً فزَلَ منه مقداراً وأمَرَ ابنُ آوى

بالاحتفاظِ به وأن يرفعه في أحسنِ موضعِ طعامِهِ وأحرزوا ليعادَ عليه .
فأخذوه من موضِعِهِ وحملوه إلى بيتِ ابنِ آوى فخبأوه فيه ولا عِلْمَ له به . ثم
حَضَرُوا يُكذِّبُونَهُ إذا جَرَّتْ في ذلكِ حالٌ .

فلما كانَ مِنَ القَدْرِ دَعَا الأَسَدُ بَغدَائِهِ فَقَدَّ ذَلِكَ اللَّحْمَ وَالتَّمَسَهُ فلم
يَجِدْهُ . وابنُ آوى لم يَشْعُرْ بما صُنِعَ في حَقِّهِ مِنَ المَكِيدَةِ وهو غَائِبٌ في خَدْمَةِ
الأَسَدِ وَأَشْغَالِهِ . فَحَضَرَ الَّذِينَ عَمِلُوا المَكِيدَةَ وَقَعَدُوا فِي المَجْلِسِ . ثم إنَّ
المَلِكَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمِ وَشَدَّدَ فِيهِ وَفِي السُّؤالِ عَنْهُ فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ .
فقالَ أَحَدُهُمْ قَوْلَ المُخْبِرِ النَّاصِحِ : إِنَّهُ لا بُدَّ لَنَا أَنْ نُخْبِرَ المَلِكَ بما يَصُرُّهُ
وَيَنْفَعُهُ وَإِنْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ . وَإِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ ابنَ آوى هو الَّذِي
ذَهَبَ بِاللَّحْمِ إِلَى مَتْرَلِهِ لِأَكْلِهِ دُونَ المَلِكِ .

قالَ الأَخْرُ : ما أَرَأَهُ يَقَعْلُ هَذَا . وَلَكِنْ انظُرُوا وافحصوا فإنَّ مَعْرِفَةَ
الحَلَّاقِي شَدِيدَةٌ .

قالَ الأَخْرُ : لعمري ما تَلَبَّثُ السَّرَائِرُ^٢ أَنْ تُعْرَفَ ، وَأُظْهِرَ لَكُمْ إِنْ فَحَصْتُمْ
عَنْ هَذَا وَجَدْتُمْ اللَّحْمَ فِي بَيْتِ ابنِ آوى . وَكُلُّ شَيْءٍ يُدَكَّرُ مِنْ عُيُوبِهِ وَخِيائَتِهِ
نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُصَدِّقَهُ .

قالَ الأَخْرُ : لَئِنْ وَجَدْنَا هَذَا حَقًّا لَمْ تَكُنْ بِالْحَيانَةِ فَقَطْ وَلَكِنْ مَعَ الحَيانَةِ
كُفْرُ النِّعْمَةِ والجِراءَةِ عَلَى المَلِكِ .

قالَ الأَخْرُ : أَنْتُمْ أَهْلُ العَدْلِ وَالفَضْلِ ، وَلا اسْتَطِيعُ أَنْ أَكْذِبَكُمْ .
وَلَكِنْ سَبِّبْنِي هَذَا لو أَرْسَلَ المَلِكُ إِلَى بَيْتِهِ مَنْ يُفْتَشُّهُ .

قالَ الأَخْرُ : إِنْ كانَ المَلِكُ مُفْتَشًّا مَتْرَلَهُ فَلْيَعْجَلْ فَإِنَّ عُيُوبَهُ وَجِواسِيَسَهُ
مَبْثُوتَةٌ بِكُلِّ مَكَانٍ .

١ أحرزه : أمنه .

٢ السرائر : الخفايا .

ولم يزالوا في هذا الكلامِ وأشباهِهِ حتى وَقَعَ في نفسِ الأسدِ ذلك . فأمرَ
بابنِ آوى فحَضَرَ ، فقالَ له : أينَ اللَّحْمَ الذي أمرْتُكَ بالاحتِفاظِ به ؟ قالَ :
دَفَعْتُهُ إلى صاحبِ الطَّعامِ لِيُقَرَّبَهُ إلى المَلِكِ .

فدعا الأسدُ بصاحبِ الطَّعامِ ، وكانَ من شايِعٍ وبايِعٍ مع القومِ على
ابنِ آوى ، فقالَ : ما دَفَعَ إليَّ شيئاً . فأرسلَ الأسدُ أميناً إلى بيتِ ابنِ آوى
لِيُفْتَشَهُ فوجدَ فيه ذلكَ اللَّحْمَ فأتى به الأسدَ . فدنا مِنَ الأسدِ ذئبٌ لم يكن
تَكَلَّمُ في شيءٍ من ذلكَ ، وكانَ يُظهِرُ أَنَّهُ مِنَ العُدولِ الذينَ لا يَتَكَلَّمُونَ فيما لا
يَعْلَمُونَ حتى يَتَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ . فقالَ : بعد أنِ اطَّلَعَ المَلِكُ على خيائَةِ ابنِ آوى
لا يَعْفُونَ عنه ، فإنَّهُ إن عفا عنه لم يَطَّلِعِ المَلِكُ بعدها على خيائَةِ خائِنِ ولا
ذئبِ مُدْنِبِ .

فأمرَ الأسدُ بابنِ آوى أن يُخْرَجَ وإن لم يُحْتَفَظْ به . فقالَ بعضُ جُلُساءِ
المَلِكِ : إني لأعجَبُ من رأيِ المَلِكِ ومعرفتِهِ بالأُمورِ كيفَ يَخْفَى عليه أمرُ هذا
ولم يَعْرِفْ خيئَهُ ومُخادَعَتَهُ . وأعجَبُ من هذا أي أراه سَبَّصَحُ عنه بعد الذي
ظَهَرَ منه .

فأرسلَ الأسدُ بعضَهُمُ رسولاً إلى ابنِ آوى يَلْتَمِسُ منه العُدْرَ عن أمرِهِ .
فَرَجَعَ إليه الرُّسولُ برسالةٍ كاذِبَةٍ اختَلَقَهَا . فغَضِبَ الأسدُ من ذلكَ وأمرَ بابنِ
آوى أن يُقْتَلَ . فعَلِمَتْ أمُ الأسدِ أَنَّهُ قد عَجَلَ في أمرِهِ ، فأرسلَتْ إلى الذينِ
أَمَرُوا بِقَتْلِهِ أن يُرَجِّئُوهُ . ودَخَلَتْ على ابنِها فقالتَ : يا بُنَيَّ بأيِّ ذَنْبِ أَمَرْتَ
بِقَتْلِ ابنِ آوى ؟ فأخبرَها بالأمرِ . فقالتَ : يا بُنَيَّ عَجَلْتَ وإِنَّا يَسْلَمُ العاقِلُ مِنَ
الثَّدَامَةِ بتركِ العَجَلَةِ وبالثَّبُتِ . والعَجَلَةُ لا يَزَالُ صاحبُها يَجْتَنِي ثَمَرَةَ الثَّدَامَةِ
بسببِ ضَعْفِ الرأْيِ .

ومن لم يَنْظُرْ في أُمُورِهِ نَظَرَ مُفَكِّرٍ كانَ نَظَرُهُ كَنَظَرِ الذي يكونُ بَعَيْنِيهِ سَبِيلٌ^١

١ سبل : شبه غشاوة تعرض في العين .

فِيخِيلُ لَهُ أَنْ أَمَامَهَا كَهَيْئَةِ شَعْرَةٍ . وَكَانَ كَالرَّجُلِ الْجَاهِلِ الَّذِي يَسْمَعُ صَوْتَ
 الْبَعُوضَةِ فِي اللَّيْلِ فَيَطْفُئُهَا لِشِدَّةِ صَوْتِهَا شَيْئًا فَإِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عَلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ
 بِشَيْءٍ . وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحْوَجَ إِلَى التَّوَدُّدِ وَالتَّثْبِتِ مِنَ الْمَلُوكِ . فَإِنَّ الْمَرْأَةَ بِزَوْجِهَا ،
 وَالوَلَدَ بِوَالِدَيْهِ ، وَالْمُتَعَلَّمَ بِالْمُعَلِّمِ ، وَالْجُنْدَ بِالْقَائِدِ ، وَالتَّاسِكَ بِالذِّينِ ،
 وَالْعَامَّةَ بِالْمَلُوكِ ، وَالْمَلُوكَ بِالتَّقْوَى ، وَالتَّقْوَى بِالْعَقْلِ ، وَالْعَقْلَ بِالتَّثْبِتِ
 وَالْأَنَاةِ . وَرَأْسُ الْحَزْمِ لِلْمَلِكِ مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهِ وَإِنزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ^٢
 وَإِتِهَامُهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . فَإِنَّهُ لَوْ وَجَدَ بَعْضُهُمْ فِي هَلَاكِ بَعْضٍ سَبِيلًا
 لَفَعَلَ .

وَقَدْ جَرَّبَتْ ابْنَ آوَى وَبَلَوَتْ رَأْيَهُ وَأَمَانَتَهُ وَمُرُوءَتَهُ ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَادِحًا لَهُ
 رَاضِيًا عَنْهُ . وَقَدْ أَتَهَمَتْهُ بِشَيْءٍ لَا صِحَّةَ لَهُ وَلَا تَعْلَمُ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ . وَلَعَلَّ
 ذَلِكَ عَمَلُ أَهْلِ الْكَذِبِ وَالْحَسَدِ وَالخِيَانَةِ مِنْ وَزَرَائِكَ . لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا تَهَاوَنَ
 فِي أَمْرِ وَزَرَائِهِ وَتَعَاوَلَ عَنْهُمْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مَا تُكْرَهُ عَاقِبَتُهُ . وَالْمَلِكُ أَخْبِرُ
 مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ أَنَّ الْأَشْرَارَ يَحْسُدُونَ الْأَخْيَارَ وَيَرْقُبُونَهُمْ لِيُوقِعُوا بِهِمْ . وَلَيْسَ
 يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُخَوِّنَهُ بَعْدَ ارْتِضَائِهِ إِيَّاهُ وَاتِّمَانِهِ لَهُ . وَمِنذُ مَجِيئِهِ إِلَى الْآنَ لَمْ
 يَطَّلِعْ لَهُ عَلَى خِيَانَةٍ إِلَّا عَلَى الْعِفَّةِ وَالتَّصَبُّحَةِ . وَمَا كَانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ أَنْ يُعَجَّلَ
 عَلَيْهِ لِأَجْلِ طَابِقِ لَحْمٍ .

وَأَنْتِ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَنْ تَنْظُرَ فِي حَالِ ابْنِ آوَى ، وَلَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
 يَتَعَرَّضُ لِلْحَمِّ وَلَا يَأْكُلُهُ فَكَيْفَ لِلْحَمِّ اسْتِوْدَعَتْهُ إِيَّاهُ ! وَلَعَلَّ الْمَلِكَ إِنْ فَحَصَ
 عَنْ ذَلِكَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ ابْنَ آوَى لَهُ خَصْمَاءُ هُمُ الَّذِينَ اتَّخَمَرُوا بِهَذَا الْأَمْرِ وَهُمْ
 الَّذِينَ ذَهَبُوا بِاللَّحْمِ إِلَى بَيْتِهِ فَوَضَعُوهُ فِيهِ . فَإِنَّ الْحِدَاةَ إِذَا كَانَ فِي رِجْلِهَا
 قِطْعَةٌ لَحْمٍ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا سَائِرُ الطَّيْرِ . وَالْكَلْبُ إِذَا كَانَ دَعَا عَظْمًا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ

١ الأناة : الحلم والرفق .

٢ طبقاتهم : مراتبهم .

الِكِلَابُ . وابنُ آوى منذُ كانَ إلى اليومِ نافعٌ وكانَ مُحْتَمِلًا لكلِّ صَرَرٍ في
جَنبِ مَنفَعَةٍ تَصِلُ إِلَيْكَ ولكلِّ عَناءٍ يَكُونُ لَكَ فِيهِ رَاحَةٌ ولم يَكُنْ يَطْوِي
دُونَكَ سِرًّا .

فِينَا أُمُّ الْأَسَدِ تُقْصُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَقَالَةَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ ثِقَاتِهِ فَأَخْبَرَهُ
بِرِاءَةِ ابْنِ آوَى . فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : إِنَّ الْمَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُطْلِعَ عَلَى بِرَاءَةِ ابْنِ آوَى
حَقِيقًا أَنْ لَا يَتَسَاهَلَ مَعَ مَنْ سَعَى بِهِ لثَلَا يَتَجَرَّأُوا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ .
وَلَسَ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ لَكُمِي لَا يَعُودُوا إِلَى مِثْلِهِ . وَلَا تَحْتَقِرْ مَا فَعَلُوا مَعَكَ ، فَإِنَّ
الْعُشْبَ وَإِنْ كَانَ لَا قُوَّةَ لَهُ يُصْنَعُ مِنْهُ الْحَبْلُ الَّذِي يُوثَقُ بِهِ الْفِيلُ . فَإِنَّهُ لَا
يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُرَاجَعَ فِي أَمْرِ الْكُفُورِ لِلْحُسْنَى وَالْجَرِيءِ عَلَى الْعَدْرِ وَالزَّاهِدِ فِي
الْخَيْرِ وَانْذِي لَا يُوقِنُ بِالْآخِرَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُجْزَى بِعَمَلِهِ .

وَقَدْ عَرَفْتَ سُرْعَةَ الْغَضَبِ وَفَرَطَ الْهَفْوَةِ ، وَمَنْ سَخِطَ بِالسَّيْرِ لَمْ يَبْلُغْ
رِضَاءَهُ بِالْكَثِيرِ . وَالأولى لَكَ أَنْ تُرَاجَعَ ابْنَ آوَى وَتَعَطِفَ عَلَيْهِ وَلَا يُؤَسِّتَكَ^١ مِنْ
مُنَاصِحَتِهِ مَا فَرَطَ مِنْكَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسَاءَةِ . فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَنْبَغِي تَرْكُهُ
عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالصَّلَاحِ وَالْكَرَمِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَالشُّكْرِ
وَالْوَفَاءِ وَالْمَحَبَّةِ لِلنَّاسِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبُعْدِ مِنَ الْأَذَى وَالِاحْتِمَالِ
لِلْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ وَإِنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ الْمُؤُونَةُ . وَأَمَّا مَنْ يَنْبَغِي تَرْكُهُ فَهُوَ
مَنْ عُرِفَ بِالشُّرَاسَةِ وَتُؤْمِ الْعَهْدِ وَقِلَّةِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ وَالْبُعْدِ عَنِ الرَّحْمَةِ
وَالْوَرَعِ وَأَنْصَفَ بِالْجُحُودِ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ وَعِقَابِهَا . وَقَدْ عَرَفْتَ ابْنَ
آوَى وَجَرِيَّتَهُ وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِمُؤَاصَلَتِهِ .

فَدَعَا الْأَسَدُ بَابِنِ آوَى وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ مِنْهُ وَوَعَدَهُ خَيْرًا وَقَالَ :
إِنِّي مُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ وَرَادُّكَ إِلَى مَتْرَلِكَ . فَقَالَ ابْنُ آوَى : أَوْلَيْسَ هَذَا الَّذِي
حِفْتُ مِنْهُ فِي أَوَّلِ اتِّصَالِي بِكَ وَالَّذِي لِأَجْلِهِ امْتَنَعْتُ مِمَّا عَرَّضْتَهُ عَلَيَّ مِنْ

١ يُوَسِّتَكَ : يَقَطَعُ أَمْلَكَ .

صُحْبِكَ وَتَوَلَّى خِدْمَتِكَ ؟ وَإِنَّ شَرَّ الْأَخْلَاءِ مَنْ التَّمَسَّ مَنَفَعَةَ نَفْسِهِ بِضَرِّ
أَخِيهِ ، وَمَنْ كَانَ غَيْرَ نَاطِرٍ لَهُ كَنَظَرِهِ لِنَفْسِهِ ، أَوْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُرْضِيَهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ
لَأَجْلِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ ذَلِكَ بَيْنَ الْأَخْلَاءِ .

وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَلِكِ إِلَيَّ مَا عَلِمَ ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَطْمَئِنُّ إِلَى مَنْ
عَاقَبَهُ أَشَدَّ الْعُقُوبَةِ مِنْ نَزْعِهِ عَنِ عَمَلِهِ أَوْ أَخْذِ مَالِهِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ، أَوْ مَنْ كَانَ
لِلْكَرَامَةِ أَهْلًا فَلَمْ يَعْرِفْ لَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يُعْطِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ ، أَوْ كَانَ مَظْلُومًا وَلَمْ
يَنْظُرْ فِي أَمْرِهِ ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الطَّمَعِ فَلَمْ يُصِيبْ مَا يَرْجُوهُ ، أَوْ كَانَ بَيْنَ قَوْمٍ
قَدْ اجْتَرَمُوا جَرِيمَةً هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ فَأَخِذَ هُوَ بِهَا مِنْ بَيْنِهِمْ وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ .
فَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ لَا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَصْحَبَهُمْ . وَأَنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ أَحَدُ هَؤُلَاءِ . فَلَعَلَّ
الْمَلِكُ يَقُولُ إِنَّ ابْنَ آوَى لَا يَنْسَى الَّذِي لَقِيَهُ مِنَ الْهَوَانِ فَيَقْتَصِرَ مِنِّي . وَأَنَا
يَعْلَمُ اللَّهُ أَنْ لَيْسَ فِي قَلْبِي شَيْءٌ مِنْ قَبْلِ هَذَا وَإِنَّا خَوْفِي أَنْ يَفْعَلُوا بِي ذَلِكَ مَرَّةً
أُخْرَى . فَلَا يَغْلُظُنَّ عَلَى نَفْسِ الْمَلِكِ مَا أُخْبِرُهُ أَنِي بِهِ غَيْرُ وَاثِقٍ وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي
أَنْ أَصْحَبَهُ . وَإِنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَصْحَبَ مَنْ كَانَ مِثْلِي وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ
يَرْفُضَهُ أَصْلًا . فَإِنَّ ذَا السُّلْطَانِ إِذَا عَزَلَ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْكَرَامَةِ فِي حَالَةِ إِبْعَادِهِ
وَالْإِقْصَاءِ لَهُ .

فَلَمْ يَلْتَصِفِ الْأَسَدُ إِلَى كَلَامِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ طِبَاعَكَ وَأَخْلَاقَكَ
وَجَرَّبْتُ أَمَانَتَكَ وَوَفَاءَكَ وَعَرَفْتُ كَذِبَ مَنْ مَحَلَّ بِكَ^٢ ، وَإِنِّي مُتْرَلِكٌ مِنْ
نَفْسِي مِثْرَلَةَ الْأَخْيَارِ الْكُرَمَاءِ ، وَالْكَرِيمُ تُنْسِيهِ الْخَلَّةُ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْإِحْسَانِ
الْخِلَالَ الْكَثِيرَةَ مِنَ الْإِسَاءَةِ . وَقَدْ عُدْنَا إِلَى الثَّقَةِ بِكَ فَعَدَّ إِلَى الثَّقَةِ بِنَا فَإِنَّهُ
كَائِنٌ لَنَا وَلَكَ بِذَلِكَ غِيْطَةٌ وَسُرُورٌ .

فَعَادَ ابْنُ آوَى إِلَى وِلَايَةِ مَا كَانَ يَلِي . وَضَاعَفَ لَهُ الْأَسَدُ الْكَرَامَةَ وَلَمْ
تَرُدَّهُ الْأَيَّامُ إِلَّا تَقَرُّبًا مِنْهُ .

٢ عمل بك : أي كادك بسعاية .

١ لا يغلظن : لا يصعبن .

باب اللبوة والإسوار والشعهر

قال ديشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعتُ هذا المثلَّ ، فاضربْ لي مثلاً في شأنٍ من يدعُ ضرَّ غيره إذا قدرَ عليه لما يُصيبُه من الضرِّ ، ويكونُ له ممَّا يتزلُّ به واعظُ وزاجرٌ عن ارتكابِ الظلمِ والعداوةِ لغيره .

قال الفيلسوفُ : إنَّه لا يُقدِّمُ على طلبِ ما يضرُّ بالناسِ وما يسوؤُهُمُ إلاَّ أهلُ الجهالةِ والسفهِ وسوءِ النَّظَرِ في العواقبِ من أمورِ الدنيا والآخرةِ وقلَّةِ العِلْمِ بما يدخلُ عليهم في ذلك من حلولِ الثَّغْمَةِ وبما يلزَمُهُمُ من تبعَةِ ما اكتسبوا ممَّا لا تُحيطُ به العقولُ . وإن سلِمَ بعضهم من ضرِّ بعضٍ باتِّفاقٍ عَرَضَ له قَبْلَ أن يتزلَّ به وبألِّ ما صنَعَ لم يسلمَ في كلِّ مرَّةٍ . فإنَّ من لم يُفكِّرْ في العواقبِ لم يأمنِ المصائبَ وكانَ حَقِيقاً أن لا يسلمَ مِنَ المعاطيبِ . وربما اتَّعَظَ الجاهلُ واعتَبَرَ بما يُصيبُه مِنَ المَصْرَةِ مِنَ الغَيْرِ فارتدَّعَ عن أن يَغشى^١ أحداً بمثلِ ذلك مِنَ الظلمِ والعدوانِ وحَصَلَ له نفعٌ ما كَفَّ عنه من اضرِّهِ لغيره في العاقبةِ . ومثَّل ذلك حديثُ اللبوةِ والإسوارِ والشعهرِ . قال الملكُ :

وكيفَ كانَ ذلك ؟

قال الفيلسوفُ : زَعَموا أنَّ لبوةً كانت في غِيصَةٍ ولها شيلانٍ وإنَّها خرَّجت في طلبِ الصيِّدِ وخَلَقَتْها في كهفِها ، فمرَّ بها إسوارٌ فحملَ عليها ورماها فقتلها وسلخَ جلدِها فاحتقَبها^٢ وانصرفتَ بها إلى مترلِه . ثمَّ إنَّها رجعتَ فلما رأت ما حلَّ بها مِنَ الأمرِ الفظيعِ اضطربتَ ظهراً لبطنٍ وصاحتَ وضجَّت .

١ يغشى : يأتي .

٢ احتقَبها : أي شدَّها في مؤخرِ رجلِ ركوبته .

وكان إلى جنبها شعهرٌ ، فلما سمع ذلك من صياحها قال لها : ما هذا الذي تصنعين وما نزل بك أخيريني به ! قالت اللبوة : شيلاي مرّ بها إسوارٌ فقتلها وسلخ جلدِها فاحتقّبها ونبذها في العراء . قال لها الشعهرٌ : لا تصجّي وأنصني من نفسك ، واعلمي أنّ الدنيا دارٌ مكافاةٌ ، ففاعِلُ الخير يحمدهُ وفاعِلُ الشرِّ يجزي نمره . وإن هذا الإسوار لم يأت إليك شيئاً إلا وقد كنت تفعلينَ بغيرك مثله وتأتينَ مثل ذلك إلى غير واحدٍ من كان يجدُ^٢ بحميمه ومن يعزُّ عليه مثل ما تجدينَ بشبليك . فاصبري من غيرك على ما صبرَ غيرك عليه منك . فإنه قد قيل : كما تدينُ تدان . وبكل عملٍ نمره من الثواب أو العقاب ، وهما على قدره في الكثرة والقلّة ، كالزُّرع إذا حصر الحصادُ أعطى على حسبِ بذرِهِ .

قالت اللبوة : بين لي ما تقولُ وأفصِح لي عن إشارته . قال الشعهرٌ : كم لك من العمرِ؟ قالت اللبوة : كذا وكذا سنة . قال الشعهرٌ : ما كان قوتك فيه؟ قالت اللبوة : لحم الوحش . قال الشعهرٌ : ومن كان يطعمك إياه؟ قالت اللبوة : كنتُ أصيدُ الوحشَ وأكلُهُ . قال الشعهرٌ : أرايتِ الوحوشَ التي كنتِ تأكلينَ ، أما كان لها آباءٌ وأمّاتٌ؟ قالت : بلى . قال الشعهرٌ : فما بالي لا أرى ولا أسمعُ لأولئك الآباءِ والأمّاتِ من الجزعِ^٣ ما أرى وأسمعُ لك؟ أما إنه لم يتزلْ بك ما نزلَ إلا لسوءِ نظرِك في العواقبِ وقلّةِ تفكيرِك فيها وجهالتِك بما يرجعُ عليك من ضرّها .

فلما سمعتِ اللبوة ذلك من كلامِ الشعهرِ عرفتُ أنّ ذلك ممّا جنت على نفسها وأنّ عملها كان جوراً وظلماً . فتركت الصيدَ وانصرفت عن أكلِ

١ نيدما : طرحها .

٢ يجد : يحزن .

٣ الجزع : عدم الصبر .

اللحم إلى أكل الثمار والتسك . والعبادة . فلما رأى ذلك ورشانا وكان صاحب تلك العيصة ، وكان عيشه من الثمار قال لها : قد كنت أظن أن الشجر عامنا هذا لم تحيل لقله الماء . فلما أبصرتك تأكلينها وأنت آكلة اللحم فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله لك وتحولت إلى رزق غيرك فانتقصته ودخلت عليه فيه ، علمت أن الشجر العام أثمرت كما كانت تُثمر قبل اليوم وإنما أنت قلة الثمر من جهتك . فويل للشجر وويل للثمار وويل لمن عيشهم منها ما أسرع هلاكهم إذا دخل عليهم في أرزاقهم وغلبهم عليها من ليس له فيها حظ ولم يكن معتاداً لأكلها !

فلما سمعت اللبوة ذلك من كلام الورشان تركت أكل الثمار وأقبلت على أكل العشب والعبادة .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بصره يسيئه عن ضر الناس كاللبوة التي انصرفت لما لقيت في سبيلها عن أكل اللحم ثم عن أكل الثمار بقول الورشان وأقبلت على التسك والعبادة .

والناس أحمق بحسن النظر في ذلك . فإنه قد قيل : ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك ، فإن في ذلك العدل ، وفي العدل رضى الله تعالى ورضى الناس .

١ ورشان : طائر يقال له ساق حر وهو ذكر القاري لان حكاية صوته ساق حر أو الساق الحمام والحمر فرخه يعني أنه فرخ الحمام .

باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت

قال دَبشليمُ الملكُ لبيدبا الفيلسوفِ : قد سمعتُ هذا المثلَّ ، فاضربْ لي مثلاً في الأشياء التي يجبُ على الملكِ أن يُلزِمَ بها نفسه ويحفظُ ملكه ويثبتَ بها سلطانهُ ويكونُ ذلك رأسَ أمرِهِ ومِلاكهٗ : الحِلْمُ أمِ المُرورةِ أمِ الشُّجاعَةِ أمِ الجُودِ؟

قالَ بيديبا : إنَّ أحقَّ ما يحفظُ به الملكُ ملكهٗ الحِلْمُ وبه تُثبِتُ السلطنةُ . والحِلْمُ رأسُ الأمورِ ومِلاكها وأجودُ ما كانَ في الملوكِ . كالذي زعموا أنَّه كانَ ملكٌ يدعى بلاذَ وكانَ له وزيرٌ يدعى إيلاذَ وكانَ مُتعبداً ناسكاً . وإنَّ الملكَ نامَ ذاتَ ليلةٍ فرأى في منامِهِ ثمانيةَ أحلامٍ أفرغتهُ فاستيقظَ مرعوباً فدعا بالبراهمةِ وهُمُ الثَّسَّاكُ ليعبروا رؤياهُ . فلما حَضَرُوا بين يديه قصَّ عليهم ما رأى فقالوا بأجمعِهِم : لقد رأى الملكُ عَجَباً . فإنَّ أمهلتنا سبعةَ أيامٍ جِئناه بتأويلِهِ .

قالَ الملكُ : قد أمهلتكم . فخرجوا من عندهِ ثم اجتمعوا في منزلٍ أحدهم واثتمروا بينهم وقالوا : قد وجدتمُ علماً واسعاً تُدرِكونَ به ثأركم وتنتقمونَ من عدوكم . وقد علمتمُ أنَّه قتلَ منَّا بالأمسِ اثنيَ عشرَ ألفاً . وها هو قد أطلعنا على سيرِهِ وسألنا تفسيرَ رؤياهُ ، فهلمَّ نلِظْ له القولَ ونُخِفْهُ حتى يحملهُ الفرقُ والجرعُ على أن يفعلَ الذي نُريدُ . ونامرُهُ فنقولُ : أدفعْ إلينا أحياءك ومن يكرُمُ عليك حتى نقتلَهُم . فإنَّا قد نظرنا في كُتُبنا فلم نرَ أن يدفعَ عنك ما رأيتَ لنفسيكَ وما وقعتَ فيه من هذا الشرِّ إلا بقتلِ مَنْ نسميَ لك .

١ ملاك : قوامه .

فإن قالَ الملكُ : ومن تُريدون أن تقتلوا؟ سمّوهم لي ... قلنا : نريدُ الملكةَ ليراحتَ أمُّ جوَيْرِ الحمودةَ أكرمَ نساءكَ عليك . ونريدُ جوَيْرَ أحبَّ بَنيكَ إليك وأفضلهمُ عندك . ونريدُ كالا الكاتبَ صاحبَ سِرِّكَ . وسيفكَ الذي لا يوجدُ مثلهُ . والفيلَ الأبيضَ الذي لا تَلحِقُهُ الخيلُ . والفرسَ الذي هو مَرَكِبُكَ في القتالِ . ونريدُ الفيلينَ العظيمينَ اللذينَ يكونانِ معَ الفيلِ الذَّكْرِ . ونريدُ البُخْتِيَّ السَّريعَ القويَّ . ونريدُ كباريَونَ الحكيمَ الفاضلَ العالمَ بالأُمورِ لنتَّصمَ منه بما فَعَلَ بنا .

ثم نقولُ له : إنَّما يَبغِي لك أيُّها الملكُ أن تقتلَ هؤلاءَ الذينَ سمَّيَناهمُ لك ثم تجعلَ دِماءَهُم في حوضٍ تملأُهُ ثم تقعدُ فيه . فإذا خَرَجْتَ مِنَ الحوضِ اجتمعنا نحنَ معاشِرَ البراهمةِ مِنَ الآفاقِ الأربعةِ نجولُ حَوْلَكَ فَرَقِيكَ وَنَتَفَلُّ عليك وَنَمسحُ عنكَ الدَّمَ وَنَغسِلُكَ بالماءِ والدُهْنِ الطَّيِّبِ . ثم تقومُ إلى مترلكَ البهيِّ فيدفعُ اللهُ بذلكَ البلاءَ الذي نَتَحَوَّفُهُ عليك . فإن صَبَرْتَ أيُّها الملكُ وطابتَ نفسُكَ عن أَجْبائِكَ الذينَ ذَكَرنا لك وجعلتَهُم فِدَاكَ تَخَلَّصْتَ مِنَ البلاءِ واستقامَ لك مُلكُكَ وَسُلْطانُكَ واستخلفتَ من بعدهمُ مَنْ أَحْبَبْتَ . وإن أنتَ لم تفعلَ نَتَحَوَّفنا عليك أن يُغضبَ مُلكُكَ أو تهلكَ . فإن هو أطاعنا فيما نأمرُهُ قَتَلناهُ شَرَّ قِتْلَةٍ .

فلَمَّا أَجمَعوا أمرَهُم على ما اتَّصَمروا فيه رَجَعوا إليه في اليومِ الثَّامِنِ وقالوا له : أيُّها الملكُ إنَّا نَظَرنا في كُتُبنا تَفسِيرَ ما رأيتَ وَفَحَصنا عَنِ الرَّأيِ فيما بيننا . فليكنَ لك أيُّها الملكُ الطَّاهِرُ الصَّالِحُ وَالكرامَةُ . ولسنا نَقدِرُ أن نُعَلِمَكَ بما رأينا إلا أن تَحلُو بنا وَتُؤمِّنا .

فأخَرَجَ الملكُ مَنْ كانَ عندهُ وَخَلا بِهِم فَحَدَّثوهُ بالذي اتَّصَمروا فيه . فقالَ لهم : المَوْتُ خَيْرٌ لي مِنَ الحِياةِ إن أنا قَتَلْتُ هؤلاءَ الذينَ هم عَدِيلُ نَفسِي .

١ البختي : واحد البخت وهي الابل الحراسانية .

وَأَنَا مَيِّتٌ لَا مَحَالَةَ وَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ وَلَسْتُ كُلَّ الدَّهْرِ مَلِكًا . وَإِنَّ الْمَوْتَ عِنْدِي
وَفِرَاقَ الْأَحْبَابِ سِوَاءَ فَضْلًا عَمَّا أُرْتَكِبُهُ مِنَ الْإِثْمِ فِي قَلْبِهِمْ .

قَالَ لَهُ الْبِرْهَمِيُّونَ : إِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْضَبْ أَخْبَرْنَاكَ . فَأَذِنَ لَهُمْ فَقَالُوا : أَيُّهَا
الْمَلِكُ إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ صَوَابًا حِينَ تَجْعَلُ نَفْسَ غَيْرِكَ أَعَزَّ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ .
فَاحْتَفِظْ بِنَفْسِكَ وَمُلْكِكَ هَذَا الَّذِي فِيهِ لَكَ الرَّجَاءُ الْعَظِيمُ عَلَى ثِقَةٍ وَيَقِينٍ وَقَرِّ
عَيْنًا بِمُلْكِكَ فِي وُجُوهِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ الَّذِينَ شَرُفَتْ وَكُرِّمَتْ بِهِمْ . وَلَا تَدْعُ
الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَتَأْخُذَ بِالضَّعِيفِ فَتُهْلِكَ نَفْسَكَ إِثَارًا لِمَنْ تُحِبُّ .

وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُحِبُّ الْحَيَاةَ مَحَبَّةً لِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ
مَنْ أَحَبَّ مِنَ الْأَحْبَابِ إِلَّا لِيَتَمَتَّعَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ . وَإِنَّمَا قِوَامُ نَفْسِكَ بَعْدَ اللَّهِ
بِمُلْكِكَ . وَإِنَّكَ لَمْ تَتَلَّ مُلْكَكَ إِلَّا بِالْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ الْكَثِيرِ فِي الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ
وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تَرْفُضَهُ وَيَهُونَ عَلَيْكَ . فَاسْتَمِعْ كَلَامَنَا وَانظُرْ لِنَفْسِكَ مُنَاهَا
وَدَعْ مَا سِوَاهَا فَإِنَّهُ لَا خَطَرَ لَهُ ٢ .

فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ الْبِرْهَمِيِّينَ قَدْ أَغْلَظُوا لَهُ فِي الْقَوْلِ وَاجْتَرَأُوا عَلَيْهِ فِي
الْكَلَامِ اشْتَدَّ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ وَقَامَ مِنْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَدَخَلَ إِلَى حُجْرَتِهِ فَحَرَّ
عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي وَيَتَقَلَّبُ كَمَا تَتَقَلَّبُ السَّمَكَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْمَاءِ . وَجَعَلَ
يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : مَا أَدْرِي أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي ، الْهَلَكَةُ أَمْ قَتْلُ
أَحْيَائِي ؟ وَلَنْ أُنَالَ الْفَرَحَ مَا عِشْتُ وَلَيْسَ مُلْكِي بِيَاقِ عَلِيٍّ إِلَى الْأَبَدِ وَلَسْتُ
بِالْمُصِيبِ سُوْلِي فِي مُلْكِي . وَإِنِّي لَزَاهِدٌ فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ أَرِ إِبْرَاحَتَ وَجُوَيْرَ .
وَكَيفَ أَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِمُلْكِي إِذَا هَلَكَ وَزِيرِي لِإِبْلَادٍ ، وَكَيفَ أَضْبِطُ أَمْرِي
إِذَا هَلَكَ فِئْلِي الْأَبْيَضُ وَفَرَسِي الْجَوَادُ ، وَكَيفَ أُدْعَى مَلِكًا وَقَدْ قَتَلْتُ مَنْ أَشَارَ
الْبِرَاهِمَةُ بِقَتْلِهِ وَمَا أَصْنَعُ بِالْدُنْيَا بَعْدَهُمْ ؟

١ إثاراً : تفضيلاً .

٢ لا خطر له : لا شرف له ولا علو مرتبة .

ثم إنَّ الحديثَ فشا في الأرضِ بحُزنِ الملكِ وهَمِّهِ . فلما رأى إيلادُ ما
نالَ الملكَ مِنَ الهَمِّ والحُزنِ فكَرَّ في حِكْمَتِهِ ونَظَرَ وقالَ : ما يَنبَغِي لي أن
أستَقْبِلَ الملكَ فأسأَلَهُ عن هذا الأمرِ الذي قد نالَهُ من غيرِ أن يدعُونِي .

ثم انطلقَ إلى إيراختَ فقالَ : إني منذُ خَدَمْتُ الملكَ إلى الآنَ لم يَعمَلْ
عملاً إلا بمشورتي ورأيي . وأراه يَكْتُمُ عَنِّي أمراً لا أعلمُ ما هو ولا أراه يُظهِرُ
منه شيئاً . وإني رأيتُهُ خالياً مع جماعةِ البرهَمِيِّينَ منذُ ليلٍ وقد احتَجَبَ عَنَّا
فيها ، وأنا خائِفٌ من أن يكونَ قد أطلعَهُم على شيءٍ من أسرارِهِ فلستُ آمَنُهُم
أن يُشيرُوا عليه بما يَضُرُّهُ ويدخُلُ عليه منه السُّوءُ . فقومي وادخُلِي عليه فأسأَلِهِ
عن أمرِهِ وشأنِهِ وأخبريني بما هو عليه وأعلميني فلَني لستُ أقدرُ على الدُخولِ
عليه . ففعلَ البرهَمِيِّينَ قد زِينُوا له أمراً وحَمَلُوهُ على خُطْبَةٍ قَيِّحَةٍ . وقد
عَلِمْتُ أنَّ من خَلَقِ الملكِ أَنَّهُ إذا غَضِبَ لا يسألُ أحداً وسِوَاهُ عندَهُ صَغيرُ
الأُمورِ وكبيرُها .

فقالَت إيراختُ : إِنَّه كانَ بيني وبين الملكِ بعضُ العِتابِ . فلستُ بداخِلَةً
عليه في هذه الحالِ . فقالَ لها إيلادُ : لا تَحْمِلِي عليه الحِقْدَ في مثلِ هذا ولا
يَخطُرُنَّ ذلكَ على بالِكَ ، فليسَ يَقْدِرُ على الدُخولِ عليه أحدٌ سِوَاكِ . وقد
سَمِعْتُهُ كثيراً يَقولُ : ما اشتدَّ عَمِّي ودَخَلتْ عليَّ إيراختُ إلا سُرِّي ذلكَ
عَنِّي . فقومي إليه واصفحي عنه وكَلِّمِيهِ بما تَعَلَّمِينَ أَنَّهُ تَطِيبُ به نَفْسُهُ وَيَذْهَبُ
الذي يَجِدُهُ وأعلميني بما يكونُ جوابُهُ فإنَّ بذلكَ لنا ولأهلِ المملَكَةِ أعظَمَ
الرَّاحَةِ .

فانطلقتُ إيراختُ فدَخَلتْ على الملكِ فجلستُ عند رأسِهِ فقالتُ : ما
الذي بك أَيُّها الملكُ المَحمودُ وما الذي سَمِعْتَ مِنَ البرَاهِمَةِ ؟ فلَني أراكَ
مَحزوناً . فأعلميني بما بك فقد يَنبَغِي لنا أن نَحزَنَ معَكَ وتُواسِيكَ بأنفسينا .

١ لا تحملي : لا تحفظي .

فقال الملكُ : أيتها المرأة لا تسأليني عن أمري فتزديني غمًا وحزنًا . فإنه أمرٌ لا ينبغي أن تسأليني عنه .

قالت : أو قد نزلتُ عندك منزلةً من يستحقُّ هذا ؟ إنا أحمدُ الناسَ عقلاً من إذا نزلتُ به النَّازِلاتُ كانَ لنفسِهِ أشدَّ ضبطاً وأكثرَهُم استماعاً من أهلِ النَّصيحِ حتى ينجُو من تلكِ النَّازِلَةِ بالحيلةِ والعقلِ والبَحْثِ والمُشاوَرَةِ ، فعَظِيمُ الذَّنْبِ لا يَقْنَطُ مِنَ الرَّحْمَةِ ، ولا تُدخِلُنَّ عَلَيْكَ شيئاً مِنَ الهَمِّ والحُزَنِ فإنَّها لا يَرُدُّانِ شيئاً مَقْضِيًّا إِلَّا أنَّها يُنجِلانِ الجِسمَ وهِشْيَانِ العَدُوِّ . والصَّبْرُ عندُ نزولِ المُصِيبَةِ عِبَادَةٌ . وسوفَ تَحْمَدُ أَمْرَكَ إنِ أَخْبَرْتَنِي .

قالَ لها الملكُ : لا تسأليني عن شيءٍ فقد شَقَقْتِ عَلَيَّ . والذي تسأليني عنه لا خَيْرَ فيه لأنَّ عاقِبَتَهُ هلاكِي وهلاكُكَ وهلاكُ كثيرٍ من أهلِ مملَكَتي ومَنْ هو عَدِيلُ نَفْسِي . وذاكُ أنَّ البراهِمَةَ زَعَموا أَنَّهُ لا بُدَّ من قَتْلِكَ وقَتْلِ جُورِي وكثيرٍ من أهلِ مَوَدَّتِي ولا خَيْرَ في العَيْشِ بَعْدَكُمْ . وهل أَحَدٌ يَسْمَعُ بهذا إِلَّا اعْتَرَاهُ الحُزْنُ ؟

فلَمَّا سَمِعَتْ ذلكَ لِإِرْخاخِ جِرْعَتِ وَمَنَعِها عَقْلُها أن تَظْهَرَ لِلْمَلِكِ جِرْعاً ، فقالت : أَيُّها الملكُ لا تَجْرَعْ فَنَحْنُ لَكَ الفِداءُ ولكَ في سِوايِ ومثلي ما تَقَرُّ به عَيْنُكَ . ولكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ أَيُّها الملكُ حَاجَةً يَحْمِلُنِي عَلَي طَلِبَتِها حَبِي لَكَ وإِثْرائِي وَإِنَّاكَ وَهي نَصِيحَتِي لَكَ .

قالَ الملكُ : وما هي ؟

قالت : أَطْلُبُ مِنْكَ أن لا تَبْقَ بَعْدَها بِأَحَدٍ مِنَ البراهِمَةِ ولا تُشاوِرَهُم في أمرٍ حتى تَتَشَبَّهَ في أَمْرِكَ ثُمَّ تُشاوِرَ فِيهِ بِقَاتِكَ مِراراً . فَإِنَّ القَتْلَ أمرٌ عَظِيمٌ ولستَ تَقْدِرُ عَلَي أن تُحْيِيَ مَنْ قَتَلْتَ . وقد قِيلَ في الحديثِ : إذا لَقِيتَ جَوْهراً لا خَيْرَ فِيهِ فلا تُلْقِهِ من يَدِكَ حتى تُرِيَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ .

١ شَقَقْتِ عَلَيَّ : أَي أَوْعَيْتَنِي فِي المَشَقَّةِ .

وَأنت أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَعْرِفُ أَعْدَاءَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ لَا يُجِئُونَكَ وَقَدْ قَتَلَتْ مِنْهُمْ بِالْأَمْسِ أَنْتِي عَشْرَ أَلْفًا . وَلَا تَظُنِّي أَنَّ هَؤُلَاءَ لَيْسُوا مِنْ أَوْلِيكَ . وَلَعَمْرِي مَا كُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِرُؤْيَاكَ وَلَا أَنْ تُطْلِعَهُمْ عَلَيْهَا . وَإِنَّا قَالُوا لَكَ مَا قَالُوا لِأَجْلِ الْحَقِّ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُهْلِكُونَكَ وَيُهْلِكُونَ أَحْيَاءَكَ وَوَزِيرَكَ فَيَلْبِغُوا قَصْدَهُمْ مِنْكَ . وَأَطَّلُكَ لَوْ قَبِلْتَ مِنْهُمْ فَقَتَلْتَ مَنْ أَشَارُوا بِقِتْلِهِ ظَفَرُوا بِكَ وَعَلَبُواكَ عَلَى مُلْكِكَ فَيَعُودُ الْمَلِكُ إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ . فَإِنَّ الشَّجَرَةَ إِذَا أُرِيدَ قَلْعُهَا عُمِدٌ أَوْلَى إِلَى أَصُولِهَا وَمَا تَثَبَّتْ بِهِ فِي الْأَرْضِ فَقَطَعَتْ ثُمَّ قُلِعَتْ فَهَانَ قَلْعُهَا . فَانطَلِقْ إِلَى كِبَارِيُونَ الْحَكِيمِ . فَهُوَ فَطِنٌ عَالِمٌ فَاحْصِرْهُ عَمَّا رَأَيْتَ فِي رُؤْيَاكَ وَاسْأَلْهُ عَنْ وَجْهِهَا وَتَأْوِيلِهَا .

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سُرِّيَ عَنْهُ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنَ الْعَمِّ . فَأَمَرَ بِفَرْسِهِ فَأَسْرَجَ فَرَكِيَهُ ثُمَّ انطَلَقَ إِلَى كِبَارِيُونَ الْحَكِيمِ . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ وَسَجَدَ لَهُ وَقَامَ مُطَاطِنًا الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : مَا بِأَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ وَمَا لِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ ؟

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ ثَانِيَةَ أَحْلَامٍ قَصَصْتُهَا عَلَى الْبَرَاهِمَةِ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ ذَلِكَ عَظِيمٌ أَمْرٌ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ تَعْبِيرِهِمْ لِرُؤْيَايَ ، وَأَخْشَى أَنْ يَفْصَبَ مِنِّي مُلْكِي أَوْ أَنْ أُغْلَبَ عَلَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : إِنْ شِئْتَ قَصَصْتُ عَلَيَّ أَحْلَامَكَ وَإِنْ شِئْتَ قَصَصْتُهَا عَلَيْكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا رَأَيْتَ جَمِيعَهُ .

قَالَ الْمَلِكُ : بَلْ مِنْ فَيْكَ أَحْسَنُ .

قَالَ الْحَكِيمُ : لَا يُحْزِنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ هَذَا الْأَمْرُ وَلَا تَخَفْ مِنْهُ . أَمَّا السَّمَكَتَانِ الْحَمْرَاوَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا قَائِمَتَيْنِ عَلَى ذَنْبَيْهَا فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكِ هَيْمُونَ بِعَقْدَيْنِ مُكَلَّلَيْنِ بِالذَّرِّ وَالْبِقَاقِوتِ الْأَحْمَرِ قِيمَتُهُمَا أَرْبَعَةُ آلَافِ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ .

وَأَمَّا الْوَزْتَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا طَارَتَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ فَوَقَعَتَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَإِنَّهُ
 يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ بَلَّغَ فَرَسَانِ لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُهَا فَيَقُومَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ .
 وَأَمَّا الْحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا تَدِبُّ عَلَى رِجْلِكَ الْيُسْرَى فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ
 صِنْجِينٍ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَيْفٍ خَالِصِ الْحَدِيدِ لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ .
 وَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي رَأَيْتَ كَأَنَّهُ خُضِبَ بِهِ جَسَدُكَ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ كَاذِرُونَ
 مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِلِبَاسٍ مُعْجَبٍ يُسَمَّى حَلَّةَ أَرْجَوَانٍ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ .
 وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ عَسَلِكَ جِسْمِكَ بِالْمَاءِ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ رَهْزِينَ مَنْ
 يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِثِيَابٍ كَثَانٍ مِنْ لِبَاسِ الْمُتْلُوكِ .
 وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ أَنَّكَ عَلَى جَبَلٍ أَيْضًا فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ كِيدُورٍ مَنْ
 يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِفِيلٍ أَيْضًا لَا تَلْحَقُهُ الْحَيْلُ .
 وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ عَلَى رَأْسِكَ شَيْهًا بِالنَّارِ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ الْأَرْزَنِ مَنْ
 يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِإِكْلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ .
 وَأَمَّا الطَّائِرُ الَّذِي رَأَيْتَهُ ضَرَبَ رَأْسَكَ بِمِنْقَارِهِ فَلَسْتُ مُفَسِّرًا ذَلِكَ الْيَوْمَ
 وَلَيْسَ بِضَارِكٍ فَلَا تَوْجَلَنَّ^١ مِنْهُ وَلَكِنَّ فِيهِ بَعْضُ السُّخْطِ وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا
 تُحِبُّهُ .

فَهَذَا تَفْسِيرُ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ . وَأَمَّا هَذِهِ الْبُرْدُ^٢ وَالرُّسُلُ فَإِنَّهَا تَأْتِيكَ بَعْدَ
 سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَمِيعًا فَتَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَجَدَ لِكِبَارِيُونَ وَرَجَعَ إِلَى مَتْرَلِهِ .
 فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَاءَتِ الْبَشَائِرُ بِقُدُومِ الرُّسُلِ ، فَخَرَجَ الْمَلِكُ
 فَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ وَأَذِنَ لِلْأَشْرَافِ وَجَاءَتْهُ الْهَدَايَا كَمَا أَخْبَرَهُ كِبَارِيُونَ
 الْحَكِيمِ . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ عَجْبُهُ وَفَرَحَهُ مِنْ عِلْمِ كِبَارِيُونَ وَقَالَ :

١ فلا توجلن : أي فلا تخافن .

٢ البرد : جمع برید وهي الخيل التي تأتي عليها الرسل .

ما وَقَّتْ حينَ قَصَصْتُ رُؤْيَايَ على البَراهِمَةِ فَأَمَرُونِي بما أَمَرُونِي به . ولولا أَنَّ
اللهُ تَعَالَى تَدَارَكَنِي لَهَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ . وكذلك لا يَبْغِي لأحدٍ أَنْ يَسْمَعَ إِلَّا مِنْ
الأَخِيَاءِ ذَوِي العُقُولِ . وإنَّ إِيْرَاحَتَ أشارت بِالخَيْرِ فَقَبِلْتُهُ وَرَأَيْتُ به التَّجَاحَ ،
فَضَعُوا الهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهَا لِتَأْخُذَ مِنْهَا ما اخْتَارَتْ . ثم قالَ لايِلادُ : خُذِ الإِكْلِيلَ
والثِّيابَ واحْمِلْها واتَّبِعْني بها .

وَدَعَا المَلِكُ إِيْرَاحَتَ وَحُورَقَناءَ بَيْنَ يَدَيْهِ فقالَ لايِلادُ : دَعِ الكُسوَةَ
والإِكْلِيلَ بَيْنَ يَدَيَّ . إِيْرَاحَتَ لِتَأْخُذَ أَيُّها شاءت . فَوَضَعَتِ الهِدايا بَيْنَ يَدَيَّ
إِيْرَاحَتَ فَأَخَذَتْ مِنْها الإِكْلِيلَ وَأَخَذَتْ حُورَقَناءَ كُسوَةَ مِنْ أَفحَرِ الثِّيابِ
وأحْسَنِها .

وإنَّ إِيْرَاحَتَ صَنَعَتْ لِلمَلِكِ بَعْدَ ذلك أَرْزًا بِحَلَاوَةٍ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ
بِالصَّحْفَةِ وَالإِكْلِيلُ على رَأْسِها ، وَأَتَّفَقَ أَنَّ حُورَقَناءَ لَيْسَتْ تَلِكِ الكُسوَةَ
وَمَرَّتْ بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ ، فَالتَقَّتْ المَلِكُ إلى إِيْرَاحَتَ فقالَ : إِنَّكَ جاهِلَةٌ حينَ
أَخَذْتَ الإِكْلِيلَ وَتَرَكْتَ الكُسوَةَ التي لَيْسَ في خَزائِنِنا مِثْلُها .

فلَمَّا سَمِعَتْ إِيْرَاحَتُ مَدَحَ المَلِكِ لِحُورَقَناءَ وَتَناءَهُ عَلَيْها وَتَجْهِيلُها هِيَ وَذَمَّ
رَأْيَها أَخَذَها مِنْ ذلكِ العِمْرَةَ وَالعَيْطُ فَضَرَبَتْ بِالصَّحْفَةِ رَأْسَ المَلِكِ فَسالَ الأَرْزُ
على وَجْهِهِ ، وكانَ ذلكَ تَمامَ تَعْبِيرِ الرُّؤْيا التي عَبرَها كَبارِيونُ .

فقامَ المَلِكُ مِنْ مَكانِهِ وَدَعَا بِلَيْلادُ وقالَ : أَلَا تَرى وَأَنا مَلِكُ العالَمِ كَيفَ
حَقَّرْتِ هَذِهِ الجاهِلَةَ وَفَعَلْتِ بي ما تَرى؟ فَانطَلِقِي بِها واقْتُلْها ولا تَرَحِّمِها .

فحَرَجَ لَيْلادُ مِنْ عِنْدِ المَلِكِ وقالَ : لا أَقْتُلُها حَتى يَسْكُنَ عَنْه العَضْبُ .
فالرَّأَةُ عاقِلَةٌ سَدِيدَةُ الرَأْيِ مِنَ المَلِكاتِ التي لَيْسَ لَها عَدِيلٌ في النِّساءِ وَليْسَ
المَلِكُ بِصائِرٍ عَنْها وَقد خَلَصَتْهُ مِنَ المَوْتِ وَعَمِلَتْ أَعمالًا صالِحَةً وَرَجَّأُونِها فِيها
عَظِيمٌ . وَلستُ آمَنُ أَنْ يَقولَ لِمَ لَمْ تُؤَخِّرْ قَتْلَها حَتى تُراجِعَني؟ فَلستُ قاتِلُها
حَتى أَنْظُرَ رَأْيَ المَلِكِ فِيها ثانياً . فإنَّ رَأْيَهُ نادِمًا حَزِينًا على ما فَعَلَ جِئتُ بِها حَيَّةً

وكنْتُ قد عَمِلْتُ عَمَلًا عَظِيمًا وَأَنْجَيْتُ إِيْرَاحَتَ مِنْ الْقَتْلِ وَحَفِظْتُ قَلْبَ الْمَلِكِ
وَأَتَّخَذْتُ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ بِذَلِكَ يَدًا . وَإِنْ رَأَيْتُهُ فَرِحًا مُسْتَرِيحًا مُصَوِّبًا رَأْيَهُ
فِي الَّذِي فَعَلَهُ فَقَتْلُهَا لَا يَفُوتُ .

ثُمَّ انْطَلَقَ بِهَا إِلَى مَتْرَلِهِ وَوَكَّلَ بِهَا خَادِمًا مِنْ أَمَنَائِهِ وَأَمَرَهُ بِخِدْمَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا
حَتَّى يَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ . ثُمَّ خَضَبَ سَيْفَهُ بِالْدَّمِ وَدَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ
كَالْكُتَيْبِ الْحَزِينِ فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ أَمْرَكَ فِي إِيْرَاحَتَ . فَلَمْ
يَلْبَثِ الْمَلِكُ أَنْ سَكَنَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَذَكَرَ جِالَ إِيْرَاحَتَ وَفَضَّلَهَا وَاشْتَدَّ أَسْفُهُ
عَلَيْهَا وَجَعَلَ يُعْزِي نَفْسَهُ عَنْهَا وَيَتَجَلَّدُ . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَسْأَلَ إِيْلَازًا
أَحَقًّا أَمْضَى أَمْرَهُ فِيهَا أَمْ لَا . وَرَجَا لِمَا عَرَفَ مِنْ عَقْلِ إِيْلَازَ أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ
فَعَلَ ذَلِكَ .

وَنَظَرَ إِلَيْهِ إِيْلَازُ بِفَضْلِ عَقْلِهِ فَعَلِمَ الَّذِي بِهِ . فَقَالَ لَهُ : لَا تَهْتَمَّ وَلَا
تَحْزَنْ أَيُّهَا الْمَلِكُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْهَمِّ وَالْحُزْنِ مَنَفَعَةٌ وَلَكِنَّهَا يُنْجِلَانِ الْجِسْمَ
وَيُفْسِدَانِهِ . فَاصْبِرْ أَيُّهَا الْمَلِكُ عَلَى مَا لَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَيْهِ أَبَدًا . وَإِنْ أَحَبَّ الْمَلِكُ
أَنْ أُحَدِّثَهُ بِحَدِيثِ يُسَلِّيهُ . قَالَ : حَدِّثْنِي .

مثل الحمامتين

قَالَ إِيْلَازُ : زَعَمُوا أَنَّ حَامَتَيْنِ ذَكَرَا وَأُنْتَى مَلَأَا عُشَّهُمَا مِنَ الْحِنِطَةِ
وَالشَّعِيرِ . فَقَالَ الذَّكَرُ لِلْأُنْتَى : إِنَّا إِذَا وَجَدْنَا فِي الصَّحَارَى مَا نَعِيشُ بِهِ فَلَسْنَا
نَأْكُلُ مِمَّا هُنَا شَيْئًا . فَإِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَارَى شَيْءٌ رَجَعْنَا إِلَى
مَا فِي عُشِّنَا فَأَكَلْنَاهُ . فَرَضِيصَتِ الْأُنْتَى بِذَلِكَ وَقَالَتْ لَهُ : نَيْعًا رَأَيْتَ . وَكَانَ
ذَلِكَ الْحَبُّ نَدِيًّا حِينَ وَضَعَاهُ فِي عُشِّهَا . فَاِنْطَلَقَ الذَّكَرُ فغَابَ .
فَلَمَّا جَاءَ الصَّيْفُ يُبْسِ الْحَبُّ وَتَضَمَّرَ ، فَلَمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رَأَى الْحَبَّ

ناقصاً فقال لها : أليس كُنَّا جَمَعْنَا رأينا على أن لا نَأْكُلَ منه شيئاً ، فلمَ أَكَلْتِهِ ؟
فَجَعَلَتْ تَحْلِفُ أَنَّهَا ما أَكَلَتْ منه شيئاً وَجَعَلَتْ تَتَنَصَّلُ^١ إليه فلمَ يُصَدِّقُهَا وَجَعَلَ
يَنْقُرُهَا حتى ماتت .

فلما جاءتِ الأمطارُ ودَخَلَ الشَّتَاءُ تَنَدَّى الحَبُّ وامتلاً العُشُّ كما كان .
فلما رأى الذَّكَرُ ذلكَ نَدِمَ . ثم اضْطَجَعَ إلى جانبِ حَامِيَتِهِ وقال : ما يَنْفَعُنِي
الحَبُّ والعَيْشُ بَعْدَكَ إذا طَلَبْتِكَ فلم أَجِدْكَ ولم أَقْدِرْ عَلَيْكَ . وإذا فَكَّرْتُ في
أَمْرِكَ وَعَلِمْتُ أَنِّي قد ظَلَمْتُكَ ولا أَقْدِرُ على تَدَارِكِ ما فات ! ثمَّ اسْتَمَرَّ على حُزْنِهِ
فَلَمْ يَطْعَمْ طَعَاماً ولا شَرَباً حتى ماتَ إلى جانبِهَا .

مثل الرجل وطبق العدس

والعاقلُ لا يَعَجَلُ في العَذَابِ والعُقُوبَةِ ولا سِيِّمًا مَن يَخَافُ التَّدَامَةَ كما نَدِمَ
الحَمَامُ الذَّكَرُ . وقد سَمِعْتُ أيضاً أَنَّ رجلاً دَخَلَ الجَبَلَ وعلى رَأْسِهِ طَبَقٌ مِّنَ
العَدَسِ . فَوَضَعَ الطَّبَقَ على الأَرْضِ لِيَسْتَرِيحَ . فَتَزَلَّ قَرْدٌ مِّنَ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ مِلءَ
كَفِّهِ مِّنَ العَدَسِ وَصَعِدَ إلى الشَّجَرَةِ . فَسَقَطَتْ مَن يَدِهِ حَبَّةٌ فَتَزَلَّ في طَلَبِهَا فلم
يَجِدْهَا وانْتَثَرَ ما كانَ في يَدِهِ مِنَ العَدَسِ أَجْمَعُ .

وأنتَ أيضاً أَيُّهَا المَلِكُ عِنْدَكَ كَثِيرٌ مِّنَ تُحِبُّ تَدْعُهُمْ وَتَطْلُبُ ما لا تَجِدُ .
فلما سَمِعَ المَلِكُ ذلكَ خَشِيَ أَن يَكُونَ إِيْرَاحَتُ قَدِ هَلَكْتَ . فقال : إِنِّهَا
إِيْلادُ ! من كَلِمَةٍ واحِدَةٍ فَعَلْتَ ما أَمَرْتُكَ بِهِ مَن سَاعَتِكَ وَتَعَلَّقْتَ بِجِرْفٍ واحِدٍ
كانَ مَنِّي ولم تَتَّيَّبْتَ في الأَمْرِ .

فقالَ إِيْلادُ : إنَّ الذي قَوْلُهُ واحِدٌ لا يَخْتَلِفُ ، هو اللهُ الذي لا تَبْدِيلَ
لِكَلِمَاتِهِ ولا اِخْتِلافَ لِقَوْلِهِ .

١ تتصل : تبتأ .

قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ أَفْسَدْتَ أَمْرِي وَشَدَّدْتَ حُزْنِي بِقَتْلِ إِبْرَاحَتَ .
قَالَ إِبْرَآذُ : أَتَنَانِ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ يَحْزَنَا : الَّذِي يَعْمَلُ الْإِثْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ،
وَالَّذِي لَا يَعْمَلُ الْخَيْرَ قَطُّ . لِأَنَّ فَرْحَهَا فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا قَلِيلٌ وَنَدَامَتُهَا إِذَا
يُعَايِنَانِ الْجَزَاءَ طَوِيلَةً لَا يُسْتَطَاعُ إِحْصَاؤُهَا .

قَالَ الْمَلِكُ : لَئِنْ رَأَيْتُ إِبْرَاحَتَ حَيَّةً لَا أَحْزَنُ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا .
قَالَ إِبْرَآذُ : أَتَنَانِ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ يَحْزَنَا : الْمُجْتَهِدُ فِي الْبِرِّ كُلِّ يَوْمٍ ،
وَالَّذِي لَمْ يَأْتُمْ قَطُّ .

قَالَ الْمَلِكُ : مَا أَنَا بِنَاطِرٍ إِلَى إِبْرَاحَتَ أَكْثَرَ مِمَّا نَظَرْتُ .
قَالَ إِبْرَآذُ : أَتَنَانِ لَا يَنْظُرَانِ : الْأَعْمَى ، وَالَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ . وَكَمَا أَنَّ
الْأَعْمَى لَا يَنْظُرُ السَّمَاءَ وَنُجُومَهَا وَلَا يَنْظُرُ الْبُعْدَ وَالْقُرْبَ ، كَذَلِكَ الَّذِي لَا عَقْلَ
لَهُ لَا يَعْرِفُ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ ، وَلَا الْمُحْسِنَ مِنَ الْمُسِيءِ .

قَالَ الْمَلِكُ : لَوْ رَأَيْتُ إِبْرَاحَتَ لِاشْتَدَّ فَرْحِي .
قَالَ إِبْرَآذُ : أَتَنَانِ هُمَا الْفَرِحَانِ : الْبَصِيرُ ، وَالْعَالِمُ . فَكَمَا أَنَّ الْبَصِيرَ يُبْصِرُ
أُمُورَ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ ، فَكَذَلِكَ الْعَالِمُ
يُبْصِرُ الْبِرَّ وَالْإِثْمَ وَيَعْرِفُ أَعْمَالَ الْآخِرَةِ وَيَتَبَيَّنُ لَهُ نَجَاتُهُ وَيُهْدَى إِلَى صِرَاطِ
مُسْتَقِيمٍ .

قَالَ الْمَلِكُ : إِنِّي لَمْ أَشْتَفِ^٢ مِنْ النَّظْرِ إِلَى إِبْرَاحَتَ بَعْدُ .
قَالَ إِبْرَآذُ : أَتَنَانِ لَا يَشْتَفِيَانِ أَبَدًا : مَنْ يَكُونُ هَمُّهُ جَمْعَ الْمَالِ
وَادْخَارُهُ ، وَمَنْ يَأْمَلُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَسْأَلُ مَا لَا يَجِدُ .

قَالَ الْمَلِكُ : يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَبَاعَدَ مِنْكَ يَا إِبْرَآذُ وَنَأْخُذَ الْحَدَرَ وَنَلْزِمَ
الْإِتْقَانَ^٣ .

٣ الإِتْقَانُ : التَّحْفِظُ .

١ صِرَاطُ : طَرِيقُ .

٢ اشْتَفَى : أَكْتَفَى .

قال إيلاذُ : أثنانِ يَبْغِي أن يُتباعَدَ منها : الذي يَقولُ لا بَرٌّ ولا إثمٌ ولا عقابَ ولا ثوابَ ولا شيءَ عليَّ ممَّا أنا فيه . والذي لا يَكادُ يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَمَّا ليسَ له بِمُحَلَّلٍ ، ولا أُذُنُهُ عنِ استماعِ السُّوءِ ، ولا نَفْسُهُ عنِ خاصَّةِ غيرِهِ ، ولا قَلْبُهُ عَمَّا تَهْمُ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الإثمِ والحِرصِ .

قالَ المَلِكُ : صارتَ يَدَي من إيراختَ صِفرًا .

قالَ إيلاذُ : أربعةُ أشياءَ أصفارٌ : الثُّهْرُ الذي ليسَ فيه ماءٌ ، والأَرْضُ التي ليسَ فيها مَلِكٌ ، والمرأةُ التي ليسَ لها بَعْلٌ ، والجاهِلُ الذي لا يَعْرِفُ الخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ .

قالَ المَلِكُ : إنَّكَ يا إيلاذُ لَتَلْقَى الجوابَ^١ .

قالَ إيلاذُ : ثلاثةٌ يُلَقَّونَ الجوابَ : المَلِكُ الذي يُعْطى ويُقسِمُ من خَزائِنِهِ ، والمرأةُ المُهداةُ إلى مَنْ تَوَدُّ من ذَوِي الحَسَبِ ، والرَّجُلُ العالِمُ المَوْفِقُ للخَيْرِ .

قالَ المَلِكُ : أهَلَكْتَ إيراختَ يا إيلاذُ بغيرِ حَقٍّ .

قالَ إيلاذُ : ثلاثةٌ هُمُ الرَّاغِبُونَ^٢ عنِ الحَقِّ : الذي يَلْبَسُ الثَّيابَ البِيضَ ثم يَبْفُخُ بالكِبرِ^٣ فيسودُّها بالدُّخانِ ، والقَصَّارُ الذي يَلْبَسُ الجُورَينِ الجَدِيدَيْنِ ورجلاهُ أبدأً في الماءِ ، والذي يَقْتَنِي الفَرَسَ الكَرِيمَ للرُّكوبِ ثم يَلْتَهِي عنه فلا يَرْكَبُهُ فَيَيطِرُ .

قالَ المَلِكُ : لِيَتِّي أَنْظِرْ إلى إيراختَ قَبْلَ فِراقِ الدُّنيا .

قالَ إيلاذُ : الذينَ يَطْلُبُونَ ما لا يَقْدِرُونَ عليه ثلاثةٌ : مَنْ لا وَرَعَ له وهو يَرْتَجِي ثُوابَ الأبرارِ ، والبَحِيلُ الذي يَلْتَمِسُ بِيُخْلِهِ أن يَنالَ مِترلةَ السَّخِيِّ ،

١ تَلْقَى : تَلهَمُه وتوفِقُ اليه .

٢ الرَّاغِبُونَ : المائلون .

٣ الكِبرِ : الرِّق الذي يَبْفُخُ فيه الحدادُ .

والفاجر الذي يسفك الدماء ويأمل أن روحه من أرواح الشهداء .

قال الملك : أنا الذي جئت على نفسي وجرت البلاء إليها .

قال إيلاد : أولئك في الناس خمسة : الذي يتعرض للقتال وهو أعزل ، والبخيل يجمع ماله في منزله ولا أحد معه فيقصد اللصوص فيقتلونه ويأخذون ماله ، والكبير يخطب الصغيرة ، والقيح يخطب الجميلة ، والمرأة التي تخب ولدها وهو شاطر عارم^١ فهي تستر أموره وتخفيها ثم هو يكون تبعاً لها ووبالاً عليها .

قال الملك : قد وضعت الأمر غير موضعه في قلتي إيراخت .

قال إيلاد : من يفعل ذلك ثلاثة : الطائر الذي يرفع رجليه نحو السماء خوفاً من سقوطها عليه ، والكركي الذي يقوم على رجل واحدة ولا يضع الثانية على الأرض خوفاً أن يخسفها ، والعني البخيل إذا أكل لا يشبع يخاف على ماله من التفاد^٢ كالخراطين^٣ التي طعامها الثراب تقصد الإقلال من الأكل منه لئلا ينفد ويفنى . وكالكلب الذي يبلغ من النهر بلسانه ولا يعب منه حذار أن يجف . والحقاش الذي يطير بالليل لا يفعل ذلك بالتهار مخافة أن يصطاده الناس لحسنه وهو أقبح الطير .

قال الملك : لم أحزن قط حزني على إيراخت .

قال إيلاد : خمسة أشياء إذا كن في المرأة كانت أهلاً أن يحزن عليها : إذا كانت عفيفة ، كريمة الحسب والنسب ، عاقلة ، جميلة ، موافقة لزوجها مجة له .

قال الملك : ليس تأخذني سنة^٣ ولا نوم من حزني على إيراخت .

١ عارم : شرس مؤذ .

٢ الخراطين : هي ديدان حمر طوال توجد في الأرض التدية ، لا مفرد لها .

٣ سنة : نعاس .

قال إيلادُ : أثنانِ لا يهجعانِ ولا يسترِيحانِ : الكثيرُ المالِ وليسَ له
خازِنٌ ولا أمينٌ ، والشديدُ المرَضِ ولا طيبَ له .
ثم إنَّ إيلادُ لمَّا رأى المَلِكَ قدِ اشتدَّ به الأمرُ سَكَتَ . فقالَ له المَلِكُ . ما
بالك يا إيلادُ سَكَتَ ؟

قالَ : أيُّها المَلِكُ ، إني قد تَجاسَرْتُ عليكَ فيما امْتَحَنْتُكَ به إرادةً أن
أعلمَ ما آخَ إليه أمرُكَ في إيراختَ . وأراني قد تَجاوزتُ طوري^١ في ذلك
وبانَ لي من حِلْمِكَ وَعَقْلِكَ ما أذهلَنِي إذ لم يَبْدُ منك مع ما اجترأتُ به عليكَ
شيءٌ مِنَ العَضْبِ ولا تَعَيَّرتَ عن حالِكَ . وها أنا شاكرٌ لعفوكَ وصفحِكَ
وتجاوزِكَ عَنِّي وإن لم يكن ذلك مِنِّي إلا نُصحاً للمَلِكِ واستِطلاعاً لأمرِهِ ،
فاعفُ عَنِّي إن شِئتَ أو فعاقِبني بما تراهُ ، فإنَّ إيراختَ بالحياة .

فلَمَّا سَمِعَ المَلِكُ ذلكَ اشتدَّ فرحُهُ وقالَ : يا إيلادُ إنَّما مَنَعني مِنَ العَضْبِ
ما أعرِفُ من نَصِيحَتِكَ وصدقِ حَدِيثِكَ . وكنتُ أرجو لمعرفتي بعلمِكَ أن لا
تكونَ قد قَلتَ إيراختَ . فإنَّها وإن تكنَ أتت عَظيماً وأغلَظتُ^٢ في القولِ لم
تأتِه عداوةٌ ولا طَلَبَ مَصْرَةَ ولكِنَّها فَعَلتَ ذلكَ لَعيرةٍ . وقد كانَ يَنبغي لي أن
أعرضَ عن ذلكَ وأحتمِلَهُ . ولكِنَّكَ يا إيلادُ أردتَ أن تَحْبِرَني وتترَكِني في
شكٍّ من أمرِها . وقد اتَّخَذتَ عِندي أَفضَلَ الأيادي^٣ ، وأنا لك شاكرٌ ،
فانطَلِقْ فَأُتِي بها .

فخرَجَ من عِندِ المَلِكِ فَأَتى إيراختَ وأمرَها أن تَتَرَّينَ ، ففَعَلتَ ذلكَ
وانطَلقتَ بها . فلَمَّا دَخَلتَ سَجَدتَ للمَلِكِ ثم قامتَ بين يَدَيْهِ وقالتَ : أحمَدُ اللهَ
تعالى ثم أحمَدُ المَلِكَ الذي أحسنَ إليَّ . قد أذنبتُ الذَّنْبَ العَظِيمَ الذي لم أكن

١ طوري : قدرِي .

٢ أغلَظتَ : خَشنتَ وعغفتَ .

٣ الأيادي : النعم .

لللقاء أهلاً بعده ، فوسعه^١ حلمه وكرم طبعه ورافته . ثم أحمدُ إيلاذَ الذي
أخر أمرى وأنجاني من الهلكة لعلمه برأفة الملك وسعة حلمه وجوده وكرمه
جوهره ووفاء عهده .

وقال الملكُ لإيلاذَ : ما أعظمَ يدك^٢ عندي وعند إيراختَ وعند العائمةِ إذ
قد أحيتها بعدما أمرتُ بقتلها . فانت الذي وهبها لي اليومَ فإني لم أزلُ واثقاً
بنصيحتك وتدبيرك ، وقد ازددتَ اليومَ عندي كرامةً وتَعْظيماً . وأنت مُحكَّمٌ
في ملكي تعملُ فيه بما ترى وتُحكِّمُ عليه بما تُريدُ ، فقد جعلتُ ذلكَ إليك
ووثقتُ بك .

قال إيلاذُ : أدامَ اللهُ لك أيها الملكُ المُلكَ والسُّرورَ ، فلستُ بمحمودٍ
على ذلكَ ، فإننا أنا عبدك . لكنَّ حاجتي أن لا يعجلَ الملكُ في الأمرِ الجسيمِ
الذي يندمُ على فعله وتكونُ عاقبتهُ الغمَّ والحزنَ ولا سيمًا في مثلِ هذهِ المرأةِ
النَّاصحةِ المُشفقةِ^٣ التي لا يوجدُ في الأرضِ مثلها .

فقال الملكُ : بحقِّ قلتَ يا إيلاذُ ، وقد قبلتُ قولكَ ولستُ عاملاً بعدها
عملاً كبيراً ولا صغيراً فضلاً عن مثلِ هذا الأمرِ العظيمِ الذي ما سلمتُ منه إلا
بعد المؤامرةِ والنظرِ والترددِ ومشاورةِ أهلِ المودَّةِ والرأيِ .

ثم أحسنَ الملكُ جائزةَ إيلاذَ ومكَّنه من أولئك البراهمةِ الذين أشاروا
بقتلِ أحبائه فأطلقَ فيهمُ السيفَ . وقرتَ عينُ الملكِ وعيونُ عظماءِ أهلِ
مملكتهِ وحميدوا اللهَ وأثنوا على كباريوانَ لسعةِ علمه وفضلِ حكمتهِ لأنَّهُ يعلمه
خَلصَ الملكُ ووزيرهُ الصَّالحُ وامرأتهُ الصَّالحةُ .

١ وسعه : أحاط به .

٢ يدك : نعمتك وإحسانك .

٣ المشفقة : الحريصة .

باب الناسك والضيف

قال ديشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعتُ هذا المثلَ ، فاضرب لي مثلَ الذي يدعُ صنعه الذي يليقُ به ويشاكلهُ^١ ويطلبُ غيره فلا يدركهُ ويرجعُ إلى الذي كانَ عليه فلا يقدرُ عليه فيبقى حيرانَ متردداً .

قال الفيلسوفُ : زعموا أنه كانَ بأرضِ الكرخِ ناسِكٌ عابِدٌ مُجتهدٌ . فنزلَ به صيفُ ذاتِ يومٍ ، فدعا النَّاسِكُ لضيفه بتمرٍ ليطرفهُ^٢ به ، فأكلا منه جميعاً . ثم قالَ الصَّيفُ : ما أحلى هذا التمرَ وأطيبهُ ! فليسَ هو في بلادي التي أسكنها ، وليتَهُ كانَ فيها . ثم قالَ : أرى أن تُساعدني على أن آخذَ منه ما أغرسهُ في أرضنا ، فإني لستُ عارفاً بثأرِ أرضِكُم هذه ولا بمواضعِها .

قالَ له النَّاسِكُ : ليسَ لك في ذلك راحةٌ فإنه يُثقلُ عليك . ولعلَّ ذلك لا يوافقُ أرضكُم . معَ أن بلادكُم كثيرةُ الأثمارِ فما حاجةٌ معَ كثرةِ ثأرها إلى التمرِ معَ وخامتهِ وقلةِ مناسيتهِ للجسدِ .

ثم قالَ له النَّاسِكُ : إنه لا يُعدُّ سعيداً من طلبَ ما لا يجدُ ، وإنك سعيدُ الجِدِّ إذا قنعتَ بالذي تجدُ وزهدتَ فيما لا تجدُ .

وكانَ هذا النَّاسِكُ يُحسِنُ العبرانيَّةَ ، فسمِعهُ الصَّيفُ يتكلَّمُ بها مرَّةً فاستحسنَ كلامهُ وأعجبهُ فتكلَّفَ أن يتعلَّمهُ وعالجَ في ذلك نفسه أياماً . فقال النَّاسِكُ له : ما أخلقتُك أن تقعَ ممَّا تركتَ من كلامِك وتكلَّفتَ من كلامِ العبرانيَّةِ في مثلِ ما وقعَ فيه الغرابُ . قالَ الصَّيفُ : وكيفَ كانَ ذلك ؟

١ يشاكله : يوافقُه ويمثله .

٢ ليطرفه : ليقدمه له .

مثل الغراب الذي أراد أن يدرج كالحجلة

قال النَّاسِكُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا رَأَى حَجَلَةً تُدْرَجُ وَتَمَشِي ، فَأَعَجَبْتَهُ مِشْيَتَهَا وَطَمِعَ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا . فَرَأَى عَلَى ذَلِكَ نَفْسَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْكَامِهَا وَأَيْسَرَ مِنْهَا وَأَرَادَ أَنْ يَعُودَ إِلَى مِشْيَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا ، فَإِذَا هُوَ قَدْ اخْتَلَطَ مِشْيَتُهُ وَتَحَلَّلَ^٢ فِيهِ . وَصَارَ أَقْبَحَ الطَّيْرِ مِشْيًا .

وإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِأَنَّكَ تَرَكْتَ لِسَانَكَ الَّذِي طُبِعَتْ عَلَيْهِ وَأَقْبَلْتَ عَلَى لِسَانِ الْعِبْرَانِيَّةِ وَهُوَ لَا يُشَاكِلُكَ ، وَأَخَافُ أَنْ تُدْرِكَهُ وَتَنْسِيَ لِسَانَكَ وَتَرْجِعَ إِلَى أَهْلِكَ وَأَنْتَ شَرُّهُمْ لِسَانًا . فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ إِنَّهُ يُعَدُّ جَاهِلًا مَنْ تَكَلَّفَ مِنْ الْأُمُورِ مَا لَا يُشَاكِلُهُ وَلَيْسَ مِنْ عَمَلِهِ وَلَمْ يُؤَدِّبْهُ عَلَيْهِ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُعْرِفْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ وَذَوِي قَرَابَتِهِ . فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ

وَالْوَلَاةُ أَيُّهَا الْمَلِكُ وَأَرَبَابُ الْأَمْرِ أَوْلَى بِالِاتِّبَاهِ إِلَى هَذَا الشَّانِ وَمَنْعِ حَدُوثِهِ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّ فِيهِ مَضَرَّةً لَهُمْ بِمَا يُجْرِي الْأَنْفُسَ عَلَى مُنَازَعَتِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَيُغْرِبُهَا بِمُقَاوَمَتِهِمْ فِي أَحْكَامِهِمْ لِأَنَّ فِيهِ مِنْ إِطْعَامِ السَّفَلَةِ فِي مَرَاتِبِ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ ، وَمُزَاحِمَةِ اللَّئِيمِ لِلْكَرِيمِ ، وَالْجَاهِلِ لِلْعَالِمِ ، وَالْحَامِلِ لِلنَّسِيبِ ، وَالذَّنْبِيِّ لِلشَّرِيفِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُفْضِي إِلَى تَشْوِشِ الْعَالَمِ وَفَسَادِ الْأُمُورِ وَاخْتِلَاطِ الطَّبَقَاتِ وَضِياعِ الْمَرَاتِبِ وَالْأَقْدَارِ . وَالْأُمُورُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ تَجْرِي عَلَى مِثَالِ وَاحِدٍ يَنْتَهِي إِلَى الْأَمْرِ الْخَطِيرِ الْجَسِيمِ مِنْ مُزَاحِمَةِ الْمَلِكِ عَلَى مُلْكِهِ وَمُضَادَّتِهِ فِيهِ .

١ فراض : درَب وعود .

٢ تحلج : تفكك .

باب السائح والصانع

قال دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدْبَا الْفَيْلَسُوفِ : قد سَمِعْتُ هذا المَثَلَ ، فاضرب لي مَثَلَ الذي يَصْعُقُ المَعْرُوفَ في غير مَوْضِعِهِ وَيَرْجو الشُّكْرَ عليه .
قال الْفَيْلَسُوفُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَيْسَ أَضْيَعُ من جَمِيلٍ يُصْنَعُ مع غير شاكِرٍ ولا أَحْسَرُ من صانِعِهِ . كما أَنَّهُ لا يَبْدُرُ أَنى من بَدْرِ الجَمِيلِ في قُلُوبِ الشَّاكِرِينَ ولا تِجَارَةَ أَرْبَحُ من تِجَارَتِهِ . ومع ذلك فَإِنَّ المَرءَ جَدِيرٌ أن يَصْنَعَ المَعْرُوفَ إلى كُلِّ أَحَدٍ ، فَإِنَّه إن ضاعَ المَعْرُوفُ عند الناس لا يَضِيعُ عندَ اللَّهِ ، ولا سَيِّمًا إلى ذَوِي الشُّكْرِ وَالوَفَاءِ كَيْفَ كانت مِرْثَتُهُمْ ، فَلَعَلَّهُ احتاجَ إليهم يوماً مِنَ الذَّهْرِ فَيُكَافِئُوهُ عليه .

غيرَ أنَّ الملوِكَ وغيرَهُم من ذَوِي العُقُولِ إذا تَعَمَّدُوا بمَعْرُوفِهِم أَحداً يَخْتَصُّونَهُ به يَنْبَغِي لَهُم أن يَضَعُوهُ مَوْضِعَهُ ولا يَضِيعُوهُ عند مَنْ لا يَحْتَمِلُهُ ولا يَقُومُ بِشُكْرِهِ . فَيَنْبَغِي للملوِكِ أن لا يَصْطَفُوا أَحداً إلاَّ بعدَ الخِيرةِ بطرائِقِهِ والمعرفةِ بوفائِهِ ومودَّتِهِ وشُكْرِهِ . فَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ على المَشْهُورِ بالاستِقَامَةِ والعِفَّةِ واسترْسَلَ إليه من غيرِ اختِيارٍ ولا تَجْرِبَةٍ كانَ مُخاطِراً في ذلك مُشْرِفاً منه على هلاكِ وفَسادِ . ألا تَرى أَنَّ الطَّيِّبَ الرَّفِيقَ العاقِلَ لا يَكْتَنِي في مُداوِةِ المَرِيضِ بالمُعَايَنَةِ فقط . لَكِنَّه لا يُقَدِّمُ على عِلاجِهِ إلاَّ بعدَ تَعَرُّفِ أحوالِهِ والجَسِّ لِعُرُوقِهِ ومعرفةِ طَبِيعَتِهِ وسببِ عِلَّتِهِ ، فإذا عَرَفَ ذلكَ كُلَّهُ أَقْدَمَ على مُعالِجَتِهِ . ولا يَنْبَغِي أن يَخْتَصُّوا بِذلكَ قَريباً لِفرائِيتِهِ ولا أَحداً من خاصَّتِيهِم لِشَرَفِهِ إذا كانَ غيرَ مُحْتَمِلٍ لِلصَّنِيعَةِ فَإِنَّه إِنَّا شَرَفَ بِتَشْرِيفِهِم إِيَّاهُ . ولا أن يَمَنَعُوا مَعْرُوفَهُم

١ يحتمله : يتقلده ويشكره .

وجميلهم عن بعيدٍ لبعده أو خاملٍ لخموله إذا كان عارفاً بحق ما يُصطنعُ إليه مؤدياً لشكرٍ ما أنعمَ عليه .

وقد قيل : لا ينبغي لذي العقل أن يحتقرَ أحداً من الناس حتى البهائم ، ولكنه خَلِيقٌ أن يبلوهم ويختبرهم ويكون ما يصنعُ إليهم على قدر ما يرى منهم ، فقد يكون الخيرُ عند مَنْ يُظنُّ به الشرُّ ، والشرُّ عند مَنْ يُظنُّ به الخيرُ . وإنَّ طبائعَ الخلقِ أيها الملكُ مُختلفةٌ وليسَ ممَّا خلقَهُ اللهُ ممَّا يمشي على أربعٍ أو على رجلين أو يطيرُ بجناحين أو يسبحُ في الماءِ شيءٌ هو أفضلُ مِنَ الإنسانِ . ومع ذلكَ فرمما تحدَّرَ العاقلُ مِنَ الناسِ فلم يَأْمَنَ أحداً منهم وأخذَ ابنَ عرسٍ فأدخله في كُمِّه وأخرجه مِنَ الآخِرِ ، وأخذَ الطيرَ الجارحَ فوضعه على يده فإذا صادَ شيئاً أبقى له منه نصيباً . وَمِنَ الناسِ البرُّ والفاجرُ ومن هؤلاء كلُّ كفورٍ كنودٍ حتى لقد يكونُ في بعضِ البهائمِ والسباعِ والطيرِ ما هو أوفى منه ذمَّةً وأشدُّ مُحاماةً عن حُرْمَةٍ وأشكرُ للمعروفِ وأقومُ به . وقد مضى في ذلكَ مثلٌ ضربتهُ بعضُ الحكماءِ . قالَ الملكُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

مثل الحية والقرود والبير

قالَ الفيلسوفُ : زَعَمُوا أَنَّ جِماعَةَ احْتَفَرُوا رَكِيَّةً^٢ فَوَقَعَ فِيهَا رَجُلٌ صَانِعٌ وَحِيَّةٌ وَقِرْدٌ وَبَيْرٌ^٣ . وَمَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ سَانِحٌ فَأَشْرَفَ عَلَى الرَّكِيَّةِ فَبَصَرَ بِالرَّجُلِ وَالْحِيَّةِ وَالْقِرْدِ وَالبَيْرِ . فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ : لَسْتُ أَعْمَلُ لِآخِرَتِي عَمَلًا أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أُخَلِّصَ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلاءِ الأعداءِ . فَقَدِ قِيلَ لَمْ يُوجِرْ مُأَجُورٌ

١ كنود : الكنود هو الذي يعد المصاب ويُنسى الواهب .

٢ ركيَّة : بئرٌ ذات ماء .

٣ بير : أسد هندي .

بأعظم من أجر من استحيا نفساً هالكة ، ولا عُوقبَ مُعاقبٌ بأشدَّ من عقاب من كَفَّ عن ذلك وهو قادرٌ عليه ولو بمشقةٍ مما خلا ذهاب نفسه .

فأخذَ حَبلاً وأدلاه إلى البئرِ فتعلَّقَ به القردُ لخفيته فخرَجَ ، ثم أدلاه ثانيةً فالتفتَ به الحيَّةُ فخرَجَت ، ثم أدلاه ثالثةً فتعلَّقَ به البئرُ فأخرجهُ . فشكرنَ له صنيعهُ وقلنَ له : لا تُخرجْ هذا الرجلَ مِنَ الرِّكيَّةِ فإنه ليسَ شيءٌ أقلُّ من شكرِ الإنسانِ . ثم قالَ له القردُ : إنَّ منزلي في جبلٍ قريبٍ من مدينته يُقالُ لها نُوادِرْحَتُ . فقالَ له البئرُ : أنا أيضاً في أجمَةٍ إلى جانبِ تلكِ المدينةِ . قالتِ الحيَّةُ : وأنا في سورِ تلكِ المدينةِ . فإن أنت مررتَ بنا يوماً مِنَ الدهرِ واحتججتَ إلينا فصوتِ علينا حتى نأتيكَ فنجزيكَ بما أسديتَ إلينا مِنَ المعروفِ .

فلم يلتفتِ السَّائحُ إلى ما ذكروا له من قلةِ شكرِ الإنسانِ وأدلى الحبلَ فأخرجَ الصَّائغَ فسجدَ له وقالَ : لقد أوليتني معروفاً ، فإن مررتَ يوماً مِنَ الدهرِ بمدينةِ نُوادِرْحَتِ فاسألَ عن منزلي ، وأنا رجلٌ صائغٌ واسمي فلانٌ ، لعلِّي أكافئكُ بما صنعتَ إليَّ مِنَ المعروفِ .

فانطلقَ الصَّائغُ إلى مدينته وانطلقَ السَّائحُ إلى وجهتهِ .
فعرَّضَ بعد ذلك أن السَّائحَ اتَّفقتَ له حاجةٌ إلى تلكِ المدينةِ فانطلقَ ، فاستقبلهُ القردُ فسجدَ له وقبَّلَ رجليه واعتذرَ إليه وقالَ : إنَّ القردَ لا يملكون شيئاً ، ولكن اقمُدْ حتى آتيك . وانطلقَ القردُ وأتاهُ بفاكهةٍ طيبةٍ فوضعها بين يديه فأكلَ منها حاجتهُ .

ثم إنَّ السَّائحَ انطلقَ حتى دنا من بابِ المدينةِ ، فاستقبلهُ البئرُ فخرَّ له ساجداً وقالَ له : إنك قد أوليتني معروفاً فاطمئن ساعةً حتى آتيك . فانطلقَ البئرُ فدخَلَ في بعضِ الحيطانِ إلى بنتِ الملكِ فقتلها وأخذَ حليها فأتاهُ به من غيرِ أن يعلمَ السَّائحُ من أين هو ، فقالَ في نفسه : هذه البهائمُ قد أولتني هذا

١ أوليتني : صنعت إلي .

الجزء فكيف لو أتيتُ إلى الصائغ فإنه وإن كان مُعسراً^١ لا يملك شيئاً فسيبيع هذا الحلّي فيستوفي ثمنه فيُعطيني بعضه ويأخذُ بعضه وهو أعرَفُ بِشِئِهِ .

فانطلق السائحُ فأتى إلى الصائغ ، فلما رآه رَحَبَ به وأدخله إلى بيته .

فلما بَصُرَ بالحلّي معه عَرَفَهُ وكان هو الذي صاغه لابنة الملك . فقال الصائغُ :

اطمئن حتى آتيتك بطعامٍ فلستُ أرضى لك ما في البيت .

ثم خرَجَ وهو يقول : قد أصبتُ فرصتي . أريدُ أن أنطلقَ إلى الملك

وأدله على ذلك فتحسُنُ منزلتي عنده .

فانطلقَ إلى بابِ الملكِ فأرسلَ إليه أن الذي قتلَ ابنتك وأخذَ حلّيها

عندي . فأرسلَ الملكُ وأتى بالسائحِ ، فلما نظرَ الحلّي معه لم يُمهله وأمرَ به أن

يُعذَّبَ ويُطافَ به في المدينة ويصلبَ . فلما فعلوا به ذلك جعلَ السائحُ يبكي

ويقولُ بأعلى صوتِهِ : لو أني أطعتُ القردَ والحيةَ والبيرَ فيما أمرتني به وأخبرتني

من قلةِ شكرِ الإنسانِ لم يَصِرَ أمري إلى هذا البلاءِ . وجعلَ يُكرِّرُ هذا القولَ .

فسمعتُ مقالتهُ تلكَ الحيةُ فخرَّجتُ من جحرِها فعرَفتهُ فاشتدَّ عليها أمرُهُ فجعلتُ

تحتالُ في خلاصِهِ . فانطلقتُ حتى لدعتُ ابنَ الملكِ ، فدعا المَلِكُ أهلَ العلمِ

فرَقوه^٢ ليشفوه فلم يُغنوا عنه شيئاً .

ثم مَضَتِ الحيةُ إلى أختِ لها من الجنِّ فأخبرتها بما صنعَ السائحُ إليها من

المعروفِ وما وَقَعَ فيه ، فرَقَتْ له وانطلقتُ إلى ابنِ الملكِ وقرأتُ له

وقالت : إنك لا تبرأ حتى يريقَكَ هذا الرجلُ الذي قد عاقبتموه ظلماً .

وانطلقتُ الحيةُ إلى السائحِ فدخَلتُ إليه السجَنَ وقالت له : هذا الذي

كنتُ نهيئتُكَ عنه من اصطِناعِ المعروفِ إلى هذا الإنسانِ ولم تُطعني . وأنته

بورقٍ يَنفَعُ من سُمِّها وقالت له : إذا جاءوا بك لترقيَ ابنِ الملكِ فاسقيه من

ماءِ هذا الورقِ فإنه يبرأ ، وإذا سألكَ الملكُ عن حالِكَ فاصدقهُ فإنك تنجو إن

١ معسراً : ضيق الحال فقيراً . ٢ فرقه : عالجه بعلاج اللسوع .

شَاءَ اللهُ تَعَالَى . وَإِنَّ ابْنَ الْمَلِكِ أَخْبَرَ أَبَاهُ أَنَّهُ سَمِعَ قَائِلاً يَقُولُ : إِنَّكَ لَنْ تَبْرَأَ حَتَّى يَرْفِقَكَ السَّائِحُ الَّذِي حُسِنَ ظُلْمًا .

فَدَعَا الْمَلِكُ بِالسَّائِحِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْفِقِيَ وَلَدَهُ فَقَالَ : لَا أَحْسِنُ الرَّقِيَّ وَلَكِنْ أَسْقِيهِ مِنْ مَاءِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى . فَسَقَاهُ فَبَرِيَ الْغَلَامُ .
فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ وَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ فَأَخْبَرَهُ ، فَشَكَرَهُ الْمَلِكُ وَأَعْطَاهُ عَطِيَّةً حَسَنَةً وَأَمَرَ بِالصَّائِحِ أَنْ يُصَلَّبَ ، فَصَلَّبُوهُ لَكُذْبِهِ وَإِنْجِرَافِهِ عَنِ الشُّكْرِ وَمُجَازَاتِهِ الْفِعْلَ الْجَمِيلَ بِالْقَبِيحِ .

ثُمَّ قَالَ الْفَيْلَسُوفُ لِلْمَلِكِ : فِي صَنِيعِ الصَّائِحِ بِالسَّائِحِ وَكُفْرِهِ لَهُ بَعْدَ اسْتِنْقَازِهِ لِإِيَّاهُ وَشُكْرِ الْبَهَائِمِ لَهُ وَتَخْلِيصِ بَعْضِهَا لِإِيَّاهُ عِبْرَةٌ لِمَنْ أَعْتَبَرَ وَفِكْرَةٌ لِمَنْ افْتَكَرَ وَأَدَبٌ فِي وَضْعِ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ قُرْبُوا أَوْ بَعُدُوا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ وَجَلْبِ الْخَيْرِ وَصَرَفِ الْمَكْرُوهِ .

باب ابن الملك وأصحابه

قال دَبشليمُ الملكُ لبيدبا الفيلسوفِ : قد سمعتُ هذا المثلَّ ، فإن كان الرجلُ لا يُصيبُ الخيرَ إلا بعقلِهِ ورأيه وتَشبُّهه في الأمورِ كما يزعمونَ فما بالُ الرجلِ الجاهلِ يُصيبُ الرِّفعةَ والخيرَ والرجلِ الحكيمِ العاقلِ قد يُصيبُ البلاءَ والصَّرَّ ؟

قالَ بيديبا : كما أنَّ الأعمى لا يُبصرُ إلا بقَلْبِهِ ولا يمشي إلا بحِسِّهِ معَ المهلَّةِ والثَّأني ، كذلكَ يَنْبغي للإنسانِ أن يسلكَ في الأمورِ بعينِ العقلِ والبصيرةِ والعلمِ وبالتَّثبتِ والأناةِ ، فقلَّ أن يعثرَ على هذا . غيرَ أنَّ القضاءَ والقَدَرَ قد يغلبانِ على ذلكَ كما قد يعثرُ البصيرُ ويسلمُ الصَّريُّ . ومثلُ ذلكَ مثلُ ابنِ الملكِ وأصحابِهِ . قالَ الملكُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟

قالَ الفيلسوفُ : زعموا أنَّ أربعةَ نفرٍ اصطحبوا في طريقٍ واحدةٍ ، أحدهمُ ابنُ ملكٍ ، والثَّاني ابنُ تاجرٍ ، والثَّالثُ ابنُ شريفٍ ذو جمالٍ ، والرَّابعُ ابنُ أكَّارٍ . وكانوا جميعاً مُحتاجينَ وقد أصابهمُ ضررٌ وجهدٌ شديدٌ في موضعٍ عُربيةٍ لا يملكونَ إلا ما عليهم من الثَّيابِ .

فبينما هم يمشونَ إذ فكَّروا في أمرِهِم ، وكان كلُّ إنسانٍ منهم راجعاً إلى طِباعِهِ وما كان يأتيهِ منه الخيرُ . فقالَ ابنُ الملكِ : إنَّ أمرَ الدنيا كلُّه بالقضاءِ والقَدَرِ . والذي قَدَرَ على الإنسانِ يأتيهِ على كلِّ حالٍ ، والصَّبرُ للقضاءِ والقَدَرَ وانتظارُهما أفضلُ الأمورِ .

وقالَ ابنُ التَّاجرِ : العقلُ أفضلُ من كلِّ شيءٍ .

١ أكَّار : حراث أي زراع .

وقال ابن الشريف : الجمال أفضل مما ذكر .

ثم قال ابن الأكار : ليس في الدنيا أفضل من الاجتهاد في العمل .
فلما قربوا من مدينة يقال لها مطرون ، جلسوا في ناحية منها يتشاورون .
فقالوا لابن الأكار : انطلق فاكسب لنا باجتهادك طعاماً ليومنا هذا .

فانطلق ابن الأكار وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام
أربعة نفر . فعرفوه أن ليس في تلك المدينة شيء أعز من الحطب . وكان
الحطب منها على فرسخ . فانطلق ابن الأكار فاحطب طناً من الحطب وأتى
به المدينة فباعه بديرهم واشترى به طعاماً . وكتب على باب المدينة : عمل
يوم واحد إذا جهد به الرجل بدنه قيمته درهم . ثم انطلق إلى أصحابه
بالطعام فأكلوا .

فلما كان من العدي قالوا : ينبغي للذي قال إنه ليس شيء أعز من الجال
أن تكون نوبته .

فانطلق ابن الشريف لبأبي المدينة ، ففكر في نفسه وقال : أنا لست
أحسب عملاً فأيدخلني المدينة ؟ ثم استحيا أن يرجع إلى أصحابه بغير طعام ،
وهم بمفارقتهم ، فانطلق حتى أسند ظهره إلى شجرة عظيمة فقلبه النوم
فنام . فمر به رجل مصور وبصر به فأعجبه حسنه أن يصوره ويكتسب من
صورته إذا عمل منها صوراً وباعها . فأيقظه وذهب به إلى منزله ليصوره .
فلما كان المساء أجازته بمئة درهم . فخرج وكتب على باب المدينة : جمال
يوم واحد يساوي مئة درهم . وأتى بالدرهم إلى أصحابه .

فلما أصبحوا في اليوم الثالث قالوا لابن التاجر : انطلق أنت فاطلب لنا
بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئاً .

فانطلق ابن التاجر ، فلم يزل حتى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة
المتاع قد قدمت إلى الساحل . فخرج إليها جماعة من التجار يريدون أن

يَتَّبَعُوا مِمَّا فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ . فَجَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الْمَرْكَبِ ، وَقَالَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ارْجِعُوا يَوْمَنَا هَذَا لَا نَشْتَرِي مِنْهُمْ شَيْئاً حَتَّى يَكْسُدَ الْمَتَاعُ
عَلَيْهِمْ فَيُرْخِصُوهُ عَلَيْنَا مَعَ أَنَّا مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَسَيُرْخِصُ .

فَخَالَفَ ابْنَ التَّاجِرِ الطَّرِيقَ وَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَرْكَبِ فَاذْبَعَهُ مِنْهُمْ مَا فِيهِ
بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ نَسِيئَةً^١ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَ مَتَاعَهُ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى . فَلَمَّا
سَمِعَ التَّجَارُ ذَلِكَ خَافُوا أَنْ يَذْهَبَ ذَلِكَ الْمَتَاعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَأَرْبَحُوهُ عَلَى مَا
اشْتَرَاهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَأَحَالَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابَ الْمَرْكَبِ بِالْبَاقِي وَحَمَلَ رِبْحَهُ إِلَى
أَصْحَابِهِ . وَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ : عَقَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ ثَمَنُهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ .
فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ قَالُوا لابنِ الْمَلِكِ : انْطَلِقْ أَنْتَ وَارْتَسِبْ لَنَا بِقَضَائِكَ
وَقَدْرِكَ .

فَانْطَلَقَ ابْنُ الْمَلِكِ حَتَّى أَتَى إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ فَجَلَسَ عَلَى دَكَّةٍ^٢ فِي بَابِ
الْمَدِينَةِ .

وَاتَّفَقَ بِالْقَدَرِ أَنْ مَاتَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَلَمْ يُخَلِّفْ وَلِداً وَلَا أَحَداً ذَا
قَرَابَةٍ . فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجِنَازَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُحْزِنُوهُ وَكُلُّهُمْ يَحْزَنُونَ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ
وَلَمْ يَكْتَرِثْ لَهَا هُمْ فِيهِ . فَأَنْكَرُوا حَالَهُ وَشَتَمَهُ الْبُؤَابُ وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ يَا
لَيْتِي وَمَا يُجْلِسُكَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ وَلَا تَرَاكَ تَحْزَنَ لِمَوْتِ الْمَلِكِ وَلَا تَهْتَمُّ؟
وَطَرَدَهُ الْبُؤَابُ عَنِ الْبَابِ .

فَلَمَّا ذَهَبُوا عَادَ الْغَلَامُ فَجَلَسَ مَكَانَهُ . فَلَمَّا دَفَنُوا الْمَلِكَ وَرَجَعُوا بَصُرَ بِهِ
الْبُؤَابُ فَغَضِبَ وَقَالَ لَهُ : أَلَمْ أَنْهَكَ عَنِ الْجُلُوسِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؟ وَأَخَذَهُ
فَحَبَسَهُ .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِيدِ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَتَشَاوَرُونَ فِي مَنْ يُمْلِكُونَهُ

١ نسيئة : تأخيراً أي إلى وقت آخر .

٢ دكة : بناء بسطح أعلاه للجلوس عليه .

عليهم وَيَخْتَلِفُونَ بَيْنَهُمْ إِذْ دَخَلَ الْبَابُ فَقَالَ لَهُمْ : إني رأيتُ أُمسٍ غلاماً جالِساً على البابِ ولم أرهُ يَحْزَنُ لِحُزْنِنَا كَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ عِنْدَهُ بِعَظِيمٍ وَتَلَوْحُ عَلَيْهِ لَوَائِحُ الْعِزَّةِ وَالشَّرَفِ . فَكَلَّمْتُهُ فَلَمْ يُجِِبْنِي ، فَطَرَدْتُهُ عَنِ الْبَابِ ، فَلَمَّا عُدْتُ رَأَيْتُهُ جالِساً ، فَأَدْخَلْتُهُ السَّجْنَ عَاقِفَةً أَنْ يَكُونَ عَيْنًا .

فَبَعَثْتُ أَشْرَافَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْغلامِ فَجَاؤُوا بِهِ وَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ وَمَا أَقْدَمَهُ إِلَى مَدِينَتِهِمْ . فَقَالَ : أَنَا ابْنُ مَلِكِ فَوَيْرَانَ . وَإِنَّهُ لَمَّا مَاتَ وَالِدِي عَظَبْنِي أَخِي عَلَى الْمَلِكِ وَقَدْ كَانَ أَبِي عَهْدًا إِلَيَّ بِهِ فَغَضَبَنِي إِثْمًا فَهَرَبْتُ مِنْ يَدِهِ حَذْرًا عَلَى نَفْسِي حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ .

فَلَمَّا ذَكَرَ الْغلامُ مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ عَرَفَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ يَغْشَى بِلَادَ أَبِيهِ مِنْهُمْ وَأَثَرُوا عَلَى أَبِيهِ خَيْرًا .

ثُمَّ إِنَّ الْأَشْرَافَ اخْتَارُوا الْغلامَ أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ وَرَضُوا بِهِ .
وَكَانَ لِأَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ سُنَّةٌ إِذَا مَلَكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا حَمَلُوهُ عَلَى فَيْلٍ أَيْضًا وَطَافُوا بِهِ حِوَالِي الْمَدِينَةِ . فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ مَرَّ بِبَابِ الْمَدِينَةِ فَرَأَى الْكِتَابَةَ عَلَى الْبَابِ ، فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ : إِنَّ الْأَجْتِهَادَ وَالْجَمَالَ وَالْعَقْلَ وَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءِ وَقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَدْ اعْتَبِرَ ذَلِكَ بِمَا سَاقَ اللَّهُ إِلَيَّ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْخَيْرِ .

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِهِ فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ وَأَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ مَعَهُمْ فَأَحْضَرَهُمْ فَأَشْرَكَ صَاحِبَ الْعَقْلِ مَعَ الْوُزَرَاءِ وَضَمَّ صَاحِبَ الْأَجْتِهَادِ إِلَى أَصْحَابِ الرُّرْعِ وَوَلَّى صَاحِبَ الْجَمَالِ إِحْدَى مَصَالِحِهِ .

ثُمَّ جَمَعَ عُلَمَاءَ أَرْضِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : أَمَّا أَصْحَابِي فَقَدْ تَيَقَّنُوا أَنَّ الَّذِينَ رَزَقَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ الْخَيْرِ إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ . وَإِنَّمَا أُحِبُّ أَنْ تَعْلَمُوا ذَلِكَ وَتَسْتَيَقِنُوهُ ، فَإِنَّ الَّذِي مَتَّحَنِي اللَّهُ وَهَيَّأَهُ لِي إِنَّمَا كَانَ بِقَدَرٍ وَلَمْ يَكُنْ بِجَمَالٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا اجْتِهَادٍ . وَمَا كُنْتُ أَرْجُو إِذْ طَرَدْتَنِي أَخِي أَنْ

يُصِيبِي مَا يُعَيْشُنِي مِنَ الْقُوَّةِ فَضْلاً عَنِ أَنْ أُصِيبَ هَذِهِ الْمِتْرَةَ . وَمَا كُنْتُ أُؤْمَلُ أَنْ أَكُونَ بِهَا لِأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي حُسْنًا وَجَمَالاً وَأَشَدُّ اجْتِهَاداً وَأَحْزَمُ رَأياً ، فَسَاقَنِي الْقَضَاءُ إِلَى أَنْ اعْتَزَزْتُ بِقَدْرِ مِنَ اللَّهِ . وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ شَيْخٌ ، فَتَهَضَّ حَتَّى اسْتَوَى قَائِماً وَقَالَ : إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ . وَلَكِنِ الَّذِي بَلَغَ بِكَ ذَلِكَ وَفُورُ عَقْلِكَ وَحُسْنُ ظَنِّكَ ، وَقَدْ حَقَّقْتَ ظَنَّنَا فِيكَ وَرَجَاءَنَا لَكَ ، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا ذَكَرْتَ وَصَدَّقْنَاكَ فِيهَا وَصَفْتَ . وَالَّذِي سَاقَ اللَّهُ إِلَيْكَ مِنَ الْمُلْكِ وَالْكَرَامَةِ كُنْتَ أَهْلًا لَهُ لِأَنَّ قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لِلَّهِ مِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ . وَإِنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رَأياً وَعَقْلاً . وَإِنَّمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا بِقَضَائِهِ إِذْ وَقَفَكَ لَنَا عِنْدَ مَوْتِ مَلِكِنَا وَكَرَّمْنَا بِكَ .

ثُمَّ قَامَ شَيْخٌ آخَرُ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : إِنَّ شَأْنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ لَكَمَا ذَكَرْتَ .

مثل السائح

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ أَحَدَ السَّيَّاحِ حَدَّثَ عَنِ نَفْسِهِ فَقَالَ : إِنِّي كُنْتُ أَخْدُمُ وَأَنَا غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ سَائِحاً رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ . فَلَمَّا بَدَأَ لِي رَفْضُ الدُّنْيَا فَارَقْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ ، وَقَدْ كَانَ أَعْطَانِي مِنْ أَجْرِي دِينَارَيْنِ . فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَأَسْتَبْقِيَ الْآخَرَ .

فَأَتَيْتُ السُّوقَ فَوَجَدْتُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الصَّيَّادِينَ زَوْجِي هُدَيْدًا ، فَسَأَلْتُهُ فِيهَا لِأَطْلِقَ لَهَا فَأَبَى الصَّيَّادُ أَنْ يَبِيعَهَا إِلَّا بِدِينَارَيْنِ . فَاجْتَهَدْتُ أَنْ يَبِيعَ لَهَا بِدِينَارٍ وَاحِدٍ فَأَبَى . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : أَشْتَرِي أَحَدَهُمَا وَأَتْرُكُ الْآخَرَ . ثُمَّ

١ همد : طائر ذو خطوط وألوان كثيرة .

قلتُ لعلَّها يكونانِ زَوْجَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى فَأَفْرَقَ بَيْنَهُمَا . فَأَدْرَكَنِي لَهَا رَحْمَةٌ ،
فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَابْتَعَثْتُهَا بَدِينَارَيْنِ وَأَشْفَقْتُ إِنْ أُرْسَلَتْهُمَا فِي أَرْضِ عَامِرَةَ أَنْ
يُصَادَا وَلَا يَسْتَطِيعَا أَنْ يَطِيرَا مِمَّا لَقِيَا مِنَ الْجُوعِ وَالْهَزَالِ وَلَمْ أَمْنْ عَلَيْهَا
الْآفَاتِ .

فَانطَلَقْتُ بِهِمَا إِلَى مَكَانٍ كَثِيرِ الْمَرْعى وَالْأَشْجَارِ بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ وَالْعُمُرَانِ
فَأُرْسَلَتْهُمَا فَطَارَا وَوَقَعَا عَلَى شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ . فَلَمَّا صَارَا فِي أَعْلَاهَا شَكَرَا لِي
وَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ : لَقَدْ خَلَّصْنَا هَذَا السَّائِحُ مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ
وَاسْتَقْدْنَا وَنَجَّانَا مِنَ الْهَلَكَةِ وَإِنَّا لَخَلِيقَانِ أَنْ نُكَافِتَهُ بِفِعْلِهِ . وَإِنَّ فِي أَسْلِ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ جَرَّةً مَمْلُوءَةٌ ذَنَانِيرَ أَفْلا نَدُلُّهُ عَلَيْهَا فَيَأْخُذْهَا ؟ فقلتُ لهما : كَيْفَ تَدُلَّانِي
عَلَى كَثْرٍ لَمْ تَرَهُ الْعِيُونَ وَأَنْتُمَا لَمْ تُبْصِرَا الشَّبَكَةَ ؟ فَقَالَا : إِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ الَّذِي
يَتَسَلَّطُ عَلَى الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ فَيَكْسِفُهُمَا وَعَلَى الْحَوْتِ فِي قَعْرِ الْبِئْرِ فَيُصْطَادُ إِذَا
نَزَلَ صَرَفَ الْعِيُونَ عَنِ مَوْضِعِ الشَّيْءِ وَعَشَى عَلَى الْبَصْرِ . وَإِنَّمَا صَرَفَ
الْقَضَاءُ أَعْيُنَنَا عَنِ الشَّرْكِ وَلَمْ يَصْرِفْهَا عَنِ هَذَا الْكَثْرِ لِتَنْفَعِ أَنْتَ بِهِ .

فاحتقرتُ واستخرجتُ البرنيَّةَ وهي مملوءةٌ ذَنَانِيرَ ، فدَعَوْتُ لَهَا بِالْعَافِيَةِ
وقلتُ لهما : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَكُمَا مِمَّا رَأَى وَأَنْتُمَا تَطِيرَانِ فِي السَّمَاءِ وَأَخْبِرْتُمَانِي
بِمَا تَحْتَ الْأَرْضِ . فَقَالَا لِي : أَيُّهَا الْعَاقِلُ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَدَرَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ ؟

فليعرفِ أَهْلُ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ ، وَأَنَّ
الْإِنْسَانَ لَا يَجْلِبُ إِلَى نَفْسِهِ مَحْبُوبًا وَلَا يَدْفَعُ عَنْهَا مَكْرُوهًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .
فَلْيَتَّقِ نَفْسُ أَهْلِ الْفِكْرِ بِذَلِكَ وَتَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رَاحَةً لِلْمُبْتَلَى وَدَاعِيًا
لِمَنْ تُوتِيهِ الْمَقَادِيرُ إِلَى شُكْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو آخر الكتاب

قال دبشليمُ الملكُ لبيدبا الفيلسوفِ : قد سمعتُ هذا المثلَ ، فاضربْ لي مثلاً في شأنِ الرجلِ الذي يرى الرأيَ لغيرِهِ ولا يراهُ لنفسِهِ .

قالَ الفيلسوفُ : إنَّ مثلَ ذلكَ مثلُ الحمامةِ والثعلبِ ومالكِ الحزينِ .

قالَ الملكُ : وما مثلُهُنَّ ؟

قالَ الفيلسوفُ : زعموا أنَّ حمامةً كانت تُفرخُ في رأسِ نخلةٍ طويلةٍ ذاهيةٍ في السماءِ . فكانتِ الحمامةُ إذا شرعتْ في نقلِ العُشِّ إلى رأسِ تلكِ النخلةِ لا يُمكنُها ذلكَ إلا بعدَ شدةٍ وتعبٍ ومشقةٍ لطولِ النخلةِ وسُحيقِها . وكانت إذا فرغتْ من النقلِ باضتْ ثم حصنتْ بيضها ، فإذا انقاضَ وأدركَ فراخها جاءها ثعلبٌ قد تعهدَ ذلكَ منها لوقتِ قد علمه ربيها ينهضُ فراخها ، فوقفَ بأصلِ النخلةِ فصاحَ بها وتوعدها أن يرقى إليها أو تلقىَ إليه فراخها فتلقيا إليه .

فبينما هي ذاتَ يومٍ وقد أدركَ لها فرخانِ إذ أقبلَ مالكُ الحزينُ فوقَ على النخلةِ . فلما رأى الحمامةَ كثيةً حزينةً شديدةَ الهمِّ قالَ لها : يا حمامةُ ما لي أراكِ كاسفةً البالِ سيئةَ الحالِ ؟

فقالَ له : يا مالكُ الحزينُ إنَّ ثعلباً دُهِيتُ به كلاً كان لي فرخانِ جاءني

١ انقاض : انكسر وخرج منه الفرخ .

يَتَهَدَّدُنِي وَيَصِيحُ فِي أَصْلِ النَّخْلَةِ فَأَفْرُقُ مِنْهُ فَأَطْرَحُ إِلَيْهِ فَرَخِي .
قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ : إِذَا أَتَاكَ لِيَفْعَلْ مَا تَقُولِينَ فَقُولِي لَهُ : لَا أَتِي إِلَيْكَ
فَرَخِي فَارْقَا إِلَيَّ وَعَزَّرْ بِنَفْسِكَ . فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَأَكَلْتَ فَرَخِي طِيرْتُ
عَنْكَ وَنَجَوْتُ بِنَفْسِي .

فَلَمَّا عَلِمَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ هَذِهِ الْحِيلَةَ طَارَ فَوْقَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ . وَأَقْبَلَ
الثُّعْلَبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَفَ ، فَوَقَّفَ تَحْتَ النَّخْلَةِ ثُمَّ صَاحَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ ،
فَأَجَابَتْهُ الْحَمَامَةُ بِمَا عَلِمَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ ، فَقَالَ لَهَا : أَخْبِرِينِي مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا ؟
قَالَتْ : عَلَّمَنِي مَالِكُ الْحَزِينُ .

فَوَجَّهَ الثُّعْلَبُ حَتَّى أَتَى مَالِكًا الْحَزِينَ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ فَوَجَدَهُ واقِفًا .
فَقَالَ لَهُ الثُّعْلَبُ : يَا مَالِكُ الْحَزِينُ إِذَا أَتَاكَ الرَّيْحُ عَنْ يَمِينِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ
رَأْسَكَ ؟ قَالَ : عَنْ شِالِي . قَالَ : فَإِذَا أَتَاكَ عَنْ شِالِكَ أَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ ؟
قَالَ : أَجْعَلُهُ عَنْ يَمِينِي أَوْ خَلْفِي . قَالَ : فَإِذَا أَتَاكَ الرَّيْحُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَكُلِّ
نَاحِيَةٍ أَيْنَ تَجْعَلُهُ ؟ قَالَ : أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَنَاحِي . قَالَ : وَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ
تَجْعَلَهُ تَحْتَ جَنَاحِكَ ؟ مَا أَرَاهُ يَتَّهِيًا لَكَ . قَالَ : بَلَى . قَالَ : فَأَرِنِي كَيْفَ
تَصْنَعُ فَلَمَمَرِي يَا مَعَشَرَ الطَّيْرِ لَقَدْ فَضَّلَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا . إِنَّكُنَّ تَدْرِينَ فِي سَاعَةٍ
وَاحِدَةٍ مِثْلَ مَا نَدْرِي فِي سَنَةٍ . وَتَبْلُغْنَ مَا لَا نَبْلُغُ وَتُدْخِلْنَ رُؤُوسَكُنَّ تَحْتَ
أَجْنِحَتِكُنَّ مِنَ الْبَرْدِ وَالرَّيْحِ . فَهَنِيئًا لَكُنَّ . فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ .

فَادْخَلَ الطَّائِرُ رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحِهِ . فَوَثَبَ عَلَيْهِ الثُّعْلَبُ مَكَانَهُ فَأَخَذَهُ
فَهَمَزَهُ هَمَزَةً دَقَّ بِهَا عُنُقَهُ . ثُمَّ قَالَ : يَا عَدُوَّ نَفْسِيه تَرَى الرَّأْيَ لِلْحَمَامَةِ
وَتُعَلِّمُهَا الْحِيلَةَ لِنَفْسِهَا وَتَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ لِنَفْسِكَ حَتَّى يَتِمَّكَ مِنْكَ عَدُوُّكَ ! ثُمَّ
قَتَلَهُ وَأَكَلَهُ . أَلْهَمَنَا اللَّهُ أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِعِينَ يَا يَا مُرُونَ وَالْمُسْتَصِحِينَ بِمَا
يَنْصَحُونَ .

فلما انتهى المنطقُ بالفيلسوفِ إلى هذا الموضعِ سَكَتَ المَلِكُ . فقالَ له
 الفيلسوفُ : أَيُّهَا المَلِكُ ، عِشْتَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَلَكَتِ الأَقَالِمَ السَّبْعَةَ وَأُعْطِيتَ
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَظًّا وَبَلَغْتَ مَا أَمَلْتَهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِي سُرُورٍ مِنْكَ وَقُرَّةِ
 عَيْنٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ بِكَ وَمُسَاعَدَةِ القَضَاءِ والقَدْرِ لَكَ . فَإِنَّهُ قَدْ كَمَلَ فِيكَ الحِلْمُ
 وَالعِلْمُ وَحَسَنَ مِنْكَ العَقْلُ وَالثِّيَّةُ وَتَمَّ فِيكَ البَأْسُ وَالجُودُ وَأَتَقَّ مِنْكَ القَوْلُ
 وَالعَمَلُ . فَلَا يَوجَدُ فِي رَأْيِكَ نَقْصٌ وَلَا فِي قَوْلِكَ سَقَطٌ وَلَا عَيْبٌ . وَقَدْ
 جَمَعْتَ التَّجَدَّةَ^١ وَاللِّينَ فَلَا تُوجَدُ جَبَانًا عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا ضَيْقَ الصُّدْرِ عِنْدَ مَا
 يَنُوبُكَ مِنَ الأَشْيَاءِ .

وقَدْ جَمَعْتُ لَكَ فِي هَذَا الكِتَابِ شَمَلَ بَيَانِ الأُمُورِ وَشَرَحْتُ لَكَ جَوَابَ
 مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْهَا ، تَرْتُلُفًا^٢ إِلَى رِضَاكَ وَابْتِغَاءَ لَطَاعَتِكَ ، فَأَبْلَغْتُكَ فِي ذَلِكَ
 غَايَةَ نُصْحِي وَاجْتَهَدْتُ فِيهِ بِرَأْيِي وَنَظَرِي وَمَبْلَغِ فِطْنَتِي . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْضِي
 حَقِّي بِحُسْنِ الثِّيَّةِ مِنْكَ فِي إِعْمَالِ فِكْرِكَ وَعَقْلِكَ فِيهَا وَضَعْتُ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ
 وَالْمَوْعِظَةِ . مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ المَنْصُوحُ بِأَوْلَى بِالنَّصِيحَةِ مِنَ النَّاصِحِ ، وَلَا الأَمْرُ
 بِالخَيْرِ بِأَسْعَدَ مِنَ المُطِيعِ لَهُ فِيهِ . فَافْهَمْ ذَلِكَ أَيُّهَا المَلِكُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
 إِلَّا بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ .

٢ تَرْتُلُفًا : تَقَرُّبًا .

١ التَّجَدَّةُ : الشَّجَاعَةُ وَالثَّلَّةُ .

الفهارس

٤٦	مثل رب البيت والسارق	٣	باب مقدمة الكتاب
٤٨	مثل الرجل واللص	٤	ذو القرنين وملك الهند
٥٠	مثل التاجر ورفيقه	٧	دبشليم الملك وبغية
٥١	مثل اللص والتاجر	٧	بيدبا الفيلسوف
٥٢	مثل الإخوة الثلاثة	٩	مثل القنبرة والفيل
٥٣	مثل الصياد والصدقة	١٠	بيدبا يستشير تلامذته
٥٥	باب برزويه	١١	دخول بيدبا على الملك
٥٨	مثل المصدق المخدوع	١٤	بيدبا الفيلسوف
٦٠	مثل الرجل والخادم	١٦	بيدبا في السجن
٦٢	مثل تاجر الجواهر	١٧	تولية بيدبا
٦٧	مثل الرجل الهارب	٢٠	ندب الملك بيدبا
٧١	باب الأسد والثور	٢٢	كيفية وضع الكتاب
٧١	مثل الشيخ وبنيه	٢٤	عرض الكتاب على الملك
٧٣	مثل الرجل الهارب	٢٦	باب بعثة برزويه
٧٥	مثل القرود	٢٦	كسرى أنوشروان
٨٢	مثل الثعلب	٢٨	إفاد برزويه إلى الهند
٨٥	مثل الناسك	٣٣	سفر برزويه
٩٠	مثل القراب	٣٨	رجوع برزويه
٩٠	مثل العلدجوم	٤٣	باب عرض الكتاب
٩٣	مثل الأرنب	٤٤	مثل الجمالين والرجل
٩٦	مثل السمكات	٤٥	مثل طالب العلم

١٦٨ . . .	مثل الناسك	٩٨ . . .	مثل القملة
١٦٩ . . .	مثل الرجل	١٠٥ . . .	مثل الذئب
١٧١ . . .	مثل الفأرة	١٠٩ . . .	مثل وكيل البحر
١٧٤ . . .	مثل الأسود	١٠٩ . . .	مثل السلحفاة
		١١٣ . . .	مثل الرجل
١٧٩ . . .	باب القرد	١١٤ . . .	مثل الخبّ
١٨٣ . . .	مثل الأسد	١١٥ . . .	مثل العلجوم
١٨٦ . . .	باب الناسك	١١٧ . . .	مثل التاجر
١٨٧ . . .	مثل الناسك	١١٩ . . .	باب الفحص
١٨٩ . . .	باب الجرذ	١٢٣ . . .	مثل الخازن
١٩٤ . . .	باب الملك	١٢٩ . . .	مثل الطيب
٢٠٠ . . .	باب الأسد	١٣١ . . .	مثل الرجل
٢٠٩ . . .	باب اللبوة	١٣٦ . . .	مثل البازيار
٢١٢ . . .	باب إيلاذ	١٤٠ . . .	باب الحمامة
٢٢١ . . .	مثل الرجل	١٤٠ . . .	مثل الحمامة
٢٢٧ . . .	باب الناسك	١٤٦ . . .	مثل السمسم
٢٢٨ . . .	مثل الغراب	١٤٦ . . .	مثل الذئب
٢٢٩ . . .	باب السائح	١٥٦ . . .	باب البوم
٢٣٠ . . .	مثل الحية	١٥٩ . . .	مثل الغراب
٢٣٤ . . .	باب ابن	١٦٠ . . .	مثل الأرنب
٢٣٨ . . .	مثل السائح	١٦٢ . . .	مثل الأرنب
٢٤٠ . . .	باب الحمامة	١٦٥ . . .	مثل الجماعة
٢٤٣ . . .	الفهارس	١٦٧ . . .	مثل التاجر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبينا محمد وآله الطاهرين .

قال عبد الله بن المقفع :

وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم اجساداً وأوفر مع اجسادهم أحلاماً ،
وأشد قوة وأحسن بقوتهم للأمر إتقاناً ، وأطول اعماراً وأفضل بأعمارهم
للأشياء اختباراً ، فكان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين علماً وعملاً
من صاحب الدين منا ، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة
والفضل ، ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل لأنفسهم حتى
أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية
وكفونا به مؤونة التجارب والفظن ، وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل
منهم كان يفتح له الباب من العلم والكلمة من الصواب وهو بالبلد غير
المأهول فيكتبه على الصخور مبادرة منه للأجل وكراهية لأن يسقط ذلك
على من بعده^(١) ، فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده
الرحيم بهم . . الذي يجمع لهم الأموال والعقد^(٢) إرادة أن لا تكون عليهم
مؤونة في الطلب ، وخشية عجزهم إن هم طلبوا . . فمتهى علم عالماً في
هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغاية إحسان محسننا ، أن يقتدي
بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا ، أن ينظر في كتبهم
فيكون كأنه إياهم يحلور . . ومنهم يستمع غير أن الذي نجد في كتبهم هو

(١) أي يضيع عليه .

(٢) العقد : جمع عقدة وهي العقار ونحوه . . . اعتقد فلان عقدة إذا اشترى ضيعة أو
اتخذ مالا من عقار وغيره .

المتنخل^(١) في آرائهم والمنتقى من أحاديثهم . . . ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه ، لا في تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها ولا في تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامها وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذها ولا في وجوه الأدب وضروب الأخلاق فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لضغار الفطن مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس .

يا طالب الأدب أعرف الأصول والفصول فإن كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون دركهم دركاً ، ومن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول ، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل .

فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب وتجتنب الكبائر وتؤدي الفريضة فالزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين ، ومن يعلم أنه إن حرمه هلك . . ثم أن قدرت أن تجاوز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل .

وأصل الأمر في إصلاح الجسد ألا تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه إلا خفافاً ، وإن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والإنتفاع بذلك فهو أفضل .

وأصل الأمر في الجود ألا تضن بالحقوق عن أهلها ، ثم أن قدرت أن تزيد ذا الحق على حقه وتطول على من لا حق له فأفعل فهو أفضل .

وأصل الأمر البائس ألا تحدث نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على

(١) المتنخل : المختار .

عدوهم ، ثم أن قدرت أن تكون أول حامل . . وآخر منصرف من غير
تضييع للحذر فهو أفضل . .

وأصل الأمر في الكلام أن تسلم من السقط^(١) بالتحفظ ثم أن قدرت
على بارع الصواب فهو أفضل .

وأصل الأمر في المعيشة أن لا تني عن طلب الحلال ، وأن تحسن
التقدير لما تفيد وما تنفق ، ولا يغرنك من ذلك سعة تكون فيها فإن أعظم
الناس في الدنيا خطراً أحوجهم إلى التقدير ، والملوك أحوج إلى التقدير من
السوقة لأن السوقة قد يعيش بغير مال والملوك لا قوام لهم إلا بالمال ، ثم
إن قدرت على الرفق واللطف في الطلب والعلم بالمطالب فهو أفضل .

وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة التي لو
حكمتك سن كنت خليقاً أن تعلمها ، وإن لم تخبر عنها ولكن أحببت أن
أقدم لك فيها قولاً لتروض^(٢) نفسك على محاسنها قبل أن تجري على عادة
مساويها فإن الإنسان قد تبتدر إليه في شيبته المساوية وقد يغلب عليه ما
يبدر إليه منها . . .

إن ابتليت بالإمارة فتعوذ بالعلماء ، واعلم أن من العجب أن يتلى
الرجل بها فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعت
وشهوته ، وإنما الرأي له والحق عليه أن يأخذ لعمله من جميع شغله ،
فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه فإذا تقلدت شيئاً من
الأعمال فكن فيه أحد رجلين : أما رجلاً مغتبطاً به فحافظ عليه مخافة أن
يزول عنه ، وإمماً رجلاً كارهاً فالكاره عامل في سُخرة . . إمماً للملوك إن كانوا
هم سلطوه ، وإمماً الله إن كان ليس فوقه غيره .

(١) السقط : بفتح السين الخطأ من القول والفعل ورديء المتاع .

(٢) راض نفسه على الشيء : أكثر من استعمالها فيه ليسلس : وهو من قولهم راض
المهر رياضة .

إياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلماً من الثلم^(١) يتحمون عليك منها ، وباباً تتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها . إعلم أن قابل المدح كمداح نفسه والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فإن الراد له محمود والقابل له معيب .

لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاث خصال : رضى ربك ورضى سلطان إن كان فوقك ورضى صالح من تلي عليه ، وما عليك أن تلهى^(٢) عن المال والذكر فسيأتيك منهما ما يكفي ويطيب واجعل الخصال الثلاث بمكان لا بد لك منه ، والمال والذكر بمكان ما أنت واجد منه بدأ^(٣) .

اعرف أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة ، فيكونوا هم إخوانك وأعاونك وبطانتك وثقاتك ولا يقذفن في روعك أنك إن استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك ، فإنك لست تريد الرأي للإفتخار به ولكن تريده للإنتفاع به ، ولو أنك مع ذلك أردت الذكر كان أحسن الذكرين وأفضلها عند أهل الفضل أن يقال لا يتفرد برأيه دون استشارة ذوي الرأي .

إنك إن تلتمس رضى جميع الناس ما لا يدرك وكيف يتفق لك رأي المختلفين ، وما حاجتك إلى رضى من رضاه الجور ، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة فعليك بالتماس رضى الأخيار منهم وذوي العقل ، فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه .

(١) الثلثة في الحائط وغيره : وفيها ثلم مثل غرفة وغرف .

(٢) لهي عن الشيء : سلا عنه وترك ذكره .

(٣) قد استعمل بدأ هنا في الإثبات وقد قال بعضهم أنه لا يعرف استعماله إلا مقروناً بالنفي يقال لا بد من كذا أي لا محيد عنه أو لا عوض منه .

لا تمكن أهل البلاء من التذلل ، ولا تمكن سواهم من الإجتراء عليهم والعيب لهم .

لتعرف رعيته أبوابك التي لا ينال ما عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التي لا يخافك خائف إلا من قبلها . إحرص الحرص كله على أن تكون خبيراً بأمور عمالك ، فإن المسيء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك .

ليعرف الناس فيما يعرفون من أخلاقك أنك لا تعاجل بالشواب ولا بالعقاب فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي .

عود نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم وعدلهم ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل العقل والسن والمروءة لئلا ينتشر من ذلك ما تجترىء به سيفه أو يستخف له شأن .

لا تتركن مباشرة جميع أمرك فيعود شأنك صغيراً ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً .

اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ، ففرغه للمهم وأن مالك لا يغني الناس كلهم فاخصص به ذوي الحقوق ، وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوخ بها أهل الفضائل^(١) ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وإن دأبت فيهما وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة^(٢) فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك .

واعلم أنك ما شغلت من رأيك بغير المهم ازرى بالمهم^(٣) وما

(١) توخيت الشيء : تحريرته وقصدته .

(٢) الدعة بالفتح : الراحة والسكون والوديع الساكن .

(٣) ازريت به : قصرت به وحقرته .

صرفت من مالك بالباطل فقدته حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضربك في العجز عن أهل الفضل وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة ازرى بك في الحاجة .

اعلم أن من الناس ناساً كثيراً جعل من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح^(١) والتقطيب في وجه غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهيم بعقوبته وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك ، ثم يبلغ به الرضى إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطي من لم يكن أعطاءه ويكرم من لا حق له ولا مودة ، فاحذر هذا الباب كله فإنه ليس أحد أسوأ حالاً من أهل القدرة الذين يفرطون بإقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم ، فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله أو يتخبطه المس أن يعاقب في غضبه غير من أغضبه ويحبو عند رضاه غير من أرضاه لكان جائزاً ذلك في صفته .

اعلم أن الملك ثلاثة : ملك دين وملك حزم وملك هوى فأما الدين فإنه إذا أقيم لأهله دينهم ، وكان دينهم هو الذي يعطيهم مالهم ويلحق بهم الذي عليهم أرضاهم ذلك ونزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم ، وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والتسخط ، ولن يضر طعن الدليل مع حزم القوي . وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر .

إذا كان سلطانك عند جدة دولة ، فرأيت أمراً استقام بغير رأي وأعواناً جزوا بغير نيل ، وعملاً أنجح بغير حرم ، فلا يغرنك ذلك ، فلا تستنم إليه فإن الأمر الجديد مما تكون له مهابة في أنفس أقوام وحلاوة في أنفس

(١) الكلوح : تكشر في عبوس .

آخرين ، فيعين قوم بأنفسهم ويعين قوم بما قبلهم ويستتب بذلك الأمر غير طويل ثم تصير الشؤون إلى حقائقها وأصولها فما كان من الأمر بني على غير أركان وثيقة ولا عماد محكم أو شك أن يتداعى ويتصدع .

لا تكونن نزر الكلام والسلام ، ولا تفرطن بالهشاشة والبشاشة فإن إحداهما من الكبر والأخرى من السخف . . .

إذا كنت لا تضبط أمرك ولا تصول على عدوك إلا بقوم لست منهم على ثقة من رأي ولا حفاظ من نية ، فلا تنفك نافعة حتى تحولهم إن استطعت إلى الرأي والأدب الذي يمثله تكون الثقة أو تستبدل بهم إن لم تستطع نقلهم إلى ما تريد . ولا تغرنك قوتك بهم وإنما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه وهو لمركبه أهيب .

ليس للملك أن يغضب لأن القدرة من وراء حاجته . وليس له أن يكذب لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد . وليس له أن يبخل لأنه أقل الناس عذراً في تخوف الفقر . وليس له أن يكون حقوداً لأن خطره قد عظم عن مجازاة كل الناس . وليتق أن يكون حلاًفاً فأحق الناس باتقاء الإيمان المملوك ، فإنما يحمل الرجل على الحلف إحدى هذه الخلال : إما مهانة يجدها في نفسه وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه ، وإما عي بالكلام حتى يجعل الإيمان له حشواً ووصلاً ، وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو ينزل نفسه منزلة من لا يقبل منه قوله إلا بعد جهد اليمين ، وإما عبث في القول أو إرسال اللسان على غير روية ولا تقدر .

لا عيب على الملك في تعيشه وتنعمه إذا تعهد الجسيم من أمره وفوض ما دون ذلك إلى الكفاة .

كل الناس حقيق حين ينظر في أمر الناس أن يتهم نظره بعين الريية وقلبه بعين المقت ، فإنهما يريان الجور ويحملان على الباطل ويقبحان الحسن ويحسنان القبيح وأحق الناس باتهام عين الريية وعين المقت الملك

الذي ما وقع في قلبه ربا مع ما يقبض له من تزيين القرناء والوزراء ، وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل في النظر والقول والفعل الوالي الذي ما قال أو فعل كان امراً نافذاً غير مردود .

ليعلم الوالي أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود فليكابذ نقض قولهم وليبطل عن نفسه وعن الولاة صفات السوء التي يوصفون بها .

ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقة الاحرار منهم فليعمل في سدها ، وطغيان السفلة منهم فليقمعه ، وليستوحش من الكريم الجائع واللثيم الشبعان . . فإنما يصول الكريم إذا جاع واللثيم إذا شبع .

لا يحسدن الوالي من دونه ، فإنه في ذلك أقل عذراً من السوقة التي إنما تحسد من فوقها وكل لا عذر له .

لا يلومن الوالي على الزلة من ليس بمتهم على الحرص على رضاه إلا لوم أدب وتقويم ، ولا يعدلن بالمجتهد في رضاه البصير بما يأتي أحداً ، فإنهما إذا اجتمعا في الوزير أو الصاحب نام الوالي واستراح وجلبت إليه حاجاته وإن هدا عنها ، وعُمل فيما يهمله وإن غفل .

لا يولعن الوالي بسوء الظن لقول الناس ، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيباً موفوراً يروّح به عن قلبه ويصدر به أعماله .

لا يضيعن الوالي الثبث عندما يقول وعندما يعطي وعندما يفعل ، فإن الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الإعطاء ، وإن الإقدام على العمل بعد التأني فيه أحسن من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه ، وكل الناس محتاج إلى الثبث ، وأحوجهم إليه ملوكهم السدين ليس لقولهم وفعلهم دافع وليس عليهم مستح .

ليعلم الوالي أن الناس على رأيه إلا من لا بال له منهم ، فليكن للبر

والمروءة عنده نفاق فيكسد بذلك الجور والدناءة في آفاق الأرض^(١) .

جماع^(٢) ما يحتاج إليه الوالي رايان : رأي يقوي سلطانه ورأي يزينه في الناس ، ورأي القوة أحقهما بالبداءة^(٣) وأولاهما بالأثرة ، ورأي التزيين أحضرهما حلاوة وأكثرهما أعواناً مع أن القوة من الزينة والزينة من القوة لكن الأمر ينسب إلى أعظمه .

إن شغلت بصحبة الملوك فعليك بطول الرابطة^(٤) في غير معاتبه ولا يحدثن لك الاستثناس غفلة ولا تهاوناً .

إذا رأيت أحدهم يجعلك أخاً فاجعله أباً . . . ثم إن زادك فزده .
إذا نزلت من ذي منزلة أو سلطان فلا ترين أن سلطانه زادك له توقيراً وإجلالاً من غير أن يزيدك ودأً ولا نصحاً ، وإنك ترى حقاً له التوقير والإجلال وكن في مداراته والرفق به كالمؤتف^(٥) ما قبله ، ولا تقدر الأمر بينك وبينه على ما كنت تعرف من أخلاقه فإن الأخلاق مستحيلة مع الملك ، وربما رأينا الرجل المدل على ذي السلطان بقدمه قد أضر به قدمه .

لا تعتذرن إلا إلى من يحب أن يجد لك عذراً ، ولا تستعينن إلا بمن يحب أن يظفر لك بحاجتك ولا تحدثن إلا من يرى حديثك مغنماً ما لم يغلبك الإضطرار .

(١) كسد الشيء : لم ينفق لقله الرغبة فيه ويعدى بالهمزة فيقال اكسده الله .

(٢) جماع الشيء : بالكسر ما يجمعه ومنه الخمر جماع الأثم .

(٣) البداءة اسم من بدأ وأما البداية بالياء فهو عامي .

(٤) الرابطة : العلقه والوصلة وهذا المعنى غير مناسب لهذا الموضع فلعلها محرفة من الرياضة .

(٥) اثنت الشيء واستأنفه : أخذ فيه وابتدأه .

إذا غرست من المعروف غرساً وأنفقت عليه نفقة فلا تضن بالنفقة في
تربية ما غرست فتذهب النفقة الأولى ضياعاً . . .

إذا اعتذر إليك معتذر فتلقه بوجه مشرق وبشر طليق ، إلا أن يكون
ممن قطيعته غنيمة .

اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا ، زينة في الرخاء ،
وعدة في الشدة . ومعونة في المعاش والمعاد ، فلا تفرطن في اكتسابهم
وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم .

اعلم أنك واجد رغبتك من الإخاء عند أقوام قد حالت بينك وبينهم
بعض الأبهة^(١) . التي قد تعتري أهل المروآت فتحجز منهم كثيراً ممن
يرغب في أمثالهم فإذا رأيت احداً من أولئك قد عثر به الزمان فأقله .

إذا عرفت نفسك من الوالي بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولا
تكثرن من الدعاء له في كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة إلا أن
تكلمه على رؤوس الناس فلا تأل عما عظمه ووقره .

* * *

إن استطعت ألا تصحب من صحبت من الولاية إلا على شعبة من
قراية أو مودة فافعل ، فإن اخطأك ذلك فاعلم أنك تعمل عمل السخرة .
وإن استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفك منهم بصالح مروءتك^(٢)
قبل ولايته فافعل .

إن الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته فأما إذا ولي فكل
الناس يلقيه بالترزين والتصنع ، وكلهم يحتال لأن يثني عليه عنده بما ليس
فيه ، غير أن الارذال والانذال هم أشد لذلك تصنعاً وعليه مكابرة وفيه

(١) الأبهة كسكرة العظمة والنخوة .

(٢) المروءة بضم الميم آداب نفسانية تحمل الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق
وجميل العادات وقد تشدد فيقال مروءة .

تمحلاً ، فلا يمتنع الوالي وإن كان بليغ الرأي والنظر من أن ينزل عنده كثير من الاشرار بمنزلة الأخيار ، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء ، ويغضى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصنونون أنفسهم عن التمحل والتصنع .

لا يعرفنك الولاية بالهوى في بلدة من البلدان ولا قبيلة من القبائل فيوشك أن تحتاج فيها إلى حكاية أو مشاهدة فتتهم في ذلك ، وإذا أردت أن يقبل قولك فصحح رأيك ولا تشوبه بشيء من الهوى فإن الرأي يقبله منك العدو ، والهوى يردده عليك الولي وأحق من احترست من أن يظن بك خلط الرأي بالهوى الولاية . . فإنها خديعة وخيانة وكفر .

إن ابتليت بصحبة وال لا يريد صلاح رعية فاعلم أنك قد خيرت بين خلتين ليس بينهما خيار : إمّا ميلك مع الوالي على الرعية وهذا هلاك الدين ، وإمّا الميل مع الرعية على الوالي وهذا هلاك الدنيا ولا حيلة لك إلا بالموت أو الهرب ، واعلم أنه لا ينبغي لك وإن كان الوالي غير مرضي السيرة إذا علقك جبالك بحبله إلا المحافظة عليه إلى أن تجد إلى الفراق الجميل سبيلاً . . .

تبصر ما في الوالي من الأخلاق التي تحب والتي تكره ، وما هو عليه من الرأي الذي يرضى له والذي لا يرضى ، ثم لا تكابره بالتحويل له عما يحب ويكره إلى ما تحب وتكره ، فإن هذه رياضة صعبة تحمل على التثائي والقلبي .

اعلم أنك قلما تقدر على رد رجل عن طريقته التي هو عليها بالمكابرة والمناقضة ، وإن لم يجمع عن السلطة ولكنك تقدر أن تعينه على أحسن رأيه وتسبب له منه وتقويه فيه ، فإذا قويت منه المحاسن كانت هي التي تكفه عن المساوىء ، وإذا استحكمت منه ناحية من الصواب كان ذلك هو الذي يبصره الخطأ بالطف من تبصيرك وأعدل من حكمك في نفسه ، فإن الصواب يريد بعضه بعضاً ويدعو بعضه إلى بعض ، فإذا كانت له مكانة

اقتلع الخطأ فاحفظ هذا الباب واحكمه ، ولا يكونن طلبك ما عند الوالي
بالمسألة ولا تستبطئه وإن أبطأ ، ولكن اطلب ما قبله بالاستحقاق له واستأن
به وإن طالت الأناة^(١) فإنك إذا استحقته أتاك من غير طلب وإن لم تستبطئه
كان أعجل له .

لا تخبرن الوالي أن لك عليه حقاً ، وأنت تعتد عليه ببلاء ؛ وإن
استطعت أن ينسى حَقك وبلاءك فافعل ، وليكن ما يذكره من ذلك تجديداً
له النصيحة والاجتهاد وإلا يزال ينظر منك إلى آخر يذكره أول بلائك .

واعلم أن ولي الأمر إذا انقطع عنه الآخر نسي الأول ، وأن الكثير من
أولئك أرحامهم مقطوعة وحبالهم مصرومة إلا عمن رضوا عنه وأغنى عنهم
في يومهم وساعتهم .

إياك أن يقع في قلبك تعتُّب على الوالي أو استزراء له فإنه إن وقع في
قلبك بدا في وجهك إن كنت حليماً ، وبدا على لسانك إن كنت سفيهاً ،
وإن لم يزد ذلك على أن يظهر في وجهك لآمن الناس عندك فلا تأمن أن
يظهر ذلك للوالي فإن الناس إليه بعورات الأخوان سراع فإذا ظهر ذلك
للوالي كان قلبه هو أسرع إلى التعتب والتعزز من قلبك فمحق ذلك حسناتك
الماضية وأشرف بك على الهلاك وصرت تعرف أمرك مستديراً وتلتمس
مرضاته مستصعباً .

اعلم أن أكثر الناس عدواً مجاهراً حاضراً جريئاً واشياً وزير السلطان
ذو المكانة عنده لأنه منفس^(٢) عليه بما ينفس على صاحب السلطان ،
ومحسود كما يحسد غيره ، غير أنه يجترأ عليه ولا يجترأ على السلطان لأن
من حاسديه أعباء السلطان الذين يشاركونه في المداخل والمنازل ، وهم
وغيرهم من عدوه الذين هم حضَّاره ليسوا كعدو من فوَّقه النَّائي عنه المتكتم

(١) استأنى في الأمر: تأنى فيه ولم يعجل والاسم منه أناة بوزن حصة .

(٢) نفس عليه بخير: حسده عليه ولم يره له أهلاً ونفس بالشيء ضن به وهو من باب سلم .

منه وهم لا يتقطع طمعهم من الظفر به فلا يغفلون عن نصب الجبائل ،
فاعرف هذه الحال والبس لهؤلاء القوم الذين هم أعداؤك سلاح الصحة
والاستقامة ولزوم الحجة فيما تسر وتعلن . . ثم روح عن قلبك كأنه لا عدو
لك ولا حاسد وإن ذكرك ذاكر عند ولي الأمر بسوء في وجهك أو في غيبك
فلا يرين منك الوالي ولا غيره اختلاطاً لذلك ولا اغتياظاً . . ولا يقعن ذلك
موقع ما يكرئك ، فإنه إن وقع منك ذلك الموقع أدخل عليك أموراً مشتبهة
بالريب مذكرة لما قال فيك العائب ، وإن اضطرك الأمر في ذلك إلى
الجواب فيايك وجواب الغضب والانتقام ، وعليك بجواب الحجة في حلم
ووقار ولا تشكن في أن القوة والغلبة للحليم أبداً .

لا تحضرن عند الوالي كلاماً لا يعني ، ولا يؤمر بحضوره إلا لعناية به
أو يكون جواباً لشيء سئلت عنه ، ولا تعدن شتم الوالي شتماً ولا إغلاظه
إغلاظاً فإن ريح العز قد تبسط اللسان بألفاظ في غير سخط ولا بأس .

جانب المسخوط عليه والظنين^(١) به عند الولاة ، ولا يجمعنك وإياه
مجلس ولا تظهرن له عذراً ولا تثنين عليه خيراً عند أحد من الناس فإذا رأيته
قد بلغ من الإعتاب^(٢) مما سخط عليه فيه ما ترجو أن يلين له الوالي
واستيقنت أن الوالي قد استيقن بمباعدتك إياه وشدتك عليه ، فضع عذره
عند الوالي واعمل في إرضائه عنه في رفق ولطف .

ليعلم الوالي أنك لا تستتكف عن خدمته ، ولا تدع مع ذلك أن تقدم
إليه القول عند بعض حالات رضاه وطيب نفسه في الاستعفاء من الأعمال
التي يكرهاها ذو الدين وذو العرض وذو المروءة من ولاية القتل والعذاب
وأشباه ذلك .

إذا أصبت الجاه والخاصة عند الملك ، فلا يحدثن لك ذلك تغييراً

(١) الظنة: بالكسر التهمة والظنين المتهم .

(٢) الإعتاب: مصدر قولك اعتبني فلان إذا عاد إلى مسرتك راجعاً عن الإساءة .

على أحد من أهله وأعوانه ، ولا استغناء عنهم فإنك لا تدري متى ترى أذنى جفوة فتذلل لهم فيها ، وفي تلون الحال عند ذلك من العار ما فيه . . .

ليكن مما تحكم من أمرك أن لا تسار أحداً من الناس ، ولا تهمس إليه بشيء تخفيه عن السلطان ، فإن السرار مما يخيل إلى كل من رآه من ذي سلطان أنه المراد به فيكون ذلك في نفسه حسيكة ووغراً وثقلاً^(١) .

لا تتهاونن بإرسال الكذبة^(٢) عند الوالي أو غيره في الهزل فإنها تسرع في رد الحق وإبطال الصدق مما تأتي به .

تنكب فيما بينك وبين الوالي خلقاً قد عرفناه في بعض الأعوان والأصحاب في ادعاء الرجل عندما يظهر من صاحبه ، حسن أثر أو صواب رأي ، أنه هو عمل في ذلك أو أشار به ، وإقراره بذلك إذا مدحه مادح . . وإن استطعت أن يعرف صاحبك أنك تنحلّه^(٣) صواب رأيك ، فضلاً عن أنك تدعي صوابه وتسد ذلك إليه وتزينه فافعل فإن الذي أنت آخذ بذلك أكثر مما أنت معط بأضعاف .

إذا سأل الوالي غيرك فلا تكونن أنت المحجيب عنه فان استلابك الكلام خفة بك واستخفاف منك بالمسؤول والسائل . وما أنت قائل إذا قال لك السائل : ما إياك سألت ، أو قال لك المسؤول عند المسألة يعاد له بها : دونك فأجب . . . وإذا لم يقصد السائل في المسألة لرجل واحد وعم بها جماعة من عنده فلا تبادرن بالجواب ولا تسابق الجلساء ولا توابن الكلام موأثة ، فإن ذلك يجمع مع الشين التكلف والخفة ، إنك إذا سبقت القوم إلى الكلام صاروا لكلامك خصماء فيتعقبونه بالعيب والطعن وإذا أنت

(١) الحسيكة : الضغن والعداوة - الوغر : شدة الغيظ وهو مأخوذ من الوغرة وهي شدة توقد الحر .

(٢) الكذبة بفتح الكاف وسكون الذال وجمعها كذبات بفتح الذال .

(٣) يقال نجلته القول إذا أضفت إليه قولاً قاله غيره .

لم تعجل بالجواب وخليته للقوم ، اعترضت أقاويلهم على عينك ثم تدبرتها وفكرت فيما عندك ، ثم هيات من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جواباً رضيعاً ، ثم استدبرت به أقاويلهم حتى تصيخ إليك الاسماع ويهدأ عنك الخصوم ، وإن لم يبلغك الكلام حتى يكتفي بغيرك ، أو ينقطع الحديث قبل ذلك فلا يكون من العيب عندك ، ولا من الغبن في نفسك فوت ما فاتك من الجواب ، فإن صيانة القول خير من سوء وضعه وإن كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خير من مئة كلمة أمثالها في غير فرصها ومواضعها ، مع أن كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير وإن ظن صاحبه أنه قد اتقن واحكم .

واعلم أن هذه الأمور لا تنال إلا برحب الذرع عند ما قيل وما لم يقل ، وقلة الإعظام لما ظهر من المروءة أو لم يظهر ، وسخاوة النفس عن كثير من الصواب مخافة الخلاف والعجلة والحسد والمراء .

إذا كلمك الوالي فاصغ إلى كلامه ، ولا تشغل طرفك عنه بنظر ولا أطرفك بعمل ولا قلبك بحديث نفسك ، واحذر هذا من نفسك وتعهد ما فيه . . .

أرفق بنظرائك من وزراء السلطان ودخلائه واتخذهم أخواناً ولا تتخذهم أعداء ولا تنافسهم في الكلمة يتقربون بها والعمل يؤمرون به ، فإنما أنت في ذلك أحد رجلين إما أن يكون عندك فضل على ما عند غيرك فسوف يبدو ذلك ويحتاج إليه ويلتمس منك وأنت مجمل ، وإما أن لا يكون ذلك عندك فما أنت مصيب من حاجتك عندهم بمقاربتك وملايتك ، وما أنت واجد في موافقتك إياهم ولينك لهم من موافقتهم إياك ولينهم لك أفضل مما أنت مدركه بالمنافسة والمناظرة .

لا تجترئن على خلاف أصحابك عند الوالي ثقة باعترافهم لك ومعرفتهم بفضل رأيك ، فإنما قد رأينا الناس يعترفون بفضل الرجل وينقادون له ويتعلمون منه وهم معه ، فإذا حضروا السلطان لم يرض أحد منهم أن يقر له ، ولا أن يكون له عليه في الرأي ، والعلم فضل فاجترأوا عليه بالخلاف

والنقض ، فإن ناقضهم كان كأحدهم وليس بواجد في كل حين سامعا فهما وقاضياً عدلاً وإن ترك مناقضتهم صار مغلوب الرأي مردود القول .

إذا أصبت عند الوالي لطف منزلة لغناء^(١) يجده عندك أو هوى يكون له فيك فلا تطمحن كل الطماح ، ولا تزينن لك نفسك المزايلة له عن أليفه وموضع ثقته وسره قبلك بأن تقتلعه وتدخل دونه ، فإن هذه نخلة من خلال السفه قد يتلي لها الحكماء عند الدنو من ذي السلطان حتى يحدث الرجل منهم نفسه أن يكون دون الأهل والولد لفضل يظنه في نفسه أو نقص يظنه بغيره ، ولكل رجل من الملوك أو ذي هيئة من السوق^(٢) أليف وأنيس قد عرف روحه واطلع على قلبه فليست عليه مؤونة في تبذل يتبدل له عنده ، أو رأي يستنزله منه أو سر يفشيه إليه ، غير أن تلك الأنسة^(٣) وذلك التبذل يستخرج من كل واحد منهما ما لم يكن ليظهر منه عند الانقباض والتشدد ، ولو التمس ملتصق مثل ذلك عند من يستأنف ملاطفته ومؤانسته إن كان ذا فضل في الرأي والعلم لم يجد عنده ، مثل ما هو منتفع ممن هو دون ذلك في الرأي ممن قد كفي مؤانسته ووقع على طباعه ، لأن الأنسة روح القلب والوحشة روع عليه ، ولا يلتاط^(٤) بالقلوب إلا ما لان عليها ومن استقبل الأنس بالوحشة استقبل أمراً ذا مؤونة ، فإذا كلفتك نفسك السمو إلى منزلة من وصفت فاقعدها من ذلك بمعرفة فضل الأليف والأنيس ، وإذا حدثتك نفسك أو غيرك ممن لعله يكون له فضل في السمو . . . إنك أولى بالمنزلة عند الكبير من بعض دخلائه وثقاته فاذا ذكر الذي عليه من حق أليفه وثقته وأنيسه في التكرمة والمكانة ، والذي يعينه على ذلك من الرأي أنه يجد عنده من الألف والأنس ما ليس واجداً عند غيره ، فليكن هذا مما تتحفظ فيه على نفسك وتعرف فيه عذر الرجل ورأيه ، والرأي فيه

(١) الغناء: بالفتح الكفاية.

(٢) السوق: خلاف الملك يستوي فيه الواحد والجمع والذكر والمؤنث وربما جمع على سوق مثل غرفة وغرف .

(٣) الأنسة: بالتحريك ضد الوحشة .

(٤) التاط الشيء بقلبه: لصق به من فرط الحب .

لنفسك مثل ذلك . . إن أرادك مرید على الدخول دون أنيسك وأليفك
وموضع ثقتك وجدك وهزلك .

واعلم أنه تكاد تكون لكل رجل غالبية حديث ، إما عن بلد من
البلدان أو ضرب من ضروب العلم أو صنف من صنوف الناس أو وجه من
وجوه الرأي ، وعندما يغرم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه
الهوى فاجتنب ذلك في كل موطن ثم عند أولي الأمر خاصة .

لا تشكون إلى وزراء السلطان ودخلائه ما اطلعت عليه من رأي تكرهه
له ، فإنك لا تزيد على أن تفتنهم ليليه وتغريهم بتزيين ذلك له والميل عليك
معه .

اعلم أن الرجل ذا الجاه عند الوالي والخاصة لا محالة أنه يرى من
الوالي ما يخالفه من الرأي في الناس والأمور ، فإذا آثر أن يكره كل ما
يخالفه أو يمتعض من الجفوة يراها في المجلس أو النبوة في الحاجة أو الرد
للرأي أو الإذناء لمن لا يهوى أذناءه والإقصاء لمن يكره أقصاءه . فإذا وقعت
في قلبه الكراهية تغير لذلك وجهه ورأيه وكلامه حتى يبدو ذلك للوالي وغيره
وكان ذلك لفساد منزلته سبباً فذلل نفسك باحتمال ما خالفك من رأي الولاية
وقررها بأنهم إنما كانوا أولياءك لتبعبهم في آرائهم وأهوائهم ولا تكلفهم
اتباعك وتغضب من خلافهم إياك .

اعلم أن الملوك يقبلون من وزرائهم التبخيل ويعدونهم منهم شفقة
ونظراً ، ويحمدونهم عليه وإن كانوا أجواداً ، فإن كنت مبخلاً غششت
صاحبك بفساد مروءته وإن كنت مسخياً لم تأمن إضرار ذلك بمنزلتك عنده
فالرأي لك تصحيح النصيحة على وجهها والتماس المخرج فيما تترك من
تبخيل صاحبك بأن لا يعرف منك فيما تدعوه إليه ميلاً إلى شيء من هواك
ولا طلباً لغير ما ترجو أن يزينه وينفعه .

لا تكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم
في المكروه عندك ، وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على ميلهم

دون ميلك وعلى أن لا تكتهم سرك ولا تستطلع ما كتموه ، وتخفي ما أطلعوك عليه من الناس كلهم حتى تحمي نفسك الحديث به ، وعلى الإجتهد في رضاهم والتلطف لحاجاتهم والتثيت لحجتهم والتصديق لمقاتلهم والترين لرأيهم وعلى قلة الاستقباح لما فعلوا إذا أساءوا ، وترك الاستحسان لما فعلوا إذا أحسنوا ، وكثرة النشر لمحاسنهم ، وحسن الستر لمساويهم والمقاربة لمن قاربوا وإن كان بعيداً والمباعدة لمن باعدوا . . وإن كانوا أقرباء والإهتمام بأمرهم وإن لم يهتموا به ، والحفظ له وإن ضيعوه والذكر له وإن نسوه ، والتخفيف عنهم لمؤنتك والإحتمال لهم كل مؤونة والرضى عنهم بالعفو وقلة الرضى من نفسك لهم بالمجهود . فإن وجدت عنهم وعن صحبتهم غنى فأغن عن ذلك نفسك واعتزل جهدك فإن من يأخذ عملهم يحول بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة ، ومن لا يأخذ بحقه يحتمل الفضيحة في الدنيا والوزر في الآخرة .

إنك لا تأمن أنفهم إن أعلمتهم ولا عقوبتهم إن كتمتهم ، ولا تأمن غضبهم إن صدقتهم ولا تأمن سلوتهم إن حدثتهم ، إن لزمهم لم تأمن تبرمهم بك ، وإن زايلتهم لم تأمن عقابهم ، وإنك إن تستأمرهم حملت المؤونة عليهم وإن قطعت الأمر دونهم لم تأمن فيه مخالفتهم ، إنهم إن سخطوا عليك أهلكوك وإن رضوا عنك تكلفت من رضاهم ما لا تطيق ، فإن كنت حافظاً إن بلوك ، جلدأ إن قريوك أميناً إن أئتمنوك ، تشكرهم ولا تكلفهم الشكر بصيراً بأهوائهم مؤثراً لمنافعهم ذليلاً إن ظلموك راضياً إن اسخطوك . . . وإلا فالبعد منهم كل البعد والحذر كل الحذر .

باب الصديق

بذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفقك ومحضرك ، وللعامه بشرك وتحتنك ولعدوك عدلك واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد .

إن سمعت من صاحبك كلاماً أو رأياً يعجبك فلا تتحلله تريئاً به عند

الناس ، واكتف من التزين بأن تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه . واعلم أن انتحالك ذاك مسخطة لصاحبك وأن فيه مع ذلك عاراً، فإن بلغ ذلك بك أن تشير برأي الرجل وتكلم بكلامه وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس ، ومن تمام حسن الخلق والأدب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك وتنسب إليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت . لا يكون من خلقك أن تبتدىء حديثاً ثم تقطعه وتقول سوف . . كأنك روأت فيه بعد ابتدائه، وليكن ترويك فيه قبل التفوه به فإن احتجان الحديث بعد افتتاحه سخف وغم^(١) .

أخزن عقلك وكلامك إلا عند إصابة الموضوع فإنه ليس في كل حين يحسن الصواب وإنما تمام إصابة الرأي والقول بإصابة الموضوع فإن أخطأك ذلك أدخلت المحنة على عملك حتى تأتي به إن أتيت به في غير موضعه وهو لا بهاء ولا طلاوة له .

ليعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول .

إن آثرت أن تفاخر أحداً ممن تستأنس إليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ولا تعدون أن تتكلم فيه بما كان هزلاً ، فإذا بلغ الجد أو قاربه فدعه ولا تخلطن بالجد هزلاً ولا بالهزل جداً فإنك إن خلطت بالهزل جداً هجنته وإن خلطت بالهزل جداً كدرته ، غير أنني قد علمت موطناً واحداً إن قدرت أن تستقبل فيه الجد والهزل أصبت الرأي وظهرت على الأقران وذلك إن يتوردك متورد بالسفه والغضب فتجيبه إجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق .

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنيك ذلك فإنما هو أحد رجلين : إن كان رجلاً من إخوان الثقة فانفع مواطنه لك أقربها من عدوك لشر يكفه

(١) الروية : الفكر والتدبر وهي كلمة جرت على ألسنتهم بغير همز تخفيفاً وهي من روأت في الأمر بالهمز إذا نظرت فيه واحتجن المال ضمه إلى نفسه وأمسكه .

عنك وعورة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يجضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك فبأي حق تقطعه عن الناس وتكلفه أن لا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى .

تحفظ في مجلسك ، وكلامك من التطاول على الأصحاب وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي مداراة لك لا يظن أصحابك أن ما بك التطاول عليهم .

إذا أقبل إليك مقبل بوجهه فسرك ألا يدبر عنك فلا تنعم الإقبال عليه والتفتح له ، فإن الانسان طبع على ضرائب لئوم فمن شأنه أن يرحل عنم لصق به ويلصق بمن رحل عنه .

لا تكثرون ادعاء العلم في كل ما يعرض فإنك من ذلك بين فضيحتين : إما أن ينازعوك فيما ادعيت فيهجم منك على الجهالة والصلف^(١) وإما ألا ينازعوك ويخلوا في يديك ما ادعيت فينكشف منك التصنع والمعجزة .

استحي الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل ، مصرحاً أو معرضاً ، وإن استطلت على الأكفاء فلا تثقن منهم بالصفاء .

إن أنست من نفسك فضلاً فتخرج أن تذكره أو تبديه واعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس ، من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل ، واعلم أنك إن صبرت ولم تعجل ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف ، ولا يخفين عليك أن حرص الرجل على إظهار ما عنده وقلة وقاره في ذلك باب من البخل واللؤم ، وأن من خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرم .

إن أحببت أن تلبس ثوب الوقار والجمال وتتحلى بحلية المودة عند

(١) الصلف: مجاوزة قدر الظرف والإدعاء فوق ذلك تكبراً .

العامّة وتسلّك الجدد الذي لاخبار^(١) فيه ولا عثار فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعبيّ . فأما العلم فيرشدك وأما قلة ادعائه فينفي عنك الحسد ، وأما المنطق إذا احتجت إليه فسيبلغك حاجتك ، وأما الصمت فيكسبك المحبة والوقار .

وإذا رأيت رجلاً يحدث حديثاً قد علمته أو يخبر خيراً قد سمعته فلا تشاركه فيه ولا تتعقبه عليه حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته فإن في ذلك خفة وشحاً وسوء أدب وسخفاً .

ليعرف إخوانك والعامّة أنك - إن استطعت - إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل فعلت ، فإن فضل القول على الفعل عار وهجنة ، وفضل الفعل على القول زينة ، وأنت حقيق فيما وعدت من نفسك أو أخبرت صاحبك عنه أن تحتجن بعض ما في نفسك إعداداً لفضل الفعل على القول ، وتحرزاً بذلك عن تقصير فعل إن قصر وقلما يكون إلا مقصراً .

احفظ قول الحكيم الذي قال : لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل وفيما بينك وبين صديقك الرضى وذلك أن العدو خصم تضربه بالحجة وتغلبه بالحكام وأن الصديق ليس بينك وبينه قاض فإنما حكمه رضاه .

إجعل غاية تشبثك في مؤاخاة من تؤاخي ومواصلة من تواصل توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك وإن ظهر لك منه ما تكره فإنه ليس كالمراة التي تطلقها إذا شئت ولكنه عرضك ومروءتك ، فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخذانه فإن عثر الناس على أنك قطعت رجلاً من إخوانك وإن كنت معذراً نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال ، وإن

(١) الجدد : المستوي من الأرض وقيل الأرض الصلبة وفي المثل من سلك الجدد أمن العثار . والخبار أرض رخوة فيها حجرة وفي المثل من تجنب الخبار أمن العثار .

أنت صبرت مع ذلك على مقارنته على غير الرضى عاد ذلك إلى العيب
والنقيصة فالإتقاد والالتئاد والتثبت والتثبت .

إذا نظرت في حال من ترتبه لآخائك فإن كان من إخوان الدين فليكن
فقهياً ليس بمراء ولا حريص ، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حراً ليس
بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه
وإن الكذاب لا يكون أخاً صادقاً لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما
هو من فضول كذب قلبه وإنما سمي الصديق من الصدق ، وقد يتهم صدق
القلب وإن صدق اللسان فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان وإن الشرير
يكسبك العدو ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة وأن المشنوع شائع
صاحبه .

تحرز من سكر السلطة وسكر العلم وسكر المنزلة وسكر الشباب فإنه
ليس من هذا شيء إلا وهو ريح جنة تسلب العقل وتذهب الوقار وتصرف
القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع .

اعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة وأن انبساطك لهم
يكسبك صديق السوء ، وفسولة الأصدقاء أضر من بغض الأعداء فإنك إن
واصلت صديق السوء أعتيتك جرائمه ، وإن قطعت شائك اسم القطيعة
وألزمك ذلك من يرفع عيبك ولا ينشر عذرك فإن المعاييب تنمى والمعاذير لا
تنمى .

ألبس الناس لباسين ليس للعاقل بد منهما ولا عيش ولا مروءة إلا
بهما ، لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة فلا تلبس إلا متحفظاً متشدداً
متحرزاً مستعداً ، ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة من الثقات
فتلقاهم بنات صدرك وتفضي إليهم بموضوع حديثك ، وتضع عنك مؤونة
الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم ، وأهل هذه الطبقة الذين هم أهلها قليل
لأن ذا الرأي لا يدخل أحداً من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختبار والسبر
والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد .

اعلم أن لسانك أداة مصلته يتغالب عليه عقلك وغضك وهواك

وجهلك ، فكل غالب عليه مستمتع به وصارفه في محبته ، فإذا غلب عليه عقلك فهو لك وإذا غلب عليه شيء من أشباه ما سميت لك فهو لعدوك ، فإن استطعت أن تحتفظ به فلا يكون إلا لك ولا يستولي عليه أو يشاركك عدوك فيه فافعل .

إذا نابت أخاك إحدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بلية فاعلم أنك قد ابتليت معه إما بالمؤاساة فتشاركه في البلية ، وإما بالخذلان فتحتمل العار فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك وآثر مروءتك على ما سواها ، فإن نزلت الجائحة التي تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل فعل الإجمال يسعك لقلته في الناس .

إذا أصاب أخاك فضل فإنه ليس في دنوك منه وابتغائك مودته وتواضعك له مذلة فاغتنم ذلك واعمل فيه . . .

إذا كانت لك عند أحد صنيدة أو كان لك عليه طول فالتمس إحياء ذلك بإماتته وتعظيمه بالتصغير له ، ولا تقتصرن في قلة المن على أن تقول : لا أذكره ولا أصغي بسمعي إلى من يذكره ، فإن هذا قد يستحي منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كرم ، ولكن احذر أن يكون في مجالستك إياه وما تكلمه به أو تستعينه عليه أو تجاربه فيه شيء من الاستطالة فإن الاستطالة تهدم الصنيدة وتكدر المعروف .

إحترس من سورة الغضب وسورة الحمية وسورة الحقد وسورة الجهل واعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها من الحلم والتفكر والروية وذكر العاقبة وطلب الفضيلة ، واعلم أنك لا تصيب الغلبة إلا بالجهاد وإن قلة الإعداد لمدافعة الطبايع المتطلعة هو الاستسلام لها ، وإنه ليس أحد إلا فيه من كل طبيعة سوء غريزة وإنما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السوء ، فأما أن يسلم أحد من أن تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمع ، إلا أن الرجل القوي إذا كابرها بالقمع لها كلها كلما تطلعت لم يلبث أن يميته

حتى كأنها ليست فيه ، وهي في ذلك كأمينة كمن النار في العود فإذا وجدت قادحاً من علة أو غفلة استورت . . . كما تستوري النار عند القدح ثم لا يبدأ ضررها إلا بصاحبها كما لا تبدأ النار إلا بعودها التي كانت فيه .

ذلل نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء فإن ذلك ما لا يكاد يخطئك فإن الصبر صبران : صبر الرجل على ما يكره ، وصبره عما يحب ، فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطراً واعلم أن اللثام أصبر أجساداً والكرام أصبر نفوساً ، وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وقاحاً أو رجله قوية على المشي أو يده قوية على العمل ، وإنما هذا من صفات الحمير ، ولكن أن يكون للنفس غلوباً وللأمر محتملاً وفي الضر متجملاً ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطاً وللحزم مؤثراً وللهور تاركاً وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفاً وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً ولبصره بعزمه منفذاً .

حبب إلى نفسك العلم حتى تألفه وتلزمه ويكون هو لهوك ولذتك وسلوتك وبلغتك ، واعلم أن العلم علمان علم للمنافع وعلم لتزكية العقول ، وأفشى العلمين وأجداهما أن ينشط له صاحبه من غير أن يحرض عليه علم المنافع، وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلأؤها فضيلة منزلة عند أهل الفضل في الألباب .

عود نفسك السخاء واعلم أنهما سخاءان سخاوة نفس الرجل بما في يديه ، وسخاوته عما في أيدي الناس وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة ما في أيدي الناس أمحض في التكرم وأنزّه من الدنس . . . فإن هو جمعهما فبذل وعف فقد استكمل الجود والكرم .

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً فإن الحسد خلق لئيم ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء

والخلطاء ، فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك ، وأن غنماً لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه ، وأفضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته ، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك في الدين فتزداد صلاحاً بصلاحه .

ليكن مما تنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفك أن تخبر عدوك أنك له عدو فتذر به بنفسك وتؤذنه بحربك قبل الإعداد والفرصة فتحمله على التسلح لك وتوقد ناره عليك .

اعلم أنه أعظم لخطرك أن يرى عدوك أنك لا تتخذه عدواً فإن ذلك غرة له وسبيل لك إلى القدرة عليه ، فإن أنت قدرت فاستطعت اغتفاراً لعداوته عن أن تكافئ بها ، فهناك استكملت عظيم الخطر ، وإن كنت مكافئاً بالعداوة والضرر فيأيك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية وعداوة الخاصة بعداوة العامة فإن ذلك هو الظلم والعار ، واعلم مع ذلك أنه ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله ! كالخيانة لا تكافأ بالخيانة والسرقة لا تكافأ بالسرقة ، ومن الحيلة في أمرك مع عدوك أن تصادق أصدقائه وتواخي إخوانه فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتجافي ، فإنه ليس رجل ذو طرق^(١) يتمتع من مؤاخاتك إذا التمتست ذلك منه ، وإن كان إخوان عدوك غير ذوي طرق فلا عدو لك .

لا تدع مع السكوت عن شتم عدوك إحصاء معاييه ومثالبه ، وأتباع عوراته حتى لا يشذ عنك من ذلك صغير ولا كبير ، من غير أن تشيع عليه فيتقيد به ويستعد له ، أو تذكره في غير موضعه فتكون كمستعرض الهواء بنبله قبل إمكان الرمي .

(١) الطرق بفتح فسكون ضعف العقل وقد طرق كعني فهو مطروق ويقال فلان به طريقة اي هوج . وطرق فلان وأخذ في التطريق إذا احتال .

لا تتخذ اللعن والشتم على عدوك سلاحاً فإنه لا يجرح في نفس ولا في مال ولا دين ولا منزلة .

إن أردت أن تكون داهياً فلا تحب أن تسمى داهياً ، فإنه من عرف بالدهاء خاتل علانية وحذر الناس حتى يمتنع منه الضعيف ، وإن من إرب الأريب دفن إربه ما استطاع حتى يعرف بالمسامحة في الخليقة والإستقامة في الطريقة ومن إربه ألا يؤارب العاقل المستقيم له الذي يطلع على غامض إربه فيمقته عليه .

إن أردت السلامة فاشعر قلبك الهيبة للأمر من غير أن تظهر منك الهيبة ، فيفطن الناس لهيبتك ، وتجربهم عليك ، ويدعو ذلك إليك منهم كل ما تهاب ، فأشعب لمداراة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجراءة والتهاون طائفة من رأيك ، وإن ابتليت بمجازاة عدو مخالف فالزم هذه الطريقة التي وصفت لك من استشعار الهيبة وإظهار الجراءة والتهاون ، وعليك بالحدزر في أمرك والجراءة في قلبك حتى تملأ قلبك جراءة ويستفرغ عملك الحدزر .

إن من عدوك من تعمل في هلاكه ومنهم من تعمل في البعد عنه فاعرفهم على منازلهم ، ومن أقوى القوة لك على عدوك وأعز أنصارك في الغلبة له أن تحصي على نفسك العيوب والعورات كلما أحصيتها على عدوك ، وتنظر عند كل عيب تراه أو تسمعه لأحد من الناس هل قارفت مثله أو مشاكلة ، فإن كنت قارفت منه شيئاً فأحصه فيما تحصي على نفسك حتى إذا أحصيت ذلك كله فكابر عدوك بإصلاح عيوبك وتحصين عوراتك وإحراز مقاتلك ، وخذ نفسك بذلك ممسياً مصباحاً ، فإذا آتست منها دفعاً لذلك أو تهاوناً به فاعدد نفسك عاجزاً ضائعاً خائباً معوراً لعدوك ممكناً له من رميك ، وإن حصل من عيوبك بعض ما لا تقدر على إصلاحه من أمر قد مضى يعيبك عند الناس ولا تراه أنت عيباً فاحفظ ذلك وما عسى أن يقول فيه قائل من حسبك أو

مثالب آبائك أو عيب إخوانك ثم اجعل ذلك كله نصب عينيك . . . واعلم أن عدوك مريدك بذلك فلا تغفل عن التهيؤ له والإعداد لقوتك وحجتك وحيلتك فيه سراً وعلانية ، فأما الباطل فلا تروعن به قلبك ولا تستعدن به ولا تشتغلن به فإنه لا يهولك ما لم يقع وإذا وقع اضمحل .

اعلم أنه كلما بنده أحد بشيء يعرفه من نفسه وقد كان يطمع في إخفائه عن الناس فيعيه به معير عند السلطان أو غيره ، إلا كاد يشهد به عليه وجهه وعيناه ولسانه للذي يبدو منه عند ذلك ، والذي يكون من انكساره وفتوره عند تلك البدهة ، فاحذر هذه وتصنع لها وخذ أهبتك لبغاتها .

اعلم أن من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء ، ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن ، وإنما النساء أشباه وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة ، بل كثير مما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه منهن وإنما المترغب عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس ، بل النساء أشبه من الطعام بالطعام وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء .

ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبه يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر . . . ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدم الدمامة فلا يعظه ذلك عن أمثالها ولا يزال مشغولاً بما لم يذق ، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق وهذا هو الحمق والشقاء ، ومن لم يحم نفسه ويظلفها ويجلها عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاع تلك اللذات عنه بخمود نار شهوته وضعف عوامل جسده . . . وقل

من تجد إلا مخادعاً لنفسه في أمر جسده عن الطعام والشراب والحمية
والدواء وفي أمر مروءته عند الأهواء والشهوات وفي أمر دينه عند الزبية
والشبهة والطمع .

إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال
ورأي وفعل فافعل ، فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك
وتقريبهم إياك في المجلس تباعدت عنه وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم
وتزيينهم من كلامك ورأيك ما لم تزين هو الجمال .

لا يعجبك العالم ما لم يكن عالماً بمواضع ما يعلم ، إن غلبت على
الكلام وقتاً فلا تغلبن على السكوت . . . واحذر المرء واعرفه ولا يمنعنك
حذر المرء من حسن المناظرة والمجادلة ، واعلم أن المماري هو الذي لا
يحب أن يتعلم ولا يُتعلّم منه ، فإن زعم زاعم أنه إنما يجادل في الباطل عن
الحق فإن المجادل وإن كان ثابت الحجة ظاهر البينة فانه يخاصم إلى غير
قاص . وإنما قاضيه الذي لا يعدو بالخصومة إلا إليه عدل صاحبه وعقله ،
فإن آنس أو رجا من صاحبه عدلاً يقضي به على نفسه فقد أصاب وجه أمره
وإن تكلم على غير ذلك كان ممارياً .

إن استطعت أن لا تخبر أخاك عن ذات نفسك بشيء إلا وأنت
محتجن عنه بعض ذلك التماساً لفضل الفعل على القول واستعداداً لتقصير
فعل أن قصر فافعل ، واعلم أن فضل الفعل على القول زينة وفضل القول
على الفعل هجنة وإن أحكام هذه الخلة من غرائب الخلال .

إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلمس الروح في مدافعتها بالروغان
منها فإنه لا راحة لك إلا في إصدارها وإن الصبر عليها هو الذي يخففها وإن
الضجر منها هو الذي يراكمها عليك فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد
رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال ، وذلك أن الرجل يكون في أمر من
أمره فيرد عليه شغل آخر ويأتيه شاغل من الناس
يكره تأخيرها فيكدر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان

فيه ، وما ورد عليه حتى لا يُحكم واحداً منهما ، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الأمور ثم اختر أولى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه ولا يعظمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر إذا عملت الرأي معمله وجعلت شغلك في حقه .

إجعل لنفسك في كل شيء غاية ترجو القوة والتمام عليها واعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة صرت إلى التقصير، وإن جاوزتها في حمل العلم صرت من الجهال، وإن جاوزتها في تكلف رضى الناس والخفة معهم في حاجتهم كنت المخسور المضيع .

اعلم أن بعض العطية لؤم وبعض البيان عي وبعض العلم جهل ، فان استطعت أن لا يكون عطاؤك خوراً ولا بيانك هذراً ولا علمك جهلاً فافعل .

اعلم أنه ستمر عليك أحاديث تعجبك إما مليحة وإما رائعة ، فاذا أعجبتك كنت خليفاً بأن تحفظها فان الحفظ موكل بما راع وملح وستحرص على أن يتعجب منها الأقوام فان الحرص على التعجب من شأن الناس ، وليس كل معجب لك معجباً لغيرك ، وإذا نشرت ذلك مرة أو مرتين فلم تره وقع من السامعين موقعه منك فازدجر عن العود له فإن العجب من غير عجيب سخف شديد وقد رأينا من الناس من يعلق الشيء ولا يقلع عن الحديث به ، ولا يمنعه قلة قبول اصحابه له أن يعود ثم يعود .

إياك والأخبار الرائعة وتحفظ منها فان الانسان من شأنه الحرص على الأخبار لا سيما ما راع منها فأكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع ، وذلك مفسدة للصدق ومزرة بالرأي فان استطعت ألا تخبر بشيء إلا وأنت به مصدق وألا يكون تصديقك إلا ببرهان فافعل .

ولا تقل بما يقول السفهاء : « أخبر بما سمعت » فان الكذب أكثر ما أنت سامع وإن السفهاء أكثر من هو قائل . وإنك إن صرت للأحاديث واعياً

وحاملاً كان ما تعي وتحمل عن العامة أكثر مما يخترع المخترع بأضعاف .

أنظر من صاحبت من الناس من ذي فضل عليك بسُلطان ومنزلة ومن دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والأخوان فوطُن نفسك في صحبته على أن تقبل منه العفو وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قبله غير معاتب ولا مستبطن ولا مستزید ، فإن المعاتبة مقطعة للودوان الاستزادة من الجشع وإن الرضى بالعفو والمسامحة في الخلق مقرب لك كل ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة .

اعلم أنك ستبلي من أقوام بسفه وأن سفه السفیه سيطلع لك منه حقداً . . فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك قد رضيت ما أتى به فاجتنب أن تحتذي مثاله ، فإن كان ذلك عندك مذموماً فحقوق ذمك إياه بترك معارضته فأما أن تدمه وتمثله فليس ذلك لك سداداً .

لا تصاحبين أحداً وإن استأنست به أخصاً قرابة أو أخصاً مودة ولا والداً ولا ولداً إلا بمروءة فإن كثيراً من أهل المروءة قد يحملهم الاسترسال أو التبذل على أن يصحبوا كثيراً من الخلصاء بالإدلال والتهاون ومن فقد من صاحبه صحبة المروءة ووقارها أحدث ذلك له في قلبه رقة شأن وخفة منزلة .

لا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأي ولا تجترئن على تقيعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجتك إذا وضحت ، فإن أقواماً قد يحملهم حب الغلبة وسفه الرأي في ذلك على أن يتعقبوا الكلمة بعد ما تنسى فيلتمسوا فيها الحجة ثم يستطيلوا بها على الأصحاب وذلك ضعف في العقل ولؤم في الأخلاق .

لا يعجبنيك إكرام من يكرمك لمنزلة أو سلطان فإن السلطان أو شك أمور الدنيا زوالاً ، ولا يعجبنيك إكرامهم إياك للنسب فإن الانساب أقل مناقب الخير غناء عن أهلها في الدين والدنيا ولكن إذا أكرمت على دين أو مروءة فذلك فليعجبك فإن المروءة لا تزيالك في الدنيا والدين لا يزيالك في الآخرة .

واعلم أن الجبن مقتلة وأن الحرص محرمة ، فانظر فيما رأيت أو سمعت : أمن قُتل في القتال مقبلاً أكثر . . أم من قتل مدبراً . . وأنظر أمن يطلب إليك بالأجمال والتكرم أحق أن تسخو إليه نفسك بطلبته ؟ أم من يطلب إليك بالشره .

اعلم أنه ليس كل من كان لك فيه هوى فذكره ذاك بسوء وذكرته أنت بخير ينفعه ذلك أو يضره ، فلا يستخفك ذكر أحد من صديق أو عدو إلا في موطن دفع أو محاماة ، فان صديقك إذا وثق بك في موطن المحاماة لم يحفل بما تركت مما سوى ذلك ولم يكن له عليك سبيل لائمة . . وإن الأحزم في أمر عدوك أن لا تذكره إلا حيث يضره وألا تعدَّ يسير الضر له ضراً .

اعلم أن الرجل قد يكون حليماً فيحمله الحرص على أن يقال جليد والمخافة أن يقال مهين على أن يتكلف الجهل ، وقد يكون الرجل زميتاً^(١) فيحمله الحرص على أن يقال لسن والمخافة من أن يقال عي . . على أن يقول في غير موضعه فيكون هذراً . . فاعرف هذا وأشباهه واحترس منه كله .

إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه فان أكثر الصواب في خلاف الهوى .

ليجتمع في قلبك الإفتقار إلى الناس والاستغناء عنهم ، فيكون افتقارك إليهم في لين كلمتك وحسن بشرك ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك .

لا تجالس امرأةً بغير طريقتة ، فإنك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم والجافي بالفقه والعي بالبيان لم تزد على أن تضيع عقلك وتؤدي جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف ، وغمك إياه بمثل ما يعتم به الرجل الفصيح

(١) الزميت كأمير وسكيت . . الحكيم الساكن القليل الكلام كالصميت .

من مخاطبة الاعجمي الذي لا يفقه ، واعلم أنه ليس من علم تذكره عند غير أهله إلا عادوه ونصبوا له ونقضوه عليك وحرصوا على أن يجعلوه جهلاً ، حتى أن كثيراً من اللهو واللعب الذي هو أخف الأشياء على الناس ليحضره من لا يعرفه فيثقل عليه ويغتم به . ليعلم صاحبك أنك حذب على صاحبه وإياك إن عاشرك امرؤ ورافقك أن لا يرى منك بأحد من أصحابه واخذانه رافة ، فإن ذلك يأخذ من القلوب مأخذاً وأن لطفك بصاحب صاحبك أحسن عنده موقِعاً من لطفك به نفسه .

إتق الفرح عند المحزون واعلم أنه يحقد على المنطلق ويشكر للمكتئب .

اعلم أنك ستسمع من جلساتك الرأي والحديث تنكره وتستجفيه من محدث عن نفسه أو عن غيره فلا يكون منك التكذيب ولا التسخيف لشيء مما يأتي به جليساك ، ولا يجرتك على ذلك أن تقول : « إنما حدث عن غيره » فإن كل مردود عليه سيمتعص^(١) من الرد ، وإن كان في القوم من تكره أن يستقر في قلبه ذلك القول لخطأ تخاف أن يعقد عليه أو مضرة تخشاها على أحد ، فإنك قادر على أن تنقض ذلك في سر فيكون أيسر للنقض وأبعد للبغضة . واعلم أن البغضة خوف والمودة أمن ، فاستكثر من المودة صامتاً فإن الصمت يدعوها إليك ، وناطقاً بالحسنى فإن المنطق الحسن يزيد في ود الصديق ويسل سخيمة^(٢) الوغر .

واعلم أن خفض الصوت وسكون الريح ومشي القصد من دواعي المودة إذا لم يخالط ذلك بأو^(٣) ولا عجب أما العجب فهو من دواعي المقت والشأن .

(١) امتعض من الشيء غضب منه وشق عليه .

(٢) السخيمة : الضغن والحقد والوغر شدة الغيظ .

(٣) البأو : الكبر والفخر .

تعلم حسن الإستماع كما تتعلم حسن الكلام ومن حسن الإستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه وقلة التلفت إلى الجواب والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعي لما يقول . وأعلم أن المستشار ليس بكفيل والرأي ليس بمضمون بل الرأي كله غرر لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة ، ولأنه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز ، بل ربما أعيا الحزمة ما أمكن العجزة فإذا أشار عليك صاحبك برأي فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعدلاً تقول : أنت فعلت هذا بي وأنت امرتي ولولا أنت لم أفعل ولا جرم لا اطيعك بعدها فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة ، وأن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تمنّ ولا تكثرن ذكره إن كان فيه نجاح ولا تلمه عليه إن كان استبان في تركه ضرراً بأن تقول : ألم أقل لك ألم أفعل . . فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .

اعلم فيما تكلم به صاحبك أن مما يهجن صواب ما تأتي به ويذهب بهجته ويزري بقبوله عجلتك في ذلك قبل أن يفضي إليك بذات نفسه ، ومن الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه والإعتراض فيه والقطع فيه ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها إذا حدث الرجل حديثاً تعرفه ألا تسابقه إليه وتفتحه عليه وتشاركه فيه حتى كأنك تظهر للناس بأنك تريد أن يعلموا أنك من مثل الذي يعلم وما عليك أن تهنته بذلك وتفرد به وهذا الباب من أبواب البخل وأبوابه الغامضة كثيرة .

وإذا كنت في قوم ليسوا بلغاء ولا فصحاء فدع التطاول عليهم في البلاغة أو الفصاحة .

اعلم أن بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر وأن شدة الإتقاء تدعو إليك ما تتقي .

إن رأيت نفسك تصاغرت إليها^(١) الدنيا ودعتك إلى الزهادة فيها على

(١) تصاغر إليه الشيء : صار صغيراً عنده .

حال تعذر منها عليك فلا يفرنك ذلك من نفسك تلك الحال فإنها ليست بزهادة ولكنها ضجر والاستخذاء^(١) وتغير نفس عندما أعجزك من الدنيا وغضب منك عليها مما التوى عليك منها ، ولو تمت على رفضها وامسكت عن طلبها أو شكت أن ترى من نفسك من الضجر والجزع أشد من ضجرك الأول بأضعاف ولكن إذا دعيتك نفسك إلى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك فأسرع إلى إجابتها .

إعرف عوراتك وإياك أن تعرّض بأحد فيما شاركها وإذا ذكرت من أحد خليقة فلا تناضل عنه مناضلة المدافع عن نفسه فتهتم بمثلها ولا تلح كل الالاحاح . . وليكن ما كان منك من غير اختلاط فإن الإختلاط من محققات الريب . وإذا كنت في جماعة قوم ابداً فلا تعمّن جيلاً من الناس أو امة بشتم ولا ذم فإنك لا تدري لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك ولا تعلم ، ولا تدمن مع ذلك اسماً من أسماء الرجال أو النساء بأن تقول : إن هذا لقبيح من الأسماء فإنك لا تدري لعل ذلك موافق لبعض جلسائك في بعض أسماء الأهلين والحرم ولا تستصغرن من هذا شيئاً فكله يجرح في القلب وجرح اللسان أشد من جرح اليد ، وأعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال في التماس مثالبهم ومساوئهم ونقيصتهم ، وكل ذلك أبين عند سامعيه من وضح الصبح ، فلا تكونن من ذلك في غرور ولا تجعلن نفسك من أهله .

إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو إليه مروءته ولا يستخف رأياً ولا بدناً . . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا

(١) والاستخذاء الخضوع .

يقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان اكثر دهره صامتاً فإذا قال بَدْ (١)
القائلين . . . كان يرى متضعفاً مستضعفاً (٢) فإذا جاء الجد فهو الليث
عادياً .

وكان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في مراء ولا يدلي بحجة حتى
يجد قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً .

وكان لا يلوم احداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما
اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ولا يصحب إلا
من يرجو عنده النصيحة لهما جميعاً .

وكان لا يتبرم (٣) ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ولا ينتقم من
الولي ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من
اهتمامه بحيلته وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق إن اطقت ولن تطيق ، ولكن
أخذ القليل خير من ترك الجميع وبالله التوفيق .

(١) بدهم : سبقهم وغلبهم .

(٢) استضعفه وتضعفه : عده ضعيفاً كضعفه .

(٣) برم وتبرم : تضجر .

الأدب الصغير

تعليق الشيخ طاهر الجزائري

كان أول من عُني بنشر (الأدب الصغير) الأستاذ العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري المعروف باهتمامه وتحريه للأثار العربية القديمة . . . وقد قدّم للأدب الصغير بهذه الكلمة يصف فيها كيف عثر على هذه الكراسة، وكيف قام على تصحيحها مقدمة لنشرها رحمه الله، منذ خمسين سنة تقريباً .

من أعظم ما تدعو الحاجة إليه . . علم تهذيب الأخلاق لتوقف نجاح الأمم عليه . . وهو فن ذو أفنان تحتاج إليه الأفراد على اختلاف طبقاتها، ومع قلة ما انتشر من كتبه ففي جلها من عدم التنقيح وانسجام العبارات ما يصد كثيراً من الطالبين عن الإقبال عليها .

ومن ثم كثر بحثنا عن كتب تفي بهذا المطلب مع رشاقة مبانيها لتكون الفائدة مزدوجة وهو أقصى آمال الذين يسعون في إحياء اللغة العربية وإعادتها إلى ما كانت عليه في عهدها الأول . ولما ذهبت إلى مدينة بعلبك سنة ١٢٢٣ هجرية، رأيت عند بعض الأفاضل الواردين عليها مجموعاً استعاره من بعض أعيانها فرأيت فيه الضالة المنشودة وهي رسالة الأدب الصغير لعبدالله بن المقفع الكاتب الذي يضرب ببلاغته المثل، فكتبتها بخطي في نحو يوم وأرجو أن يتيسر لنشرها من عرف بحسن الطبع ليعم بها النفع والله الموفق :

وهذا بيان الرسائل التي في المجموع المذكور :

(١) كتاب عجائب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو في نحو ثلاث كراسات يشتمل على ما نقل عنه من بدائع الأحكام .

(٢) ذكر الخلائف وعنوان المعارف . تأليف الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد أوله : « الحمد لله الواحد العدل وصلى الله على النبي وخيرة الأهل ، قد اسعفتك بالمجموع الذي التمسته في نسب النبي عليه السلام وبنيه وبناته وأعمامه وعماته وجمل من غزواته وسائر ما يتصل بذلك » وهو إثنتا عشرة ورقة وفي آخره : وكتب في رجب سنة عشرين وأربعمائة .

(٣) رسالة إلى أحمد بن أبي دؤاد في فضل العلم . . وهي ثلاث أوراق وفي آخرها : وكتب في شهر ربيع الأول سنة عشرين وأربعمائة .

(٤) ويتلوها كتاب (الأدب الصغير) الذي نقلناه وهو في الصفحة اليسرى من آخر ورقة من الرسالة السابقة بخط كاتب واحد فتكون كتابتها في التاريخ المذكور ولم يذكر في آخرها تاريخ .

(٥) ويتلوه كتاب ذخائر الحكمة تأليف أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي وهو في نحو ثلاث وعشرين ورقة .

(٦) مختصر من كتاب جاويدان خرد في حكم الفرس والهند والروم والعرب تأليف أحمد بن مسكويه وهو في أكثر من كراس . . .

الأدب الصغير :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن المقفع :

أما بعد فإن لكل مخلوق حاجة، ولكل حاجة غاية، ولكل غاية سبيلاً والله وقت للأمر أقدارها، وهياً إلى الغايات سببها، وسبب الحاجات ببلاغها فغاية الناس وحاجتهم صلاح المعاش والمعاد. والسبيل إلى دركها العقل الصحيح. وأمانة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر. وتنفيذ البصر بالعزم. وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب، وبالأدب تنمى العقول وتزكو فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أن تخلع يبسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها وريعها ونمائها إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت، ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو نماؤها وحياتها ولقاحها. وجلُّ الأدب بالمنطق وكل المنطق بالتعلم ليس حرف من حروف معجمه، ولا اسم من أنواع اسمائه إلا وهو مروى متعلم مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب وذلك دليل على أن الناس لم يتدعوا أصولها ولم يأتهم علمها إلا من قبل العليم الحكيم .

فإذا خرج الناس، من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائد وسموياً وأكاليل، ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسناً فسمي بذلك صائغاً رقيقاً - وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيها ما

يعجب الناس من الحلي والآنية - وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة، وسلكت سبلاً جعلها الله ذلاً فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً إليها المذكوراً به أمرها، وصنعتها، فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه فلا يعجب به إعجاب المخترع المبتدع فإنه إنما اجتبه كما وصفنا .

ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه فلا يرين عليه في ذلك ضؤولة، فإنه من أعين على حفظ قول المصيين وهدى للاقتداء بالصالحين ووفق للأخذ عن الحكماء فلا عليه أن لا يزداد فقد بلغ الغاية، وليس بناقضه، في رأيه ولا بغائضه من حقه أن لا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه وإنما إحياء العقل الذي يتم به ويستحكم خصال ست: الإيثار بالمحبة. والمبالغة في الطلب. والتثبت في الاختيار. والاعتقاد للخير. وحسن الوعي. والتعهد لما اختير واعتقد. ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً .

أما المحبة فإنما يبلغ المرء مبلغ الفضل في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة حين يؤثر بمحبته فلا يكون شيء أمراً ولا أحلى عنده منه .

وأما الطلب فإن الناس لا يغنيهم حبهم ما يحبون وهوامهم ما يهوون عن طلبه وابتغائه ولا يدرك لهم بغيتهم نفاستها في أنفسهم دون الجهد والعمل. وأما التثبت والتخير فإن الطلب لا ينفع إلا معه وبه، فكم من طالب رشد وجده والغني معاً. فاصطفى منهما الذي منه هرب وألغى الذي إليه سعى. فإذا كان الطالب يحوي غير ما يريد وهو لا يشك بالظفر فما أحقه بشدة التبين وحسن الابتغاء. وأما اعتقاد الشيء بعد استبانته فهو ما يطلب من إحراز الفضل بعد معرفته. وأما الحفاظ والتعهد فهو تمام الدرك لأن الإنسان موكل به النسيان والغفلة فلا بد له إذا اجتنبى صواب قول أو فعل من أن يحفظه عليه ذهنه لأوان حاجته. وأما البصر بالموضع فإنما تصير المنافع كلها إلى وضع الأشياء مواضعها، وبنا إلى هذا كله حاجة شديدة فإننا لم نوضع في الدنيا موضع غناء وخفض ولكن موضع فاقة وكذ ولسنا إلى ما

يمسك بأرماقنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول. وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل. ولسنا بالكف في طلب المتاع الذي يلتمس به دفع الضر والعيلة بأحق منا بالكف في طلب العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا.

وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجليه أبصارها، وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله.

الواصفون أكثر من العارفين، والعارفون أكثر من الفاعلين. فليُنظر امرؤ أين يضع نفسه فإن لكل امرئ لم تدخل عليه آفة نصيباً من اللب يعيش به لا يحب أن له به من الدنيا ثمناً. وليس كل ذي نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى في ذوي الألباب ولا أن يوصف بصفاتهم. فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف أهلاً فليأخذ له عتاده وليعد له طول أيامه وليؤثر على أهوائه فإنه قد رام أمراً جسيماً لا يصلح على الغفلة ولا يدرك بالمعجزة ولا يصير على الأثرة، وليس كسائر أمور الدنيا وسلطانها ومالها وزيتها التي قد يدرك منها المتواني ما يفوت المثابر ويصيب منها العاجز ما يخطيء الحازم.

وليعلم أن على العاقل أموراً إذا ضيعها حكم عليه عقله بمقارنة الجهال. فعلى العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون مستوون في الحب لما يوافق والبغض لما يؤذي، وأن هذه منزلة اتفق عليها الحمقى والأكياس ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصال هن جماع الصواب وجماع الخطأ وعندهن تفرقت العلماء والجهال والحزمة والعجزة.

الباب الأول من ذلك أن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره فيعلم أن أحق ذلك بالطلب إن كان مما يجب وأحقه بالاتقاء إن كان مما يكره أطوله وأدومه وأبقاه ، فإذا هو قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا وفضل سرور المروءة على لذة الهوى وفضل الرأي الجامع العام الذي تصلح به الأنفس والأعقاب على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلاً ثم يضمحل وفضل الأكلات على الأكلة والساعات على الساعة .

والباب الثاني : هو أن ينظر فيما يؤثر من ذلك فيضع الرجاء والخوف فيه موضعه فلا يجعل اتقاءه لغير المخوف ولا رجاءه في غير المدرك . فيترك عاجل اللذات طلباً لأجلها ، ويحتمل قريب الأذى توقياً لبعيده فإذا صار إلى العاقبة بدا له أن قراره كان تورطاً وأن طلبه كان تنكباً .

والباب الثالث : من ذلك هو تنفيذ البصر بالعزم بعد المعرفة بفضل الذي هو أدوم ، وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف ، فإن طالب الفضل بغير بصر تائه حيران ومبصر الفضل بغير عزم ذو زمانة محروم . . . وعلى العاقل مخاصمة نفسه ومحاسبتها والقضاء عليها والإثابة لها والتكثير بها . .

أما المحاسبة فيحاسبها بما لها فإنه لا مال لها إلا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع إلى الحق فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال ، والشهر إذا انقضى واليوم إذا ولى فينظر فيما أفنى من ذلك وما كسب لنفسه فيه وما اكتسب عليها في أمر الدين وأمر الدنيا فيجمع ذلك في كتاب فيه إحصاء وجد وتذكير وتبكيك للنفس وتذليل لها حتى تعترف وتدعن .

وأما الخصومة فإن من طباع النفس الأمانة بالسوء أن تدعي المعاذير فيما مضى والأمانى فيما بقي فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها .

وأما القضاء فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحة

مردية موبقة وللحسنة بأنها زائنة منجية مربحة . وأما الإثابة والتنكيل فإنه يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ويرجو عواقبها وتأميل فضلها ويعاقب نفسه بالتذكر للسيئات والتبشع بها والإقشعرار منها والحزن لها .

فأفضل ذوي الألباب أشدهم لنفسه أخذاً وأقلهم عنها فترة . وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مراراً ذكراً يياشر به القلوب ويقذع الطماح فإن في كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر وأماناً بإذن الله من الهلع .

وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ويكلفها إصلاحه ويوظف ذلك عليها توظيفاً من إصلاح الخلة أو الخلتين والخلال في اليوم أو الجمعة أو الشهر، فكأما أصلح شيئاً محاه وكلما نظر إلى ثابت اكتأب .

وعلى العاقل أن يتفقد محاسن الناس ويحفظها ويحصيها ويصنع في توظيفها على نفسه وتعهدا بذلك مثل الذي وصفنا في إصلاح المساوي .

وعلى العاقل أن لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس ما استطاع إلا ذا فضل في الدين والعلم والأخلاق، فيأخذ عنه أو موافقاً له على إصلاح ذلك فيؤيد ما عنده، وإن لم يكن له عليه فضل فإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمهذبين والمؤيدين وليس لذي الفضل قريب ولا حميم هو أقرب إليه وأحب ممن وافقه على صالح الخصال فزاده وثبته، ولذلك زعم بعض الأولين أن صحبة بليد نشأ مع العلماء أحب إليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهال .

وعلى العاقل أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى وأن ينزل ما أصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب، وينزل ما طلب من ذلك ولم يدركه منزلة ما لم يطلب، ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها ولا

يبلغن سكرأً ولا طغياناً فإن مع السكر النسيان ومع الطغيان التهاون ومن نسي وتهاون خسر.

وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويجرثهم عليها حتى يصيروا حرساً على سمعه وبصره ورأيه، فيستنيم إلى ذلك ويريح له قلبه ويعلم أنهم لا يغفلون عنه إذا هو غفل عن نفسه .

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه أن لا يشغله شغل عن اربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخر، وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بلغة. وعلى العاقل أن لا يكون راغباً إلا في إحدى ثلاث خصال : تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم .

وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين مختلفتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين، فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللفظ والبذلة والمفاوضة ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحد من ألف كلهم ذو فضل في الرأي وثقة في المودة وأمانة في السر ووفاء بالإخاء .

وعلى العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزلل في العلم والاعفال في الأمور، فإن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً فإذا الصغير كبير، وإنما هي ثلم يثلمها العجز والتضييع فإذا لم تسد أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق ولم نر شيئاً قط إلا وقد أوتي من قبل الصغير المتهاون به .

قد رأينا الملك يؤتى من العدو المحتقر ورأينا الصحة تؤتى من الداء

الذي لا يحفل به ورأينا الأنهار تنبثق من الجدول الذي يستخف به وأقل الأمور احتمالاً للضياع الملك . لأنه ليس منه شيء يضيع وإن كان صغيراً إلا اتصل بآخر يكون عظيماً .

وعلى العاقل أن يجبن عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين . وعلى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان وأن من شأن الناس تسويق الرأي واسعاف الهوى فيخالف ذلك ويلتمس أن لا يزال هواه مسوّفاً ورأيه مسعفاً .

وعلى العاقل إذا اشتبه عليه امران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر اهما عنده فيحذره .

ومن نصب نفسه للناس إماماً في الدين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والأخذان ، فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه فإنه كما أن كلام الحكمة يونق الأسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم .

ولاية الناس بلاء عظيم .

وعلى الوالي أربع خصال هي أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت - الاجتهاد في التخير - والمبالغة في التقدم - والتعهد الشديد - والجزاء العتيد .

أما التخير للعمال والوزراء فإنه نظام الأمر ووضع مؤونة البعيد المنتشر، فإنه عسى ان يكون بتخيره رجلاً واحداً قد اختار الفأ لأنه من كان من العمال خياراً فسيختار كما اختير، ولعل عمال العامل وعمال عماله يبلغون عدداً كثيراً فمن تبين التخير فقد أخذ بسبب وثيق ومن اسس أمره على غير ذلك لم يجد لبنائه قواماً . وأما التقديم والتوكيل فإنه ليس كل ذي لب أو ذي أمانة يعرف وجوه الأمور والأعمال ولو كان بذلك عارفاً لم يكن صاحبه حقيقاً، أن يكل ذلك إلى علمه دون توقيفه عليه، وتبينه له والإحتجاج

عليه به، وأما التعهد فإن الوالي إذا فعل ذلك كان سميعاً بصيراً وأن العامل إذا فعل ذلك به كان متحصناً حريزاً وأما الجراء فإنه تثبيت المحسن والراحة من المسيء .

لا يستطيع السلطان إلا بالوزراء والأعوان ولا ينفع الوزراء إلا بالموودة والنصيحة ولا الموودة إلا مع الرأي والعفاف، وأعمال السلطان كثيرة وقلما تستجمع الخصال المحمودة عند أحد، وإنما الوجه في ذلك والسبيل الذي يستقيم به العمل أن يكون صاحب السلطان عالماً بأمر من يريد الاستعانة به وما عند كل رجل من الرأي والغناء، وما فيه من العيوب فإذا استقر ذلك عنده عن علمه وعلم من ياتمن وجهه لكل عمل من قد عرف أن عنده من الرأي والنجدة والأمانة ما يحتاج إليه فيه، وإن ما فيه من العيوب لا يضر بذلك ويتحفظ من أن يوجه أحداً وجهاً لا يحتاج فيه إلى مروءة إن كانت عنده ولا يأمن عيوبه وما يكره منه .

ثم على الملوك بعد ذلك تعهد عمالهم وتفقد أمورهم حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ولا إساءة مسيء .

ثم عليهم بعد ذلك أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يقرؤا مسيئاً ولا عاجزاً على الإساءة والعجز، فإنهم إن تركوا ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وفسد الأمر وضاع العمل . اقتصار السعي أبقى للجمام^(١) وفي بعد الهمة يكون النصب ومن سأل فوق قدره استحق الحرمان .

سوء حمل الغنى أن يكون عد الفرح مرحباً . وسوء حمل الفاقة أن يكون عند الطلب شراً . وعار الفقر أهون من عار الغنى، والحاجة مع المحبة خير من الغنى مع البغضة . والدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان عليك لم تدفعه بقوتك . إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وأبين في المعنى وأتق للسمع وأوسع لشعوب الحديث .

(١) الجمام : الراحة .

أشد الفاقة عدم العقل . وأشد الوحدة وحدة اللجوج . ولا مال أفضل من العقل . ولا أنس أنس من الإستشارة ، ومما يعتبر به صلاح الصالح وحسن نظره للناس أن يكون إذا استعتب المذنب ستوراً لا يشيع ولا يذيع ، وإذا استشير سمحاً بالنصيحة مجتهداً للرأي وإذا استشار مطرحاً للحياء معترفاً للحق .

القسم الذي يقسم للناس ويمتعون به نحوان فمنه حارس ومنه محروس فالحارس العقل والمحروس المال .

والعقل بإذن الله هو الذي يحرز الحظ ويؤنس الغربة وينفي الفاقة ويعرف النكرة ويثمر المكسبة ويطيب الثمرة ويوجه السوقة عند السلطان ويستنزل للسلطان نصيحة السوقة ويكسب الصديق وينفي العدو .

كلام اللبيب وإن كان نزرأ أدب عظيم ، ومقارفة المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة ولقاء الأخوان وإن كان يسيراً غنم حسن .

قد يسعى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثيراً ، أما الصالح فمدعو وأما الطالح فمقتحم وأما ذو الأدب فطالب ، وأما من لا أدب له فمحتبس وأما القوي فمدافع وأما الضعيف فمدفوع ، وأما المحسن فمستثب وأما المسيء فمستجير . . فهو مجمع البر والفاجر والعالم والجاهل والشريف والوضيع .

الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولون في أمورهم فقائلهم باغ - وسامعهم عياب - وسائلهم متعنت - ومجيهم متكلف - وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل - وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف - والأمين منهم غير متحفظ من إتيان الخيانة - وذو الصدق غير محترس من حديث الكذبة - وذو الدين غير متورع عن تفریط الفجرة - والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر . . . يتناقضون البنى - ويترقبون الدول - ويتعاطون القبيح - ويتعابون بالغمز - مولعون في الرخاء بالتحاسد - وفي الشدة بالتخاذل .

كم قد انترعت الدنيا ممن قد استمكن منها واعتكفت له فأصبحت

الأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم، وأخذ متاعهم من لم يحمدهم وخرجوا إلى من لا يعذرهم، فأصبحنا خلفاً من بعدهم نتوقع مثل الذي نزل بهم فنحن إذا تدبرنا أمورهم أحقاء أن ننظر ما نغبطهم به فتبعه وما نخاف عليهم منه فنجتنبه .

كان يقال إن الله تعالى قد يأمر بالشيء ويبتلي بثقله وينهى عن الشيء ويبتلي بشهوته، فإذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيت ولا تترك من الشر إلا ما كرهت فقد أطلعت الشيطان على عورتك وامكنته من رمتك فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرهه إليك، وفيما تكره من الشر فيحببه إليك. ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل على ما يستثقل منه، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما تحب منه .

الدنيا زخرف يغلب الجوارح ما لم تُغلبه الأبواب، والحكيم من يغضي عنه طرفه ولم يشغل به قلبه، أطلع من أدناه فيما وراءه وذكر في بدئه لواحق شره، فأكل مره وشرب كدره ليحلولي له، ويصفو في طول من إقامة العيش الذي يبقى ويدوم غير عائف للرشد، إن لم يلقيه برضاه ولم يأتته من طريق هواه .

لا تألف المستوحم، ولا تقم على غير الثقة، قد بلغ فضل الله على الناس من السعة وبلغت نعمته عليهم من السبوغ ما لو أن أحسهم حظاً وأقلهم منه نصيباً وأضعفهم علماً وأعجزهم عملاً وأعياهم لساناً بلغ من الشكر له والثناء عليه بما خلص إليه من فضله ووصل إليه من نعمته، ما بلغ له منه أعظمهم حظاً وأوفرهم نصيباً وأفضلهم علماً وأقواهم عملاً وأبسطهم لساناً لكان عما استوجب الله عليه مقصراً وعن بلوغ غاية الشكر بعيداً، ومن أخذ بحظه من شكر الله وحمده ومعرفة نعمه والثناء عليه والتحميد له فقد استوجب بذلك من أدائه إلى الله والقربة عنده والوسيلة إليه والمزيد فيما شكره عليه خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

أفضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح أن يستصلح بما

أوتي من ذلك من استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكمته، والعمل بطاعته والرجاء لحسن ثوابه في المعاد إليه وأن يبين الذي لهم من الأخذ بذلك والذي عليهم في تركه، وأن يورث ذلك أهله ومعارفه ليلحقه أجره من بعد الموت .

الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى إلى خلقه وأعظمها منفعة وأحمدها في كل حكمة، فقد بلغ فضل الدين والحكمة أن مدحاً على ألسنة الجهال، على جهالتهم بهما وعماهم عنهما .

أحق الناس بالسلطان أهل المعرفة وأحقهم بالتدبير العلماء وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله، وأحقهم بالعلم أحسنهم تأديباً وأحقهم بالغنى أهل الجود، وأقربهم إلى الله أنفذهم في الحق علماً وأكملهم به عملاً، وأحكمهم أبعدهم من الشك في الله تعالى، وأصوبهم رجاء أوثقهم بالله وأشدهم انتفاعاً بعلمه أبعدهم من الأذى وأرضاهم في الناس أفشاهم معروفاً وأقواهم أحسنهم معونة وأشجعهم أشدهم على الشيطان وأفلجهم بالحجة أغلبهم للشهوة والحرص، وآخذهم بالرأي أتركهم للهوى وأحقهم بالمودة أشدهم لنفسه حباً وأجودهم أصوبهم بالعطية موضعاً وأطولهم راحة أحسنهم للأمر احتمالاً وأقلهم دهشاً أرحبهم ذراعاً. وأوسعهم غنى أقنعهم بما أوتي. وأخفضهم عيشاً أبعدهم من الإفراط وأظهرهم جمالاً أظهرهم حصافة .

وآمنهم في الناس آكلهم ناباً ومخلباً .

وأثبتهم شهادة عليهم أنطقهم عنهم .

وأعدلهم فيهم أدومهم مسالمة لهم .

وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها .

أفضل ما يورث الآباء الأبناء الثناء الحسن والأدب النافع والأخوان الصالحون .

فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالإيمان، وأن الرأي يثبت بالخصومة فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً ومن جعل الرأي ديناً فقد صار شارعاً ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له .

قد يشبهه الدين والرأي في أماكن لولا تشابههما لم يحتاجا إلى الفصل .

العجب آفة العقل واللجاجة قعود الهوى .

والبخل لقاح الحرص والمرء فساد اللسان والحمية سبب الجهل والأنف توأم السفه والمنافسة أخت العداوة .

إذا هممت بخير فبادر هواك لا يغلبك وإذا هممت بشر فسوّف هواك لعلك تظفر فإن ما مضى من الأيام والساعات على ذلك هو الغنم .

لا يمنعك صغر شأن امرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صواباً والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريماً فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها .

من أبواب الترفق والتوفيق في التعليم أن يكون وجه الرجل الذي يتوجه فيه العلم والأدب فيما يوافق طاعة ويكون له عنده محمل وقبول، فلا يذهب عناؤه في غير غناء ولا تفنى أيامه في غير درك ولا يستفرغ نصيبه فيما لا ينجع فيه، ولا يكون كرجل أراد أن يعمر أرضاً تهمة^(١) فغرسها جوزاً ولوزاً . . وأرضاً جلساً^(٢) فغرسها نخلاً وموزاً .

العلم زين لصاحبه في الرخاء ومنجاة له في الشدة .

بالأدب تعمر القلوب وبالعلم تستحكم الأحلام، فالعقل الذاتي غير الصنيع كالأرض الطيبة الخراب . ومما يدل على معرفة الله (وهو) سبب

(١) تهمة: الأرض المنصوبة إلى البحر.

(٢) المجلس: الأرض الغليظة

الإيمان أن يوكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا صغير أو كبير عيناً فهو يصرفه ويحركه، فمن كان معتبراً بالجليل من ذلك فليُنظر إلى السماء فيعلم أن لها رباً يجري فلُكها ويدبر أمرها ومن اعتبر بالصغير فليُنظر إلى حبة الخردل فيعرف أن لها مدبراً ينبتها ويزكيها ويقدر لها أوقاتها من الأرض والماء يوقت لها زمان نباتها وزمان تهشمها. وأمر النبوة والأحلام وما يحدث في أنفس الناس من حيث لا يعلمون ثم يظهر منهم بالقول والفعل، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على ذكر الله تعالى وتعظيمه واجتماع من شك في الله تعالى وكذب به على الإقرار بأنهم أنشأوا حديثاً ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم. فكل ذلك يهدي إلى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور مع ما يزيد ذلك يقيناً عند المؤمنين بأن الله حق كبير ولا يقدر أحد أنه باطل.

إن للسلطان المقسط حقاً لا يصلح لخاصة ولا عامة أمر إلا بإرادته، فذو اللب حقيق أن يخلص لهم النصيحة ويبذل لهم الطاعة ويكتم سرهم ويزين سيرتهم ويذب بلسانه ويده عنهم، ويتوخى مرضاتهم ويكون من أمره المواتاة لهم والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه ويقدر الأمور على موافقتهم وإن كان ذلك له مخالفاً، وأن يكون منه الجد في المخالفة لمن جانبهم وجهل حقهم ولا يواصل من الناس إلا من لا تباعد مواصلته إياه منهم، ولا تحمله عداوة أحد له ولا إضرار به على الاضطغان عليهم ولا مواتاة أحد على الإستخفاف بشيء من أمورهم والانتقاص لشيء من حقهم، ولا يكتنهم شيئاً من نصيحتهم ولا يتثقل عن شيء من طاعتهم ولا يبطر إذا أكرموه ولا يجترى عليهم إذا قربوه، ولا يطغى إذا سلطوه ولا يلحف إذا سألهم ولا يدخل عليهم المؤونة ولا يستثقل ما حملوه ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه وأن يحمدهم على ما أصاب من خير منهم أو من غيرهم فإنه لا يقدر أحد على أن يصيبه بخير إلا بدفاع الله عنه بهم.

مما يدل على علم العالم معرفته بما يدرك من الأمور وإمساكه عما لا

يدرك وتزيينه نفسه بالمكارم وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عجب، ومعرفته بزمانه الذي هو فيه وبصره بالناس وأخذه بالقسط وإرشاده المسترشد وحسن مخالفته خلطاءه، وتسويته بين قلبه ولسانه وتحريه العدل في كل امر ورحب ذرعه فيما نابيه واحتجابه بالحجج فيما عمل وحسن تبصيره من أراد أن يبصر شيئاً من علم الآخرة فبالعلم الذي به يعرف ذلك .

ومن أراد أن يبصر شيئاً من علم الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه .

ليكن المرء سؤولاً وليكن فصولاً بين الحق والباطل، وليكن صدوقاً ليؤمن على ما قال، وليكن ذا عهد ليوفى له بعده، وليكن شكوراً ليستوجب الزيادة، وليكن جواداً ليكون للخير أهلاً وليكن رحيماً بالمضرورين لئلا يتلى بالضر، وليكن ودوداً لئلا يكون معدناً لأخلاق الشيطان .

وليكن حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه لئلا يؤخذ بما لم يجترم، وليكن متواضعاً ليفرح له بالخير ولا يحسد عليه، وليكن قنعاً لتقر عينه بما أوتي وليسر للناس بالخير لئلا يؤذيه الحسد .

وليكن حذراً لئلا تطول مخافته .

ولا يكن حقوداً لئلا يضر بنفسه أضراراً باقياً .

وليكن ذا حياء لئلا يستندم للعلماء فإن مخافة العالم مذمة العلماء أشد من مخافته عقوبة السلطان . حياة الشيطان ترك العلم وروحه وجسده الجهل، ومعدنه في أهل الحقد والقساوة ومثواه في أهل الغضب، وعيشه في المصارمة ورجاؤه في الإصرار على الذنوب .

وقال: لا ينبغي للمرء أن يعتد بعلمه ورأيه ما لم يذكره ذوو الألباب ولم يجامعه عليه فإنه لا يستكمل علم الأشياء بالعقل الفرد .

أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك .

وأنتفع العقل أن تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير، وإلا تكثرت من الشر بما لم يصيبك ومن العلم أن تعلم أنك لا تعلم بما لا تعلم .

ومن أحسن ذوي العقول عقلاً من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاذه تقديراً لا يفسد عليه واحد منهما الآخر فإن أعياه ذلك رفض الأدنى وآثر عليه الأعظم .

وقال: المؤمن بشيء من الأشياء وإن كان سحراً خيراً ممن لا يؤمن بشيء ولا يرجو معاداً، لا تؤدي التوبة أحداً إلى النار ولا الإصرار على الذنوب أحداً إلى الجنة .

من أفضل أعمال البر ثلاث خصال: الصدق في الغضب والجود في العسرة، والعفو عند المقدرة، رأس الذنوب الكذب . . هو يؤسسها وهو يتفقدتها ويشبها ويتلون ثلاثة ألوان بالأمنية والجحود والجدل، يبدأ صاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزين له من السوءات فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى . فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة فإن أعياه ذلك ختم بالجدل فخاصم عن الباطل ووضع له الحجج والتمس به التثبت وكابر به الحق حتى يكون مسارعاً للضلالة ومكابراً بالفواحش .

لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبداً ولكنه لا يزال إماماً زائداً وإماماً ناقصاً .

من علامات اللئيم المخادع أن يكون حسن القول سيء الفعل بعيد الغضب قريب الحسد حمولاً للفحش، مجازياً بالحقد متكلفاً للجود صغير الخطر متوسعاً فيما ليس له ضيقاً فيما يملك .

وكان يقال: إذا تخالجتك الأمور فاستقل اعظمها خطراً فإن لم يستبن ذلك فأرجاها دركا، فإن اشبهه ذلك فأجدرها أن لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته .

وكان يقال: الرجال أربعة: إثنان يختبر ما عندهما بالتجربة، وإثنان قد كفت تجربتهما، فأما اللذان يحتاج إلى تجربتهما فإن أحدهما برٌّ كان

مع أبرار والآخر فاجر كان مع فجار، فإنك لا تدري لعل البر منهما إذا خالط
الفجار أن يتبدل فيصير فاجراً، وعلل الفاجر منهما إذا خالط الأبرار أن يتبدل
فيصير براً فيتبدل البر فاجراً والفاجر براً .

وأما اللذان قد كفيت تجربتهما وتبين لك ضوء أمرهما فإن أحدهما
فاجر كان في أبرار والآخر بر كان في فجار .

حق على العاقل أن يتخذ مرآتين فينظر من إحدهما في مساوىء نفسه
فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها وينظر من الأخرى، في محاسن الناس
فيحليهم بها ويأخذ ما استطاع منها .

إحذر خصومة الأهل والولد والصديق والضعيف واحتج عليهم
بالحجج .

لا يوقعنك بلاء تخلصت منه في آخر لعلك أن لا تخلص منه .

الورع لا يخدع والأريب لا يُخدع .

ومن ورع الرجل أن لا يقول ما لا يعلم ومن الإرب^(١) أن يتثبت فيما
يعلم .

وكان يقال عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف
وتركه العمل بما يعلم أنه صواب تهاون والتهاون آفة الدين .

وإقدامه على ما لا يدري . . أصواب هو أم خطأ جماع^(٢) والجماع
آفة العقل .

وكان يقال وقر من فوقك وَلِنْ لِمَن دُونَكَ وَأَحْسِن مَوَاتَاةَ أَكْفَائِكَ
وليكن أثر ذلك عندك مواتاة الأكفاء فإن ذلك هو الذي يشهد لك إن إجلالك

(١) الدهاء

(٢) التماذي في الغواية .

من فوقك ليس بخضوع منك لهم، وأن لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم .

خمسة مفردون في خمسة أشياء يندمون عليها: الواهن المفرط إذا فاته العمل والمنقطع من إخوانه وصديقه إذا نابته النوائب، والمستمكن منه عدوه لسوء رأيه إذا تذاكر عجزه والمفارق الزوجة الصالحة إذا ابتلي بالطالحة، والجريء على الذنوب إذا حضره الموت .

أمور لا تصلح إلا بقرائنها لا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحسب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن ولا الغنى بغير جود ولا المروءة بغير تواضع ولا الخفض بغير كفاية ولا الاجتهاد بغير توفيق .

أمورهن تبع لأمرهن: فالمرءات تبعن للعقل والرأي تبعن للتجربة والغلبة تبع لحسن الشاء والسرور تبع للأمن والقربة تبع للمودة والجدة تبع للإفناق .

أصل العقل الثبت وثمرته السلامة .

وأصل الورع القناعة وثمرته الظفر .

وأصل التوفيق العمل وثمرته النجاح .

لا يذكر الفاجر في العقلاء ولا الكذوب في الأعفَاء، ولا الخذول في الكرماء ولا الكفور بشيء من الخير .

لا تؤاخين خبياً ولا تستنصرن عاجزاً ولا تستعينن كسلاً .

إن من أعظم ما يروح به المرء نفسه أن لا يجري لما يهوى وليس كائناً إلا لما لا يهوى وهو لا محالة كائن .

اغتنم من الخير ما تعجلت ومن الأهواء ما سوفت، ومن النصب ما عاد عليك، ولا تفرح بالبطالة ولا تجبن عن العمل .

من استعظم من الدنيا شيئاً فبطر واستصغر من الدنيا شيئاً فتهاون واحتقر من الإثم شيئاً فاجترأ عليه واغتر بعدو وإن قل فلم يحذره فذلك من ضياع العقل .

لا يستخف ذو العقل بأحد وأحق من لم يستخف به ثلاثة: الأتقياء والولاة والأخوان، فإنه من استخف بالأتقياء أهلك دينه، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه، ومن استخف بالأخوان أفسد مروءته .

من حاول الأمور احتاج فيها إلى ست: الرأي والتوفيق والفرصة والأعوان والأدب والاجتهاد. وهن أزواج فالرأي والأدب زوج لا يكمل الأدب إلا بالرأي ولا يكمل الرأي بغير الأدب .

والأعوان والفرصة زوج، لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة ولا تنفع الفرصة إلا بحضور الأعوان. والتوفيق والاجتهاد زوج فالاجتهاد سبب التوفيق وبالتوفيق ينجح الاجتهاد .

يسلم العاقل من عظام الذنوب والعيوب بالقناعة ومحاسبة النفس .

لا تجد العاقل يحدث من يخاف تكذبه ولا يسأل من يخاف منعه ولا يعد ما لا يجد إنجازه، ولا يرجو ما يعنف برجائه ولا يقدم على ما يخاف العجز عنه، وهو يسخرى بنفسه عما يغبط به القوالون خروجاً من عيب التكذيب، ويسخرى بنفسه عما ينال به السائلون سلامة من مذلة المسألة .

ويسخرى بنفسه عن فرح الرجاء خوف الإكداء .

ويسخرى بنفسه عن محمدة المواعيد براءة من مذمة الخلف .

ويسخرى بنفسه عن مراتب المقدمين ما يرى من فضائح المقصرين .

ويسخرى بنفسه عن فرح الرجاء .

لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها .

حاز الخير رجلاً سعيد ومرجواً، والسعيد الفالح والمرجواً من لم يخضم، والفالح الصالح ما دام في قيد الحياة وتعرض الفتن في مخاصمة الخصماء من الأهواء والأعداء .

السعيد يرغبه الله في الآخرة حتى يقول: لا شيء غيرها فإذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا، ولم ينقصه من سروره فيها والشقي يرغبه الشيطان في الدنيا حتى يقول: لا شيء غيرها فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقي بعدها .

الرجال: أربعة جواد وبخيل ومسرف ومقتصد . فالجواد الذي يوجه نصيب آخرته ونصيب دنياه جميعاً في أمر آخرته .

والبخيل الذي لا يعطي واحدة منهما نصيبها .

والمسرف الذي يجمعهما لدنياه .

والمقتصد الذي يلحق بكل واحدة منهما نصيبها .

أغنى الناس أكثرهم إحساناً .

قال رجل لحكيم: ما يؤتى المرء؟ قال: غريزة عقل . قال: فإن لم تكن، قال: فتعلم علم . قال: فإن حرمه . قال: صدق اللسان، قال: فإن حرمه، قال: سكت طويل . قال: فإن حرمه . مية عاجلة .

من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه فإنه من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفي عليه عيب نفسه ومحاسن غيره لم يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصرها أبداً .

خصال يسر بها الجاهل . . كلها كائن عليه وبالاً: منها أن يفخر من العلم والمروءة بما ليس عنده، ومنها أن يرى بالأخيار من الإستهانة والجفوة ما يشتمه بهم .

أن يناقل^(١) عالماً وديعاً منصفاً له في القول فيشتد صوت ذلك الجاهل عليه، ثم يُفلجه^(٢) نظراؤه من الجهال حوله بشدة الصوت وكثرة الضحك .
ومنها أن تفرط منه الكلمة أو الفعل المعجبة للقوم فيذكر بها .
ومنها أن يكون مجلسه في المحفل أو عند السلطان فوق مجالس أهل الفضل عليه .

من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول، أو يجاذب الرجل الكلام وهو يكلم صاحبه ليكون هو المتكلم، أو يتمنى أن يكون صاحبه قد فرغ وأنصت له فإذا أنصت له لم يحسن الكلام .

فضل العلم في غير الدين مهلكة وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد إلى النار .

والحفظ الذكي الوعي بغير العلم النافع مضر بالعمل الصالح والعقل غير الوازع عن الذنوب خازن للشيطان .

لا يؤمنك شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا إلف . . فإن أخوف ما يكون الإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها، وكذلك الجاهل إن جاورك انصبك وإن ناسبك جنى عليك وإن ألك حمل عليك ما لا تطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك مع أنه عند الجوع سبع ضار وعند الشبع ملك فظ وعند الموافقة في الدين قائد إلى جهنم فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأسود والحريق المخوف والدين الفادح والداء العياء .

كان يقال قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك ولا تقاربه كل المقاربة فيجترىء عليك عدوك وتذل نفسك ويرغب عنك ناصرك، ومثل

(١) المناقلة : المحادثة .

(٢) يفلجه : ينصره .

ذلك مثل العود المنصوب في الشمس إن أملته قليلاً زاد ظله وإن جاوزت الحد في إمالته نقص الظل .

الحازم لا يأمن عدوه على كل حال . . إن كان بعيداً لم يأمن من معاودته وإن كان قريباً لم يأمن موابته فإن رآه منكشفاً لم يأمن استطراده وكمينه وإن رآه وحيداً لم يأمن مكره .

الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة، كما يزداد البحر بمواده من الأنهار .

الظفر بالحزم . والحزم بإجالة الرأي . والرأي بتكرار النظر وبتحصين الأسرار .

إن المستشار وإن كان أفضل من المستشار رأياً فهو يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالودك - المواد الشحمية - ضوءاً وعلى المستشار موافقة المستشار على صواب ما يرى والرفق به في تبصير خطأه إن أتى به وتقليب الرأي فيما شكاه فيه حتى تستقيم لهما مشاورتهما .

لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء ولا الخب في كثرة الصديق ولا السوء الأدب في الشرف ولا الشحيح في المحمدة ولا الحريص في الأخوان ولا الملك المعجب بثبات الملك .

صرعة اللين أشد استئصالاً من صرعة المكابرة .

أربعة أشياء لا يستقل منها قليل : النار والمرض والعدو والدين .

أحق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بالأمر وفرص الأعمال ومواقع الشدة واللين والغضب والرضا والمعالجة والأناة الناظر في الأمر يومه وغده وعواقب أعماله .

السبب الذي يدرك به العاجز حاجته هو الذي يحول بين الحازم وبين طلبته .

إن أهل العقل والكرم يتغون إلى كل معروف وصلة وسبيلاً والمودة

بين الأختيار سريع اتصالها بطيء إنقطاعها ومثل ذلك مثل كوب الذهب الذي هو بطيء الإنكسار هين الإصلاح، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ثم لا وصل له أبداً .

والكريم يمنح الرجل مودته عن لقاء واحدة أو معرفة يوم واللثيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة ، وإن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما ذات النفس وذات اليد، فأما المتبازلون ذات اليد فهم المتعاونون المستمتعون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض متاجرة ومكايلة .

ما التبع والأعوان والصديق والحشم إلا للمال . ولا يظهر المروءة إلا المال، ولا الرأي والقوة إلا بالمال، ومن لا إخوان له فلا أهل له، ومن لا أولاد له فلا ذكر له، ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة، ومن لا مال له فلا شيء له، والفقر داعية إلى صاحبه مقت الناس، وهو مسلبة للعقل والمروءة ومذهبة للعلم والأدب ومعدن للتهمة ومجمعة للبلايا، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدأً من ترك الحياء ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره مقت ومن مقت أودي، ومن أودي حزن، ومن حزن ذهب عقله واستنكر حفظه وفهمه، ومن أصيب في عقله وفهمه وحفظه كان أكثر قوله وعمله فيما يكون عليه لا له . فإذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان يظن به حسناً فإن أذنب غيره أظنوه، وإن كان للتهمة وسوء الظن موضعاً وليس خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب .

فإن كان شجاعاً سمي أهوج .

وإن كان جواداً سمي مفسداً .

وإن كان حليماً سمي ضعيفاً .

وإن كان وقوراً سمي بليداً .

وإن كان لسناً سمي مهذاراً .

وإن كان صموتاً سمي عيباً .

وكان يقال: من ابتلي بمرض في جسده لا يفارقه أو بفراق الأحبة والأخوان أو بالغبرة حيث لا يعرف مبيتاً ولا مقيلاً ولا يرجو إياباً، أو بفاقة تضطره إلى المسألة فالحياة له موت والموت له راحة .

وجدنا البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى أهلها الحرص والشره فلا يزال صاحب الدنيا ينقلب في بلية وتعب لانه لا يزال بخلة الحرص والشره وسمعت العلماء قالوا:

« لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق. ولا غنى كالرضى . وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى تغييره . وأفضل البر الرحمة . ورأس المودة الإسترسال . ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون . وطيب النفس حسن الإنصراف عما لا سبيل إليه . وليس في الدنيا سرور يعدل صحبة الأخوان . ولا فيها غمٌ يعدل غمٌ فقدهم .

لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل . كالمريض الذي قد علم دواء نفسه: فإذا هو لم يتداو به لم يغنه علمه .

الرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال . كالأسد الذي يهاب وإن كان عقيراً^(١) .

والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وإن هو طوق وخُلخل .

ليحسن تعاهدك نفسك بما تكون به للخير أهلاً . فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك . كما يطلب الماء السيل إلى الحدور .

(١) أي جريحاً . والعقير هو المعقورة أي المحصودة قوائمها كلها أو بعضها يقال ناقة عقير وجمل عقير . كان العرب إذا أرادوا نحر بعير عقروه أي قطعوا أحد قوائمه ثم نحروه . يفعلون ذلك به لثلا يشرد عند النحر .

وقيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمامة . وخلة^(١)
الأشرار . وعشق النساء والنبأ الكاذب . والمال الكثير .

وليس بفرح العاقل بالمال الكثير . ولا يحزنه قلته . ولكن ماله عقله
وما قدم من صالح عمله .

إن أولى الناس بفضل السرور وكرم العيش وحسن الثناء من لا يبرح
رحله^(٢) من إخوانه وأصدقائه من الصالحين موطوءاً، ولا يزال عنده منهم
زحام، يسرهم ويسرونه، ويكون من وراء حاجاتهم وأمورهم فإن الكريم إذا
عثر لم يستقل إلا بالكرام، كالفيل إذا وحل لم يستخرجه إلا الفيلة .

لا يرى العاقل معروفاً صنعه، وإن كان كثيراً . ولو خاطر بنفسه
وعرضها في وجوه المعروف، لم ير ذلك عيباً . بل يعلم أنه إنما أخطر
الفاني بالباقي، واشترى العظيم بالصغير .

وأغضب الناس عند ذوي العقل أكثرهم سائلاً منجحاً ومستجيراً آمناً .

لا تعد غنياً من لم يشارك في ماله، ولا تعد نعيماً ما كان فيه تنغيص
وسوء ثناء . ولا تعد الغنم غنماً إذا ساق غُرمًا . ولا الغرم غرمًا إذا ساق غنماً
ولا تعتد من الحياة ما كان في فراق الأحبة .

ومن المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الأخ أخاه .
وإفضاء كل واحد منهما إلى صاحبه بيته .

وإذا فُرق بين الأليف وأليفه فقد سلب قراره وحرم سروره .

وقل ما ترانا نخلف عقبة من البلاء إلا صرنا في أخرى .

لقد صدق القائل الذي يقول: لا يزال الرجل مستمراً ما لم يعثر، فإذا

(١) الخلة: الصداقة .

(٢) الرحل : هنا مسكن الرجل ومنزلته وبيته .

عشر مرة واحدة في أرض الخبار^(١) لجَّ به العثار، وإن مشى في جدد^(٢) . . .
لأن هذا الإنسان موكل به البلاء . فلا يزال في تصرف وتقلب لا يدوم له
شيء ولا يثبت معه . كما لا يدوم لطالع النجوم طلوعه ولا لآفلها أفوله .
ولكنها في تقلب وتعاقب : فلا يزال الطالع يكون آفلاً . والآفل طالعاً .

(١) الخبار : الأرض السهلة اللينة التي تكثر فيها الحفر فتتهور فيها الأقدام وتسوخ فيها القوائم
فكلما سار فيها إنسان أو حيوان سقط ثم قام وهكذا . وفي الحديث الشريف : فدفعنا في
خبار من الأرض . ومن أمثال العرب : من تجنب الخبار أمن العثار .
(٢) الجدد : الأرض المستوية .

بسم الله الرحمن الرحيم رسالة ابن المقفع في الصحابة

أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والإستماع كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العجب والإستغناء، ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلفظ له من الفحص عن أمورهم كما كان أولئك يكتفون بالدعة ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر في الامتناع أن يجترىء عليهم أحد برأي أو خبر مع تسليط الديان .

وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله ومكن له في الأرض وأتاه ملكه وخزائنها من أن يشغل نفسه بالتمنع والتفيش^(١) والتأثل والإتلاد، وأن يرضى ممن آوى بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانته ذلك واستصغاره إياه، وذلك من أبين علامات السعادة وأنجح الأعوان على الخير . . . وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الأحاديث وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته . . . أثنى على الله عز وجل بنعمته . . . ثم سلا عما كان فيه وعرف أن الموت وما بعده هو أولى فقال : توفي مسلماً وألحقني بالصالحين .

وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على

(١) الكبير والادلال .

مبادرته بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى إليه ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبراً ومذكراً. وكل عند أمير المؤمنين مصبول إن شاء الله مع أن مما يزيد ذوي الألباب نشاطاً إلى إعمال الرأي فيما يصلح الله به الأمة في يومها أو غابر دهرها الذي أصبحوا قد طمعوا فيه .

ولعل ذلك أن يكون على يدي أمير المؤمنين فإن مع الطمع الجذوم مع اليأس القنوط . وقلما ضعف الرجاء إلا ذهب الرخاء . وطلب المويّس عجز وطلب الطامع حزم . ولم ندرك الناس نحن وأباؤنا إلا وهم يرون فيها خلاً لا يقطع الرأي ويمسك بالأفواه من حال والٍ لم يهمله الإصلاح أو أهمه ذلك ولم يثق فيه بفضل رأي، أو كان ذا رأي ليس مع رأيه صول بصرامة أو حزم، أو كان ذلك استثارةً منه على الناس بنشب أو قلة تقدم لما يجمع أو يقسم، أو حال أعوان يتلى بهم الولاية ليسوا على الخير بأعوان، وليس له إلى اقتلاعهم سبيل لمكانهم من الأمر ومخافة الدول والفساد أن هو هاجهم أو انتقص ما في أيديهم، أو حال رعية متزرة ليس لها من أمرها النصف في نفسها . . فإن أخذت بالشدة حميت وإن أخذت باللين طغت .

وكل هذه الخلائق قد طهر الله منها أمير المؤمنين فاتاه الله ما آتاه في نيته ومقدرته وعزمه، ثم لم يزل يرى ذلك منه الناس حتى عرفه منه جهالهم فضلاً عن علمائهم . وصنع الله لأمر المؤمنين ألطف الصنع في اقتلاع من كان يشركه في أمره على غير طريقته ورأيه حتى أراحه الله وآمنه منهم بما جعلوا من الحجّة والسبيل على أنفسهم وما قوى الله عليه أمير المؤمنين في رأيه واتباعه مرضاته، وأذل الله لأمر المؤمنين رعيته بما جمع له من اللين والعفو فإن لان لأحد منهم ففي الألحان له شهيد على أن ذلك ليس بضعف ولا مصانعة، وإن اشتد على أحد منهم ففي العفو شهيد على أن ذلك ليس بعنف ولا خرق مع أمور سوى ذلك فكف عن ذكرها كراهة أن يكون كأننا نصبنا للمدح . فما أخلق هذه الأشياء أن تكون عتاداً لكل جسيم من الخير في الدنيا والآخرة واليوم والغد والخاصة والعامة . وما أرجانا لأن يكون أمير المؤمنين بما أصلح الله الأمة من بعده أشد اهتماماً من بعض الولاية بما

يصلح رعيته في سلطانه، وما اشد ما قد استبان لنا أن أمير المؤمنين أطول بأمر الأمة عناية ولها نظراً وتقديراً من الرجل منا بخاصة أهله ففي دون هذا ما يثبت الأمل وينشط للعمل ولا قوة إلا بالله والله الحمد وعلى الله التمام .

فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين أمتع الله به، أمر هذا الجند من أهل خراسان فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام وفيهم منعة بها يتم فضيلهم إن شاء الله . أما هم فأهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وعفاف نفوس وفروج وكف عن الفساد وذل للولاة فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم .

وأما ما يحتاجون فيه إلى التأديب من ذلك تقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم فإن في ذلك القوم أخلاقاً من رأس مفروط غال وتابع متحير شك . ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة . . فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب أشد وجلًا .

فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يعملوا فيه أو يكفوا عنه بالغاً في الحجة قاصراً عن الغلو يحفظه رؤسائهم حتى يقودوا به دهماءهم ويتعهدوا به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً وعلى من سواهم حجة وعند الله عذراً .

فإن كثيراً من المتكلمين من قواد أمير المؤمنين اليوم إنما عامة كلامهم فيما يأمر الأمر ويرغم الراغم وأن أمير المؤمنين لو أمر الجبال أن تسير سارت ولو أمر أن تستدبر القبلة بالصلاة فعل ذلك، وهذا كلام قلما يرتضيه . من كان مخالفاً، وقلما يرد في سمع السامع إلا أحدث في قلبه ريبة وشكاً، والذي يقول أهل القصد من المسلمين هو أقوى للأمر وأعز للسلطان وأقمع للمخالف، وأرضى للموافق وأثبت للعذر عند الله عز وجل .

فإننا قد سمعنا فريقاً من الناس يقولون: لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق. بنوا قولهم هذا بناءً معوجاً فقالوا: إن أمرنا الإمام بمعصية الله فهو أهل ان يعصى. . وإن أمرنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن يطاع. فإذا كان الإمام يعصى في المعصية وكان غير الإمام يطاع في الطاعة فالإمام ومن سواه على حق الطاعة سواء. وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذريعة إلى خلع الطاعة والذي فيه أمنيته لئلا يكون للناس نظائر ولا يقوم بأمرهم إمام ولا يكون على عدوهم منهم ثقل .

سمعنا آخرين يقولون . . بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته، ولا يكون أحد منا عليهم حسيباً . . . هم ولاة الأمر وأهل العلم ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم. وليس هذا القول بأقل ضرراً في توهين السلطان وتهجين الطاعة من القول الذي قبله، لأنه ينتهي إلى الفظيع المتفاحش من الأمر في استحلال معصية الله جهاراً صراحاً

وقال أهل الفضل والصواب: قد أصاب الذين قالوا. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولم يصيبوا في تعطيلهم طاعة الأئمة وتسخيفهم إياها، وأصاب الذين أقروا بطاعة الأئمة لما حققوا منها، ولم يصيبوا فيما أبهموا من ذلك في الأمور كلها. . فأما إقرارنا فإنه لا يطاع الإمام في معصية الله فإن ذلك في عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطاناً. ولو أن الإمام نهى عن الصلاة والصيام والحج أو منع الحدود وأباح ما حرم الله لم يكن له في ذلك أمر .

فأما إثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره فإن ذلك في الرأي والتدبير والأمر الذي جعل الله أزمته، وعُراه بأيدي الأئمة ليس لأحد فيه أمر ولا طاعة من الغزو والقفول والجمع والقسم والاستعمال والترك والحكم بالرأي فيما لم يكن فيه أثر. . وإمضاء الحدود والأحكام على الكتاب والسنة ومحاربة العدو ومخادعته، والأخذ للمسلمين والإعطاء عليهم. وهذه الأمور وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام ومن عصى الإمام فيها أو خذله فقد أهلك نفسه .

وليس يفترق هذان الأمران إلا ببرهان من الله عز وجل عظيم، وذلك أن الله جعل قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلتين: الدين والعقل، ولم تكن عقولهم - وإن كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها - بالغة معرفة الهدى ولا مبلغة أهلها رضوان الله، إلا ما أكمل لهم من النعمة بالدين الذي شرع لهم، وشرح به صدر من أراد هداه منهم ثم لو أن الدين جاء من الله لم يغادر حرفاً من الأحكام والرأي والأمر وجميع ما هو وارد على الناس وجار فيهم مذ بعث الله رسوله ﷺ إلى يوم يلقونه إلا جاء فيه بعزيمة، لكانوا قد كلفوا غير وسعهم فضيق عليهم في دينهم وآتاهم ما لم تسع أسماعهم لاستماعه ولا قلوبهم لفهمه ولحارت عقولهم وألبابهم التي أمتن الله بها عليهم، ولكانت لغواً لا يحتاجون إليها في شيء ولا يُعملونها إلا في أمر قد آتاهم به تنزيل ولكن الله منَّ عليهم بدينهم الذي لم يكن يسعه رأيهم كما قال عباد الله المتقون: وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

ثم جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأي وجعل الرأي إلى ولاية الأمر ليس للناس في ذلك الأمر شيء إلا الإشارة عند المشورة والإجابة عند الدعوة والنصيحة بظهر الغيب. ولا يستحق الوالي هذه الطاعة إلا بإقامة العزائم والسنن مما هو في معنى ذلك. ثم ليس من وجوه القول وجه يلتمس فيه ملتمس إثبات فضل أهل بيت أمير المؤمنين على أهل بيت (من سواه) وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى ذكره إلا وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف مما هو أبلغ مما يغلو فيه الغالون فإن الحجة ثابتة والأمر واضح بحمد الله ونعمته .

ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولي أحداً منهم شيئاً من الخراج، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة. ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم لأنهم أهل دالة ودعوى بلاء. وإذا جلبوا الدراهم والدنانير اجتروا عليهما، وإذا وقعوا في الخيانة صار كل أمرهم مدخولاً ونصيحتهم وطاعتهم فإن حيل بينهم وبين وضعه أخرجتهم الحمية مع أن

ولاية الخراج داعية إلى ذلة وعقوبة وهوان . وإنما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللفظ .

ومما ينظر فيه من أمرهم أن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم ، فلو التمسوا وصنعوا كانوا عدة وقوة وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة .

ومن ذلك تعهد أدبهم في تعلم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه .

ولا يزال يطلع من أمير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقتته للإتراف والإسراف وأهلهم ، محبته القصد والتواضع ومن أخذ بهما حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عنم يكرهه بخلاً أن ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالة بالنساء والمراتب ، فإن أمير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهة المعروف والمؤاساة . ومن ذلك أمر أرزاقهم أن يوقت لهم أمير المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بداله ، وأن يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة ديوانهم وجمل اسمائهم ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الاستبطاء والشكوى .

فإن الكمة الواحدة تخرج من أحدهم في ذلك أهل أن تستعظم وإن باب ذلك جدير أن يحسم ، مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم وإن هذا الخراج وإن يكن رائجاً لغلاء السعر فإنه لا بد من الكساد والكسر ، وإن لكل شيء درة وغزارة ، وإنما درور خراج العراق بارتفاع الأسعار ، وإنما يحتاج الجند اليوم إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر . فمن حسن التقدير إن شاء الله أن لا يدخل على الأرض ضرر ، ولا بيت المال نقصان من قبل الرحمن إلا دخل ذلك عليهم في أرزاقهم . . . مع أنه ليس عليهم في ذلك نقصان لأنهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير . . .

فأقول لو أن أمير المؤمنين خلى شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً ويجعل بعضه علفاً وأعطوه بأعيانه فإن قومت لهم قيمة فخرج ما خرج على حسابه قيمة الطعام والعلف لم يكن في أرزاقهم لذلك نقصان عاجل يستكرونه وكان ذلك مدرجة لثباتهم في نزالهم لحمل العدو وإنصاف بيت المال من أنفسهم فيما يستبطون... مع أنه إن زاد السعر أخذوا بحصتهم من فضل ذلك .

ومن جماع الأمر وقوامه بإذن الله أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف، وأن يحتقر في ذلك النفقة، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح، فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركة من الاستعانة فيه بغير الثقة، فتصير مغبته للجهالة والكذب، ومما يذكر به أمير المؤمنين أمتع الله به أمر هذين المصريين... فإنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته ومعينيه مع اختلاطهم بأهل خراسان... وإنهم منهم عامتهم... وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم... صدقهم وربطتهم... وما أراد من أمورهم معرفته استعان أهل خراسان على ذلك من أمرهم... مع الذي في ذلك من خيال الأمر واختلاط الناس بالناس العرب بالعجم، وأهل خراسان بالمصريين .

إن في أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه... فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفي بهم في جميع ما يلتمس له بأهل الطبقة من الناس رجونا أن يكون ذلك فيهم موجوداً. وقد أزرى بأهل العراق في تلك الطبقة، إن ولاية العراق فيما مضى كانوا أشرار الولاية وإن أعوانهم من أهل أمصارهم كانوا كذلك... فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنحوه عليهم، ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا

بالأقرب فالأقرب مما دنا منهم أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيث ما وقعوا من صحابة خليفة أو ولاية عمل، أو موضع أمانة أو موطن جهاد، وكان من رأي أهل الفضل أن يقصدوا حيث يلتمسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا وينتفع بهم، وإن كان صاحب السلطان ممن لم يعرف الناس قبل أن يليهم ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم، ويستثبت في استقصائهم زالت الأمور عن مراكزها ونزلت الرجال عن منازلها لأن الناس لا يلقونه إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام غير أن أهل هذا النقص هم أشد تصنعاً وأحلى السنة وأرفق تلطفاً للوزراء أو تمحلاً لأن يثنى عليهم من وراء وراء .

فإذا أثر الوالي أن يستخلص رجلاً واحداً ممن ليس لذلك أهلاً دعا إلى نفسه جميع ذلك النوع وطمعوا فيه واجترأوا عليه وتواردوه وتزاحموا على ما عنده . . وإذا رأى ذلك أهل الفضل كفوا عنه وباعدوا منه وكرهوا أن يروا في غير موضعهم أو يزاحموا غير نظرائهم .

ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال، فيستحل الدم والفروج بالحيرة، وهما يحرمان بالكوفة ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ المسلمين في دمائهم وحرمة يقضي به قضاة جائر أمرهم وحكمهم مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجج بهم العجب بما في أيديهم والاستخفاف ممن سواهم فأقحمهم ذلك في الأمور التي يغضب لها من سمعها من ذوي الألباب .

أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه

سنة، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله ﷺ أو أئمة الهدى من بعده. وإذا قيل له: أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون؟ قالوا: فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء... وإنما يأخذ بالرأي به الإعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافق عليه أحد من المسلمين ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه وهو مقر أنه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة.

فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويعزم له عليه، وينهى عن القضاء بخلافه وكتب بذلك كتاباً جامعاً لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً، ورجونا أن يكون اجتماع السير قرينة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من إمام آخر آخر الدهر إن شاء الله.

فأما اختلاف الأحكام: إما شيء ماثور عن السلف غير مجمع عليه يدبره قوم على وجه، ويدبره آخرون على وجه آخر فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق وأشبه الأمرين بالعدل. وإما رأي أجراه أهله على القياس فاختلف وانتشر بغلط في أصل المقايسة وابتدأ أمر على غير مثاله. وإما لطول ملازمته القياس فإن من أراد أن يلزم القياس ولا يفارقه أبداً في أمر الدين والحكم وقع في الورطات ومضى على الشبهات وغمض على القبيح الذي يعرفه ويبصره فأبى أن يتركه كراهة ترك القياس.

وإنما القياس دليل يستدل به على المحاسن، فإذا كان ما يقود إليه حسناً معروفاً أخذ به، وإذا قاد إلى القبيح المستنكر ترك لأن المبتغي ليس غير القياس يبغى ولكن محاسن الأمور ومعروفها وما ألحق الحق بأهله. ولو أن شيئاً مستقيماً على الناس ومنقاداً حيث قيد لكان الصدق هو ذلك... ولا يعتبر بالمقاييس فإنه لو أراد أن يقوده الصدق لم ينقد له.

وذلك أن رجلاً لو قال: أتأمرني أن أصدق فلا أكذب كذبة أبداً؟
لكان جوابه أن تقول نعم، ثم لو التمس منه قول ذلك فقال: أتصدق في كذا
وكذا؟ حتى يبلغ به أن يقول الصدق في رجل هارب استدلني عليه طالب
ليظلمه فيقتله لكسر عليه قياسه وكان الرأي له أن يترك ذلك وينصرف إلى
المجمع عليه المعروف المستحسن .

ومما يذكر به أمير المؤمنين أهل الشام . . . فإنهم أشد الناس مؤونة
وأخوفهم عداوة وبائقة . وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع
منهم في الاستجماع على المودة فمن الرأي في أمرهم أن يختص أمير
المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً، أو يعرف منه نصيحة أو
وفاء . . . فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى
ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم فقد رأينا أشباه أولئك من أهل العراق
الذين استدخلهم أهل الشام ولكن أخذ في أمر أهل الشام على
القصاص . . . وحرّموا كما كانوا يحرمون الناس وجعل فيهم إلى غيرهم
كما كان فيء غيرهم إليهم، ونحوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما
كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع . ومنعت
منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي
يصنعه أمراؤهم للعامة . فإن رغب أمير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما
أشبهها فلم يعارض ما عاب ولم يمثل ما سخط كان العدل أن يقتصر بهم
على فيهم فيجعل ما خرج من كور الشام فضلاً عن النفقات، وما خرج من
مصر فضلاً عن حقوق أهل المدينة ومكة . . . بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان
مقاتلتهم ديوانهم، أو يزيد أو ينقص غير أنه يأخذ أهل القوة والغناء بخفة
المؤونة والعفة في الطاعة ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة
معلومة، ويكون الديوان كالغرض المستأنف، ويأمر لكل جند من أجناد
الشام بعدة من العيالة يقترعون عليها ويسوي بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه
فيمن مات من عيالتهم ولا يضيع أحد من المسلمين .

وأما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم فلعمري لئن أخذوا بالحق ولم يؤخذوا به أنهم لخلقاء ألا تكون لهم نزوات ونزقات ولكننا على مثل اليقين بحمد الله من أنهم لم يشغلوا بذلك إلا أنفسهم . . . وإن الدائرة لأمير المؤمنين عليهم آخر الدهر إن شاء الله . فإنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر أصحابه فإن من أولى أمر الوالي بالثبوت والتخير أمر أصحابه الذين هم فناؤه وزينة مجلسه وألسنة رعيته والأعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته فإن أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً قبيحاً مفرط القبح مفسداً للحسب والأدب والسياسة، داعياً للأشرار طارداً للأخيار فصارت صحبة الخليل أمراً سخيلاً، فطمع فيه الأوغاد وتزهده فيه من كان يرغب فيما دونه . . حتى إذا التقينا أبا العباس رحمة الله عليه، وكنت في ناس من صلحاء أهل البصرة ووجوههم فكنت في عصابة منهم أبوا أن يأتوه . . فمنهم من تغيب فلم يقدم، ومنهم من هرب بعد قدومه اختياراً للمعصية على سوء الموضع، لا يعتذرون في ذلك إلا بضياح المكتب والدعوة والمدخل يقولون هذه منزلة كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر أمراء ولاتنا اليوم، ولكنها قد كانت مكرمة وحسباً إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فأما اليوم ونحن نرى فلاناً وفلاناً ينفر بأسمائهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث . . فمن يرغب فيما هاهنا يا أمير المؤمنين أكرمك الله إلا أن يصير العدل كله إلى تقوى الله عز وجل وإنزال الأمور منازلها فإن الأول قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وقال:

هم سودوا نصراً وكل قبيلة يبين عن أحلامها من يسودها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم . أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط وأعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف . . . ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعاً يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء . . إلا أنه مكنه من الأمر صاغ ، فانتهى إلى حيث أحب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار . . . وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ويجري عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويُخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ولا فقه في دين ، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية شائعة قديمة ، ولا غناء حديث ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ولا عُدّة يستعد بها وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبره أن الدين لا يقوم إلا به حتى كتب كيف شاء ودخل حيث شاء .

وأما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خصت قريشاً وعمت كثيراً من الناس وأدخلت على الأحساب والمروءات محنة شديدة وضياًعاً كثيراً . . فإن في إذن الخليفة في المدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة . . . وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكماً عظيماً على الناس في أنسابهم وأخطارهم وبلاء أهل البلاء منهم . . . وليس ذلك كخواص المعروف ولطيف المنازل أو الأعمال التي يختص بها المولى من أحب ، ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضي فيه للماضين من أهل السوابق والباقيين من أهل المآثر وأهل البلاء والغناء بالعدل أو بما يخال فيه عليهم فإن أحق المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ما كان ضره عائباً . وكان للسلطان شائناً ثم لم يكن في رفعه مؤونة ولا شغب ولا توغير لصدور عامة ولا للقسوة والإضرار سبب .

ولصحابة أمير المؤمنين أكرمه الله مزية وفضل ، وهي مكرمة سنية

حرية أن تكون شرفاً لأهلها وحسباً لأعقابهم وحقيقة أن تصان وتحظر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال، أو رجل له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء، أو رجل يكون شرفه ورأيه وعمله أهلاً لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته، أو صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند إلى الصحابة، أو رجل فقيه مصلح يوضع بين أظهر الناس ليتفنعوا بصلاحه وفقهه، أو رجل شريف لا يفسد نفسه، أو غيرها فأمّا من يتوسل بالشفاعات فإنه يكتفي أو يكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأياً ولا يزيل أمراً عن مرتبته، ثم تكون تلك الصحابة المخلصة على منازلها ومدخلها لا يكون للكاتب فيها أمر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم اذن ولا تأخيره .

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر فتيان أهل بيته وبني أبيه وبني علي وبني العباس فإن فيهم رجالاً لو متعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى .

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر الأرض والخراج فإن أجسم ذلك وأعظمه خطراً وأشدّه مؤونة وأقربه من الضياع ما بين سهله وجبله ليس لها تفسير على الرساتيق والقرى فليس للعمال أمر يتتهون إليه ولا يحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأفقون لها في العمارة ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم .

فسيرة العمال فيهم إحدى اثنتين: إما رجل أخذ بالحزق والعنف حيث وجد، وتتبع الرجال والرساتيق بالمغلاة ممن وجد، وأما رجل صاحب مساحة، يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيعمر من عمّر ويسلم من أخرج، مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مراراً فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض، فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين ووظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك، وإثبات الأصول حتى لا

يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال. وهذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر. وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأي قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به، ولم نره من أحد قبله من تخيير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم.

ومما يذكر به أمير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك أن يكون من رأي أمير المؤمنين إذا سخت نفسه عن أموالها من الصدقات وغيرها أن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق الله أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأي الذي هو بإذن الله حمى ونظام لهذه الأمور كلها في الأمصار والأجناد والثغور والكور.

إن بالناس من الاستجراح والفساد ما قد علم أمير المؤمنين وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو اشد من حاجتهم إلى أقاتهم التي يعيشون بها. وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء، إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويبصرون الخطأ ويعظون عن الجهل، ويمنعون عن البدع ويحذرون الفتن ويتفقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأي والرفق والنصح يرفعون ما أعياهم إلى ما يرجون قوته عليهم مأمونين على سير ذلك وتحصينه، بصراء بالرأي حين يبدو أو أطباء باستئصاله قبل أن يتمكن. وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة إذا صنعوا لذلك وتلطف لهم وأعينوا على رأيهم وقووا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويسطهم له.

وخطر هذا جسيم في أمرين، أحدهما برجوع أهل الفساد إلى الصلاح وأهل الفرقة إلى الألفة، والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك في أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه، ولا يهمس هامس إلا واذن شفيقة

تصيخ نحوه. وإذا كان ذلك لم يقدر أهل الفساد على تريبص الأمور وتلقيحها، وإذا لم تلقح كان نتائجها بإذن الله مأموناً .

وقد علمنا علماً لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها. وإن خاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها. وذلك لأن عدد الناس في ضعفهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي أنفسهم ولا يحملون العلم ولا يتقدمون في الأمور، فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون إليهم ويسمعون منهم اهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليها بجد ونصح ومثابرة، وقوة جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم وزيادة فيما أنعم الله به عليهم وبلاغاً إلى الخير كله. وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به، كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك .

فبالإمام يصلح الله أمرهم ويكبت أهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم وكلمتهم، ويبين لهم عند العامة منزلتهم ويجعل لهم الحجة والأيد في المقال على من تكسب عن سبيل حقهم. فلما رأينا هذه الأمور ينتظم بعضها ببعض، وعرفنا من أمر أمير المؤمنين ما بمثله جمع الله خواص المسلمين على الرغبة في حسن المعاونة والمؤازرة والسعي في صلاح عامتهم طمعنا لهم في ذلك يا أمير المؤمنين وطمعنا فيه لعامتهم ورجونا أن لا يعمل بهذا الأمر أحد إلا رزقه الله فيه والقوة عليه. فإن الأمر إذا أعان على نفسه جعل للقاتل مقالاً وهياً للساعي نجاحاً. ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو رب الخلق وولي الأمر يقضي في أمورهم ويدبر أمره بقدره عزيزة وعلم سابق فنسأله أن يعزم لأمر المؤمنين على المرشد ويحصنه بالحفظ والثبات والسلام والله الحمد والشكر .

الدرة اليتيمة

تعليق

اليتيمة لابن المقفع

وقعت شبهة لبعض أهل العلم فيما إذا كانت هذه الرسالة المنشورة هي اليتيمة بعينها أم هي يتيمة ثانية لابن المقفع ويزول هذا التناقض إذا لوحظ ما قاله إمام المتكلمين أبو بكر الباقلاني البصري المتوفى سنة ثلاث وأربعمائة فإنه ذكر في كتابه « إعجاز القرآن » . . أن الدرة اليتيمة كتابان أحدهما يتضمن حكماً منقولة ، والآخر في شيء من الديانات . غير أنه يبقى هناك إشكال في أنه ليس في إحدى الرسالتين ما يتعلق بالديانات كما قال الباقلاني .

وإذا رضينا بالظن ، فنقول : إن هذا الاسم وضعه أناس لبعض رسائل ابن المقفع ومن هنا نشأ الاشتباه فعدها الناظرون .

ويبعد أن يقال أن ابن المقفع سمى الرسالتين معاً باسم واحد لمخالفته في الظاهر لمقتضى الحكمة ، ولو قلنا أنه سمى أحد الرسائل فيبعد مع قرب عصر الناقلين عنه وقوع الأشتباه في المسمى مع شدة عنايتهم بجميع ما قال .

أما الرسالة الثانية فمنقولة عن كتاب المثنور والمنظوم المحفوظ في دار الكتب المصرية لمؤلفه أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور من أبناء خراسان ، ولد كما جاء في فهرستها سنة ٢٠٤ وتوفي سنة ٢٨٠ ، وهاك ما

أورده ولم نحذف منه إلا بعض جمل أشرنا إليها بحرف (ف) لأنها محرفة جداً ، لم نهتد إلى وجه الصواب فيها .

قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر: ومن الرسائل المفردات اللواتي لانظير لها ولا أشباه وهي أركان البلاغة ومنها استقى البلغاء . لأنها نهاية في المختار من الكلام ، وحسن التأليف ، والنظام الرسالة التي لأبن المقفع وهي اليتيمة . . فإن الناس جميعاً مجمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها . . . ومن فصولها قوله في صدرها - ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرواة .

بسم الله الرحمن الرحيم

أصبح الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولين منقوصين ، فقائلهم باغ وسامعهم عيَّاب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعظهم غير سليم من الهزاء والاستخفاف ، ومستشيرهم غير موطن نفسه على إنفاذ ما يشار به عليه ، ومصطبر للحق مما يسمع ، ومستشارهم غير مأمون على الغش والحسد وأن يكون مهتاكاً للستر مشيعاً للفاحشة ، مؤثراً للهوى ، والأمين منهم غير متحفّظ من ائتمان الخونة ، والصدوق غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورع من تفريط الفجرة يتقارضون الثناء ، ويترقبون الدول ، ويعييون بالهمز ، يكاد أحزمهم رأياً يلفته عن رأيه أدنى الرضا ، وأدنى السخط ، ويكاد يكون أمتهم عوداً أن تسخره الكلمة ، وتنكره اللحظة ، وقد ابتليت أن أكون قائلاً ، وابتليت أن أن تكونوا سامعين ، ولا خير في القول إلا من انتفع به ، ولا ينتفع إلا بالصدق ، ولا الصدق إلا مع الرأي ، ولا رأي إلا في موضعه ، وعند الحاجة إليه فإن خير القائلين من لم يكن الباطل غايته ، ثم لزم القصد والصواب ، وخير السامعين من لم يكن ذلك منه سمعة ولا رياء ، ولم يتخذ ما يسمع عوناً على دفع الهدى ولا بلغة إلى حاجة دنيا فإن اجتمع للقائل والسامع أن يرزق القائل من الناس مقه وقبولاً على ما يقوله ، ويرزق السامع اتعاضاً بما يسمع في أمر دنياه ، وقد صلحت نيتهما في غير ذلك فعسى ذلك أن يكون من الخير الذي يبلغه الله عباده ويعجل لهم من حسنة الدنيا ما لا يحرمهم من حسنة الآخرة ، كما أن المريد بكلامه أن يعجب الناس قد يجتمع عليه حرمان ما طلب مع سوء النية وحمل الوزر ،

وقد وافقتم من مسارعة فيما سألتموني طمعاً في أن ينفع الله بذلك من
يشاء ، فإنه من يشاء يقع .

أما سؤالكم عن الزمان فإن الزمان للناس . والناس رجلان : وال
ومولى عليه . والأزمة أربعة على اختلاف جالات الناس ، فخير الأزمنة ما
اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية ، فكان الامام مؤدياً إلى الرعية حقهم في
الرد عنهم والغيظ على عدوهم والجهاد من وراء بيضتهم والاختيار
لحكامهم ، وتولية صلحائهم والتوسعة عليهم في معاشهم ، وإفاضة الأمن
فيهم ، والمتابعة في الخلق لهم ، والعدل في القسمة بينهم والتقويم
لأودهم ، والأخذ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم ، وكانت الرعية مؤدية إلى
الامام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في أمره والصبر
عند مكروه طاعته ، والمعونة له على أنفسهم والشدة على من أحلَّ بحقه
وخالف أمره غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم ولا لابسين عليه
أحداً ، فإذا اجتمع ذلك في الامام والرعية ، تمَّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله
تم الصالحات ، ثم إن الزمان الذي يليه أن يصلح الإمام نفسه ويفسد
الناس ، ولا قوة بالإمام مع خذلان الرعية ومخالفتهم وزهدهم في صلاح
أنفسهم ، على أن يبلغ ذات نفسه في صلاحهم ، وذلك أعظم ما تكون
نعمة الله على الوالي وحجة الله على الرعية بواليتهم ، فبالحري أن يؤخذوا
بأعمالهم وما أخلقهم أن لا تصيبهم فتنة أو عذاب أليم .

والزمان الثالث صلاح الناس وفساد الوالي وهذا دون الذي قبله فإن
لولاة الناس يداً في الخير والشر ومكاناً ليس لأحد ، وقد عرفناه فيما يعتبر به
أن ألف رجل كلهم مفسد وأميرهم مصلح أقل فساداً من ألف رجل كلهم مصلح
 وأميرهم مفسد . والوالي أن يصلح أدبه الرعية أقرب من الرعية إلى أن
يصلح الله بهم الوالي . وذلك لأنهم لا يستطيعون معاتبته وتقويمه ، مع
استطالته بالسلطان ، والحمية التي تعلوه .

وشر الزمان ما اجتمع فيه فساد الوالي والرعية ..

فقولني في هذا الزمان ، أنه إلا يكن خير الأزمان ، فليس على واليكم ذنب ، وإلا يكن شر الأزمان ، فليس لكم حمد . ذلك غير أنا بحمد الله ، قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاح بصلاح إمامنا ولا نخاف عليه الفساد بفسادنا ، وقد رأينا حظه من الله عز وجل ، في الثبوت والعصمة ، فلم يبرح الله يزيد خيراً ، ويزيد به رعيته مذ ولاه ، فعندنا من هذا وثائق من عبر وبيانات ، ونحتسب من الله عز وجل ، أن لا يزال أمامنا يسارع في مرضاة ربه بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلة المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له قلوبهم ، ويفتح له أسماعهم وأبصارهم فيجمع إلفتهم ويقوم أودهم ، ويلزمهم مرشد أمورهم وتتم نعمة الله على أمير المؤمنين ، بأن يصلح له وعلى يديه ، فيكونوا رعية خير راع ، ويكون راعي خير رعية إن شاء الله وبه الثقة .

والذي يحمد من أمير المؤمنين ، أنا ذاكر ما تيسر منه . . . وقلما نلقى من أهل العقل والمعايينة منكرًا لنعمة الله ، بأمر المؤمنين على المسلمين . . . ومن أشد جهلاً وأقطع عذراً ممن لم يعرف النعمة ولم يقبل العافية ، نعوذ بالله أن نكون من الذين لا يعقلون ، فتفهموا ما أنا ذاكر لكم ، وتدبروه بالحق والعدل ، فان المرء ناظر بإحدى عيون ثلاث ، وهما الغاشتان والصادقة وهي التي لا تكاد توجد ، عين مودة تريه القبيح حسناً ، وعين شنان تريه الحسن قبيحاً ، وعين عدل تريه تريه حسنها حسناً ، وقبيحها قبيحاً .

فتفكروا فيما جمع الله لأمر المؤمنين في معدنه وفي سيرته . . . وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة ، بذلك فيما عسى القائل أن يبتغي فيه المغمز والمقال فلعمري إن الشيطان من أهواء الناس وألستهم في الأمر المصيب . . . وإن له لمستراحاً حين يستوفي أمنيته ، ويصدق عليهم ظنه ، ويوحى إليهم بمكايده ، فيجعل الله كيده ضعيفاً ، وحزبه مغلوباً ، وجعله وإياهم نصيباً لجهنم من أجزائه المقسومة ، لأبوابها وحطبتها ووقودها وحصبها ، ليعدل لها فمن كان سائلاً عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فإن

أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة وأولاها بالفضل ، حق رسول الله ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهما وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ثم هو باعته يوم القيامة مقاماً محموداً ، شرع الله به دينه وأتم به نوره على عهده ومحق به رؤوس الضلالة وجبايرة الكفر وخوّل الشفاعة وجعله في الرفيق الأعلى ﷺ .

آثار أخرى لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة والآلاء الظاهرة ، الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ، ولا يدفع قضاؤه ، ولا أمره وإنما قوله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ، ودبر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه ، بقدرة منه عليها ، لا معقب لحكمه ، ولا شريك له في شيء من الأمور ، بخلق ما يشاء ، ويختار ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم ، سبحان الله وتعالى عما يشكرون .

والحمد لله الذي جعل ، صفوما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه : ولمن أراد كرامته ، من عباده ، فقام به ملائكته المقربون ، يعظمون جلاله ، ويقدسون أسمائه ، ويذكرون آلاءه لا يستحسرون عن عبادته ، ولا يستكثرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه يطيعون أمره ، ويذبون عن محارمه ، ويصدقون بوعده ، ويوفون بعهده ، ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوه : وكان لهم عند ما وعدهم ، من تصديقه قولهم وإفلاجه حجتهم ، وإعرازه دينهم وإظهاره حقهم ، وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسهم وانتقامه منهم ، وغضبه عليهم ، مضى على ذلك أمره ، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى وهو ممضيه ومنفذه ، على ذلك فيما بقي لقيم نوره ، ولو كره الكافرون ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .

والحمد لله الذي لا يقضي في الأمور ، ولا يدبرها غيره ، ابتدأها

بعمله ومضاها بقدرته ، وهو وليها ومنتهاها ، وولي الخيرة فيها والإمضاء لما أحب أن يمضي منها ، يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون .

والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ، ذي المن والطول والقدرة والحوّل الذي لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته ، ولا راد لأمره في ذلك ، وقضائه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . والحمد لله الميثب بحمده ، ومنه ابتداءؤه والمنعم بشكره ، وعليه جزاؤه والمثني بالايّمان وهو عطاؤه .

وكتب ابن المقفع إلى صديق ولدت له جارية :

بارك الله لكم في الإبنة المستفادة وجعلها لكم زيناً وأجرى لكم بها خيراً فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات . وربّ غلام ساء أهله بعد مسرتهم ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم .

تعزية لابن المقفع عن ولد :

أعظم الله على المصيبة أجرك وأحسن على جليل الرزء ثوابك وعجل لك الخلف فيه وذخر لك الثواب عليه .

وله :

إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه . فإنما أعظم المصيتين عليك وأنكى المرزيتين لك ، أخلف الله عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب .

وتعزية له عن بنت :
لا ينقص الله عددك ولا ينزع عنك نعمته التي ألبسك وأحسن العوض
لك وجعل لك خيراً مما رزأك به وما أعطاك خيراً مما قبض منك .

وله تعزية عن ابنة :
جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك بما رزئته وعوضاً من المصيبة
به ، ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها . فما أقل كثير الدنيا في قليل
الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .
وتعزية له أيضاً .

أعظم الله أجرك في كل مصيبة وأوزعك الشكر على كل نعمة .
اعرف لله حقه ، واعتصم بما أمر به من الصبر تظفر بما وعد من عظيم
الأجر .

وتعزية لابن المقفع :

أما بعد فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبرهما ويقضي فيهما ما
يشاء لا راداً لقضائه ولا معقب لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ثم كتب
عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع أحد من خلقه في خلد الدنيا ، ووقت
لكل شيء ميقات أجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون فليس أحد من
خلقته وهو مستيقن بالموت لا يرجو بأن يخلصه من ذلك أحد . نسأل الله
خيراً المنقلب . وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي
يحتسب ثوابها من ربنا الذي إليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا فعليك بتقوى
الله والصبر وحسن الظن بالله فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة
وجعلهم من المهتدين .

ولابن المقفع في السلامة :

أما بعد فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك ، وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة ، نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود ، ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ، ما به مزيدها وتأدية حقها . وسألت ، أن أكتب إليك بخبرنا ، ونحن على حال ، لو أطنبت في ذكرها ، لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة ، ولا اعتراف لكنه الحق ، فنرغب إلى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة ، تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ، ولا مدخولاً ، وأن يرزقنا مع كل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها ، والعمل في إداء حقها ، إنه ولي قدير .

وله كتاب للثقفي في السلامة :

أما بعد ، فإن مما نمق الله به مناقبك الكريمة المحمودة ، الغانية عن القول والوصف ، أنك موضع المؤونات عن إخوانك ، حمّال عنهم أثقال الأمور ، مما وضعت عنه المؤونة ، إرتفاعك عن الأمور التي يطأطأ إليها الكلام على ألسنة الناس ، إذ أباحوه وبهرجوه وضيعوا القول ونسوا القصد فيه ، وأخذوا به في كل فن ، وأصفوا بصفوته غير أهلها ، فيما لا ينبغي لهم من التشبيه والتوفير والتفضيل . كان من خبري بعدك ، إني قدمت بلد كذا ، فتهاياً لي بعض ما شخصت له ، والمحمود على ذلك الله عز وجل ، وأنا على أن يأتيني خبرك ، محتاج فأما جملة خبري في فراقك ، فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها .

وله جواب في السلامة :

أما بعد ، فقد أتاني كتاب الأمير ، رجعة كتابي إليه ، فكان فيه تصديق الظن ، وتشبيت الرأي ، ودرك البغية ، والله محمود فامتع الله بالأمر

وأمتعته بصالح ما آتاه ، وزاده من الخيرات مستعمراً له فيه مستعملاً بطاعته ،
التي بها يفوز الفائزون ، والذي رزق الله من الأمير ، فهو عندي عظيم
نفيس ، وكل الذي قبلي عن مكافأته فمقصر إلا أنه ليس في النية تقصير ولا
بلوغ لشيء من الأمور ، إلا بتوفيق الله عز وجل ، ومعونته والسلام .

وله في السلامة جواب أيضاً :

أما بعد ، فلقد أتاني كتابك فيما أخبرني عنه من صلاحك وصلاح ما
قبلك . . وفي الذي ذكرت ، نعمة مجللة عظيمة ، نحمد عليها الله ،
المنعم بها ، المحمود . . ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به
مزيدها وتأدية حقها . . نحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو
أطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة ولا اعتراف^(١) لكنه الحق
فترغب إلى الذي يزيد في نعمه علينا تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا
مدخولاً وأن يرزقنا مع كل نعمة كفاء^(٢) من المعرفة بفضله فيها والعمل في
إدائها حقها .

وفي السلامة أيضاً (ولم يقل أنها له) .

كتبت إليك وأمير المؤمنين وما يأتيه من لين الطاعة واتساق الكلمة
عمت في الداني والقاصي من بلدانه وحواشي سلطانه على ما يحمد الله

(١) في النسخة الثانية ولكنه الحق فترغب إلى الذي تزداد نعمه علينا كل يوم وليلة تظاهراً .
(٢) في الصورة الثانية : كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في الأداء إليه حقها أنه ولي
قدير .

عليه فإن نعمة الله على أمير المؤمنين تجري على أذلالها وتنقاد في أسهل سبيلها .

قال المؤلف : ومن مختار ما كتب به من باب الشكر ولم أعرف إن كانت له أو لغيره . . . ومع هذا فهذه هي الرسالة :

أما بعد ، فما أعجز تعدادي عما أتعرف منك وأتعرفه بك دانياً ونائياً ، وما أدري ما ابتدأتني به من معروفك أرهن لشكري أما ما ثنيت به من برك لبدئك بعنايتك على نأيك ، أم ما ألبستني جماله على لسانك بإطرائك وثنائك أم ما عقدته لي عند غيرك بتلطفك وتأييك ، غير أنني أعلم أنك لم تقصر في استحقاق شكر عليّ ، وأرجو ألا أكون مقصراً في معرفة ذلك منك ، ومن لم يقصر علمه ولم يؤت في شكره إلا من عظم المعروف عنده مع جهده فقد دخل بالعلم والجهد في الشاكرين .

غير أن الذي آنستني به من رfdك وتوطيدك قد زادني وحشة إليك وأن حفظ من حفظني فيك وإن لم يكن مقصراً قد جدد لي المعرفة بوثارة مكاني عندك ، ولقد بلغت أن أصلحت لي الأمور والرجال وأصلحتني إلى صلاحني لنفسك فليس كتابي هذا باستبطاء لأحد حتى يستبطئه ولا شكر حتى يكون البدء منك . . . ولكن روحت عن نفسي بذكرك وزيتها بشكرك وزكيتها بالاقرار بفضلك .

ولابن المقفع :

إن الناس لم يعدموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواص من الأخوان ، وإن يتواصلوا بالحقوق ويرغبوا إلى أهل المقامات ، ويتوسلوا إلى الأكفاء وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير وممن أعان عليه وبذل لأهل ثقته المصافين ، وإن بذل النفوس فيه وإعطاء الرغيب ليس منك بيبكر ولا طريف بل هو تليد أتلهه أولكم لأخركم وأورثه أكابركم أصاغركم ، ومن حاجتي

كذا وأنت أحق من طلبت إليه واستعنته على حوادث الدهر وأنزلت به أمري
لقرب نسبك وكريم حسبك ونباهتك وعلو منزلتك وجسيم طبائعك وعوام
أياديك إلى عشيرتك وغيرها ، فليكن من رأيك ما حملتك من حاجتي على
قدر ما قسم الله لك من فضله وما عودك من مننه ووسع غيري من نعمائك
وإحسانك .

ولابن المقفع أيضاً .

أما بعد فإن من قضى الحوائج لأخوانه ، واستوجب بذلك الشكر
عليهم فلنفسه عمل لا لهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو
زرع لا بد لزراعه من حصاده أو لعقبه من بعده . وكتبت إليك ولحالنا التي
نحن بها فيما نذكرك حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا
وتدخر به الأيادي قبلنا .

ولعبد الله بن المقفع إلى يحيى بن زياد (الحارثي) ابتداء في
المؤاخاة : أما بعد فإن أهل الفضل في اللب والوفاء في الود والكرم في
الخلق لهم من الثناء الحسن في الناس لسان صدق يشيد بفضلهم ، ويخبر
عن صحة ودهم وثقة مؤاخاتهم ، فيتخير إليهم رغبة الأخوان ويصطفي لهم
سلامة صدورهم ويجتبي لهم ثمرة قلوبهم فلا مثني أفضل تقریظاً ولا مخبر
أصدق أحدثه منه .

وقد لزمتم من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودة
نسبت إلى مزيتها في الفضل وجمل بها ثناؤك في الذكر ، وشهد لك بها
لسان الصدق فعرفت بمناقبها ووسمت بمحاسنها فأسرع إليك الأخوان
برغبتهم مستبقين ، يتدرون ودك ويصلون حبلك ابتدار أهل التنافس في

حظ رغب نصبت لهم غاية يجري إليها الطالبون ، ويفوز بها السابقون .
فمن أثبت الله عندك بموضع الحرز والثقة ، وملاً بك يده من أخي وفاء ووصلة
واستنام منك إلى شعب مأمون ، وعهد محفوظ ، وصار مغموراً بفضلك عليه ، في
الود يتعاطى من مكافأتك ، ما لا يستطيع ويطلب من أترك في ذلك غاية بلوغها
شديد .

فلو كنت لا تؤاخي من الأخوان إلا من كافأ بودك وبلغ من الغايات
حدك ما آخيت أحداً ولصرت من الأخوان صفرأً ولكن إخوانك يقرون لك
بالفضل وتقبل أنت ميسورهم من الود ولا تجشمهم كلف مكافأتك ولا بلوغ
فضلك فيما بينك وبينهم ، فإنما مثلك في ذلك ، ومثلهم كما قال الأول :
ومن ينازع سعيد الخير في حسب

ينزع طليحاً ويقصر قيده الصعد

ولم أرد بهذا الثناء عليك تزكيتك ليكون ذلك قرابة عندك وأخية لي
لديك ولكن تحريت فيما وصفت من ذلك الحق والصدق وتنكبت الإثم
والباطل فإن القليل من الصدق البريء من الكذب أفضل من كثير الصدق
المشوب بالباطل . ولقد وصفت من مناقبك ولمحاسن أمورك وإني لأخاف
الفتنة عليك ، حين تسمع بتزكية نفسك وذكرني ما ذكرت من فضلك لأن
المدح مفسدة للقلب مبعثة للعجب . ثم رجوت لك المنعة والعصمة لأنني
لم أذكر إلا حقاً والحق ينفي من اللبيب العجب وخيلاء الكبر ويحمله على
الاقتصاد والتواضع . وقد رأيت إذ كنت في الفضل والوفاء على ما وصفت
منك أن آخذ بنصيبي من ودك ، واصل وثيقة حبلي بحبلك فيجري بيننا من
الاحياء أواضر الأسباب التي بها يستحکم الود ويدوم العهد وعلمت أن تركي
ذلك غبن ، وإضاعتي إياه جهل ، لأن التارك للحظ داخل في الغبن ،
والعائد عن الرشد مرجف إلى الغي ، فأرغب من ودي فيما رغبت فيه من
ودك . . . فإني لم أدع شيئاً استتلي به منك الرغبة واجتر به منك المودة إلا

وقد اقتدت إليك ذريعتي ، واعملت نحوك مطيته لترى حرصي على مودتك
ورغبتني في مؤاخاتك والسلام .

جواب من يحيى بن زياد في صفة الإخاء :

أما بعد فإننا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة
وتقريبه لذي البعدة ومشاركته بين ذوي الأرحام في القرية ، لم نرض بمعرفة
عينه دون معرفة نسبه فتسبنا الإخاء فوجدناه في نسبه لا يستحق اسم الإخاء
إلا بالوفاء .

فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى الصبر فوجدناه محتوياً
على الكرم والنجدة والصدق والحياء والنجابة والزكاة وسائر ما لا يأتي عليه
العدد من المحامد ثم إنحدرنا فيما أضعدنا فيه من هذا النسب فعدنا إلى
الإخاء فوجدناه لا يقوم به إلا من هذه الخصال كلها أخلاقه .

ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخير له
المواضع في صواب التوزيع ، وأحكام التقدير وعلمنا أن الاحتباس به
أحسن من الندم بعد بذله واستوجب إذ كان جماع المحامد أن نتخير له
محايله التي كان يحمل عليها فكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء
على صنفين فصنف عذرونا بالتجسس للتخير إذ كان التخير من شأنهم ،
وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء وسرعة في الانتهاء فقدموا اللائمة
واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التروية ، واستحلوا عاجل المحبة ، ولهاوا
عن آجل الثقة فكانوا بذلك أهل لائمة ولم يجد المعذرون إلا الصبر على
تلك والاستعمال للرأي والاستعداد بالعذر عند المحاجة . وقد فهمت كتابك
إلي بالمودة واستحثائك إياي في الأخوة ، وما دنوت به من حرمة المحبة
فنازعت إليك نفسي بمثل الذي نازعت به إلي نفسك ، فواثبتني عادة
الاستعمال للتروية في الخبرة والتحيز للمغبة ، فجلت عن كتابك جولة غير

نافرة ثم راجعت مقاربتك . . فقلت ألقى إلي أسباب المودة قبل كشف
الغطاء بالخبرة ، فخشيت أن تعذر نفسك بالتقدم وتحدث الزهادة للتعسف
بالجهالة عند الخبرة فجلت عن هذا جولة كالجولة الأولى . . ثم عاودت
إسعافك وطاعة الشوق ومعصية التخيير . . ثم قلت ما حال من جعل الظن
دون اليقين والتقدم قبل الوثيقة . فلما كان الرأي لي خصماً تنكبت الوقوع
في خلافه . . فلم أجد إلا الإدبار عن إقبالك سبيلاً . . ولا مع ذلك في
طاعة الشوق حجة فتغيبت السبيل .

حكم لابن المقفع

إليك رسالة أخرى من كلام ابن المقفع محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، كتبها علي بن أحمد الحلبي سنة ٨٤٤ هـ وقال في أولها : إنها « كتاب الأدب » . . وذكر أنها كتبت برسم خزانة المقر الأشرف الكريم العالي الجمالي ناظر الخواص الشريفة بالممالك الإسلامية عظم الله شأنه وصانه عما شأنه .

قال عبد الله بن المقفع رحمه الله تعالى : عمل البر خير صاحب .
أحق ما صان الرجل أمر دينه . الألف للدنيا مغتر . من ألزم نفسه ذكر الآخرة اشتغل بالعمل . المغبون من طلب ثواب الآخرة في الدنيا . القلب أسرع تقلباً من الطرف . أحسن العفو ما كان عن عظيم الجرم . الإعتراف يؤدي إلى التوبة . الاصرار وعاء للذنوب . الجواد من بذل ما يضمن به . المتكلف لما لا يعنيه متعرض لما يكره . الفكر مفتاح القلب . الاستماع أسلم من القول . كمنون الحقود ككمنون النار في العود . أكرم الأخلاق التواضع . التواضع يورث المحبة . الكبر مقرون به سوء الظن . من عذب لسانه كثر إخوانه . من استبعد الآخرة ركن إلى الدنيا . سرور الدنيا كأحلام النائم . المغبون من طلب الدنيا بعمل الآخرة . المصيبة العظمى الرزية في الدين . سرور الدنيا مخوف المغيبة . ومن أهلك نفسه في مرضاة غيره عظمت جنايته . أنفع الكنوز العمل الصالح . أحق الناس بالبر أعملهم بالعاقبة . من أبصر العاقبة فأثرها أمن الندامة . الوالي من وزارته بمنزلة الرأس في أعضائه . من عرف ثمار الأعمال كان حقيقاً أن لا يغرس مرأ .
أهن دنيا بائدة تستكمل كرامة . أبقى الجروح مضضاً جرح الأثام . إئت

إلى الناس ما تحب أن يؤتى إليك . إستصغر المشقة إذا أدت إلى منفعة .
رأس البر الورع . أطلب الرحمة بالرحمة . خير الأعمال ما دبر بالتقوى
بالحزم يتم الظفر . من أحب التزكية تعرض للضحكة . الدنيا نوم نائم
والدولة حلم حالم . من سالم الناس ربح السلامة ومن تعدى عليهم كسب
الندامة ، بادر لعمل الخير إذا أمكنك . من حصّن سره أمن ضرر ذلك .
الدنيا قد تدرك بالجهل كما تدرك بالعقل . أحسن العمل الصالح ما كان
بصدق النية . خسر من انفق حياته في غير حقها . طوبى لمن ترك دنياه
لآخرته . من الحق على السلطان رفع ذي الفضيلة وأن يسد فاقته . لا
تحمد نفسك على ما تركت من الذنوب عجزاً . بالرسول يعرف قدر
المرسل . رفق الرسول يلين القلب الصعب . لا رأي لمن انفرد برأيه . من
ترك رأي ذي النصيحة اتباعاً لما يهوى استوخم العاقبة . المشاورة أوثق
ظهير . المستشار مؤتمن . اعتبر عقل الوالي باصابتة موضع أصحابه . من
صحب السلطان لم يزل مروعاً . كثرة أعوان السوء مضرة بالعمل .
(بالحزم يتم الظفر) باجالة الرأي تظفر بالحزم . استوجب الطاعة من ذوي
الرأي بالمودة . الصنيعة عند الكفور لا تثمر إلا مرأً . الملك الحازم من
استمسك برأي الحزمة من ذوي الرأي . لا صلاح لرعية واليها فاسد . خير
مستفاد الهدى . أكثر محادثة من يصدقك عن عيوبك . حلية الملوك
وزراؤهم . أكمل النصحاء من لم يكتم صاحبه نصيحة وإن استقلها ، فساد
الوالي أضر بالرعية من جذب الزمان . استعن بالصمت على إطفاء
الغضب . لا تجنبن على نفسك عداوة وبغضة اتكالا على ما عندك من
العمل والقوة والمنعة . كن في الحرص على معرفة عيبك بمنزلة عدوك في
معرفة ذلك . البصير من عرف ضره من نفعه . أكرم الأخلاق التواضع .
لكبر مقرون به سوء الظن . ربما تحولت البغضاء مودة والمودة بغضاء .
قرب الصالحين داع للصلاح . أحسن العفو ما كان عن عظيم الجرم .
المال عون ومعوان على المروءة . من عدم ماله أنكره أهله . خير الملوك
من يرى أنه لا يضبط ملكه إلا بالعدل بين رعيته واضيعهم الفظ المتهاون .
لا يغتر الأقوياء بفضل قوتهم على الضعفاء . الضعيف المحترس من

العداوة أقرب إلى السلامة من القوي المغتر . أخوف الأحقاد أحقاد
الملوك . أبصر الوزراء من بصر صاحبه عيبه بالأمثال . من قل كلامه حمد
عقله . من عرف قدره قل إفراطه . أحسن والدولة لك يحسن إليك والدولة
عليك . من حرم العقل رزىء دنياه وآخرته . آفة العقل العجب . الهم مرض
العقل . إحذر صولة اللئيم إذا شبع . أحسن المدح أصدقه . الإحسان
يقطع اللسان .

فهرس

٣	كليلة ودمنة
٢٤٥	الأدب الكبير
٢٨١	الأدب الصغير
٣٠٩	رسالته في الصحابة
٣٢٥	الدرة اليتمية
٣٣١	الآثار الأخرى
٣٤١	حكم لابن المقفع